تاريخ علم الأدب

عند الافرنج والعرب
وفيكتور هوكو

تأليف
روحي الخالدي

Bibliotheca Alexandrina
0092650

تقديم
الدكتور حسام الخطيب

تاريخ علم الأدب
عند الإفرنج والعرب
وفيكتور هوكو

سلسلة احياء التراث الثقافي الفلسطيني

تاريخ علم الأدب
عند الإفرنج والعرب
وفيكتور هوكو

وهو يشتمل على مقدمات تاريخية واجتماعية
في علم الأدب عند الافرنج وما يقابله من ذلك عند العرب
ابان تمدنهم إلى عصورهم الوسطى . وما اقتبسه الافرنج عنهم
من الأدب والشعر في نهضتهم الأخيرة وخصوصاً على يد
فيكتور هوكو . ويلحق بذلك ترجمة هذا الشاعر
الفيلسوف ووصف مناقبه ومواهبه ومؤلفاته
ومنظوماته وغير ذلك

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية
رقم التصنيف : ....
رقم التسجيل : ....

تأليف
روحي بك الخالدي
الوكيل الأول لمجلس المبعوثان ونائب القدس الشريف فيه

تقديم الدكتور حسام الخطيب

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية
طبع بمطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة ١٩١٢
الطبعة الرابعة دمشق ١٩٨٤

هذا الكتاب

يحتفل الشعب الفرنسي وتحتفل معه البشرية هذا العام بالذكرى المئوية لوفاة فيكتور هيجو الكاتب والشاعر الروائي الذي كتب من مواقع تقدمية عن قضية الإنسان ..

لقد كان هيجو فتى عصره ، وكان المناضل الشجاع عن القيم والعدالة الاجتماعية والتجديد ، وترجمت أعماله إلى لغات العالم ، وأصبحت كنزاً ثمينا من كنوز الأدب الإنساني .

ويسعد الأمانة العامة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين وهي تحتفل مع الأوساط الثقافية بإحياء الذكرى المئوية لهذا الكاتب العظيم ، أن تعيد إحياء هذا الكتاب النقدي الذي كتبه عام ١٩٠٤ ، الأديب والناقد الفلسطيني روحي الخالدي بعنوان (علم الأدب عند العرب والافرنج وفيكتور هيجو) والذي يعتبر أول دراسة من نوعها تكتب عن فيكتور هيجو باللغة العربية وتعقد مقارنة بين شعره والشعر الأندلسي .. وتتوج كاتبها كرائد من رواد الأدب المقارن في الوطن العربي .

إن الأمانة العامة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين إذ تعتز كل الاعتزاز بإعادة نشر وإحياء وتعميم هذا الكتاب القيم الذي كاد يندثر ويضيع كما اندثر وضاع الكثير من مقتنيات ومخطوطات وموروثات الشعب الفلسطيني بسبب ظروف الاحتلال وممارسات السلطات الصهيونية البشعة ضد شعبنا وثقافته وحقوقه ، فإنها ترى في هذا الكتاب القيم وثيقة تظهر المستوى الرفيع الذي بلغته الثقافة الوطنية الفلسطينية في مطلع هذا القرن ، وشهادة على الرسالة الحضارية التي حملها وما زال يحملها المثقف الفلسطيني تجاه محيطه القومي ومحيطه الإنساني .

يحيى يخلف

الأمين العام لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين

القسم الأول : روحي وآثاره

تمهيد :

يهدف البحث الحالي إلى تقديم الكاتب المقدسي روحي الخالدي بوصفه رائداً للأدب العربي المقارن ولفت النظر إلى سبقه الزمني والفكري في هذا الحقل المعرفي الهام . . . والجدير بالذكر ان قضية ريادة الخالدي عرضت على « الملتقى الأول للأدب المقارن في البلاد العربية » الذي عقد في عنابة بالجزائر في أيار ١٩٨٣ . وأقر هذا الملتقى ، الذي هو الأول من نوعه ، توصية تعتبر روحي الخالدي رائد الأدب العربي المقارن ، ومحمد غنيمي هلال مؤسسة وحجته . ويؤمل ان يقدم البحث الحالي لهذه التوصية مستندا ومشروعية واستكمالا للعرض المختصر الذي قدمه كاتبها لملتقى (عنابة) إيذاناً ببدء حملة علمية لانصاف هذه العبقرية المبكرة في تاريخ الأدب العربي الحديث .

ورغبة في مساعدة القارىء على تتبع تطور مجرى البحث ربما كان مفيداً التذكير منذ البدء بأن مقولة البحث تتلخص في ثلاثة أمور :

الأول : ان الخالدي لم ينل من الاهتمام ما يستحقه بوصفه من زعماء النهضة الفكرية والأدبية الحديثة .

الثاني : ان بعض المصادر نسبت إليه ريادة في حقول ادبية كالنقد الأدبي في حين غفلت تماماً عن دوره الأول والأساسي في حقل معرفي مهم جداً هو الأدب المقارن .

الثالث ان كتابه المسمى : « تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوكو » هو كتاب في الأدب المقارن الصميم Propre .

★ بعد كتابة هذه السطور ، وبعد شهور من توصية ملتقى عنابة المشار إليه آنفاً ، أتيحت لي مراجعة (الموسوعة الإسلامية) في طبعتها الجديدة فوجدت أنها تصف كتاب « تاريخ علم الأدب . . » بأنه (العمل الأول من الأدب المقارن في الأدب العربي الحديث) ، انظر ص ٩٦٩ من :

L'encyclopedie de L'Islam, nouvelle edidtion, Tome IV, paris- London 1978.

الخالدي في المراجع العامة :

كان روحي الخالدي علماً بارزاً في العقد الأول من القرن العشرين ، ولم تهمله معاجم الأعلام ، فخصّه « معجم الأعلام » (١) للزركلي بعمود كامل ، وخصته الموسوعة العربية الميسرة بفقرة مختصرة (٢) ، ووقف يعقوب العودات عنده وقفة مطّولة وأفرد له ست صفحات تناولت حياته وتعليمه والوظائف العامة التي شغلها ونشاطه الثقافي والسياسي في فرنسا وآثاره بالطبع (٣) ، وذكرته مراجع اخرى كثيرة (٤) .

ويتبين من هذه المراجع العامة أن روحي بن ياسين الخالدي ولد في القدس عام ١٨٦٤ ، وكانت دراسته الأولية مضطربة فتنقل بين مدارس القدس ونابلس وطرابلس الشام والآستانة وبيروت ، ولم يكن تعليمه منتظماً ، غير أن الشيء الثابت أن الخالدي كان يصارع الظروف الصعبة سعياً وراء اكمال تعليمه وقاوم مختلف الاغراءات لتعيينه في وظائف حكومية محلية في فلسطين وخلال فترة اقامته في القدس كان حريصاً على حضور حلقات الدروس في المسجد الأقصى . وقد منعه حرص أبويه على الاحتفاظ به إلى جانبهما من تحقيق أمنيته في السفر إلى الآستانة طلباً للعلم ، وعلى أي حال تحققت أمنيته سنة ١٨٨٩ وانتسب إلى (المكتب الملكي الشاهاني) في الآستانة ، وهناك حضر أيضاً مجالس المصلح جمال الدين الأفغاني .

وبعد ذلك تنقل بين الآستانة والقدس وباريس ، ولم يكن يستقر على حال . وتابع بعض الدروس في السوربون بباريس واتصل بالمستشرقين وكان له بينهم نشاط علمي ترد اشارات كثيرة اليه في كتابه (تاريخ علم الأدب) . وفي عام ١٨٩٨ عين قنصلاً عاماً للدولة

---

(١) الزركلي : معجم الأعلام ، ج ٣ ط ٣ ، بلا تاريخ ص ٦٤ .

(٢) غربال ، محمد شفيق : الموسوعة العربية الميسرة ، دار القلم ومؤسسة فرانكلين ، القاهرة ، ٧٤٩ .

(٣) العودات ، يعقوب (البدوي الملثم) :

من أعلام الفكر والأدب في فلسطين ، عمان ١٩٧٦ ، ص ١٥٥ ـ ١٦٠ .

(٤) منها كما يشير باحثون مختلفون :

- عمر رضا كحالة في (معجم المؤلفين ، ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .
- مجلة الهلال ، ٢٢/١٥٢ ، نوفمبر ١٩١٣
- مجلة الرسالة ، ١٤/ ٨١٩ .
- مجلة المنادي ، القدس ، ع٢ م١ ، ١٩٠٨.

العليـة في مدينـة بوردو وتوابعها وأصبح فيها بعد رئيساً لجمعية القناصل في تلك المدينة ونال أرفـع الأوسمـة من الحكـومـة الفـرنسيـة (وسام نخلة المعارف الذهبية ووسام فرقة الشرف ، لجيون دونور) . وفي بوردو اقترن روحي بالفرنسية هرمانس بنسول وانجبت له ولداً أسماه يحيى تعلم الهندسة وأصبح فيها بعد رئيساً لبلدية بوردو ، وقد زار يحيى فلسطين ومكث فيها ثلاث سنوات قبل تعيينه رئيساً لبلدية بوردو التي توفي فيها سنة ١٩٤٢ .

وعقب اعـلان الـدستـور العثماني في ٢٤/ ٧/ ١٩٠٨ عاد روحي إلى القدس فانتخبه مواطنوه نائباً عنهم في مجلس النواب العثماني (المبعوثان) . وأعيد انتخابه ثلاث مرات ، وفي الآستانة انتخب وكيلاً أول للمجلس ولما حل المجلس عام ١٩١٢ عاد إلى القدس ، ولكنه ما لبث بعـد حين أن سافـر إلى الآستـانـة وتـوفي فيها إثر حمى التيفوئيد التي أصابته ولم تمهله سوى أربعـة أيـام ، وكـانـت وفاته عام١٣٣١ هـ .الموافق للسادس من آب (أغسطس) عام ١٩١٣ م . (٥) .

ومن آثاره :

ـ رسالة في سرعة انتشار الدين المحمدي وفي أقسام العالم الاسلامي ، وهي محاضرة ألقاها عام ١٨٩٦ في دار الجمعيات العلمية في باريس ، ونشرتها جريدة طرابلس الشام ثم أصدرتها في كتيب .

ـ المقـدمـة في المسألـة الشـرقيـة منـذ نشأتها الأولى إلى الربع الثاني من القرن الثامن عشـر . وهي محاضـرة ألقـاهـا في دار الجمعيـات العلمية في باريس عام ١٨٩٧ وظهرت في كتيب بالقدس بعد ذلك .

ـ « فيكتور هوكو » ، مقالة في عشرين صفحة نشرتها « الهلال » في الجزء الرابع عشر من السنة العاشرة ١٥/ ٤/ ١٩٠٢ ، ص ٤٢١ ـ ٤٤٠ .

ـ تاريخ علم الأدب عند الأفرنج والعرب وفيكتور هوكو .

---

(٥) قدّم الـدكتـور ناصـر الـدين الأسد ترجمة مفصلة لحياته ، وتتبع تاريخ أسرته ومراحل دراسته وأسفاره ومؤلفاته في دراسـة علميـة موثقـة . انظـر الفصلين الأول والثـاني بوجـه خاص من كتابه : (محمد روحي الخالدي ، رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين) ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

والغـريب أن استـاذنـا الفاضل يدقق تدقيقاً شديداً في تسمية جد روحي : هل هو محمد علي أم محمد بن علي ، ويبـدي دقـة علميـة فائقـة ـ على عادته ـ ولكنه لا يدقق في تسمية المترجم له نفسه ، فيسميه في العنوان (محمد روحي) في بعض المواضيع في الكتاب . مع العلم أن الاسم الصحيح هو (روحي) كما هو مثبت في كتبه .

القسم الثاني

« تاريخ علم الأدب وريادة الأدب العربي المقارن »

بلا مواربة وبعيداً عن الحماسة التي ترافق كل اكتشاف وتميل بالمرء إلى اضفاء هالة على الأعمال القديمة او المبكرة فانه يمكن القول إن روحي الخالدي هو الرائد الأول للأدب العربي المقارن ، ويمكن تأريخ الأدب المقارن في الوطن العربي بظهور الطبعة الأولى من كتابه (تاريخ علم الأدب . .) عام ١٩٠٤(٨) .

وهذا الحكم لا يجوز أن يعني اطلاقاً انكار الجهود المشرقة لكتاب سبقوه إلى الاتصال بالثقافة الاجنبية ومحاولة تقريبها الى القارىء العربي مستعينين أحياناً بعقد المقارنات والموازنات الفكرية والأدبية والفنية مما قربهم كثيراً من حقل الأدب المقارن . وكان إمامهم بالطبع رفاعة الطهطاوي ثم علي مبارك ، وإن ظلّ هدفهما إصلاحياً مما يبعدهما عن الحقل العلمي ولا يقلل أهميتها التاريخية ، ويمكن أن يذكر من بين هؤلاء خليل ثابت وأسعد داغر ونقولا فياض وأمين الحداد ونجيب الحداد ويعقوب صروف ، وبالطبع يتوجّهم جميعاً سليمان البستاني الذي (استطاع أن يقيم بناء شامخاً في ميدان الأدب المقارن بالدراسة الواسعة التي قام بها حول (الالياذة) بعد أن عربها شعراً) . (٩)

(٨) عرضت هذا الأمر في ورقة قدمتها للملتقى الدولي للأدب المقارن عند العرب (عنابه من ١٤ ـ ١٩/ ٥/ ١٩٨٣) وشرحت للمؤتمر الأسباب التي تؤيد ريادة الخالدي . انظر تقريراً عن الملتقى في المعرفة ، ع ٢٥٧ ، س ٢٢ ، تموز ١٩٨٣ .

(٩) ياغي ، د . هاشم : النقد الأدبي الحديث في لبنان ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ ، ج١ ، ص ٢٧١ .

قد يكون من المفيد أن أذكر أنني قدّمت خلاصة البحث الحالي في ورقة قرأتها أمام « المؤتمر الدولي للأدب المقارن » الذي عقد في السوربون بباريس من ٢٢ ـ ٢٦/ ٥/ ١٩٨٤ ، وكان موضوع المؤتمر : « باريس وظاهرة العواصم الأدبية العالمية : مفترق طرق أم حوار بين الحضارات » ، وسوف يظهر البحث في وقائع المؤتمر فيما بعد .

نشرته الهلال على مطابعها عام ١٩٠٤ بتوقيع (المقدسي) ثم أعادت طبعه عام ١٩١٢ وعليه اسم المؤلف ورسمه . وهو في الأصل سلسلة مقالات نشرت في « الهلال » ابتداء من الجزء الرابع من السنة الحادية عشرة في ١٥/ ١١/ ١٩٠٢ .

- « الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة » ، مقالتان نشرت الأولى في الجزء الثاني من الهلال ، س ١٧ في ١/ ١١/ ١٩٠٨ بتوقيع المقدسي . والثانية في العدد التالي (١/ ١٢/ ١٩٠٨) ، بالاسم الصريح وقد طبعتهما دار الهلال في كتيب عام ١٩٠٩ .

- برتلو : العالم الكيماوي الشهير ، الهلال ، ج ٨ س ١٠ ، ١٥/ ١/ ١٩٠٢ .

- حكمة التاريخ ، جريدة طرابلس الشام ، ع ٥١٧ عام ١٩٠٣ وادت هذه المقالة إلى تعطيل الجريدة .

- الكيمياء عند العرب ، وهو كتاب في ٨٥ صفحة ، طبعته « دار المعارف » بمصر عام ١٩٥٣ .

- رحلة إلى الاندلس ، وتذكر المراجع انه مطبوع ، ولم أره .

- وللمؤلف مخطوطات أخرى وهي :

- كتاب علم الالسنة او مقابلة اللغات . (٦) .

- الصهيونية . (لم يتم) ★

- تاريخ الامة الاسرائيلية وعلاقتها بالعرب وغيرهم من الأمم .

- تراجم اعلام الاسرة الخالدية (لم يتم) .

وورد في « الكتاب العربي الفلسطيني » (٧) ذكر لثلاثة كتب للخالدي هي : « تاريخ علم الأدب » ص ٢٤ و« مقدمة في المسألة الشرقية » ص ٦٦ ، و« الحبس في التهمة » ص ٣١ ، ولم أجد للكتاب الأخير ذكراً في المراجع الأخرى ، ولعله كتاب في الحقوق .

(٦) اشار الاستاذ د . اسحق موسى الحسيني إلى أنه رأى هذا الكتاب ، « وهو كتاب نفيس في بضعة مجلدات » ، في مكتبة الاستاذ احمد سامح الخالدي في بيت المقدس ، انظر ص ٣٤ مع الحاشية من : الحسيني ، د . اسحق موسى : هل الأدباء بشر ؟ دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٠(؟) .

★ ذكر لي عدد من الأصدقاء أن المخطوطة موجودة في مكتبة الخالدي وتحمل عنوان

ولم اطلع على المخطوطة ولكن علمت أن الشاعر الفلسطيني عزالدين المناصرة نشر بحثاً عنها في مجلة شؤون فلسطينية عدد تموز ١٩٨٢ ، الذي لم يوزع بسبب ظروف الاحتلال الصهيوني لبيروت .

(٧) لجنة الثقافة العربية في فلسطين : الكتاب العربي الفلسطيني ، القدس ١٩٤٦ ، أعاد نشره في بيروت عام ١٩٨١ الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، وهو فهرس للكتاب العربي الفلسطيني منذ اواخر القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٤٦ .

ومن المعروف أن سليمان البستاني أنجز ترجمة الالياذة شعراً عام ١٨٩٥ وانتهى من إثبات شروحها وحواشيها عام ١٩٠٢ ، وكتب مقدماتها التي بلغت مئتي صفحة في أواخر سنة ١٩٠٣ ، واضعاً بذلك اللبنة الأولى في بناء الأدب المقارن .

ولكن من المعروف أيضاً ، ومما لا تشير إليه دائماً الكتب العامة في الأدب والنقد ، أن روحي الخالدي نشر كتابه الحالي على شكل مقالات منجمة في (الهلال) بين عام ١٩٠٢ - ١٩٠٣ ، وبذلك يكون البستاني والخالدي فرسَيْ رهان من خلال المقياس التاريخي على الأقل ، ولكن من خلال المقياس الخاص بالأدب المقارن يبدو روحي الخالدي في كتابه (تاريخ علم الأدب) أقرب بكثير إلى مفهومات هذا المصطلح من سليمان البستاني ، بل يُظهر وعياً نظرياً لمفهومات التأثر والتأثير وتبادل الأفكار والتقنيات مما لا نراه عند الكثيرين من معاصريه ، وبذلك يقترب من المفهوم الأصلي للأدب المقارن (١٠) بوصفه (تاريخ العلاقات الأدبية الدولية) على نحو ما أكده أكبر أساتذة المدرسة الفرنسية الأوائل مثل فان تييغم ، وغويار ، وبالدنسبرغر وجان ماري كاريه ، مضيفاً إلى ذلك المفهومات المقارنية الأوسع أفقاً لاساتذة المدرسة الأميركية مثل هـ . هـ . هـ . رماك وألريخ فاينشتاين ، وقد حدد الأخير قطاع الأدب المقارن على ثلاثة مستويات :

- التاريخ الأدبي المقارن .
- النقد الأدبي المقارن .
- النظرية الأدبية المقارنة .

وجعل تبادل التأثير أساساً ولكنه في الوقت نفسه لم يصرف النظر عن المقارنة ولو كانت غير مبنية على التأثر والتأثير (١١) ، وإن ما فعله روحي الخالدي في الكتاب الحالي يقترب كثيراً من هذه المستويات ولكن بشكل مبدئي جداً بالطبع ، إذ لم يكن ممكناً في تلك

---

(١٠) من أجل أخذ فكرة عن المشكلة المنهجية للأدب المقارن يمكن مراجعة : الخطيب ، د . حسام : « الأدب المقارن بين التزمت المنهجي والانفتاح الانساني » ، وهي سلسلة دراسات من ثلاثة أقسام نشرت في المعرفة دمشق ، الاعداد ٢٠٤ - ٢٠٧ - شباط - أيار ١٩٧٩ .

(١١) انظر صفحة ١٠ من :

Weisstein, Ulrich:
Comparative Literature and Literary Study **Indiana University Press, Bloomington - London, 1973.**

الفترة المبكرة من النهضة الأدبية العربية أن يلتفت الباحثون إلى محاولة تفهم المسائل المنهجية المعقدة ، وذلك على فرض أن فرصة الاطلاع عليها قد أتيحت لهم .

وهذا الكلام يذكر باسم آخر الى جانب سليمان البستاني عدّ دائماً من رواد النقد الأدبي الحديث والدراسات المقارنة وهو اسم قسطاكي الحمصي (الحلبي) الذي نشر كتابه (منهل الوراد في علم الانتقاد) ، في مصر بجزأيه خلال سنتي ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧ ، وحاول أن يخوض في بعض المفهومات النقدية الغربية ولكنه أظهر قصوراً واضحاً عن فهم المسائل النظرية التي يتحدث عنها لأن هذه المسائل كانت غريبة عن اعداده الثقافي وعن المرحلة التاريخية للأدب العربي . وقد حاول قسطاكي الحمصي أن يعقد مقارنات بين الأدب العربي والأدب الغربي ، على طريقة سليمان البستاني ولكنه لم يقترب من مفهومات التأثر والتأثير أو التواصل الثقافي أو تشابه الانتاج الأدبي بفعل تشابه المجتمعات (وهي نقطة مهمة جداً اتكأ عليها سليمان البستاني اتكاء شديداً) .

وظلت محاولة الحمصي على أي حال محصورة في النقد الأدبي الحديث وهو حتماً من رواده ذوي الفضل ، أما ما نسب إليه من ريادة في الأدب المقارن يعود مرجعه إلى الجزء الثالث من كتابه (منهل الوراد) الذي صدر في حلب عام ١٩٣٥ وتضمن دراسة وافية في حوالي تسعين صفحة (ص ١٥٤ ـ ٢٤٦) لما سماه : (الموازنة بين الألعوبة الألهية ورسالة الغفران) .

وفي هذه الفترة بالذات بدأت تظهر بعض الدراسات الأدبية المقارنة وبدأ مصطلح (الأدب المقارن) ينال شيئاً من التناول في الأوساط الأدبية العربية كما ثبت في مناهج بعض الجامعات في نهاية الثلاثينات ، وبذلك يكون دخول الحمصي في باب الأدب المقارن متأخراً في الاعتبار الزمني (١٢) .

يمكن اعتبار روحي الخالدي ، سواء من حيث السبق الزمني أم من حيث السبق العلمي ، رائد الأدب العربي المقارن ، بما تنطوي عليه كلمة (ريادة) من تسامح في ناحيتي

---

(١٢) تم تحديد تاريخ الجزء الثالث من خلال عدة عوامل أهمها مادة المقدمة ثم الاهداء الذي كتبه المؤلف بخطه الجميل إلى رئيس الجمهورية السورية حينذاك (صاحب الفخامة محمد علي بك العابد) ، بتاريخ ٢٨/ ٩/ ١٩٣٥ على نسخة من الكتاب أصبحت من مقتنيات الأديب عيسى فتوح الذي يعود له الفضل في اطلاعي عليها .

والغريب ان محمد يوسف نجم لا يشير إلى هذه الدراسة الرائدة في القسم المعنون :

٤ ـ العناية بالأدب المقارن ، من كتاب (الادب العربي في آثار الدارسين) المشار اليه سابقاً .

المنهج والدقة العلمية ، وهذا الحكم ينبغي ألا يتعارض مع المكانة الريادية المرموقة التي يحتلها سليمان البستاني وقسطاكي الحمصي وأقرانهما في حقل النقد الأدبي العربي والدراسات الأدبية المتفتحة ، ويكفي أن نلقي نظرة على عنوان كتاب الخالدي ومقدمته بالفرنسية ومقدمة الناشر لنستنتج أننا إزاء مشروع دراسة مقارنية على درجة جيدة من الوعي النظري (١٣) .

١ - يحمل عنوان الكتاب مفاجآت علمية في مقدمتها استعمال مصطلح (علم الأدب) وهو استعمال مبكر جداً ومتأثر بالاتجاه الفرنسي في نهاية القرن التاسع عشر إلى التأكيد على علمية الأدب (هيبوليت تين وسانت بوف . . . .) . ولكن هذا المصطلح مفاجأة تصدم القارىء العربي الذي يقوم تقليده الأدبي على تنزيه الأدب من أن يكون علماً أي خاضعاً لشيء غير الذوق والعاطفة والاحساس .

ويبدو من تتمة العنوان أن المؤلف يعرف ما يريد وأنه لم يطلق هذه التسمية عبثاً ، فما دام الأدب علماً فإذاً يمكن أن يكون منطلقه واحداً وتاريخه واحداً .

ويمكن النظر إليه من خلال زاوية واحدة وهكذا نجد تتمة العنوان :

تاريخ علم الأدب .

عند الافرنج والعرب

وفيكتور هوكو

ولكن ما شأن فيكتور هيغو هنا ؟

ان المؤلف يوضح هذا الأمر جيداً في المقدمة الفرنسية للكتاب ويبين أنه أحب أن يسهم في احتفالات الذكرى المئوية للشاعر الفرنسي فيكتور هيغو ، فقاده ذلك إلى تقليب النظر في الآداب الافرنجية والعربية وقدم أخلاطاً من الآراء بهذا الشأنودّ لو تكون (تاريخاً للآداب) ، ولكنه آثر الدقة فسماها بالفرنسية : « دراسة حول فيكتور هوكو وحول الأدب عند الأوروبيين والعرب » . وأصر عند ترجمة هذا العنوان إلى العربية أن يذكر كلمة (علم الأدب) في حين أن كلمة (علم) لا وجود لها في النص الفرنسي ، وكأنه كان يحتاج إلى

---

(١٣) صدرت الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٩٠٤ ، واكتفى الناشر بوضع كنية (المقدسي) عليها (نسبة إلى القدس الشريف مسقط رأس المؤلف) . وحين ظهرت الطبعة الثانية سنة ١٩١٢ كان الظرف مواتياً لاعلان اسم المؤلف عليها . وهي من طبع مطبعة (الهلال) بالفجالة بمصر . وتشير مقدمة الناشر إلى ان المؤلف كتم اسمه خوفاً من الاستبداد العثماني ، ولأنه كان من المنادين بالحرية .

التأكيد على علمية الأدب بالنسبة للقراء العرب دون غيرهم وكأنه من فضول القول أن يسمى الأدب علماً عند الفرنسيين .

٢ ـ يشير تصدير الكتاب ، أي الشرح المثبت على الغلاف بعد العنوان ، الى أن الكتاب يعتمد على المقابلة والمقارنة القائمة على التأثر والتأثير . وهو ينطلق من اعتقاد واضح بامكان اجراء المقابلة حسب المراحل التاريخية (ابان تمدنهم إلى عصورهم الوسطى) . كما يلحق المقابلة بالمقارنة ويشير إلى ماقتبسه الافرنج عن العرب من الأدب والشعر ، وهو بذلك يدخل في صميم منهج الأدب المقارن .

ومن الملاحظ أيضاً أن العنوان الفرنسي يميل الى البساطة والتواضع والدقة تمشياً مع المنهج العلمي الأوربي . والحق ان المقدمة الفرنسية هي في الأصل منشور صدر من أجل تعريف القراء الفرنسيين بالكتاب . وعلى الرغم من أنه يحمل توقيع المؤلف فان لهجته تختلف عن لهجة المقدمة العربية ، وهناك مجال للظن بان أحد أصدقاء الخالدي من الفرنسيين هو الذي كتبه ، وربما كان من كتابة زوجته الفرنسية .

٣ ـ حرصاً على وحدة الكتاب وعلى اعطاء مسوغ منهجي لحشر اسم فيكتور هيغو فيه نراه يشير في التصدير نفسه إلى ما كان لهيغو من دور في عملية اقتباس الفرنجية لآداب العرب (وخصوصاً على يد فيكتور هيغو) ، فكأنه بذلك يقدم حالة عامة من التأثير الأدبي هي حالة التأثير الأدبي العربي في أوروبة مع حالة خاصة أو مثال خاص هو مثال فيكتور هيغو . وواضح من المقدمة الفرنسية ان المؤلف ينوي التوسع في الكلام على هيغو ، لا لأنه مثال خاص للتأثر بل كذلك لما يمكن أن يقدمه شعر هيغو من تأكيد على التشابه بين الأدبين العربي والافرنجي وكذلك على اللون الخاص لهذا الشاعر ، مما يمكن أن يفيد منه القراء العرب ، ومن هنا كان وعده في المقدمة بترجمة مقطوعات لفيكتور هيغو ومقارنتها بمقطوعات لشعراء الحرب العرب مثل المتنبي والمعري .

٤ ـ تظهر المقدمة الفرنسية أيضاً أن روحي الخالدي لم يكن من أولئك الكتاب المتحمسين المعصوبي العينين الذين يعتقدون أن اتجاه التأثير الأدبي ينبغي أن يظل دائماً منطلقاً من الأدب العربي ومنتهياً عند الفرنجة بل كان واضحاً أنه يعتقد أن التجربة الأدبية الغربية وتجربة شاعره المفضل فيكتور هيغو بوجه خاص ، كفيلة بأن تغني الأدب العربي الحديث وأن تعطيه أنفاساً جديدة . ولذلك نراه في المقدمة الفرنسية يعد باعطاء الشعراء الشباب العرب فكرة دقيقة عن الأدب الأوروبي بوجه عام والأدب الفرنسي بوجه خاص ،

وعن الأحاسيس الأدبية وعن تنوع الموضوعات التي يمكن أن يعالجها شاعر معاصر .

وإذا وضعنا هذه المقدمة في إطارها التاريخي فاننا لا نبالغ إذ نؤكد على سبق روحي الخالدي من ناحية الوعي النظري لأهمية التأثر والتأثير . فقد كتبت المقدمة في الخامس من حزيران سنة ١٩٠٦ ، أي في فترة كانت السيطرة العثمانية فيها ما تزال قوية وأصوات التجديد ما تزال طرية إزاء الموجة الطاغية من التجمد أو من التأكيد على عملية الاحياء في إطار التراث العربي وحده دون الحاجة إلى الاتصال بأدب الفرنجة ، والجدير بالذكر أن الآراء التجديدية في تلك الفترة كانت تجلب النقمة الرسمية على صاحبها حتى لو ظلت في إطار الثقافة والأدب (لأن الجواسيس يحولون كل معنى إلى المكائد والدسائس) ، وهذا ما يفسر اشارة ناشر الكتاب في مقدمته إلى أن الهلال نشرت مقالات الخالدي دون توقيع ثم رضي المؤلف أخيراً بوضع توقيع (المقدسي) على الطبعة الأولى من كتابه :

« فنشرنا هذا الكتاب مقالات متوالية ، والقراء يسألوننا عن اسم كاتبها ويتشوقون لمعرفته . فلما طبعناها في كتاب على حدة تقدمنا إليه أن يأذن بنشر اسمه في صدر الكتاب فاكتفى بالاشارة إلى موطنه فوضعنا بدل اسمه لفظ (المقدسي) ، نسبة إلى القدس الشريف مسقط رأسه » .

وهنا يسجل المرء لروحي الخالدي فضلين :

الأول : أنه كان من الطبقة العليا العثمانية : الوكيل الأول لمجلس المبعوثان ونائب القدس الشريف فيه والقنصل العثماني في بوردو ، أي أن موقعه الاجتماعي كان إلى جانب المحافظة والتقليد ومع ذلك فانه آثر الريادة والتجديد .

الثاني : أنه قدّم من الآراء الحديثة ومن أمثلة التفتح العقلي ما جعله عرضة للخطر واضطره إلى كتم اسمه عن القراء في الطبعة الأولى من الكتاب وفي المقالات التي نشرها في الهلال . ولم يظهر اسمه إلا في الطبعة الثانية من الكتاب سنة ١٩١٢ .

٥ ـ يظهر الخالدي في المقدمة الفرنسية أيضاً وعياً نظرياً باتجاه اللغة العلمية الواضحة التي لا بد من اعتمادها في (الأدب المقارن) باعتباره منهجاً في البحث وليس معرضاً للتألق الأدبي .

ويشير الخالدي بما يثير الاعجاب إلى أنه كان في مقدوره أن يكتب الكتاب على طريقة الحريري المسجعة ، ولكنه آثر ان يكون واضحاً ودقيقاً ومفهوماً ليتيح لجمهور القراء من أنصاف المتعلمين ومن المتخرجين من المدارس المتأثرة بالطراز الأوروبي أن يتابعوه

وبالفعل فان لغة الكتاب أتت نموذجاً للغة العلمية الدقيقة الواضحة البعيدة عن الزخرف والتكلف مما يضع الخالدي أيضاً في مصاف الطليعة العربية المجددة فكراً وأسلوبا في مطلع القرن العشرين .

٦ - ومما يسجل للخالدي في مجال الأدب المقارن حرصه على الترجمة أي على اعطاء فكرة عن النصوص الاصلية التي اهتّم بها ولاسيما نصوص فيكتور هيغو التي كانت طريقه إلى الملموسية في البحث ، وذلك أنه كان حريصاً على عدم السباحة في بحور التعميات وكان يردف كل فكرة بمثال توضيحي ، من فيكتور هيغو في أغلب الاحيان ومن غيره من الأدباء الغربيين ، في حين أن تركيزه في مجال الأدب العربي تناول الشاعرين المتنبي وأبا العلاء بوجه خاص .

والمعروف أن الأدب المقارن هو من فروع المعرفة الأدبية الأكثر التصاقاً بالملموس .

على أي حال بذل الخالدي جهداً لتقديم ترجمات لمجموعات مختارة من نصوص فيكتور هيغو ، أورد بعضها كاملة وأورد مقاطع مختارة من بعض آخر ، إما لأسباب تتعلق بصعوبة الترجمة وإما لأسباب تتعلق بعدم استساغته لبعض الأفكار في النصوص الأصلية .

وكانت طريقته أن يستعرض قصائد فيكتور هيغو وأعماله الفنية مستهلاً كل عمل بتعريف عام به ومنتقلاً بعد ذلك إلى التعليق عليه ولاسيما من ناحية ما يوحيه من تشابه مع بعض الآثار العربية وقد يجري مقارنات فنية دقيقة لينتقل بعد ذلك إلى الترجمة الدقيقة لبعض المقاطع وقد اتبع هذه الطريقة في الثلث الأخير من الكتاب الذي خصصه لتقديم انتاج فيكتور هيغو .

وتبدو ترجمة الخالدي ناجحة لأنها قائمة على التعمق في النص الأصلي وفهم مراميه ، فهو ليس مترجماً محترفاً بل أديب متذوق وبالطبع لنا أن نتصور ما عاناه الخالدي في مجال ترجمة المصطلحات الأجنبية والكلمات المفتاحية من فنية وبلاغية وإذا كانت بعض مصطلحاته تبدو لنا طريفة اليوم بعد أن قطعنا شوطاً طويلاً في تجارب ترجمة المصطلحات فان الجهد الذي قدمه الخالدي يضعه في مصاف رواد الترجمة ولاسيما من ناحية اصراره على فهم المصطلح الأصلي بلغته وشرح معنى هذا المصطلح جنباً إلى جنب مع اقتراح الترجمة ومن جملة المصطلحات :

أ- الطريقة الرومانية Romantisme مقابل ما نسميه اليوم (المدرسة الرومنتية).(١٤)

(١٤) لم يستقر هذا المصطلح بعد ، وهناك : (الرومنتية ، والرومانتية ، والرومانسية والرومنتيكية ، والرومنطيقية ←

- الطريقة الحقيقية Realisme مقابل (الواقعية) .
- فاجعة أو مبكية Tragedie مقابل (مأساة) .
- مضحكة Comedie مقابل (ملهاة) .
- الرواية والرواية التمثيلية Drame مقابل (مسرحية) .
- هجوية Satirique مقابل (قصيدة الهجاء) أو فن الهجاء .

وهناك كلمات كثيرة لم ينجح في ايراد مرادفات عربية لها فاستعملها كما هي بالفرنسية مع تقديم شرح واف لمعناها يدل على فهم وتذوق ، وذلك مثل :

- الشعر الغرامي المعروف باسم (ليريك) . Lyrique
- محاكم الانكيزيسيون (أي التفتيش) . Inquisition
- مصطلحات عروضية فرنسية مثل (ستروفي) . Strophe
- وهناك كلمة دوكيمان (التسجيلية) . Document

ويستعملها بالطريقة التالية :

يتحدث عن شخصيات هيغو فيقول انها (لم تُبْنَ على الحجج والبراهين التي اشترطها أصحاب الطريقة الحقيقية وسماها أميل زولا (دوكيمان) .

وفي المقطع التالي نجد ادراكه الدقيق لصعوبة ايجاد الترادف بين مدلول المصطلح بلغته الأصلية وباللغة المترجم اليها مما يشكل احدى العقبات الكبرى في فن الترجمة :

(فالأود والبلاد والألّيجي (١٥) . . . الخ ، يقابلها في العربية المدح والغزل والرثاء . . الخ ، غير أن هذه الأقسام في العربية من الأقسام المعنوية وأما عند الفرنساويين فهي من الأقسام اللفظية التي لكل منها عروض مخصوص وشكل معروف . ومن هذه الأقسام اللفظية أيضاً الشعر الفاجع وهو ما صور فيه الشاعر حادثة مهمة من شأنها تهييج العواطف وتحريك الغضب واستجلاب الشفقة والرحمة ، وتنتهي الرواية الفاجعة في الغالب بمصيبة ، فروايات المتقدمين التي على هذا الطراز تسمى تراجيديا وروايات أصحاب الطريقة الرومانية التي على أسلوبها تسمى درام وأما الكوميديا فهي مصورة لأخلاق الهيئة الاجتماعية ومساويهم ومعايبهم وبصورة هزلية مضحكة كروايات موليير ومنها رواية تارتوف وهي مترجمة للتركية ومنشورة في مطبعة أبو الضياء) . ص ١٨٥

والمصطلح المترجم (الابتداعية ، والابداعية) .
(١٥) Elegie, Ballade, ode..

ومن الواضح أن النص السابق يظهر الصعوبات التي لاقاها الخالدي في الترجمة من جهة ، ويظهر من جهة أخرى حرصه على الدقة في شرح المصطلحات ومدلولاتها ، وهو فضل يستحق تكرار التنويه به .

٧ ـ كذلك مما يسجل للخالدي حرصه على اعطاء فكرة عن المذاهب والأنواع الأدبية لدى الاوروبيين وتلمس آثار أو مشابهات هذه المذاهب والأنواع في الأدب العربي ومن المعروف أن دراسة المذاهب والأنواع الأدبية بمفهومها الشمولي تشكل ركيزة مهمة من ركائز الأدب المقارن .

ويلاحظ المرء في النص الذي ورد قبل قليل كيف يعمل الخالدي على شرح المفهومات والمصطلحات المتعلقة ببعض الأنواع الأدبية كالمسرحية والملهاة والمأساة وغيرها .

وفي مواضع أخرى من الكتاب نراه يعنى بشرح المذاهب الأدبية الافرنجية بالتفصيل ويتابع اتجاهاتها على مستوى الآداب الاوروبية ولاسيما الآداب الانكليزية والفرنسية والألمانية ، ومن الطريف أن يذكر مسرحية (فاوست) لغوته ويعلق عليها من خلال مشاهدته اياها على المسارح الفرنسية .

ومن خلال هذا العرض يظل حسه المقارني رفيعاً وهو يقارن باستمرار بين الأفكار والتقنيات والأساليب العربية والافرنجية .

وانه ليقف طويلاً عند ظاهرة مثل ظاهرة (المبالغة) ويتابع المواقف المختلفة منها في كل من العربية ، والفارسية ، والتركية والفرنسية .

٨ ـ تتوفر في كتاب (تاريخ علم الأدب) لمحات مقارنية شديدة الأهمية تدل على توفر حس التبحث المقارني والذوق النقدي أيضاً لدى المؤلف .

وبالطبع ليس من الضروري أن يكون كل ما يذكره المؤلف صحيحاً او عميقاً ، ونحن هنا لا نشير إلى دقة المعلومات وعمق التحليل بقدر ما نشير إلى الموهبة المقارنية اللماحة.وفيما يلي بعض الأمثلة التي تنبىء عن حسه المقارني :

آ ـ يعالج الكاتب موضوعات مقارنية مباشرة من مثل (ما اقتبسه الافرنج من قواعد الشعر العربي) في الفصل الرابع عشر ويظهر المؤلف هنا موهبة علمية ممتازة وجلداً على البحث وميلاً إلى التفحص والتدقيق . وينتهي إلى التأكيد على أن الظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية أتاحت الفرصة لانتقال الأفكار والاساليب والتقنيات الغربية إلى الفرنجة في القرن الحادي عشر الميلادي من خلال الاتصال العربي الفرنسي

الحربي وغير الحربي في شمال اسبانيا وجنوب فرنسا ويتابع هذه الاقتباسات بدقة وتفصيل غير أن ما يعجب المرء بالاضافة إلى ذلك حرص المؤلف على رسم خارطة للجو السياسي الاجتماعي الذي دارت فيه المبادلات الأدبية في تلك الفترة ، ومن هنا يعرج على وصف المنطقة جغرافياً وعلى وصف حروب المسلمين والفرنجة ، ويدل وصفه على معرفة مباشرة بجغرافية المنطقة ، معرفة تاريخية واضحة بالوقائع التي دارت . والحق أنه يبدو مغرماً بتلك الأرض وتلك الفترة التاريخية فيطيل الكلام في هذه المناسبة ولكنه في النهاية يعتذر لذلك تحت ستار حجة علمية معروفة في الأدب المقارن ، وهي العناية بالمناخ العام للمبادلات الأدبية :

« فيتضح لك من هذه النبذة التاريخية المعترضة في هذه الرسالة أن الاختلاط بين العرب والافرنج لم ينقطع » . ومن الموضوعات المقارنية التي يعالجها ويبين رأيه فيها مثبتاً التأثير الغربي في الأدب الافرنجي :

- انشاد فقراء الافرنج النشائد والمدائح العربية .
- أخذ التروبادور علم القوافي عن العرب .
- الأصل العربي لمسرحية (السيد) .
- اقتباس الافرنج أقاصيصهم عن العرب .
- انتقال هذا العلم إلى شعراء الشمال وهم التروفير .

ومن خلال بحثه المقارني يؤكد المؤلف باستمرار على تأثير المعتقدات الدينية والمرددات والأساطير والأغاني والتصرفات الاجتماعية في الأفكار والاساليب الأدبية ويتعرض بوضوح لموقف العرب من الأدب اليوناني ويبين كيف أقدم العرب على مختلف أنواع الاقتباس من الحضارة اليونانية ولكنهم استثنوا الأدب :

« فيتضح مما تقدم أن العرب لم يأخذوا من الأمم الذين ترجموا كتبهم إلا العلم والحكمة فقط ولم يحفلوا بشعر اليونان ولا برواياتهم الشخصية ولا بشعر اللاتين وخطبهم ولا ترجموا شيئاً من ذلك . مع أنهم رأوا في كتاب المنطق لا رسطو ثناء طيباً على اوميروس الشاعر اليوناني ولكنهم لم يقلدوه ولا اتبعوه ولا نهجوا منهجه في شيء ولم يكن للكتب المترجمة تأثير على طبقة المتنبي والمعري وابن هاني الا من جهة افادتهم الاراء الفلسفية لا من جهة افادتهم أساليب النظم وطرق الكلام » .

ب ـ ويمكن أن تكون معالجة الخالدي لانتقال علم القوافي إلى الافرنج نموذجا

جيداً لطريقته في المقارنة وهي ان لم تتصف أحياناً بالدقة والمستند العلمي فانها تتصف بسعة الأفق وذكاء الاستنتاج ، وفيما يلي خلاصة الفصل الذي عقده المؤلف لموضوع القوافي :

« فالذي أخذوه عن العرب بالسماع والتقليد هو علم القوافي وكانوا يستعملون قبل ذلك عوضاً عن القافية ما يسمونه (اسونانس) وهو اتحاد الاحرف الصوتية الاخيرة بقطع النظر عما بعدها من الأحرف الساكنة في نهاية كل بيتين مثل ساج (sage) وآرم (arme) وكان استعمالهم للقوافي في القرن الثالث عشر وأخذوا عن العرب في المنظوم أنواع المدح والغزل والنسيب والهجو والهزل أي ما يسمونه ليريك وما يسمونه ساتيرك . كما أخذوا عنهم في المنثور القصص والملح وضروب الامثال ومنها ما نقلوه نثراً ثم نظموه في لغتهم . وجاروا العرب في الفكاهات أيضاً فألفوا حكايات وتظريفات على أقسة القرى وخدمة الكنائس ليضحكوا منهم الامراء والفرسان الذين يسمونهم « شيفاليه » ، وفي هذه الحكايات والنوادر المأخوذة عن العرب ما أصله الأول من حكايات الفرس والهنود وترجمت إلى العربية ثم نقلت للافرنجية . فلو كان الحكم والغلبة لأهل الجنوب المجاورين للعرب وللغتهم المسماة « أوق » لوجدنا في اللغة الفرنساوية الحالية شيئاً كثيراً من فنون الأدب العربية .

ولكن الحكم والغلبة كانتا لأهل الشمال وللغتهم المسماة « أويل » وكان شعراؤهم التروفير لا يعرفون غير أشعار الحماسة وقصائدهم قصيرة والبيت مؤلف من عشرة هجاءات ليس له قافية وانما له (أسونانس) كما في أغاني رولان الآتي ذكرها واستمروا على هذا النظم إلى آخر القرن الثاني عشر . وفي القرن الثالث عشر أخذ شعراء الشمال وهم التروفير ينسجون على منوال (التروبادور) وتعلموا منهم القوافي ورقة الغزل واللحن الموسيقي وصار فرسان الافرنج يقلدون فرسان العرب في انتحال الشعر فكانت فضائل الفارس المهارة في الفروسية وحفظ الشعر والتمثل به وفي لعب الشطرنج . فتحسن الشعر الافرنجي بادخال القوافي العربية فيه وباقتباس أدب الاندلسيين ورقة غزلهم » . ص ١٠٤ - ١٠٥ .

ج - يبدو الكاتب معجباً بفيكتور هيغو ، ولكنه لا يغمض العينين عن نواحي الضعف في كتابته ، ويعترف بأن رواياته « لم تبلغ درجة الاعجاز لا بالنظر إلى المؤلفات السابقة عليها ولا المؤلفات اللاحقة لها من هذا النوع » .

وذلك ما يدفعه إلى التساؤل عن سبب الشهرة الواسعة التي حظي بها فيكتور هيغو محلياً وعالمياً ، ويجد لذلك جوانب سياسية ودينية وعلمية وعند شرح السبب السياسي يبين

تأثير مكانة الفرنسيين عند الأمم من ناحية لفت النظر إلى شعرائهم ويرجع سبب الشهرة العالمية لهيغو إلى قوة أمته وبالتالي قوة أدبه القومي :

« وكان لقومه الحظ الأوفر من التقلبات السياسية والتبدلات الاجتماعية واستوقفوا نحوهم أنظار العالم المتمدن بأسره » .

وهذا التعليل لشهرة الكاتب خارج بلده معروف في الأدب المقارن ، ذلك أن كثيراً من الأدباء يحظون بأكثر مما يستحقونه من شهرة عالمية بسبب تأثير أممهم في المحيط الدولي السياسي أو الحضاري ، وبالمقابل يحرم كثيرون من الأدباء مما قد يستحقونه من شهرة عالمية بسبب ضعف مكانة بلدانهم على المستوى العالمي السياسي أو الحضاري .

١٠ ـ يبدو كتاب الخالدي سلسلة غنية من المقابلات العربية الافرنجية الفكرية والأدبية وأحياناً المعتقدية . وهو يغتنم كل فرصة تسنح من أجل المقابلة بين الطرفين ، وأحياناً تذهب به المقابلة مذاهب بديعة . ولكنه في النتيجة ينجح في رسم خطوط كبرى لنواحي التماثل والاختلاف ، من شأنها أن توحي بأن التجربة التاريخية الاجتماعية المتشابهة تنتج أفكاراً وآداباً متشابهة .

كما أن كل ما يقدمه الكاتب من أمثلة يسهم في التأكيد على تشابه التجربة الانسانية في مجال الابداع الفني والأدبي على الأقل .

ومن أمثله مقارناته التي لا تعتمد على تأكيد التبادل أو التأثر والتأثير :

ـ المقارنة الشاملة بين الشعر العربي والشعر الأفرنجي مع بيان آراء كل طرف في شعر الآخر .

ـ المقارنة بين موضوع ملهاة (تارتوف) لموليير وأبيات للمعري تقترب منها في المغزى .

ـ المقارنة بين قواعد الاتباعية الجديدة وبيت لحسان بن ثابت في الصدق .

ـ المقارنة المستمرة بين هيغو والمعري .

والتأكيد على تميز هيغو على شعراء العربية من خلال تنوعه وعمقه وأنفته من التقليدية ، ويستثني من هذه المقارنة كلا من المتنبي والمعري .

ومن المقابلات الطريفة مقابلته بين ملحمة رولاند وبين سيرة أبي زيد الهلالي ، وتهكمه على المردات العامة المتعلقة بسيف رولاند المسمى دوراندل وسيف علي بن أبي طالب (ذو الفقار) . ويبين هنا أن المبالغة في تأثير السيفين سلبت البطلين فضيلة الشجاعة

لأن الفضل عاد للسيفين في المرددات الشعبية . (ص ١٠٧) .

كذلك من المقارنات الطريفة تشبيهه تطوع بايرون للقتال إلى جانب الثوار اليونان على الاتراك بكرّ المتنبي على الأعراب الذين اعترضوا طريقه حين خرج قاصداً الكوفة ، وما كان لبيته المشهور « الخيل والليل والبيداء . . . » من تأثير في نفسه جعله يضحي حياته وحياة ولده في سبيل وقفة عز فهنا أظهر المتنبي الشجاعة حيث ينبغي اظهار الحزم والرأي . وكذلك فعل بايرون الذي مات في اليونان ، والمشابهة مجتلية هنا . ويعجز الكاتب عن فهم طبيعة وقفة العز والوفاء للمبدأ التي وقفها كل من الشاعرين .

★ ★ ★

وأخيراً يحسن التأكيد أن الخالدي كان مؤهلاً تأهيلاً معقولاً لأن يكون باحثاً مقارنياً ، فقد كان ذا ذوق أدبي حسن واطلاع جيد على الآداب العربية والأجنبية ، وكانت معرفته باللغات وافية إذ أتقن العربية والفرنسية والعثمانية والفارسية ، وساعدته كذلك ظروفه الشخصية من خلال اقامته في فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين أي في الفترة التي بلغ فيها تألق فرنسا الأدبي قمة من قممه العديدة ، وفي خلال اقامته هذه تعرف المؤلف على عدد من المستشرقين الأوروبيين وذكرهم وذكر آراءهم في كتابه . يضاف إلى ذلك كله ما ظهر في ثنايا الكتاب من حرص على الدقة وابتعاد عن المبالغة والاسراف ، وتقيد بالامانة العلمية من حيث الرجوع إلى المصادر ، ومراقبة لهوى النفس إذ لم يسمح لتعلقه الشخصي بفيكتور هيغو أن يطغى على أحكامه فلا غرو اذن أن يكون لكتابه « تاريخ علم الأدب » فضل السبق في ريادة الأدب العربي المقارن . (١٦) .

وربما كان لانتماء روحي الخالدي إلى القدس أثر في تطلعه الواسع ونزعته المقارنية العالمية ، وهذا رأي تقتضي الأمانة أن أحتفظ بحقه لصاحبه الدكتور جون تايلر ، الباحث المعروف في مجال الدراسات الاسلامية والقضية الفلسطينية ، إذ صادف أن حدثته بشأن ما اسميته الاكتشاف العلمي الهام فيما يتعلق بريادة روحي الخالدي للأدب العربي المقارن ، فعلق على ذلك بقوله :

« ألا ترى أن الخالدي ابن القدس وفلسطين مؤهل بطبيعة انتمائه لأن يكون له هذا التطلع العالمي المقارني ؟ » .

(١٦) لا أدري إذا كان وارداً هنا إرجاع القارىء إلى العرض اللطيف حول « عدة الباحث المقارني » في كتاب غويار :
غويار ، م . ف : الأدب المقارن ، ترجمة د . محمد غلاب ، سلسلة (ألف كتاب) رقم ٤٤ ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٥ - ٨ .

القسم الثالث

تاريخ علم الأدب في المراجع الأدبية (١٧)

الخالدي في مراجع الأدب العربي :

مقابل ما رأيناه في القسم الاول من هذا البحث من إعتناء تراجم الاعلام والكتب الموسوعية بروحي الخالدي فان المراجع العامة في الأدب العربي الحديث والكتب ذات الطابع الأدبي والنقدي العام تكاد تهمله اهمالاً تاماً . ويستثنى من ذلك المؤلفات ذات الطابع البيبليوغرافي او التعريفي ، مثل كتاب يوسف اسعد داغر « مصادر الدراسة الأدبية » . وقد أورد له ترجمة مفصلة يتضح فيها شعوره بالأهمية العامة للمترجم له (١٨) . وفي الكتب التي تعنى بتحليل البيبليوغرافيا الأدبية هناك اشارة واضحة للخالدي في بحث للدكتور محمد يوسف نجم حول حركة النقد الأدبي العربي في كتاب « الادب العربي في آثار الدارسين » وهو من الكتب الأولى التي اهتمت بتحليل المصادر والبيبليوغرافيا ، ان لم يكن الكتاب الأول من نوعه في الأدب العربي الحديث . ويقرر الدكتور نجم في هذا البحث ان حركة النقد الجديد في عصر النهضة تمخضت عن ثلاثة آثار (كان لها شأن كبير في حركة النقد الحديث ، وكان معيناً ثراً ارتوى منه نقاد الربع الأول من هذا القرن) . وهذه الأثار هي . . . (١٩)

---

(١٧) رأينا أن نقدم هذا القسم الثالث أو الملحق ، اعترافاً بفضل الأساتذة الذين سبقوا الى التنويه بأهمية الخالدي ، والملاحظ أنهم جميعاً من مؤرخي الأدب العربي في فلسطين .

(١٨) داغر ، يوسف أسعد : مصادر الدراسة الأدبية ، بيروت ١٩٥٦ ، ج ٢ ص ٣٣٣ - ٣٣٥ .

(١٩) نجم ، د . محمد يوسف : من بحث (الفنون الأدبية) في كتاب « الادب العربي في آثار الدارسين » ، تأليف د . صالح العلي وآخرين ، بيروت ، ط ١ شباط ١٩٦١ ، ص ٣١٨ .
ولست متأكداً من صحة هذا الحكم ولاسيما بالنسبة لكتابي الخالدي والحمصي .

١ ـ « مقدمة إلياذة هوميروس » لسليمان البستاني .

٢ ـ « تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوكو » ، تأليف روحي الخالدي .

٣ ـ « منهل الوراد في علم الانتقاد » ، جزءان ، تأليف قسطاكي الحمصي .

ويصف د . نجم محتويات كتاب الخالدي باختصار شديد ، ويعلق عليه بما يلي :

(والكتاب فيما أرى أول محاولة جدية لدراسة الأدب الغربي ، بقصد الافادة منه في دراسة أدبنا القومي ، وهذا واضح من مقارنات الكاتب ومن المسائل التي عُني بإبرازها في هذه الدراسة) (٢٠) .

ومن الواضح أن تعليق الدكتور نجم هذا إنما يرشح الكتاب لأن يكون أساساً في الأدب المقارن ، وهو أقرب إلى هذا المنحى في البحث الأدبي منه الى النقد ، والغريب أن الدكتور نجم يتحدث فيما بعد عن (العناية بالأدب المقارن) ويذكر بواكيره ولكنه لا يذكر كتاب الخالدي ، كما أنه لا يذكر الجزء الثالث من كتاب قسطاكي الحمصي : (منهل الوراد في علم الانتقاد) (١٩٣٥) الذي يضم دراسة وافية حول تأثر (الألعوبة الالهية) (٢١) لدانتي برسالة الغفران للمعري ، وهو بحث من صميم اهتمامات الأدب المقارن .

أما في المراجع العامة المتداولة عن الأدب العربي الحديث والنقد الأدبي فان حظ روحي الخالدي كان ضئيلاً جداً ، إذ لم يرد له ذكر ذو شأن سواء في المؤلفات العامة مثل كتاب حنا الفاخوري حول (تاريخ الأدب العربي) ، وكتاب عمر الدسوقي : (في الأدب الحديث) ، ام في المؤلفات التي تتحدث عن نشأة النقد العربي الحديث مثل كتاب عبد الحي دياب : (التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد) الذي يذكر فيه نجيب الحداد ، وحسين توفيق العدل ، وخليل مطران ، وسليمان البستاني ، وقسطاكي الحمصي ، وأحمد ضيف وغيرهم ، ولا يشير إلى روحي الخالدي بكلمة واحدة ، أو مثل كتاب عز الدين الأمين (نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر) ، ولا أذكر ان إسم روحي الخالدي ورد في كل ما قرأته سابقاً من مراجع حول الأدب العربي الحديث أو النقد . وخيل إلى أنه من المحتمل أن يرد ذكره في بعض الكتب أو المقالات التي تبحث كلياً أو جزئياً في الأدب المقارن ، ولكنني لم أجد له ذكراً أيضاً عند مؤلفين مثل د . محمد غنيمي هلال ود . عبد السلام

(٢٠) المصدر السابق ، ص ٣١٩ .

(٢١) هكذا شاء قسطاكي إن يسميها .

كفـــافي . كما أن معـــاصـره قسطـاكي الحمصي لا يذكـره في كتـابـه (منهـل الـوراد في علم الانتقـاد) ، سواء في الجـزأين الأولـين من كتـابـه اللذين صدراً في العقـد الأول من القرن العشرين أم في الجزء الثالث الذي صدر عام ١٩٣٥ والذي اتجه فيه الحمصي اتجاهاً مقارنياً واضحاً (٢٢) .

وفي بحث جديـد قدمـه الـدكتـور عطيـة عامر لملتقى الأدب العربي المقارن في عنابة بالجـزائـر (١٤ -١٩/ ٥/ ١٩٨٣) بعنـوان (تاريخ الأدب المقارن في مصر) لا نجد أية اشارة للخالدي،(٢٣) .

ومما يلفت النظـر أن ذكر الخالدي في كتب تاريخ الأدب العربي الحديث كان محدوداً جداً ، ويمكن ان تعـدَّ على أصـابـع اليـد الـواحـدة تلك الاشارات التي تتعلق به ، وهي مختصرة جداً ولا تنقع غليلاً . ومن أبرز الذين ذكروه :

١ ـ الأب لويس شيخـو في كتـابه القديم عن تاريخ الأداب العربية (٢٤) ويصفه بأنه كاتب بارع ويشيد بفضله وعلمه .

٢ ـ ذكره جرجي زيدان في كتابه « تاريخ اداب اللغة العربية » من خلال اشارة الى كتـاب « تاريـخ علم الأدب . . » الـذي صنفـه زيـدان في قائمـة « كتب تاريخيـة متفرقة ، اصحـابهـا توفـوا » وذكـر معه كتباً تاريخية خالصة ولم يشر اليه في باب الكتب الأدبية (٢٥) . ويستغـرب المرء كيف يصـدر ذلـك عن جرجي زيـدان الـذي نشـر له كتـابـه ومقـالاته في

(٢٢) الحمصي ، قسطاكي بك (الحلبي) :

منهل الوراد في علم الانتقاد ، ج ١ ، مطبعة الاخبار بالفجالة بمصر (؟)

تحمل المقدمة تاريخ ١/ ٧/ ١٩٠٦

ويحمل الاهداء تاريخ ١١/ ١/ ١٩٠٧

ج ٢ ، لا يحمل تاريخاً ولعله دفع إلى المطبعة مع الجزء الأول .

ج ٣ مطبعة العصر الحديث بحلب .

والجزء الثالث كذلك لا يحمل تاريخاً ويخلو اسم المؤلف من لقب بك ولكنه يحتفظ بصفة الحلبي .

(٢٣) ظهـر هذا البحث في مجلة (فصـول) بعـد ذلـك . انظـر : عامـر ، عطية : « تاريخ الأدب المقارن في مصر » ، فصول ، القاهرة ، المجلد ٣ ، ع ٤ ، يوليو ـ سبتمبر ١٩٨٣ ، ص ص ١٣ ـ ٢٢ .

(٢٤) شيخو اليسوعي ، الأب لويس : تاريخ الأداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين ، بيروت ١٩٢٦ ، ص ٥٠ .

(٢٥) زيدان ، جرجي : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، دار الهلال ، بلا تاريخ ص ٢٦٦ .

« الهلال » واشاد به على صفحاتها ونوه بعلمه وفضله وتقديسه للحرية (٢٦) .

٣ ـ ذكره انيس الخوري المقدسي في كتابه « الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث » . ويتبين من فهرس الاعلام المثبت في نهاية هذا الكتاب ان الخالدي مذكور في الصفحتين ٢٢ ـ ٢٣ ، ولكن بعد الرجوع إلى هاتين الصفحتين لم أجد سوى اقتباس بسيط في أول صفحة ٢٢ من مقال لروحي الخالدي في الهلال (١٧ ـ ١٤٥) حول السلطان عبد الحميد وبدء تنكبه طريق الاستبداد (٢٧) وليس للخالدي ذكر في ص ٢٣ أو في سواها .

٤ ـ أما الاشارة الرئيسية له في كتب الأدب والنقد فقد وردت ، على نحو ما يذكر الدكتور ناصر الدين الأسد ، في كتاب الدكتور اسحاق موسى الحسيني المسمى « النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين » ، وفيه عرض لآراء الخالدي ونظراته في النقد الأدبي ، وبعده الدكتور الحسيني من أوائل الذين استخدموا مصطلح « النقد الأدبي » ترجمة للكلمة الفرنسية Critique Litteraine ، ويشيد بسعة افقه في تعريف مصطلح الأدب إذ تناوله بمعناه الشامل وأدخل فيه القصص والروايات والحكايات والأغاني والتاريخ والسياسة والرحلة ، كما ينوعه بدعوة الخالدي القوية إلى اطلاع الأديب على آداب الامم الأخرى وإلى ذمة الافراط في المحسنات البديعية والتكلف والتقليد (٢٨) .

ويمكن ان يلحق بما تقدم اشارة الدكتور اسحق موسى الحسيني إلى الخالدي في كتابه الصغير : « هل الأدباء بشر ؟ » ، ويقدم الأديب المقدسي سلفه المقدسي تقديماً موجزاً ولكن حميماً ويعده من « زعماء النهضة الحديثة » ، ويشير إلى كتابه في « علم الألسنة » ، بتقدير شديد كما ذكرنا آنفاً (٢٩) .

وهناك اشارات اخرى عابرة للخالدي في بعض المقالات النقدية لم نجد ضرورة

---

(٢٦) انظر تفصيل ذلك في كتاب « روحي الخالدي » لناصر الدين الأسد ، ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٢٧) الخوري المقدسي ، انيس :
الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، منشورات كلية العلوم والآداب ، جامعة بيروت الأميركية ، ج ١ ، ط ١ ، ص ٢٢ ، والجزء الأول خال من أية اشارة إلى مكان الطبع وتاريخه ، ولكن الجزء الثاني يشير في عنوانه الانكليزي إلى بيروت ١٩٥٢ ، في حين ان الغلاف العربي يذكر التاريخ دون المكان .

(٢٨) يتوسع الدكتور ناصر الدين الأسد نسبياً في شرح اراء الدكتور الحسيني في مواطنه المقدسي واليه يرجع الفضل في لفت النظر إلى كتاب الحسيني الذي لم اعرفه من قبل ، والحق ان كتب معهد البحوث والدراسات العربية محدودة الانتشار ، وليس من السهل دائماً الحصول عليها . ص ٧٥ ـ ٧٨ .

(٢٩) الحسيني ، د . اسحاق موسى : هل الأدباء بشر ؟ ص ٣٣ ـ ٣٤ .

للتوقف عندها .

في مراجع الأدب الفلسطيني :

ونأتي أخيراً إلى المراجع الخاصة بالأدب العربي الفلسطيني ، فنجد ان الخالدي يلقى اهتماماً طيباً بوصفه رائداً من رواد النهضة الأدبية بوجه عام والنقد الأدبي بوجه خاص ، ولكن ريادته للأدب المقارن لا تخطر لأحد ، ربما لانه هو نفسه لم يقدم كتابه في نطاق هذا الحقل ، وربما أيضاً لأن العناية بالأدب المقارن تأخرت في البلاد العربية حتى نهاية السبعينات على الأقل . على أي حال ينبغي ان يشير المرء بتقدير شديد إلى جهود ثلاثة من الباحثين في هذا المجال بوجه خاص :

١ ـ وأولهم هو الدكتور ناصر الدين الأسد ، الذي لفت النظر عام ١٩٧٠ إلى مكانة روحي الخالدي في تأسيس البحث التاريخي الحديث في فلسطين ، وأتى كتابه عن روحي الخالدي عملاً جاداً مخلصاً في مجال انصاف هذا الرائد الكبير . ونظراً لان هذا الكتاب مفقود منذ زمن فسيوف يجري هنا تقديم فكرة موجزة عنه بقدر ما يسمح المجال طبعاً .

ويقع هذا الكتاب في مئة وثمانٍ وخمسين صفحة ويتحدث مؤلفه في القسم الأول عن البيئة الثقافية في فلسطين وعن الاسرة الخالدية وعن سيرة روحي وآثاره ، وعن شخصيته الثقافية وعوامل تكوينه الفكري وخصائصه الفنية . ويقدم في القسم الثاني أربعة من كتب المؤلف الأساسية وهي :

- « تاريخ علم الأدب . . . . » .
- « رسالة في سرعة انتشار الدين المحمدي . . . . »
- « الانقلاب العثماني » .
- « الكيمياء عن العرب » .

ويضم الكتاب خمسة ملاحق منها نموذج من خط الخالدي وصورة شمسية له .

ويعنينا من كتاب الدكتور ناصر الدين بالدرجة الأولى الفصل الرابع الذي خصصه للكلام على كتاب « تاريخ علم الأدب . . . » ويمتد هذا الفصل بين ٦٧ ـ ٨٩ وفيه تعريف موسع بالكتاب وظروف تأليفه ثم تركيز على الموضوعات الثلاثة التالية :

أولاً ـ آراء ونظريات في النقد الأدبي :

ويستند في هذا الباب إلى آراء الدكتور الحسيني التي ذكرت قبل قليل .

ثانياً ـ المقارنة بين ما عند الافرنج وما عند العرب

من فنون القول وانواع الموضوعات والمعاني ويقدم خلاصة عامة لآراء الخالدي في هذا الباب .

ثالثاً ـ ما اقتبسه الافرنج من آداب العرب وعلومهم .

ويقول الدكتور الأسد في هذا الباب :

« وننتقل الآن إلى الموضوع الثالث من موضوعات الكتاب التي رأينا انها من اهم اصوله ، ولكنها جاءت منثورة في ثناياه ، وان كان هذا الموضوع احسن حظاً من الموضوعين السابقين ، إذ جاءت بعض اجزائه مجموعة معاً في فصول خاصة ، وبقيت أجزاء اخرى متناثرة (٣٠) .

ويلخص الدكتور ناصر الدين آراء الخالدي هنا ، ويختم ملاحظاته بالكلام على مزايا الكتاب ، مستنداً في ذلك إلى تعريف محرر مجلة الهلال بالطبعة الثانية من الكتاب ، وأهم هذه المزايا وأولها في رأيه « مادة الكتاب في موضوعين من موضوعاتها جديدة على القارىء العربي آنذاك » ، هذان الموضوعان هما :

المقابلة بين الآداب العربية والآداب الافرنجية ، وما اقتبسه الافرنج من آداب العرب وعلومهم . فكان روحي الخالدي أول من كتب كتاباً فيهما ، او من أوائل الذين تصدوا للبحث فيهما : (٣١) .

ويؤكد الدكتور ناصر الدين ان موطن الريادة يكمن في هذا الباب بالذات ، ويأخذ على كتاب الخالدي تفككه أحياناً واستطراداته وانتقالاته .

ونود ان نشير هنا إلى ان هذه الريادة التي لم يصنفها الدكتور الأسد في حقل معرفي معين بل ربما نسبها إلى التاريخ كما يوحي عنوان كتابه هي بالضبط التي ترشح الخالدي لأن يكون رائد الأدب العربي المقارن ولعل القارىء قد تبين في القسم الثاني من هذه الدراسة حقيقة قيمة كتاب الخالدي من خلال مصطلحات الأدب المقارن ورموزه ، ثم ان المستويين الأخيرين من البحث اللذين اشار اليهما الدكتور ناصر الدين هما مستويان متكاملان في البحث المقارني الحديث ، اما ظواهر التقطع والاستطراد التي اشار اليها استاذنا الفاضل

(٣٠) الأسد ، د . ناصر الدين : محمد روحي الخالدي . . . ، ص ٨١ ـ ٨٢ ،

(٣١) المصدر السابق ، ص ٨٧ ، ويرجح الأسد أن جورجي زيدان هو كاتب المقدمة .

فيرجع جزء منها إلى أن المؤلف كان (يقارن) وبالتالي كان عليه ان يرتاد آفاق التأثر والتأثير او التماثل على نحو ما تمليه كل واقعة ، مما يدفع المرء دفعاً إلى الميل ذات اليمين وذات الشمال ، ومعظم باحثي الأدب المقارن يشكون من اضطرارهم المستمر لركوب هذا المركب الخشن (٣٢) .

٢ ـ وإلى جانب كتاب ناصر الدين الأسد كان هناك الكتاب الرائد للدكتور عبد الرحمن ياغي حول الأدب الفلسطيني الذي أشار فيه إلى ظاهرة روحي الخالدي وكتابه « تاريخ علم الأدب . . . » ، وأشاد بمستواه النقدي المتطور وعرض محتواه واهم القيم الأدبية التي اهتدى بها (٣٣) .

وقد خطا بعد عبد الرحمن ياغي شقيقه الدكتور هاشم خطوة اخرى في مجال تقديم الخالدي فاشار إلى موقف الاستاذين السابقين وآرائهما ثم قدم بضع ملاحظات انتقادية تمحيصية أهمها :

١ ـ ان الخالدي كان من أبرز الكتاب العرب الذين اسهموا في بناء الجسر الضخم بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية .

٢ ـ كتاب الخالدي مشرب بالسمات التي تسللت إليه من المدرسة الرومانسية .

٣ ـ كتاب الخالدي رائع في مستواه النظري متعثر بعض التعثر في مستواه العلمي .

٤ ـ تناقض الخالدي سياسياً حين انكر على البلغاريين والأرمن واليونانيين طلبهم الحرية السياسية من العثمانيين .

٥ ـ الخالدي (ألحَّ كثيراً على اهتمام الاوربيين بالمعنى وذهب إلى ان هذا الاهتمام بالمعنى يفوق كثيراً الاهتمام باللفظ ، ولكن المسألة ليست عند الرومانسيين الاوربيين بهذا اللون من التجريد ، فهم لا يفرقون بين الشكل والمضمون بل انهما عندهم كالروح

---

(٣٢) تقتضيني الدقة والامانة وربما التبرؤ من شبهة العقوق أن أشير إلى أنني لم اطلع على كتاب الدكتور ناصر الدين إلا بعد ان كتبت دراستي الكاملة عن مضمون كتاب (تاريخ علم الأدب . . .) ومنحاه المقارني وريادته للأدب العربي المقارن ، وهذا ما يفسر جزئياً عدم ورود اشارات لكتاب الدكتور ناصر الدين في صلب الدراسة ، اما السبب الاساسي لذلك فهو اختلاف منهجي الذي اردته ان يكون مركزاً تركيزاً شديداً على مسألة الريادة المقارنية للخالدي ، وهو ما لم يلتفت إليه أي من الاساتذة الذين سبقوا إلى الاشادة بالخالدي ، وأرجو أن أسجل بهذه المناسبة شكري للدكتور ناصر الدين لانه ارسل لي نسخة مصورة عن كتابه (المفقود) واعترافي بفضله وسبقه واستاذيته .

(٣٣) ياغي ، د . عبد الرحمن : حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة ، بيروت ١٩٦٨ ص ٥٢٧ ـ ٥٣٢ .

والجسد اللذين لا سبيل إلى التفريق بينهما دونما إخلال بكل واحد منهما) (٣٤) .
٦ ـ الخالدي خلط بين مفهوم الأدب ومفهوم اللغة .
٧ ـ وقع الخالدي في تعميمات كثيرة .

على ان هذه الملاحظات ـ التي هي في رأيي قابلة للنقاش وتكاد تخرج بالمرء عن الجو الخاص للكتاب ـ لم تمنع الدكتور هاشم من ان يؤكد ريادة الخالدي النقدية وان يشيد بما قدمه ولاسيما من ناحية فهم الأدب الاوربي :

« ولعل نقد الخالدي اول نقد عربي في نهضتنا الحديثة كانت صورة المدارس الأدبية من الناحية النظرية واضحة ومتبلورة فيه » (٣٥) .

ثم يصف الدكتور هاشم كتاب الخالدي بأنه : « كان قفزة عالية رائعة في حياة النقد الأدبي الفلسطيني خاصة ، لا بل هو قفزة عالية أيضاً في حركة الأدب العربي الحديث عامة . . » ، ويفضله على كتابات المهجريين من حيث العمق وفهم الثقافة الأجنبية . ومع ذلك يعود بعد صفحات الى التأكيد أن طفرة الخالدي كانت نسبية بالقياس إلى ما سبقها لا إلى ما لحقها من حركة نقدية في فلسطين :

(ان الطفرة النقدية التي رأيناها في كتاب روحي الخالدي لم تكن طفرة الا بالقياس لما سبقها من تيارات نقدية . أما ما جاء بعد هذه الطفرة من نقد فقد كان في مستوى رفيع كذلك لا يقل عن مستوى روحي الخالدي إن لم يفقه) . (٣٦)

ومرة أخرى ، ومع تقدير رأي الدكتور هاشم ، يود المرء أن يذكر بأن هذه الملاحظة ، شأنها شأن الملاحظات السابقة ، قد تكون ناجمة عن اختلاف الحقل المعرفي والمناخ بين الناقد والمنقود وهذا هو السبب الذي جعل طريقة تحديد طبيعة اسهام كتاب (تاريخ علم الادب . .) في النهضة العربية محفوفة باللبس والتداخل . ذلك انه بدون الاستعانة بموقف مقارني منهجي يصعب الدخول في جو محاولة الخالدي الرائدة ويتعذر

---

(٣٤) تبدو هذه المناقشة بعيدة نسبياً عن مناخ كتاب الخالدي وأغراضه ، كما ان تحديد الموقف الرومنتي من قضية الشكل والمضمون هنا لا يطبق ما تعرفه عن عدم احتفال الرومنتيين بالنواحي الشكلية ، فالرومنتية تصنف في عداد المذاهب (اللاشكلية Informalist وهذا ما رمى إليه الخالدي في كلامه .

(٣٥) ياغي ، د . هاشم : حركة النقد الأدبي الحديث في فلسطين ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٤٠ ، وانظر مجمل البحث في ص ٣٥ ـ ٤٣ .

(٣٦) المصدر السابق ، ص ٤٧ .

تحديد طبيعة اسهامه ومداه . ان الخالدي قد لا يكون الرائد الوحيد للأدب المقارن العربي في فترته ، وهذه مسألة تحتمل النقاش ، ولكنه حتماً لم يقدِّمْ نفسه بوصفه رائداً نقدياً او منظِّراً أو حتى متذوقاً في مجال التطبيق ولقد تناول بعض المسائل من الناحية المقارنية فأُخذت عليه مآخذ نقدية . ولعل خطأه يقع بالضبط في انه لم يقدم كتابه تقدمة توحي إيحاءً كافياً بإعداده المقارني ، مع انه كتب الكتاب في فرنسا أيام كانت قد بدأت معركة إدخال الأدب المقارن في الجامعات ، وأيام كانت فتنة الابحاث المقارنية قد بدأت تتجلى في كتابات اساتذة موهوبين مثل جوزيف تكست وإدوارد رود ، ولوي بول بتس ، وفرنان بالدنبسرجر ، وبول هازار وغيرهم .

ويرجى الا يفهم من كل ما تقدم أي اعتراض ، بل اية نية للاعتراض ، على ما قدّمه الاساتذ الكبار حول مكانة الخالدي النقدية ذلك أن حقول المعرفة الأدبية متداخلة وليس لها حدود واضحة ، وكتاب الخالدي نفسه ريادة مبكرة متعددة الجوانب ، ويرجع الفضل في اكتشاف أهميته الأدبية العامة إلى الاساتذة الكبار : د . ناصر الدين الأسد ، د . اسحاق موسى الحسيني ، د . عبد الرحمن ياغي ، د . هاشم ياغي . . . وهي حقيقة ناصعة لامراء فيها .

وختاماً ، لا بد من التوجه بالشكر الخالص لاتحاد الكتاب الفلسطينيين لما يقدمه من خدمة وطنية كبرى في اعادة نشر التراث العربي الفلسطيني ، وان اعادة نشر كتاب الخالدي بالذات تشكل خطوة مهمة باتجاه ترميم اللوحة العامة لاسهام ادباء فلسطين في مسيرة الأدب العربي الحديث من جهة ، وباتجاه تصحيح بعض النواحي المتعلقة بتطور الحقول المعرفية للأدب العربي الحديث .

المراجع

الأسد ، د . ناصر الدين
محمد روحي الخالدي ، رائد البحث التاريخي في فلسطين ،
معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٠ .
الأمين ، عز الدين :
نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر ،
دار المعارف بمصر ١٩٧٠ .

الحسيني ، د . اسحاق :
هل الادباء بشر ؟
دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٠ .
الحمصي ، قسطاكي : منهل الوراد في علم الانتقاد ،
ج١ ـ ٢ مطبعة الأخبار بمصر ١٩٠٦ .
ج ٣ ، مطبعة العصر الحديث بحلب ١٩٣٥ .
الخالدي ، روحي : تاريخ علم الأدب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوكو ، مطبعة الهلال بالفجالة بمصر ، ١٩١٢ (ط ٢) .
الخطيب ، حسام : « الأدب المقارن بين التزمت المنهجي والانفتاح الانساني »
ـ المعرفة ، دمشق ، الاعداد ٢٠٤ ـ ٢٠٧ ، شباط ـ أيار ١٩٧٩ .
ـ « ملتقى الأدب المقارن في عنابة » ، ع ٢٥٧ ، س ٢٢ ، تموز ١٩٨٣ .
الخوري المقدسي ، انيس : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ، منشورات كلية العلوم والأداب ، جامعة بيروت الاميركية ، ج ١ ط ١ . الجزء الأول خال من أية اشارة إلى مكان الطبع وتاريخه ، ولكن الجزء الثاني يشير في عنوانه الانكليزي بوضوح إلى بيروت ١٩٥٢ ، في حين ان الغلاف العربي يذكر التاريخ دون المكان .
داغر ، يوسف اسعد :
مصادر الدراسة الأدبية ، بيروت ١٩٥٦ .
دسوقي ، عمر :

في الأدب الحديث ، جزءان ط ٦ ، القاهرة ١٩٦٤ .
دياب ، عبد الحي :
التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد ،
القاهرة ١٩٦٨ .

الزركلي ، سليم :
معجم الاعلام ، ط ٣ ، بلا تاريخ ، بلا مكان
زيدان ، جرجي :
تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤
دار الهلال ، بلا تاريخ

عامر ، د . عطية
« نشوء الأدب المقارن في مصر »
ورقة قدمت إلى ملتقى عنابة للأدب المقارن (أيار ١٩٨٣) ، ونشرت في فصول ، القاهرة ، مجلد ٣ ، ع ٤ ، يوليو ـ سبتمبر ١٩٨٣ ، ص ١٣ ـ ٢٢
العودات ، يعقوب (البدوي الملثم)
من اعلام الفكر والأدب في فلسطين ، عمان ١٩٧٦ .
غربال ، محمد شفيق (إشراف) :
الموسوعة العربية الميسرة ، دار القلم ومؤسسة فرانكلين ، القاهرة ، بلا تاريخ
غويار ، م . ف :
الأدب المقارن ، ترجمة د .محمد غلاب ، سلسلة ١٠٠٠ كتاب رقم ٤٤ ـ القاهرة ، ١٩٥٦ .
الفاخوري ، حنا :
تاريخ الأدب العربي ،
المكتبة الوطنية ، بيروت ، ط ٧ ، بلا تاريخ
كفافي ، د . عبد السلام :
الأدب المقارن ، . دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٢ .

لجنة الثقافة العربية في فلسطين :
الكتاب العربي الفلسطيني ، القدس ١٩٤٦ .
نجم ، د . محمد يوسف : من بحث الفنون الأدبية في كتاب (الأدب العربي في آثار الدارسين) تأليف د . صالح العلي وآخرين ، بيروت ، ط ١ شباط ١٩٦١ .
هلال ، د . محمد غنيمي :
الأدب المقارن ،
دار العودة ودار الثقافة ، بيروت ط ٥ ، بلا تاريخ
(مقدمة ط ٣ مؤرخة في ١٩٦٢)
ياغي ، د . عبد الرحمن :
حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة ،
بيروت ١٩٦٨ .
ياغي ، د . هاشم :
- النقد الأدبي الحديث في لبنان ، ج١ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ .
- حركة النقد الأدبي الحديث في فلسطين ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٣ .

مراجع أجنبية :

L'encyclopedie de l'Islam, nouvelle edition, paris - london 1978, P. 969.

Weisstein, Ulrich,
Comparative Literature and literary Study, Indiana University Press, Bloomington - London 1973.

مقدمة الناشر

للطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٠٤ والمؤلف يومئذ قنصل جنرال الدولة العثمانية في بوردو وقد نال الاستبداد من نفوس العثمانيين وقيد اقلام احرارهم فلم نعد نسمع غير اصوات المتزلفين او المتملقين . وإذا تكلم الحرُّ تكلم همساً وإذا كتب أخفى اسمه ولاسيما إذا كان من موظفي الحكومة ولو كان موضوعهُ في الأدب او الطب لأن الجواسيس يحولون كل معنى إلى المكائد والدسائس . وابت نفس صديقنا الخالدي مؤلف هذا الكتاب إلا أن ينشر ثمار درسه وبحثه فعهد بذلك إلى «الهلال» على أن تنشر بلا توقيع . فنشرنا هذا الكتاب مقالات متوالية والقراء يسألوننا عن اسم كاتبها ويتشوقون لمعرفته . فلما طبعناها في كتاب على حدة تقدمنا إليه ان يأذن بنشر اسمه في صدر الكتاب فاكتفى بالاشارة إلى موطنه فوضعنا بدل اسمه لفظ « المقدسي » نسبة إلى القدس الشريف مسقط رأسه .

فأحرز هذا الكتاب اعجاب القراء الأدباء في العالم العربي وغيره فحملنا ذلك على اعادة طبعه رغبة في نشر علم الأدب بين قراء العربية ونحن في أشد الاحتياج إليه . ولاسيما على الاسلوب الذي توخاه المؤلف من المقابلة بين الآداب العربية والافرنجية وذكر ما اقتبسه الافرنج من آدابنا واساليبنا مما لم يتصد للبحث في احد قبله ـ ولم نر احداً تصدى له بعده . فضلاً عما يتخلل ذلك من الفوائد التاريخية والقواعد الاجتماعية عن الأدب العربي وتاريخه وما تقلب عليه من الاطوار تبعاً للسياسة والاجتماع . وتاريخ الادب الفرنساوي من أول عهده إلى زمن فيكتور هوكو وما ادخله فيه هذا النابغة من التعديل نقلاً عن الأسلوب العربي في الشعر والأدب وصل إليه عن طريق اسبانيا . وناهيك بسهولة عبارة الكاتب وتناسقها مما يرتاح اليه القارىء ويجد فيه لذة وشوقاً للمطالعة ، غير ما عني بتلخيصه ووصفه من مؤلفات هوكو وبسط ما حوته من الفوائد الفلسفية والأدبية ومقابلة ذلك بها عند أدباء العرب .

وبالجملة فان هذا الكتاب من الذخائر النفيسة التي لا يستغني عنها اديب . فلما نفذت نسخ الطبعة الأولى استأذناه في اعادة الطبع فأذن لنا خدمة للأدب العربي ، وقد اعلن الدستور وصار المؤلف من اعظم اركانه فلم يبق ثمة باعث على التكتم فطبعناه وصدرناه باسمه وزيناه برسمه ليتم التعارف بينه وبين القراء المعجبين بأدبه وفضله .

القاهرة في ١٥ يناير سنة ١٩١٢ .

وهذه صورة منشور كان قد وزعه بالافرنجية بعد صدور الطبعة الأولى يخاطب به ادباء الافرنج على الخصوص قال :

AU LECTEUR

L'editeur de ce livre a bein voulu l'illustrer de quatre gravures et lui donner le titre flatteur d'Histoire des Litteratures.

L'auteur lui sait gré de sa bonne intention. mais il doit s'excuser auprés du lecteur. Habitant Bordeaux, loin des bibliothéque orientales ou se trouvent les documents necessaires pour écrire une pareille histoires,il n'a jamais pesé á se donner une tâche si lourde. Il a écrit seulement des melanges historiques let teraires et il les a fait paraîtres sous le titre de:

فيكتور هوكو وعلم الأدب عند الافرنج والعرب

Etudes sur Victor- Hugo et sur la littérature chez les Européens et chez les Arabes» . Il les a signé EL- MAQDiSI, Hierosolymite qui designe sa ville natale.

En publiant ce recueil en 1902- 1903 dans la revue arabe al- Hilal, fondée au Caire par DJORDJI ZAIDAN, L'auteur a voulu prendre part à la manifestation littéraires qui s'est produite dans le monde civilisé a l'occasion du centenaire du grand poète. De la, la hâte de cette publication dont l'actualité ne donna pas le temps d'approfondir le sujet et d'y apporter les corrections nécessaires,

L'auteur a eu d'autres buts encore: c'est de propager les idées modernes parmi ses coreligionnaires et tous les lecteurs de la langue du Coran et de donner aux jeunes poètes arabes une idées precise de la litterature francaise en particulier et des littératures européennes et mondiales en general. Enfin, il a voulu faire connaitre aux ecrivains orientaux de la nouvelle generation les différants genres et les multiples sujets que peut traiter un poète moderne.

C'est ainsi que l'auteur a été amené à résumer l'histoire de la littérature arabe et à parler de la conquête musulmane en Europe, afin de prouver l'infuence de la littérature arabe sur les litteratures européennnes du moyen-âge, Il a développé ensuite la différence qui existe entre l'Ecole chassique et l'Ecole romantique et traduit littéralement des morceaux choisis de Victor Hugo en les comparant avec quelques poésies d'EL- MA'ARRI, d'EL- MOTENEBBI et d'autres poètes arabes.

Ce volume aurait pu être écrit en prose rimée à l'imitation des séances de Hariri, mais etait-il nécessaire de le faire briller par un vain luxe de mots inutiles? Il est préférable d'être clair précis et accessible à la masse des demi-Lettrés sortis des écoles, d'Orient organisées a l'Europeenne, C'est ce qui a été fait,

Bordeaux, 5 Juin 1906.

MOHAMMED ROUHI EL- KHALIDY

EL- MAQDISI

فيكتور هوكو

احتفال الفرنساويين له باليوبيل القرني

احتفل الفرنساويون في اوائل سنة ١٩٠٢ بالشاعر فيكتور هوكو في البانتيون كما احتفلوافي اواخر العام السابق بيوبيل الكيماوي برتلو في الصوربون . والبانتيون هيكل فخيم على رابية من روابي باريس بالقرب من الصوربون . وهو اليوم مدفن اعاظم الرجال الذين يعترف لهم الوطن الفرنساوي بالفضل والحسنى .

ففي السادس والعشرين من شباط الماضي (فبراير) الموافق لختام القرن الأول من ميلاد فيكتور هوكوا ابتدأ موسم الاحتفال بيوبيل هذا الشاعر واجتمع في البانتيون الرؤساء والسفراء والعلماء والشعراء والمشخصون والمشخصات وكل من اشتهر في باريس من الرجال والنساء وأكثرهم بالالبسة الرسمية والعسكرية والكساوي العلمية والقضائية موشحون بوسامات الافتخار او متمنطقون بمناطق الحرير المثلثة الالوان او مكتفون بتزيين صدورهم بازرار الوسامات واشارات المداليات على اختلاف درجاتها واشكالها . وافتتح هذا الاحتفال الموسيو جورج ليغ ناظر المعارف الفرنساوية بخطبة شائقة .

وتلاه في الخطابة السياسي الشهير الموسيو غابريل هانوتو بالنيابة عن الاكاديمية الفرنساوية فاختلب الاسماع بجواهر لفظه واجتذب القلوب ببلاغة معانيه فانتقل كلامه بالتلغراف والتلفون لجميع المدن الفرنساوية وربما تجاوزها إلى كثير من البلاد الأجنبية . لان الموسيو هانوتو بعد ان حاز قصب السبق في ميدان السياحة وحل عقدة ماداغسكر والحقها ببلاده وفك العراقيل السياسية في افريقيا الغربية ونهر النيجر تنحى عن كرسي الوزارة وقد شغله مدة تزيد على اربع سنوات وجلس على كرسي الاكاديمية وأقبل على نشر الكتب وطبع المقالات التي اشتهرت في العالم كله وكان لهن شأن في مصر وغيرها من بلاد الشرق . وهو على رفعة قدره وعلو شأنه لم يزل كما كان في صباه مقيماً في الطابق الخامس من بيت يستطرق بابه على بولغار سن جرمن ويصعد

إلى مسكنه بدون مصعدة (اسانسور) مائة درجة .

ثم أنشـد بعض المشخصين والممثلات شيئاً من قصائد فيكتور هوكو وتلوا اجزاءً من احاديثه وانفض الجمع ليستأنفوا الاحتفال في مواضع اخرى من باريس لان حفلة البانتيون لم تكن الا افتتاح موسم ادبي في عموم البلاد الفرنساوية ودامت الزينات والافراح فيها سبعة ايام ولياليها وهم في كل يوم وليلة يرفعون الاعلام ويضيئون الانوار ويجمعون الجموع ويلقون الخطب ويأدبون المآدب ويشربون النخب ويمثلون على المراسح الروايات . وينشدون الاناشيد ويحررون المقالات المبتكرة ويصورون الرسوم البديعة ويعملون انواعاً كثيرة من المظاهرات والزينات احتفالاً بهذا الموسم وقرر مجلس نواب الأمة انفاق ثمانين الف فرنك لهذا الاحتفال عدا ما تنفقه مجالس البلدية والجميعات الخيرية والعلمية مما يفوق اضعاف هذا المبلغ .

فجاء هذا الاحتفال على اتم منوال وأحسن نظام لان الفرنساويين اقدر الأمم المتمدنة على اتقان الزينات واتمام معدات الاحتفال للطافة اذواقهم وخفة ارواحهم وميلهم إلى البهرجة والزينة . وهم يتهافتون على تعظيم رجال العلم والأدب ويبالغون في اجلالهم حتى كادوا يعبدونهم من دون الله ويتنسكون في ادخار آثارهم وجمع مناقبهم وحفظ اخبارهم ورفع الهياكل والتماثيل والانصاب لهم . كان الواحد منهم معبود من معبودات قدماء المصريين أو اله من آلهة اليونان او الفينيقيين . وهم والله أعلم يعتاضون بهذه الاحتفالات عما فاتهم من الاحتفال بتتويج الملوك ويوبيل القياصرة . وقد رفعوا لفيكتور هوكو تمثالاً عظيماً بل تماثيل وسموا باسمه الشوارع والميادين واتخذوا داره متحفاً سموه باسمه وسيجمعون فيه متاع الشاعر واثاث بيته وكل ما له ادنى علاقة به واذكر في أشعاره ولم يفرطوا شيء من ذلك . ولا اضاعوا له قلماً ولا دواة ولا ورقة من الاوراق التي تعلم بها وهو في المدرسة وقد كتب على واحدة منها « أريد ان اكون شاتوبريان أولا شيء » ولا الاوراق التي كان يلاعب بها اولاده ورسم لهم فيها الرسوم الهزلية والمضحكة ولا الكيس الذي وضع فيه مبلغ المائة وخمسة وعشرين فرنك ثمن المجلدين الأولين من تأليفه المسمى ميزيرابل .

ولو اردنا وصف هذه الاحتفالات وايراد الخطب التي تليت فيها والاتيان على ما حررته الجرائد من الفصول الطوال لاستغرق الكلام مجلداً ضخماً لان هذه الاحتفالات كان لها رنة عظيمة في اوربا كلها . وقد نشرت جريدة التيمس الانكليزية

ترجمة هذا الشاعر بالفرنساوية اعظاماً لشأنه لان شهرة فيكتور هوكو ليست في فرنسا وحدها بل هي طائرة في آفاق العالم المتمدن . وقد وصلت إلى بلادنا الشرقية منذ سنين . أتذكر اني قرأت في « المقتطف » وهولا يزال في سورية ابياتاً لفاضل من الأدباء لخص فيها فكراً من افكار فيكتور هوكو المذكورة في كتابه المشار اليه وصف بها حالة البائس المسكين الذي اشتدت حاجته واضطره الجوع حتى كسر قفل الخباز واخذ رغيفاً لسد رمقه فانتبه له الخفير وانقض عليه انقضاض البازي على العصفور وقاده إلى حبس التوقيف ثم رفعه إلى محكمة العدل فلم يشفق عليه حكام العدلية ولا رحمه قضاة الحقانية فارتعدت نفس الشاعر من هذا الظلم القاهر حتى صرخ قائلاً : « اين العدالة في أوهام شرعكم » .

ثم لما اتيت الاستانة وجدت ادباء الاتراك وشعراءهم ترجموا كثيراً من نظم فيكتور هوكو ونثره في ما نشر من مؤلفات كمال بك وعبد الحق حامد بك واكرم بك ومدحت افندي صاحب جريدة « ترجمان حقيقة » وفي « مجموعة الضياء » و« كتبخانة ابو الضياء » وترجم شمس الدين سامي باشا صاحب قاموس الاعلام جزءاً كبيراً من كتاب (ميزيرابل) وسماه باضافة اداة الجمع التركية عُلى كلمة (سفيل) العربية فقال « سفيللر » اي السفلة من الناس . ثم بلغني ان بعض ادباء مصر شرع في ترجمة هذا المؤلف الجليل وسماه « البؤساء » أو نحو ذلك فجمعت شيئاً من أخبار فيكتور هوكو ليحصل لنا علم اجمالي بترجمة حياته وحقيقة فلسفته وسبب شهرته .

الدور الأول من حياته

من ولادته سنة ١٨٠٢ إلى نفيه سنة ١٨٥٢

كانت فرنسا في افتتاح القرن التاسع عشر في هرج ومرج من هول الانقلاب الكبير الذي حدث فيها فغير معالمها وثل منها عرش الاستبداد وحرر العقول وبدل الظلام بالنور ووضع العدل في موضع الظلم وجرى بسبب ذلك من الفظائع الدموية ما تقشعر من سماع حديثه الجلود . لبث الانقلاب من سنة ١٧٩٠ إلى سنة ١٧٩٥ . ثم نبغ بونابرت واكتسح بالعساكر الفرنساوية ايطاليا ثم مصر وفلسطين وطاف به

اوربا من مشرقها إلى مغربها وقهر الملوك والامبراطور والقيصر استقدمه البابا من رومية إلى باريس ليلبسه تاج الامبراطورية ويسميه نابوليون الأول واجلس زوجته جوزفين على سرير الملكة ماري انطوانيت ثم لم يستحسن التاج على رأسها لأنها ارملة الجنرال بوهارنه فابدلها بماري لويز بنت أمبراطور المانيا وجعل اخاه الأكبر يوسف بونابارت ملكاً على نابولي ثم ملكاً على اسبانيا وحشد عساكره في هاتين المملكتين . وكان سيجسبر هوكو والد صاحب الترجمة ضابطاً في عسكر الفرنساويين ومأموراً مع جنودهم بالمحافظة على بيزانسون وهي مدينة على طريق السكة الحديدية بين مرسيليا وباريس وكان ابوه نجاراً وجده فلاحاً .

وفي ٢٦ شباط سنة ١٨٠٢ وضعت امرأته ماري في تلك المدينة غلاماً نحيفاً ضعيفاً فقيده في سجل نفوس البلدة باسم « فيكتور ماري هوكو » وكان له ولدان أكبر من فيكتور احدهما يسمى أبيل والآخر أوجين . وبعد شهرين من ولادة فيكور تلقى والده الأمر بالمسير إلى جزيرة كورسيكا ومنها إلى جزيرة ايليا فحمل إليها امرأته واولاده واقام فيها إلى سنة ١٨٠٥ . ثم دعي سيجسبر هوكو إلى باريس فذهب إليها بعائلته ودخل في خدمة الملك يوسف بونابرت ورافقه إلى نابولي ومعه عائلته فشاهد فيكتور بركان فيزوف وهو في السادسة من عمره وانطبعت في ذهنه صورة هذا الجبل وما يتصاعد من فوهته من اللهيب والدخان . وارتسمت في مخيلته مناظر ايطاليا الطبيعية وجوها الصافي . فلما كبر نظم هذه الرحلة وصف هذه المناظر في اشعاره أحسن وصف .

ولما ذهب يوسف بونابرت إلى اسبانيا ليلبس فيها تاج الملك اصطحب سيجسبر هوكو وعاد فيكتور مع امه واخويه إلى باريس وسكنوا في دير فيليانتين بجوار مدرسة الطب العسكرية التي يقال لها « فال دوغراس » وهي قرية من البانتيون . فكان فيكتور يقرأ مع اخويه اشعار فرجيل على راهب متضلع في الآداب اللاتينية واستمر على ذلك إلى سنة ١٨١١ وقد رقي والده وصار قائداً على الجيش وبلغ راتبه إلى ثلاثين ألف فرنك اسبانيولي (ريوس) ومنح الملك يوسف لقب كونت وعينه ناظراً على مطبخه العام . فاحضر حينئذ امرأته واولاده إلى مادريد . فاستفاد فيكتور هوكو من هذه الأسفار فوائد كبيرة وتمكن مع حداثة سنه من مراقبة جمال الطبيعة وحفظ أسماء المدن والبقاع التي مرّ بها . وشاهد في قصور مادريد آثار العمران الشرقي وصور

اعـاظم الـرجـال الـذين قامت بهم القـرون الماضية فاتسعت مخيلته وانفتق ذهنه ونفح بنفحـات شعـرائنـا الانـدلسيين فرقت الفاظه وراقت معانيةوظهر النفس الاندلسي في اشعاره وسمعت النفحة الاندلسية من اكثر قوافيه وذكر في قصيدته التي سماها غرناطة اكثر مدن الأندلس ووصف ما فيها من المباني والقصور وذكر في غير هذه القصيدة جميع المدن التي مرَّ بها في طريقه مثل ايرون وعين العرب التي يقال لها اليوم « فونت أرابي » وقلعة ايرناني وجعل اسم هذه القلعة عنواناً لرواية من رواياته . ودخل وهو في مادريد مدرسـة اولاد الاشـراف وخـالـط فيها أبناء الامراء من الاسبانيولين وعرف اخلاقهم وعاداتهم فنظمها في روايـة (ايرناني) و(ريوبلاس) وغيرهما من مؤلفاته واستعار اسماء كثـير من رفاقه ليشخصهم في قصصـه وروايـاتـه وكـان يدقق في احـوال الجند ويتأثر باصـوات ابـواقهم وصـدى موسيقـاهـم فأبـدع في وصف حركاتهم العسكرية وفتحهم القلاع ونزولهم مساء، ورحيلهم صباحاً وسيرهم ليلاً إلى غير ذلك من الاوصاف التي شخص بها حال العساكر تشخيصاً تاماً .

ولما انقلبت السياسة في اسبانيا واشتد الخطر على عساكر الاحتلال اعاد الجنرال هوكو عائلته إلى باريس ولم يبق عنده الا ابنه الأكبر أبيل فأدخله في خدمة الملك ورجع فيكتـور هوكـو مع امـه واخيه إلى الدير الذي كان فيه وعكف على مطالعة ما عند امه من الكتب كمؤلفـات فولتـير وجـان جاك روسـو وديدرو احد مؤلفي الانسلكوبيدي ومؤلفـات السـائح كوك وغيرهـم . وكان لامه الفة بعائلة فوشر احد مستخدمي نظارة الحـربيـة فكـانت مدام فوشـر تكثـر التردد عليها ومعها ابنتها الصغيرة عادلة (اديل) لتلعب مع فيكتور واخيه اوجين وتستنشق الهواء الصافي في بستان الدير . ولما ضبطت الحكـومـة هذا الـدير في جملة ما ضبطته من املاك الرهبان سكنت زوجة الجنرال هوكو بالقرب من دار فوشر فكثر اختلاط فيكتور هوكو بعادله والفها حتى صارت فيما بعد زوجته .

ولم يمض كثـير من الـزمـان حتى اشتدت الازمات السياسية وتوالت الحوادث المرهبـة وعـاد نابـوليون بالخيبة من سفر موسكو وعاد اخوه يوسف بعساكره من اسبانيا ومعـه الجنـرال سيجسـبر هوكو فالتمس الرجوع لمأموريته والدخول في سلك العساكر الفرنساوية فلم يقبلوه الا برتبته السابقة . وبعد ان دارت الدائرة على نابوليون الأول وحبطت اعمال الحكومة الامبراطورية وعاد آل بوربون إلى كرسي المملكة الفرنساوية

تقرب الجنرال هوكو إلى لويس الثامن عشر وتملق اليه حتى صار من المقربين لديه فخلع عليه رتبة الجنرالية وسلمه قيادة العسكر . فأراد ادخال ولديه الأصغرين في هذا السلك كما ادخل اخاهما الأكبر من قبل فوضع فيكتور واخاه اوجين في مدرسة (لوي لوغران) ليدخلهما فيما بعد مدرسة الفنون الحربية وهما من المدارس التي لم يزل يتردد اليهما بعض ابناء الشرق في باريس . فاقبل فيكتور هوكو على تحصيل العلوم الرياضية ولم يترك مع ذلك نظم الاشعار فنظم عدة قصائد في الغزل والمدح والهجو والهزل والرثاء وقصيدة في الطوفان ولم ير مباينة بين العلوم الرياضية المبنية على حقائق البرهانية وبين علوم الشعر التي كان يظنها الناس خيالات باطلة واوهاماً كاذبة وان اعذب الشعر اكذبه . بل كان يعتقد بان الشاعر لا بد له من تعلم العلوم الرياضية والطبيعية وكان يعتبر تصور حوادث الكون وتخيل مناظر الطبيعة وجمع معاني ذلك في الذهن ثم افراغ المعاني في قوالب الالفاظ ونسجها في ابيات الشعر كل ذلك اشبه بتصوير المسائل الحسابية والهندسية وحل المعادلات الجبرية . ولذا قال ان صباه لم يكن إلا تخيلاً طويلاً ممزوجاً بدرس مدقق وان لا مباينة بين التدقيق والشعر لان القواعد الرياضية تطبق في الشعر كما تطبق في هذا العلم وقال أيضاً « أن الكلمة كائن حيّ فاعلموه » .

وكان شاتوبريان من أفحل ادباء العصر وله مؤلفات جليلة في النظم والنثر وقد طاف بلاد الشرق وزار مصر وسوريا واليونان والف بعد ذلك كتابه المسمى (روح النصرانية) وبحث عن حكمة الديانة المسيحية فطالبه فيكتور هوكو واعجب به وتشرّب منه آراء المذهب الكاثوليكي وسياسة الحزب الملوكي فكتب على دفتره وهو في المدرسة بتاريخ ١٠ يوليو سنة ١٨١٦ « أريد ان اكون شاتوبريان أو لاشيء » وبعد سنة من هذا التاريخ فتحت الاكاديمية الفرنساوية مسابقة للشعراء وجعلت موضوع السباق « فوائد المطالعة » فنظم فيكتور هوكو في هذا المعنى ٣٢٠ بيتاً عرضها على لجنة التحكيم ولم يكن له من العمر الا خمس عشرة سنة فاستحسنوا ابياته واستصغروا سنه وظنوه سارقاً شعره فلم يعطوه الجائزة واكتفوا بقيد اسمه في دفتر الشعراء . وفي السنة التالية بعث إلى جميعة « لعب الأزهار » - وهي جمعية ادبية تأسست قديماً في طولوز - القصيدة التي سماها « عذارى فيردون » وتشبب فيها ببنات تلك المدينة التي على الحدود الألمانية وبعث أيضاً بقصيدة أخرى في مدح هنري الرابع فنال بهما جائزة

الجمعيـة . وفي سنـة ١٨١٨ اكمـل فيكتـور هوكـو دروسه في مدرسة « لوي لوغران » واستنكف من الدخول في امتحان المسابقة لاجل قبوله في المكتب الحربي وكتب لابيه بانه عدل عن سلك العسكرية واتخذ الشعر صنعة يتعيش منها وان لاحاجة له بالراتب القليـل المعـين له واقبل على الجد والاشتغال ومثابرة الاعمال واشترك مع أخيه الكبير ابيـل وكـان له مشاركة في علوم الأدب فأسسا جريدة ادبية عنوانها « المحافظ الأدبي » ونشر فيكتور هوكو الاشعار البديعة والمقالات الانتقادية .

وكان لويس الثامن عشر الذي جلس على سرير الملك سنة ١٨٢٤ عاقلاً ماهراً لم يصغ لاقوال الذين يريدون اطفاء نور العلم والحرية واعادة المظالم القديمة بل أعطى الشعب حقوقه وسن لبلاده القوانين وكان ولي عهده أخاه شارل العاشر وله ولد اسمه دوك دوبـري قتله احـد الـرعاع وهو خارج من مرسح الاوبرة سنة ١٨٢٠ وخلف دوك دوبري طفلاً صغيراً اسمه دوك دوبوردو فنشر فيكتور هوكو في جريدته قصيدة هنأ فيها بالمولـود وأخـرى رثى فيهـا الـوالـد والقصيـدتـان موافقتـان لسيـاسة الحزب الملوكي فاستحسنها لويس الثامن عشر واجازه عليهما بخمسمائة فرنك . وفي تلك السنة بعث فيكتـور هوكـو إلى جمعيـة لعب الازهـار في طولوز بالقصيدة التي عنوانها « موسى على النيل » فكافأته عليها بالميدالية الذهبية وكانت على شكل الزهرة ومنحته لقب الاستاذ في جمعيتها .

فاشتهـر هوكـو وانتشر شعره ولقبه شاتوبريان بالولد النجيب وفتحت الشعراء له ابوابها فتعارف على الفريد دوفينيه ولامارتين مؤلف « الرحلة الشرقية » وسومه واميل دوشـان وغـيرهـم من شعـراء العصـر وفحـول ادبائه وفرح به جميع المنتصرين للحزب الملوكي لانـه على مذهبهم السيـاسي ودينهم الكـاثـوليكي وترنموا بأبياته في مجامعهم وانشـدوا قصـائـده في نوادي سمـرهـم وكان ينظم لهم القصائد الهزلية والمدائح الملوكية على ما يوافق مشربهم مثل « التلغراف » و« المقيد السياسي » و« القريحة » وغيرها .

فانشـرح صدر الشـاعـر بهذه الشهـرة وارتـاح بالـه من جهـة تأمـين معـاشه في المستقبـل ولعب الهـوى في رأسـه فرأى بجانبه صاحبته من الصغر قد انتقلت إلى سن الشبـاب وانتصبت قامتهـا كالغصن ولبست أثواب الجمال والحسن فهام في حبها واراد الاقتران بها فمنعته امه لفقر البنت وعدم وجود مهر كاف (دوته) معها وقطعت علائقها مع عائلة فوشـر فتألم الشـاعـر بالم الفراق واخذ يراسل حبيبته برسائل الحب والاشتياق

ونشرت هذه الرسائل بعد موته تحت عنوان « مراسلات الخطيبة » .

وفي سنة ١٨٢١ توفيت والدته فحزن عليها حزناً شديداً لزيادة حنوها عليه وكثرة احسانها اليه . ولم يمض شهر على وفاتها حتى تزوج والده بواحدة من الغنيات الشريفات لقلة وارده وكثرة نفقاته وبقي فيكتور هوكو وحيداً فريداً وانتقل من الدار التي كان فيها مع امه إلى مسكن صغير وتضايق في امر معاشه لقلة ما في يده ولاحتياجه لمن يدبر له البيت ويهيء له الطعام . واخذ يفكر في معشوقته وفي الوصول للاقتران بها لان اباه افتقر بعد سقوط الحكومة الامبراطورية وابو محبوبته لم يكن من اصحاب الثروة العظيمة فاجتهد فيكتور هوكو في تحصيل المال وأقبل على النظم والتأليف ونشر سنة ١٨٢٢ديوان قصائده فكان لهرواج عظيم وقرأه لويس الثامن عشر وأعجب به واحسن على الشاعر من خزينته الخاصة براتب سنوي قدره الف فرنك ففرج الشاعر بهذا المعاش وتزوج بعادلة فوشر ولها من العمر ١٩ سنة . وبينما هم في حفلة العرس على مائدة الطعام نهض اخوه اوجين واجرى افعالاً منكرة وفاه بكلام غير معقول فحملوا ذلك أولاً على اكثاره من شرب المدام وذهبوا به إلى بيته وفي الصباح وجدوه مختل الشعور وفهموا انه يحب عادلة محبة شديدة وكان يخفي حبها فلما تزوجت باخيه هاجت عواطفه وذهب عقله فوضعوه في بيمارستان سارانتون وهو في ارباض باريس واستمر فيه إلى ان مات . وكانت عادلة بديعة الحسن رقيقة الحواس غير انها بسيطة الفكر غير مفرطة الذكاء وكان زوجها متيماً في حبها فسكن مدة عند حميه ولما بلغ راتبه من الملك ٢٠٠٠ فرنك في السنة خرج بها من دار أبيها وسكنا في بيت على حدة فولدت له أولاداً كبروا وماتوا في حياته وهم ليوبولدين ماتت غريقة في نهر السين وشارل مات فجأة عند صاحبة له في بوردو وفرانسوا مات في باريس وعادلة تزوجت على كره من ابيها واصيبت بداء الجنون مثل عمها وهي لم تزل في قيد الحياة . فكانت هذه المصائب باعثة على نظم القصائد التي عنوانها « أولادي » ورثاهم أيضاً في كتاب (التأملات) وغيره بأدق المراثي . وكان موحداً بالاعتقاد ولم يتبع مذهب المسيحيين في البقاء على زوجة واحدة بل شغف بعد ذلك بحب احدى الممثلات واسكنها مع زوجته وعمل عمل القائلين بتعدد الزوجات مع رعايته واحترامه لزوجته الاولى .

واخذ فيكتور هوكو يحرر في مجلة « الموز الفرنساوية » التي انشأها الاديبان سومه

وديشـان ويـتردد على بيت شارل نوريـة وكان هذا الفاضل مديراً لمكتبة ارسنال وهي احدى المكاتب الاربع الكبيرة في باريس . ونال معاشاً وافراً بسبب هذه الوظيفة وفتح بيتـه للعلماء والشعـراء حتى صار مجمعـاً للأدبـاء واسسـوا فيه سنة ١٨٢٤ جمعية ادبية على الطرز الجديد . وفي هذه السنة توفي لويس الثامن عشر ولبس اخوه شارل العاشر تاج الملك فمدحه الشاعر بقصيدة عنوانها « التتويج » فحازت القبول وانعم عليه الملك بوسـام الافتخـار من رتبـة شيفاليه كما أنعم بذلك على الشاعر الشهير لامارتين . ولما نشـر فيكتـور هوكـو ديوانه في المدح والغزل وحاد فيه عن مسلك الشعر القديم المسمى (كـلاسيـك) وسلك في النظم مسلكـاً جديداً انتقـد عليه اصحاب الطريقة القديمة وسلقـوه بالسنتهم . ونشـر الشـاعر « سنت بوف » في جريدة الغلوب بتاريخ ٦ كانون ثاني سنة ١٨٢٧ مقالة انتقادية كانت سبباً لتحويل انظار الناس إلى الطريقة الجديدة ولتعارف الشاعرين حتى صاروا من اعز الاخوان .

وكان شارل العاشر قد حاد عن طريقة اخيه العادلة في سياسة الملك ومال الى الاستبـداد فنفـر منـه الادبـاء والاحـرار . واغتنم سفير النمسا في باريس هذه الفرصة وندد في امراء العساكر الذين خدموا مصالح نابوليون الأول وأهانهم في الكلام فانتصر لهم فيكتـور هوكـو لان ابـاه كان في زمـرتهم ونظم قصيدة في مدح (العمود) أي العمود الذي رفع لنابوليون في ميدان فاندوم وطلي بنحاس المدافع التي غنمها في حروبه ونقش عليـه اسـماء المـواقع الحربية والامراء العسكرية . وكان الشاعر في ذاك التاريخ قد بلغ سن الـرجـوليـة وهـو السن الذي يتأهل فيه الرجل لحقوق الانتخاب فظن كبقية ادباء العصـر المتخـوفـين من استبـداد شارل العـاشـر ان الحكومة الامبراطورية اكثر عدلاً وحرّية من الحكومة الملوكية ولذا أقبل على اظهار فضل نابوليون واشهار مجده بدون ان يتعـرض بالقـدح لآل بوربـون . ونشر عقب مدحه العمود قصة كرومول . وشرح في مقـدمتهـا طريقتـه الجـديـدة في علـم الادب وشكل جمعية من انصار هذه الطريقة وفي مقـدمتهم الفرد دوفينيه وسنتابوف وأميل دوشان والكساندر دوماس وبولانجه وغيرهم مثـل لامـارتـين وسمـوا طريقتهم « رومـانتيـك » كما كان المتقدمون يسمون طريقتهم « كلاسيك » وصار فيكتور هوكو امام المدونين في هذه الطريقة الجديدة . فانتقد عليه كثـير ون من اربـاب السيـاسة وحملة الاقلام ولاموه من وجهين احدهما لمدحه نابوليون واشهاره مجد الحكومة الامبراطورية وثانيهما لعدوله عن مذهب الشعر القديم وسلوكه

في النظم والنثر مسلكاً جديداً .

غير ان الشاعر لم يصغ للوم اللائمين واستمر يتردد على بيت صاحبه شارل نوريه وينشد قصائده امام الحاضرين . ويستميلهم لطريقته واحداً بعد واحد ولما اتجهت انظار العموم نحو الشرق بسبب ثورة اليونان وذهاب العساكر المصرية للموره وغدر الدول في وقعة نافارين نشر فيكتور هوكو ديوانه المترجم « بالشرقيات » ولم يزر الشرق ولا رأى نساءه مثل شاتوبريان ولامارتين ولكنه درس احواله درساً مدققاً وقرأ ما ترجم من كتب ادبائه مثل كلستان سعدى وديوان حافظ شيرازي وما ترجم من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية فراج ديوان الشرقيات لحداثة موضوعه وبحث فيه عن الممالك العثمانية والعوائد الشرقية وعن بلاد اليونان وايتاليا واسبانيا وكانت النفوس متشوقة للاطلاع على ما في زوايا الشرق من الخبايا .

ثم نشر قصة عنوانها « آخر ايام المحكوم عليه » وصور فيها الاضطراب الذي يحصل للمقتول قبل قتله . وفي سنة ١٨٣٩ وجه الشاعر التفاته نحو المرسح الفرنساوي (كوميدي فرانسه) وشرع في اكتساب الرزق من تحرير الروايات المحزنة التي يسمونها « درام » وحرر رواية « ماريون دولورم » وهي غانية من غواني باريس احبها احد الرهبان وكان لها نبأ عجيب على عهد لويس الخامس عشر ولما أراد مدير المرسح تشخيص الرواية منعه المراقب فرفع الشاعر شكواه من ظلم مراقب المطبوعات إلى الملك فلم يأذن له بتشخيصها ومع ذلك قرّبه اليه ولاطفه بالكلام وقال « أحب قريحتك الشعرية وليس عندي أشعر منك ومن ديروجيه »وزاد في راتبه حتى بلغ ٤٠٠٠ فرنك فرفض فيكتور هذا الراتب مع شدة احتياجه اليه وشرع في تحرير رواية « ايرناني » فأكملها في بضعة اسابيع وشخصت على المرسح الفرنساوي ليلة ٢٥ شباط سنة ١٨٣٠ واشتد بسببها القيل والقال وعلا في المرسح الصفير والجدال بين اصحاب المذهب القديم والمذهب الحديث في علم الأدب . وتم النصر في تلك الليلة لهوكو وشيعته ولم يبق معه من النقد سوى خمسين فرنكاً . فتقدم اليه ملتزم الطبع وبارك له بنجاح الرواية ونقده في مقابلة حق طبعها ستة آلاف فرنك واستلم منه النسخة الخطية وعقد معه مقاولة على تحرير قصة « نوتردام دوباري » وتسليمها في ظرف ستة أشهر . فأكب الشاعر على المطالعة والتحرير واكمل القصة قبل انتهاء الأجل المحدود فطبعت وكان لها رواج عظيم واسم الرواية مأخوذ من كنيسة باريس الجامعة

وهي بناء فخيم بالقرب من دار البلدية ودار الحقانية .

ولما اصدر شارل العاشر امره بالغاء الحرية التي منحها سلفه للشعب وبتعطيل احكام القانون الاساسي هاج اهالي باريس وحدث انقلاب تموز سنة ١٨٣٠ وسالت الدماء في العاصمة ثلاثة أيام بلياليها ففر شارل العاشر من فرانسا وتنازل عن الملك لابنه ووليّ عهده دوك انكوليم - وانكوليم بلدة بين بوردو وباريس - غير ان هذا الدوك استعفى أيضاً وانتقل الملك بالارث الشرعي إلى دوك بوردو وهو حفيد شارل المشار اليه . فالجمهور من الفرنساويين لم يلتفتوا إلى حقوق هذا الصبي وانتخبوا ملكاً عليهم لويس فيليب ابن عم شارل العاشر لقبوله اعطاء الاهالي حقوقهم وتعهده بحماية القوانين . فهوكو - شاعر الملك والمدافع عن حقوق الملكية وناظم القصائد الغراء في ولادة دوك بوردو صاحب الميراث الشرعي وفي رثاء ابيه دوك برّي - لم يهتز لهذه الحوادث بل اظهر استحسانه لما فعله الشعب ولم يعبأ بالمسائل السياسية . وظل يشتغل في فنون الأدب فنشر ديوانه المسمى « أوراق الخريف » وشخص على المرسح الفرنساوي سنة ١٨٣١ رواية ماريوم دولورم التي منع تشخيصها سابقاً ثم رواية « الملك يتسلى » وهي رواية تاريخية موضوعها فرانسوا الأول الذي التجأ إلى ساكن الجنان السلطان سليمان القانوني من شر عدوه شارلكين . فمنع مراقب المطبوعات اعادة تشخيص هذه الرواية للتعريض فيها بالملوك . فرفع الشاعر شكواه إلى محكمة التجارة ودافع عنها بنفسه امام الحكام فلم يسمحوا له بالتشخيص . ولم يجر تشخيصها مرة اخرى الا سنة ١٨٨٢ وكان الذي ربحه فيكتور هوكو من مؤلفاته كافياً لانقاذه من مخالب الفقر وسعادة حاله ففتح بيته للزائرين حتى صار مجمع الأدباء ومركز الشعراء . وفي جملتهم الكاتب الشهير تيوفيل غوتيه إلاّ أن الشقاق وقع بينه وبين صاحبه القديم الكساندر دوماس ودام الخصام أعواماً كثيرة . لان غيرة الشعراء والعلماء بعضهم من بعض اشد من غيرة الأمراء . .

وجفاه أيضاً حبيبه سنت بوف الماهر في فن الانتقاد وقال عن مؤلفاته بانها ممزوجة بآراء السياسة الملكية والديانة الكاثوليكية والفلسفة السيمونية - وهي التي وضعها الكونت سن سيمون في واخر القرن الثامن عشر وفرض فيها تعلم الصنائع على كل فرد من افراد الأمة . فلم يتبعه الا القليل من الناس مثل كارنو والد رئيس الجمهورية الاسبق - فعمل برأيه ومع جلالة قدره جعل أحد اولاده نجاراً والآخر

مهندساً وكلاهما من اكابر رجال الدولة . ثم الف فيكتور هوكو رواية « لوكريس بورجيا » وهي اخت قيصر بورجيا الشهير بالاسراف وفساد الاخلاق وكانت بديعة الحسن ولها حديث غريب فشخصت هذه الرواية في ٢ فبراير سنة ١٧٣٣ فاقبل الناس على استماعها ثم شخصت مراراً على المرسح الذي بباب سن مارتن وكانت الممثلة التي شخصت دور الأميرة نيكروني هي مادموزيل جوليت دروّه التي سبت الشعراء بحسنها وعقلها . فشغف فيكتور هوكو بحبها وبعد ان تردد على بيتها كثيراً اسكنها في بيته عند زوجته فلامه أحد اصحابه فحرر اليه يعتذر بان زوجته اذنت له وسامحته على ما فرط به من حب جولييت ولم تزل زوجته تحبه وتعزه . . واستمرت في صحبة الشاعر ورافقته في منفاه وكانت تحرر له القصائد وهو يملي عليها ودامت معه إلى بعد وفاة زوجته ورافقته أيضاً في سن شيخوخته ونشر فيكتور هوكو أيضاً رواية « ماري تيدور » وهي ملكة الانكليز ورواية « انجلو » وهو امير ظالم من امراء الطليان ورواية « ربوبلاس » وهو اسم خادم الوزير الذي خدعت به ملكة اسبانيا وكثيراً ما تشخص اليوم على المراسح الفرنساوية هي ورواية « ايرناني » . ورواية « كلودكو » وهي مما ترجم من مؤلفات هوكو إلى التركية وفيها دفاع بليغ عن المحكوم عليهم بالاعدام وتشنيع هذا القصاص .

ومما نشره في هذا التاريخ من الأشعار الموسيقية غير اوراق الخريف « أغاني الشفق » و« الاصوات الداخلية » و« الأشعة والظلال » وغير ذلك فصار فيكتور هوكو بهذه التآليف يعد من فحول ادباء العصر وانتسب لدوك اورليان وزوجته ووجه عليه لويس فيليب نشان الافتخار من درجة اوفيسيه واهداه صورتهُ وانتخبته الاكاديمي الفرنساوية عضواً في جمعيتها باكثرية صوتين فقط بعد ان عارض أعضاؤ ها زماناً طويلاً في قبوله لشدة تمسكهم بالقواعد واساليب الانشاء القديمة . ولم يدخلوه بينهم إلا بعد أن اشتهر فضله كالشمس في رابعة النهار . وسنة ١٨٣٩ ساح فيكتور هوكو في جبال الالب على حدود ايطاليا وسويسرا وشاهد مناظرها البديعة وزار بعد سنتين ضفاف الرين ودرس احوال بلاد الالمان وكتب سياحته في مجلدين نشرا بعد موته . وألف أيضاً رواية « بورغراف » التاريخية وبين فيها اخلاق امراء الالمان في القرون الوسطى . فشخصت على المرسح الفرنساوي سنة ١٨٤٣ ولم يقبل عليها الجمهور ولا حصل منها ارباح للمشخصين فتكدر الشاعر من سوء طالعه وعدل عن تأليف

الروايات وترك رواية « التوأم » التي شرع في تأليفها بدون ان يكملها . وكانت الافكار العمومية تحولت عن طريقة الأدب الجديدة (رومانتيك) وعادت للاقبال على طريقة (كلاسيك) القديمة لظهور بعض المؤلفات الجديدة فيها . وبمناسبة ذلك هزأت بعض الجرائد الهزلية بفكتور هوكو وصورته برأس كبير وهو واقف امام المرسح بجانب اعلان هذه الرواية ينظر إلى السماء وقد طلع ذو ذنب وكانه يناجي ربه وهو يقول « لماذا جعلت للنجوم اذناباً وتركت البورغراف بلا اذناب » وتطلق كلمة بورغراف على ذوي الآراء السخيفة في ضروب السياسة . والمقصود تركت الراوية بلا جمهور يزدحم على باب المرسح فيتألف منه ذنب طويل كما هي العادة في اقبال الناس على الروايات المهمة واصطفافهم الواحد وراء الآخر لاشتراء أوراق الدخول . وخرج فيكتور هوكو من باريس إلى جبال البيرنة على حدود اسبانيا يروض فيها افكاره ويزيل اكداره . ولم يلبث فيها كثيراً حتى فاجأه مصابه ببنته وكانت في التاسعة عشرة من عمرها وقد فارقها وهي في اثواب العرس فخرجت بزوجها تتنزه في زورق على نهر السين في مدينة فيلكيه فانقلب بهما الزورق وماتا غريقين قبل ان يمضي على زفافهما اربعة اشهر . وزوجها شارل فاكيري هو اخ الاديب المشهور اوغست فاكيري . فزاد كدر فيكتور هوكو واختبر بهذه المصيبة آلام الحياة وهمومها ودخل الحزن قلبه . ولعلمه افانين الرثاء فاجاد وابدع في المراثي التي نظمها واكثرها مدرج في كتاب « التأملات » غير انه من هول هاتين المصيبتين وهما موت ابنته وعدم رواج روايته يئس في بادىء الأمر من هذا العالم الفاني وانقطع رجاؤه بالله وضعف اعتقاده ورفض الشعر مدة واقبل على الاشتغال بالعلوم السياسية ودرس المسائل الاجتماعية . فنشر كتاباً عنوانه « مكاتيب على الرين » حاول فيه حل مسألة الموازنة الاوروباوية وتوهم تقسيم ممالك اوربا بين فرانسا وبروسيا واراد تقليد لامارتين في الدخول لميدان السياسة ـ لأن الشاعر لامارتين بعد ان خدم طويلاً في كتابة السفارات الفرنساوية وصار سفيراً في طوسقانة واثينة ترقى إلى مسند الوزارة ولما زار الشرق نال شرف المثول بين يدي السلطان عبد المجيد خان وحاز على الالتفات الشاهاني وأحسن اليه بأبعدية (جفتلك) في ولاية أزمير فاقام فيها وحرر تاريخ الممالك العثمانية في ثمانية مجلدات ـ ففتح لويس فيليب باب الحكومة لفيكتور هوكو وعينه عضواً لمجلس الاعيان سنة ١٨٤٥ فجلس مع اصحاب اليمين وانضم لحزب الاكثرية وهو حزب الوزارة وقال بقولهم وتكلم في بعض المسائل فخطب خطبة

في « ماركة الفابريكات » واخرى في « المسألة البولونية » ومدح البابا الحر وطلب ارجاع عائلة بونابرت فلم يكن لكلامه تأثير على اعضاء المجلس كما كان لاشعاره ورواياته تأثير في نفوس الجمهور عند صدورها على المراسح من افواه الممثلين والمشخصات لانه لم ينل من القوة النطقية ما ناله من القلمية والفكرية .

ولما قوي حزب الجمهورية وحدث انقلاب سنة ١٤٨٨ وانزل لويس فيليب عن عرش الملك واعلنت حكومة الجمهورية الثانية على فرنسا انتخب فيكتور هوكو عضواً في مجلس الامة من ايالة السين واسس في تلك السنة جريدة الوقائع (ايفنمان) وكتب عليها « البغض الشديد للفوضوية والهيام في الشعب والحنو عليه » وكان يعينه في تحرير الجريدة ابناه شارل وفرنسوا وأصدقاؤه من افاضل المحررين مثل بول موريس واوغست فاكيري وتيوفيل غوتيه والبر لوقروا وغيرهم وكان المترشح لرئاسة الجمهورية اثنين وهما نابوليون الثالث والجنرال كافينياك فمالت جريدة الوقائع في خطتها السياسية لنابليون لان فيكتور هوكو كان يترنم في قصائد « المدح في العمود » ويطرب لذكر مجد نابليون الأول ولذا فانه احب في بادىء الامر ابن اخيه نابوليون الثالث وظن انه يتقرب اليه ويكون مستشاراً له فرجحه في الانتخاب على الآخر . . واكتسب نابوليون الثالث اكثرية الاصوات وكانت تزيد على خمسة ملايين ونصف مليون فاعلن رئيساً على الجمهورية واستلم زمام الادارة ولم يلتفت لفيكتور هوكو . فلما خاب ما امله الشاعر انقلب عن اصحاب اليمين الى اصحاب الشمال وصار من أكبر رؤساء الحزب المخالف . فاتهمه العقلاء بانه مذبذب يتردد بين اليمين والشمال ودافع عنه اصحابه بقولهم ان الشاعر لا يهتم بالاحزاب وانما يرى مصلحة الامة فيسير معها . وكان كلما خطب في المجلس خطبة شددوا عليه النكير وذكروه بسوابق اعماله واشعاره . ولما تمت الرئاسة لنابليون مالت نفسه للبس التاج وشرع في اعداد المعدات وتهيئة الاسباب فتظاهر فيكتور هوكو له بالعداوة ونشر في تقبيح سياسته فصولاً وعرض باسمه في جريدة الوقائع فسماه نابليون الصغير ، فاتهم مراقب الجرائد ابنيه المحررين لتلك الجريدة وحاكمهما والقاهما في السجن . ثم استبد نابليون بالامر واجرى حادثة ٢ دسمبر سنة ١٨٥١ وألقى القبض على زعماء الحزب الجمهوري وجميع المتهمين بمخالفة السياسة الامبراطورية وكان اسم فيكتور هوكو في رأس قائمة المتهمين فساعدته حبيبته الممثلة جوليت دروه على الاختفاء واستحصلت على تذكرة مرور فخرج من باريس فاراً وهنا تم الدور الأول من ادوار حياته .

الدور الثاني

وهو مدة وجوده منفيا من سنة ١٨٥٢ إلى رجوعه لباريس سنة ١٨٧٠

بعد ان فرَّ فيكتور هوكو من باريس تجاوز الحدود الفرنساوية واتى بروكسل عاصمة البلجيك وكان في غاية الضيق من قلة النقود فحرر لزوجته يوصيها بالتدبير والتقتير ويعرفها بان مصروفه في الشهر لا يتجاوز مائة فرنك . واقبل على التحرير والتأليف وهو يستشيط غضباً فنشر كتابه « نابليون الصغير » وكان اول صاعقة من الصواعق التي رماه بها . ثم نشر «تاريخ جرم» فتهافت الناس في فرنسا وعموم اوروبا على مطالعة هذين الكتابين . فمنع نابليون دخولهما لممالكه وامر سفيره في بروكسل بان يطلب من حكومة البلجيك ابعاد فيكتور هوكو عنها فلم تجسر الحكومة على ذلك الا بعد اخذها قرار مجلس النواب فدعته للخروج . فذهب إلى جزيرة جرسي التابعة لانكلترة وهي جزيرة في بحر المانش بين فرنسا وجزائر بريطانيا العظمى . وجلب اليها عائلته وكانت حبيبته جوليت سبقتهما واقامت معه في بروكسل وشاركته في السراء والضراء وكان في ضيق من جهة المعاش ولم يكن معه الا سبعة آلاف فرنك فعرف الجوع بقوله « ان المخمصة تثقب في قلب الانسان ثقباً وتملأه بالحقد » ونشر كتاب « القصاص » سنة ١٨٥٣ وكان صاعقة على نابوليون اشد من الأولى وراج رواجاً عظيماً في فرانسا واوروبا وربح ملتزم طبعه في بروكسل ربحاً وافراً لم يعد منه على المؤلف إلا اليسير .

ولم يزل نابوليون الثالث يضطهد رجال الحزب الجمهوري وينفيهم من الأرض فعارضه فيكتور هوكو ونظم عدة قصائد في وصف حالة اولئك المضطهدين الذين اخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً فطلب سفير فرنسا في لوندرا اخراج هوكو من جزيرة جرسي وابعاده فاخرجته الحكومة الانكليزية ارضاء لنابليون ولكنها لم تضيق عليه فذهب الى جزيرة كيرنيزي وهي بجوار الجزيرة الاولى في بحر المانش وتابعة مثلها للانكليز . واشترى فيها داراً خربة مهجورة مبينة على صخرة عالية مطلة على الاوقيانوس المحيط وتسمى « هوت فيل هوس » فرممها وسكنها واتخذ الطبقة العليا منها غرفة لاعماله فكان

يشتغل فيها بالنظم والتأليف ويفكر في تقلبات الدهر واحوال العالم وبصره شاخص إلى لجة البحر المحيط . وكان يعينه في التحرير والمطالعة ابناه وزوجتاه وصاحبه الشاعر اوغست فاكيري فنشر سنة ١٨٥٦ كتاب التأملات وعرفه بسانحات البال . ثم أخذ يسلي همومه بمطالعة اخبار المتقدمين ودرس سير الانسان في مدارج الترقي والعمران فنشر القسم الأول من كتاب « سير الدهور » سنة ١٨٥٩ ثم ألف قصته الشهيرة المترجمة « بالبؤساء » وكان له صديق حميم وهو موسيو لوقروا ناظر البحرية في الوزارة الفرنساوية السابقة أي وزارة الموسيو ميلين فكان هذا الأديب يعين الشاعر على طبع مؤلفاته في البلاد الاجنبية . فلما بعث اليه بالمجلدين الاولين من كتاب البؤساء باعهما لملتزم الطبع في انكلترا بمبلغ قدره ١٢٥ ألف فرنك ذهب انكليزي .

ولما نشر هذا الكتاب سنة ١٨٦٢ أقبل المترجمون على ترجمته ونشروه في تسع لغات من لغات اوربا في آن واحد . وكان اصحاب المطابع يستدعون الموسيو لوقروا من جميع الجهات في انكلترا والمانيا والنمسا ليشتروا منه حق الترجمة والطبع ولما ذهب إلى لونده عند الكتبي الشهير في بترنوستر رود سأله بعنف : -

- كم تطلب بحق نشر كتاب البؤساء في اللغة الانكليزية ؟ : -فأجابه :

- ثلاثة آلاف ليرة انكليزية . فتناول دفتر الشك وحرر المبلغ والاسم وقال له خذ نحن على وفاق .

فسعد حال فيكتور هوكو من جهة المعاش وذهب عنه الضيق فنظم داره وغرس ارضها بالاشجار والرياحين وطار ذكره في العالم المتمدن وقصده الزوار وكاتبه الرجال . وكان البعض يحرر عنوانه « فيكتور هوكو في الاوقيانوس » فكانت تصله بهذا العنوان المبهم لسعة شهرته . واشتهر اسمه لاقترانه باسم نابليون وكبره البعد والاعتزال في مخيلات الناس حتى اعتقدوه من اكبر العقول البشرية . وكانت العيون ترقب طلوع مؤلفاته كما ترقب شمس الشتاء . وفي سنة ١٨٦٤ نشر كتاب « وليم شكسبير » في الفلسفة وبعدها بسنة نشر « ديوان اغاني الشوارع والاحراج » وفي سنة ١٨٦٦ نشر قصة « المشتغلين في البحر » وصف فيها ما يكابده الفلاحون من المشاق وما يتورطون فيه من الاخطار . وفي سنة ١٨٦٩ نشر قصة « الانسان الضاحك » . ولم يأل جهداً وهو في تلك الجزيرة عن الانتصار للاقوام الذين غدر بهم الزمان ورماهم سوء الطالع بالخسران . وفعل ما فعله فولتير وهو في فيرين فدافع عن عصاة ايرلانده وعن

مكسيميليان امبراطور المكسيك وهو اخ امبراطور النمسا اغراه نابليون الثالث على لبس التاج وامده بالعساكر الفرنساوية ثم تخلى عنه فحاكمه المكسيكيون وقتلوه .

ثم ان المسائل العائلية اخلت براحة الشاعر واقلقت افكاره وذلك ان ابنته عادلة احبت قومندان المركب المحافظ على الجزيرة وتزوجت به رغماً عن والدها وذهبت معه إلى الهند منشأ الطاعون ومهب الريح الأصفر فمات فيها وعادت لفرنسا مختلة الشعور سنة ١٨٧٢ فادخلوها البيمارستان مثل عمها وهي التي ورثت اباها . وفي سنة ١٨٦٨ توفيت زوجة فيكتور هوكو في بروكسل بعد ان كفَّ بصرها وذهب ابناه في السنة التالية إلى باريس مع صاحبهما اوغست فاكيري لينشئوا فيها جريدة « رابل » ويندّدوا بالحكومة الامبراطورية وذهب فيكتور هوكو إلى بلاد سويسرا ليحضر مؤتمر لوزان ويخطب فيه خطبته المشهورة . ولما جرت الانتخابات في أوائل سنة ١٨٧٠ نشر فيكتور هوكو رسالة اعتراضية عنوانها « لا » ثم انتشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا ودارت الدائرة على نابليون الثالث فسلم سيفه في ميدان القتال إلى ملك بروسيا وطار الخبر إلى باريس فاجتمع رؤساء الحزب الجمهوري في دار البلدية واعلنوا الحكومة الجمهورية مكان الامبراطورية في ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠ وهي الحكومة الجمهورية الثالثة الحالية ولم يعد مانع لفيكتور هوكو من الرجوع إلى فرانسا . وبذلك انتهت ايام نفيه .

الدور الثالث

وهو دور شيخوخته أي من رجوعه إلى فرنسا سنة ١٨٧٠ إلى وفاته سنة ١٨٨٥

بعـد ان قام فيكتـور هوكـو في منفاه ثماني عشرة سنة عاد إلى باريس مع من عاد من أركـان الحـزب الجمهـوري واستقبله احباؤه وأشياعه وانزلوه على السعة والرحب فحـرر خطـابـاً بليغـاً للالمـانيـين يحضهم فيـه على الصلح وترك الحرب وكان من رأيه السيـاسي وضـع اتفـاق بين الامة الفرنساوية والبروسيانية وتقسيم البلاد بينهما . فلم يصـغ الالمـانيـون لخطابه وظلوا هاجمين حتى بلغوا خنادق باريس والقوا الحصارّ عليها فترك فيكتـور هوكـو القلم من يده وامسـك السيـف وانتظم في سلك الجنود المحافظين من الاهـالي ودافـع عن اوطـانـه وتألم بآلام اخوانه . ولما احتلت العساكر البروسيانية باريس هاجر منها أهلها واتخذت الحكومة الجمهورية مدينة بوردو مركزاً لها عوضاً عن باريس . وانتخبت ايالة السين فيكتور هوكو مبعوثاً لها في مجلس النواب فلما قام يخطب عارضه اصحاب اليمين واكثروا اللغط وابوا الانصات له فقال لهم « منذ ثلاثة سابيع رفض المجلس الاصغـاء لغـاريبـالـدي واليـوم يرفض الاصغاء لي فاقدم استعفائي » غاريبـالـدي هو من القواد الذين حاربوا لاجل استقلال ايطاليا وهاجم رومة العظمى وانتـزعهـا من يد البابا وسلمها إلى ملك ايطاليا ليتخذها عاصمة للملك فلما انتشبت الحرب بين فرانسا وبروسيا دخل متطوعاً في العسكر الفرنساوي ودافع عن فرانسا اشتد المـدافعـة فانتخب مبعوثاً في مجلس النواب مع كونه [illegible] الاصل وكانت الاكثرية في المجلس من حزب الملوكيين و[illegible] فاتهموه بالكفر والالحاد لتجاوزه على [illegible] ونزعه سلطة البابا منها ولذا لم يسمعوا كلامه

وفي ذاك التاريخ اعيد طبع كتاب « القصاص » نكالاً من حزب الامبراطورية وكـان يبـاع بالمـائة الف نسخة معاً . ولما كان ابن فيكتور هوكو المسمى شارل في بوردو دخل عند صاحبة له يقضي ليلته فتوفي فجأة في فراشها وحزن ابوه حزناً شديداً فجاء بجثتـه إلى باريس ودفنهـا يوم حدوث ثورة الكومين وأنعطف بالحنو والرأفة على ولديه

الاصغـرين وهما جورج وجـان وبـالـغ في دلالهـا حتى أثـر هذا الـدلال في اخـلاقهما واصبحت جان لا تستطيـع معـاشـرة زوجهـا حتى طلقهـا لشـدة ميلهـا إلى اللهـو والخـلاعـة . وبعد وفاة شارل تزوج الموسيولوقروا بزوجته لتربية الولدين لاحياء بيت فيكتور هوكو فتبناه الشاعر وأحبه حباً شديداً .

ولزم فيكتور هوكو الحيادة في المسائل السياسية لحزنه على ولده وفلذة كبده غير انـه لم يطق الصـبر على ما شاهـده من فظـائـع الـرعـاع فلامهم على قلبهم العمـود المنصـوب لنـابليـون الأول كما لام حكـومـة فرسايل على اطلاقها القنابل على قنطرة النصر المنصوبة له . وبرأ نابوليون الأول مما جناه ابن اخيه على البلاد من الحرب التي جلبت عليهم الـويـل والـدمـار وذهب هوكـو في اثناء تلك المعامع إلى بروكسل وإلى لوندرة ونشر كتابه المعنون بالسنة المهولة وشدد فيه النكير على دخول الاجانب لفرانسا وعلى الفظـائـع التي اجـراهـا الـرعـاع والسفلة وهم الكومين . ثم عاد فيكتور هوكو لباريس وانشأ فيها جريدة سماها « الشعب الحاكم » وجعل ثمنها خمسة سنتيمات لكل نسخـة ليتمكن الفقـراء من مطـالعتها . ولم يهدأ بال الشاعر برجوعه لاوطانه واجتماعه على احبـابـه وخـلانه الا واصيب بموت ابنه الثاني فرانسوا فصبر على مصائب العمر ونكبات الزمان وسلم الأمر لله لأنه كان من الموحدين وعكف على النظم والنثر فنشر سنـة ١٨٧٤ قصـة عنـوانهـا « ثلاث وتسعون » وتكلم فيها عن الانقلاب الفرنساوي الكبير . وفي سنة ١٨٧٥ انتخب فيكتور هوكو عضواً لمجلس الاعيان (سينا) فجلس في نهايـة اصحـاب الشمال ولم يتكلم في المجلس الا قليـلاً مثل طلبه العفو عن مجرمي الكـومـين ـ والكـومـين هم القـوة المخـربة او الادارة العرفية التي تتشكل في العاصمة وتحدث انقلاب الدولة ويحصل بسبب ذلك من تعدي الرعاع وتسلط السفلة ما تقشعر من سماعـه الجلود وقـد تأسست هذه الادارة المـرهبـة في باريس مرتين احداهما سنة ١٧٩٢ والأخـرى سنـة ١٨٧١ واستمـرت هذه السنـة من ١٨ مارس إلى غايـة مايـو وجـرى في اثنـاء ذلـك كثير من التعديات والمظالم فكان فيكتور هوكو يشير في المجلس بالعفـو عما مضى ولم يظهـر له اقتـدار كبـير في السيـاسـة ولا في فن الخطابة مثل غامبتا وامثـالـه من فحـول السيـاسيـين . وانـما صرف كل قواه في الاشتغـال بعلوم الأدب والتـاريـخ ونشـر « الأقـوال والاعـمال » و« أولادي » و« معـرفـة ما يكـون به الانسان جداً » . وفي سنة ١٨٧٧ نشر القسم الثاني من « سير الدهور » و« الاملاك العمومية

التي تدفع الرسوم » ونشر من سنة ١٨٧٨ إلى سنة ١٨٨٥ اربع منظومات فلسفية وهي « البابا » و« الرحمة العالية » و« الاديان والدين » و« الحمار » .

وحاز في شيخوخته احتراماً كبيراً وثروة عظيمة زادت على ثلاثة ملايين فرنك ولما بلغ الثمانين من عمره احتفل به اهالي باريس احتفالاً عظيماً وزينت له المدينة في ٢٦ شباط سنة ١٨٨١ ووفد عليه المهنئون من جميع الولايات والنواحي واكثر الممالك الاجنبية . فاستقبلهم وهو واقف بين حفيده جورج وحفيدته جان وكان مغرماً في حبهما وفي حب جميع الاطفال وقد خصهم بالذكر في اشعاره وتغزل بهم . ولذا كان في جملة الوفود المهنئين وفد من أجمل الاطفال الصغار يحملون له باقات الازهار . ولم يبق احد في باريس الا ومرَّ ببابه وصاح جمهورهم بالدعاء له . فوقف في نافذته وحياهم كما يحيي الملك شعبه ودموعه تذرف من شدة التأثر والاشفاق . وكان مشاهير الرجال وامراء الناس واعيانهم كلما جاؤا باريس زاروه في داره وحضروا مجلسه . وكان في جملة من زاره إمبراطور البرازيل فكان الاحتفال ببلوغه الثمانين من أجمل الاحتفالات التي لم يسبق مثلها الا للشاعر الفيلسوف فولتير قبل موته بقليل . ونشر فيكتور هوكو في آخر ايامه منظومة طويلة سماها « رياح العقل الاربع » ورواية « توركماده » والقسم الثالث من « سير الدهور » و« أرخبيل بحر المانش » .

وغير ذلك من الآثار التي نشرت بعد وفاته وسيأتي وصفها في أواخر هذا الكتاب .

ولما توفي فيكتور هوكو سنة ١٨٨٥ لبست باريس عليه أثواب الحداد والتبس فيها الأمر على الغرباء حتى لم يعلموا هل القوم في مأتم عظيم ام في عيد كبير وجيء بجثته فوضعت في تابوت عال تحت قنطرة النصر بعد ان كسيت بالسواد وزينت بالأزهار والرياحين واصطف الشعراء حولها صفوفاً واحتاط بهم الفرسان يحملون بايديهم المشاعل وسهروا عليه طول ليلتهم والناس يمرون امام تابوته افواجاً افواجاً ولما اصبح الصباح اجتمعت الجموع وزينت الصفوف وكانت اكثر المدن الفرنساوية والممالك الاجنبية قد بعثت بالوفود والأكاليل فحملوا الجنازة من تحت قنطرة النصر الى البانتيون . وصار له مشهد لم يسبق لشاعر قبله ولا لفولتير . وكانت وصية هوكو أن لا يحضر جنازته راهب ولا أحد من الاكليروس وان يدفن كالفقراء . ولذا كانت العربة التي حملوه عليها من عربات الفقراء لا تناسب دبدبة هذا الاحتفال ولم يجر له احتفال ديني بل كان الاحتفال بجنازته اهليًا .

فيكتور هوكو

وعلم الأدب عند الافرنج والعرب

١

أدب كل لسان ما حصل فيه الاجادة من الكلام المنظوم والمنثور ، ويشتمل على فنون الشعر والأغاني والروايات والقصص وضروب الامثال والحكم والنوادر والحكايات والمقامات والتاريخ والسياسة والرحلة وغير ذلك . وقد جمع نخبة من كلام العرب المتقدمين كتاب مجاني الأدب المطبوع في بيروت . والأصل في الكلام للمعاني لا للالفاظ . لأن اللفظ قالب او ظرف للمعنى يتخذه المتكلم او الكاتب لسبك ما يصوّره في نفسه ويشكله في قلبه من المعاني فينقل بذلك مقصوده للسامع أو القارىء حتى يعلمه كأنه يشاهده . قال الشاعر :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

فالاقتدار على الابانة عن المعاني الكامنة في النفوس يسمى « الفصاحة » و« البيان » لأن المتكلم يفصح عما في ضميره ويبينه بكلمات عذبة سلسلة وبعبارات جلية خفيفة على القلب واللسان . فالمتكلم على هذا النسق « فصيح » وكلامه ملفوظاً كان أومكتوباً « كلام فصيح » . وحيث كان المعنى سابقاً للفظ وجب ان تكون الالفاظ تابعة للمعاني وخادمة لها . وليس المعنى تابعاً للفظ كما حكي عن بعض الامراء انه ولّى احدهم قضاء « قم » وهي من مدن العراق العجمي بين طهران وكاشان ثم كتب اليه بلا سبب موجب « أيها القاضي بقم قد عزلناك فقم » يعني بلفظ « قم » . فقال القاضي والله ما عزلني الا محبة الامير في التزام السجع . ولا يكمل علم الادب للمتبحر فيه الا بعد ان ينظر في أدب الامم المتمدنة ولو نظرة عامة يطلع بها على مجمل تاريخ ادبهم وعلى بعض ما ترجم من مؤلفات المشاهير من كتبهم فيقف على ما عندهم من سعة الفكر وسمو الادراك وبلاغة المعاني ويعرف أساليبهم في النظم والنثر وتصرفهم في الكلام ويميز بين المتقدمين والمتأخرين منهم .

فاذا احاط علمه بذلك فهم الغرض الذي يتطلبه أئمة البلاغة من أي لسان

وملة ورأى الهدف الذي يروم كل منهم اصابته فيصوب نحوه القلم عسى ان يكون له مع الخواطىء سهم صائب . لان البلاغة لا تختص باللسان العربي وحده . وكلما ارتقت الامة في سلم الحضارة كان لسانها أبلغ وأدبها أوسع واكمل ليهافت أدبائها على تنميق الكلام وتهذيب مناحيه وفنونه فيدركون بالتدريج حقائق المعاني التي ربما استعملها آباؤ هم واجدادهم في غير مواضعها بسبب الجهل الناشيء من ضيق العمران وقلة العلوم . ويفرغون ما اوجدوه وما اصلحوه من المعاني في قوالب تناسبها من الالفاظ والتراكيب . « فالبلاغة » هي مطابقة اللفظ للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في افادة المعنى المقصود الذي يقتضيه الحال والمقام . وفي المثل لكل مقام مقال . سواء كان المقال أي اللفظ عربيًّا فصيحاً باعراب أوحضرياً بلا اعراب أوعجمياً بان كان عثمانياً (١) او انكليزياً او فرنساوياً او فارسياً . أوغير ذلك . فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى التركيب المفيد لمقصوده على اساليب العرب وانحاء مخاطباتهم . وينظم الكلام على ذلك الوجه قدر ما يتيسر له . فاذا لازم قراءه الطبقة العالية من كلام العرب الاقدمين حصلت له ملكة فيه وسهل عليه التركيب على اسلوبهم حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب . وان سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحي نبا عنه سمعه . وإذا كثر اشتغاله بالترجمة والكتب المترجمة كانت اساليبه اعجمية مع بقاء الالفاظ في كلامه عربية . كما يتضح لمن أمعن النظر في رسائل ابن رشد المطبوعة في اوربا ومنها ما طبع في مصر . وفي رسائل غيره من فلاسفة الاسلام وأهل المنطق . فانه يرى فيها الاساليب الاعجمية واللهجة التي لم يلهجها ادباء الجاهلية .

وامتاز لسان العرب وخصوصاً لغة مضر بخاصتين : الاولى تشمل حركات الاعراب في اواخر الكلم وكيفية تركيب الالفاظ . فالحركات هي التي تدل في لغة مضر على تعيين الفاعل او المفعول . واما في غيرها من لغة الحضر وبقية اللغات فيدل على ذلك التقديم والتأخير أو القرائن المبنية لخصوصيات المقاصد . وكيفية التركيب هي التي تدل في لغة مضر على ما تقتضيه الاحوال من التأكيد والتعريف والتنكير مثل

(١) اللسان العثماني هو المسمى باصطلاح الناس « اللسان التركي » ويتألف من ثلاث لغات احداها لسان جغتاي وهو أصل اللسان التركي ، وثانيها اللسان العربي وثالثها الفارسي . وأول من وضع قواعد اللسان العثماني في عصر الاصلاح هو جودت باشا المؤرخ الشهير .

تقـديم لفـظ او تأخيره لوصف المعنى وتكيفه ومثل زيادة حرف اوتنقيصه لزيادة شيء في المعنى الاصـلي لان زيـادة المبنى تدل على زيـادة المعنى كقـولنا زيد قائم وان زيداً قائم وان زيداً لقائم . وفي القرآن الكريم حكاية عن الرسل قولهم في المرة الأولى « إنا اليكم مرسلون » وفي المـرة الثـانيـة « ربنـا يعلم إنا اليكم لمرسلون » فالألفاظ باعيانها تدل على المعـاني باعيـانهـا في كل لسـان . وخـواص التركيب في لغة مضر من تقديم وتأخير وزيادة حرف تدل على الاحوال المكتنفة بذلك المعنى . واما في لغة الحضر وفي الالسن الاعجمية فاكثر ما يدل على هذه الاحوال بالفاظ وكلمات مخصوصة ولذا كان الكلام العربي أوجز وأقل الفاظاً وعبارة من غيره . ولهذا اشار نبينا محمد عليه السلام بقـولـه « أوتيت جوامع الكلم واختصـر لي الكلام اختصاراً » على ان بقية الالسن لم تخل بالكليـة من هذه الخـاصـة الاولى للسـان مضر وحركات الاعراب موجود منها في اللسان العثماني . تقول « زيد كلدي » بسكون آخر زيد ومعناه جاء زيد . و« زيدي جلب ايتـدم » بكسـر آخـر زيـد ومعناه جلبت زيداً . وان لم يكسر آخر زيد لا يستقيم المعنى . وأما في لغات اوربا فالاعراب من خصائص اللغتين اليونانية واللاتينية واللغة الألمانية . غير ان الخاصة ربما كانت في لسان مضر اكثر واعرف واثبت . وإذا لم يراع الانسـان هذه الخـاصـة في اللسان الذي يتكلمه وقع لها ما وقع للوليد مع الاعرابي .

وذلك ان الوليد بن عبد الملك بن مروان كان لحاناً وكان ابوه عبد الملك فصيحاً فعرف بلحن ابنه وقال له انك يا بني لا تصلح للولاية على العرب وأنت تلحن وجعله في بيت وجعل معه من يعلمه الإعراب فمكث كذلك مدة ثم خرج وهو أجهل مما دخل . فلما بويـع الـوليـد وجلس على كرسي الخـلافة دخل عليه اعرابي يشكو صهراً له . فقال الوليد : ما شأنَك (بفتح النون) .

فقال الاعرابي : ـ أعوذ بالله من الشين

فقال له سليمان بن عبد الملك : ـ أمير المؤمنين يقول لك ما شأنُك (بضم النون) .

فقال الاعرابي : ـ ختني ظلمني

فقال الوليد : ـ من ختنَك (بفتح النون)

فقال الاعرابي : ـ انما ختني الحجام ولست اريد هذا

فقال سليمان بن عبد الملك : ـ امير المؤمنين يقول من ختنُك (بالضم)

فقال الأعرابي : ـ هذا . وأشار الى خصمه .

والخاصة الثانية هي ما في لسان مضر من الاستعارات والتشبيهات والمجازات وأنواع البديع من الكلام وورد أحسنه في القرآن الكريم مثل « اشتعل الرأس شيباً » ومنه في الشعر كقول ابن المعتز « والشمس كالمرآة في كف الأشل » فجمع ذلك أتم واكمل في لسان العرب . ويعدون من الكلام البديع لفيكتور هوكو تشبيهه موج البحر بقطيع الغنم وقوله غنم البحر . وقول كمال بك إمام الادب في اللسان العثماني « برق الحقيقة يلمع من تصادم الافكار » . فهذه البلاغة والبيان ديدن العرب . وفي كلامهم كثير من البديع أتوا به بغير تكلف ولا تعمل . وبعضهم تصنع له وتكلف ظنّاً بانه اساس البلاغة والمقصود منها بالذات فملأوا بالبديع والاستعارات النظم والنثر وصرفوا الذهن وأجهدوا العقل حتى قالوا :

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

وتغافلوا عن ايضاح معنى المودة وهو من المعاني الكلية الجليلة التي اوضحها ادباء اليونان والرومان والافرنج فيما الفوه من الروايات المضحكة او الفاجعة وعرضوه في المراسح على انظار الجمهور فقدره الخواص حق قدره واستفاد منه العوام .

على ان تلك الحسنات البديعة والخصائص اللسانية وان كان لها تأثير عظيم على النفس فهي لم تزل في نظر العقلاء كالحلي والمصوغ للعروس . فالعاقل يجتهد بان تكون عروسه من ربات الجمال والدلال والأدب والكمال فان وجد معها شيء من الحلي فنعم . والا فالمقصود منها هو نفسها وذاتها . فهي الضالة التي ننشدها ونأتي بها ولو من جبال القوقاس فنعلمها لساننا ونلبسها ما عندنا من اللباس ونتمتع بها فهذا اولى من الباس الجارية السوداء الحلي والحلل وصرف النقد والوقت في تزيينها . وللناس فيما يعشقون مذاهب .

فالتكلف في زماننا لتقليد الانشاء العالي ونظم قصيدة ثامنة للمعلقات السبع او سجع مقامات ثالثة لمقامات الحريري والهمذاني ليس فيه كبير فائدة ما دام الاصل في الكلام للمعاني والمقصود من المعاني اظهار اسرار هذا الكون الذي نصبح فيه ونمسي ونحن غافلون عن كثير من حقائقه . ولا ندري باي عبارة نترجم عنها ولا كيف نوضح شعورنا واحساسنا بهذا الوسط الذي نحيه وهو سجن لنا . والدنيا سجن المؤمن . فهذه المعاني البليغة العالية ينبغي لادباء العصر سبكها في السهل الممتنع عن

الكلام الفصيح بغير تهافت منهم على الكلمات اللغوية والمحسنات اللفظية من جناس وطباق وقراءة الكلام طرداً وعكساً . وامثال ذلك مما يعده العقلاء من الملاعب البيانية اذ ليس هذا غاية الادب والغرض منه . وخير اللفظ ما جاء بالطبع والبداهة بلا تكلف ولا تحر في القواميس والمنشئات . فخطبة ناظر المعارف الفرنساوية التي تلاها بمناسبة يوبيل الكيماوي برتلو هي نموذج في بلاغة المعاني لمطابقتها لمقتضى الحال وايجاب المصلحة . وهي من احسن ما يقال في مثل تلك الجلسة وفي مناسبة ذلك الاجتماع . غير ان ذوقنا ربما يمجها لركاكة الترجمة . فان الالفاظ وان كانت عربية فتركيب هذه الالفاظ بعضها مع بعض لم يجر على اسلوب قس بن ساعدة او سحبان وائل ولا على طريقة الجاحظ امام الأدب ولا يشبه رسائل عبد الحميد أو ابن العميد اللذين قال فيهما الثعالبي : « فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد » بل جرى تركيب الفاظ تلك الخطبة على الاسلوب الفرنساوي المترجمة عنه . فاكثر الالفاظ في موضوعاتها التي وضعها فيه العرب الاولون . والركاكة بالنظر إلى التراكيب . وربما كانت بالنظر إلى بعض المفردات أيضاً لأن مفردات الفاظها لم تنتخب من القاموس المحيط ببلاغة اللسان كالذي الفه الزمخشري وسماه اساس البلاغة وطبع بمصر .

ثم هناك اسباب اخرى أيضاً تحول بيننا وبين ادراك بلاغة تلك الخطبة وهي عدم وقوفنا على دقائق تاريخ القوم ومزايا لغتهم وتعبيراتهم وفقداننا الملكة في هذا الاسلوب من الخطابة . ولذا ينبو سمعنا عما لم يأت على أساليب بلغاء العرب و سما لم يحرر على وفق مذهبهم في فنون الادب . حيث لكل قوم منهج معروف ومسلك مألوف . بل كل امام في الأدب من أي امة كان يذهب فيه مذهباً جديداً ويستخلص لنفسه طريقة مخصوصة يخالف فيها طرق المتقدمين ومذاهبهم . ولذا فاهل الذوق في الكلام إذا عرض عليهم شيء منه قالوا هو على طريقة فلان واسلوب فلان وهو من انشاء فلان دون فلان كما لو عرضت خمر من خمور بوردو على أهل الذوق المشهورين باسم « ديكوستاتور » لقبض الواحد منهم بكفه على الزجاجة حتى اذا سخنت بحرارة اليد وفاح منها الشذا المعروف عندهم باسم (بوكه) هزَّها ونظر فيها فاذا الخمر في الزجاجة ياقوتة سيالة ثم جرع منها جرعة ذاقها بطرف لسانه وقال لك هي من كرم « شاتولافيت » أو « شاتولاتور » أو « شاتومارغو » وفي هذه الثلاثة انحصرت الطبقة

العليا من طبقات الخمر المعصور بارض « ميدوق » وأتفق اهل الذوق والطب على انها من أطيب البقاع وابركها لانبات هذا الشراب الذي فيه منافع للناس واثمه اكبر من نفعه . لانه من جهة ترياق نافع ومن جهة أخرى سم ضار .

٢

والشعر كالنثر لا يختص بلسان العرب فقط بل يوجد في كل لسان من السن الامم المتمدنة والهمجية فان لاهالي افريقيا اشعاراً يمدحون بها على آلات طربهم ويرقصون على انغامها . وكان في الأمم السالفة شعراء مجيدون مثل فياسه صاحب ديوان ماهابهاراته ومثل فالميكي صاحب ديوان رامايانه وهما من شعراء الهند وكهنتها نظما الديوانين المذكورين باللسان السانسكريتي قبل الميلاد بقرون كثيرة وترجمها العلماء في زماننا إلى اكثر اللغات الاوربية فوجدوا اشعارهما حماسية دينية . وفي الديوان الأول نحو مئتي الف بيت أو قطعة . وهما عند الهنود بمثابة ما عند اليونان من الايلياذة والاوذيسة نظم هوميروس الشاعر الشهير . ولعل البستاني يتحفنا بنشر ما جناه من ادبه (١) فان هوميروس شيخ الشعراء باجمعهم . ومثل شعراء الروم الذين كانوا في القسطنطينية وما حولها من أرض الروم قبل ان يفتحها الفاتح . وشعراء الرومان اللاتينيين وشعراء الفرس وامامهم الحسن بن اسحاق الفردوسي ناظم الشهنامة في القرن الرابع للهجرة . وهو عند العجم كهوميروس عند اليونان وفرجيل عند الرومان ودانتي عند الطليان وميلتون عند الانكليز . وتشتمل الشهامة على تاريخ اكاسرة الفرس وأخبارهم وقد طبعت مراراً في الفارسية وترجمت للانكليزية والفرنساوية . وترجمها نثراً للعربية الفتح بين على البنداري الاصبهاني وقدمها لخزانة احد الملوك الايوبية .

ذكر الجاحظ في كتاب « البيان والتبيين » « ان الفارسي سئل قيل له ما البلاغة فقال معرفة الفصل من الوصل (٢) وسئل اليوناني عنها فقال تصحيح الاقسام واختيار الكلام وسئل الرومي عنها فقال حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة .

(١) ان الايلياذة نظم سليمان افندي البستاني صدرت مطبوعة في مطبعة الهلال سنة ١٩٠٤
(٢) الوصل عطف بعض الجمل على بعض والفصل تركه .

وسئل الهندي عنها فقال وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة وقال مرة التماس حسن الموقع والمعرفة بساحات القول » .

وفي الأمم الاوروبية والاميركية اليوم شعراء أعلى طبقة وابلغ كلاماً ممن تقدمهم من شعراء الأمم السالفة . وموازين الشعر في جميع اللغات على نسبة واحدة في اعداد المتحركات والسواكن . والشعر الفرنساوي تبنى اعاريضه على عدد الهجاء فالبحر الاسكندري (الكساندرين) على اثني عشر هجاء في الأصل . والروي أي القافية ـ وهو الحرف الأخير من كل بيت ـ موجود في لسان العرب وفي السن غيرهم . ولكن الفرنساويين قبل اختلاطهم بعرب الاندلس لم يكن لاشعارهم روي ولا قواف فاخذوا عن جيرانهم الاندلسيين علم القوافي كما سيجيء تفصيله . فقبل الشروع في بيان الطريقة التي سلكها فيكتور هوكو في علم الأدب وشرح أساليبه في النظم والنثر وفي تصوير القصص والروايات نذكر شيئاً من اخبار العرب ليتبين لنا التأثير الذي أثره ادبهم على أشعار الافرنج وقوافيهم بوجه العموم وعلى فيكتور هوكو بوجه الخصوص . لان هذا الشاعر الحكيم نفح بنفحة من النفس الاندلسي واغتذى بلبان من ارتضع قديماً ثدي الادب العربي . وبيان ذلك ان مدينة بيزانسون التي ولد فيها فيكتور هوكو دخلت في حوزة الاسلام حينما قطع أهله جبال البيرينه واغاروا على مملكة اكيتانيا وليون وفتحوا ما في شمالها من المدن مثل ماقون وديجون . ثم دخلت بيزانسون في طاعة شارلكان صاحب الوقائع الشهيرة مع فرانسوا الأول ملك الفرنساويين ومع تعاهده وحاميه السلطان سليمان القانوني وذلك في القرن السادس عشر للميلاد . فنقل الامبراطور شارلكان عائلات كثيرة من الاسبان وانزلهم بيزانسون فاستمروا زمناً طويلاً وامتزجوا باهلها ولم يزل لاهل بيزانسون شبه بالاسبان في ملامح الوجوه وفي اللهجة وفي كثير من الكلمات والتعبيرات مع ان مدينتهم لا تبعد عن باريس اكثر من أربعمئة كيلومتر . وقد أشار فيكتور هوكو إلى ذلك في القصيدة الأولى من ديوان اوراق الخريف ووصف بيزانسون بالمدينة القديمة الاسبانية فذهبت مثلاً . وصار الكتاب لا يفترون عن وصفها بهذا الوصف . وعلاقة الاسبان بالعرب وباللسان العربي معلومة لا تحتاج إلى ايضاح .

٣

أما العرب فلو نظرنا إلى تاريخ ادبهم لوجدنا في مقدمته اشعار الحماسة كما نجد ذلك عند بقية الأمم كالفرنساويين مثلاً فان النظم في لسان ادبهم دوّن قبل النثر . لأن النظم يحصل التأنق في تأليفه والعناية في جمعه فيضم اطراف الكلام وحواشيه ويكون في بادىء الأمر أبلغ مما عاصره من النثر فيحفظ في الصدور ويتداول على الالسنة . ثم تزيد العناية به فيدون بالنقش أو الكتابة ويعلق على الجدران . وهذا معنى قولهم النظم في تاريخ الأدب سابق للنثر . وإلّا فاول ما يبدأ من الكلام بالنثر لقرب تناوله وسهولة استعماله . ذكر الباقلاني في اعجاز القرآن المطبوع في مصر أن العرب بدأوا بالنثر وتوصلوا منه إلى الشعر وكان عثورهم عليه في الأصل بالاتفاق غير مقصود اليه . فلما استحسنوه واستطابوه ورأوا الاسماع تألفه والنفوس تقبله تتبعوه وتعلموا وتكلفوا له . فنبغ فيهم الشعراء واقبل الناس رجالاً ونساءً على حفظ أشعارهم ورواية أخبارهم والتفاخر بانشاد القصائد الكثيرة في المواضيع المختلفة والاستشهاد بكل بيت من ابياتها عند الحاجة . فجعلوا الشعر من بين الكلام ديوان علومهم واخبارهم وحكمهم وشاهد صوابهم وخطئهم وانزلوا الشاعر البليغ منزلة الامام العالم الذي يهتدي بنبراس قريحته ويفزع لرأيه في مشاكل الاقضية ومعضلات الامور . فكانت كلمة الشاعر هي الكلمة العليا وقوله امضى من السيف واحدٌ من السنان وحكمه نافذ كحكم الشرع في القضاء . وربما رفع الشاعر بالبيت الواحد عز القبيلة أو هدمه . كما وقع لشاعر قبيلة انف الناقة بعد ان كان اسمها مجلبة للعار بين القبائل . وكان السجع من الكلام يجري على السنة الكهان والحكماء والعرافين واهل الزجر (١) والفال وأنواع الحكم والطب مثل شق وسطيح وحنظلة بن صفوان كاهن حمير وخالد بن سنان العبسي الذي قالت ابنته حينما سمعت قراءة « قل هو الله أحد » كان ابي يقرأ مثل هذا . وامية بن ابي الصلت الثقفي وكان افتتاح كلامه « باسمك

---

(١) وهم صنف من المتكلمين بالغيب يزجرون انفسهم في مسموع او مرئي كسنوح طائر او حيوان ويفكرون فيه بعد مغيبه .

اللهم » وقس بن ساعدة ورباح بن عجلة عراف اليمامة والابلق الاسدي عراف نجد وغيرهم .

غير ان تاريخ ادب العرب قبل الاسلام لم يزل في حيز الخفاء لعدم تمكن العلماء من درس اللغات أو اللهجات العربية السابقة على لغة مضر كلغة حمير مثلاً فانه لم يشتهر عندنا من قواعدها اكثر من حديث « أمن امبر امصيام في امسفر » حيث استعمل فيه (أم) عوضاً عن (ال) التعريف . ولا يكشف الغطاء عن هذا القسم من تاريخ الأدب الا بعد استخراج ما في أرض اليمن من الالواح التي تدعى بالمسند الحميري ومافي خرائب مدائن صالح وأرض الحيرة وسائر جزيرة العرب من الآثار القديمة العادية التي كان لاصحابها نصيب من الحضارة وكان لادبهم تأثير على ادب مضر . وقد تفرغ نخبة من مستشرقي الافرنج للبحث عن تلك المستندات والآثار القديمة العربية . ولعل التشبث باتمام السكة الحديدية الحجازية يسهل لهم هذا البحث . فمن عرفت من اولئك المستشرقين ادوارد غلازر من الالمانيين وكان اطلعني ونحن في الاستانة على ما اكتشفه من المسند الحميري وجاء به من ارض اليمن . والمسند لوح من الحجر عليه كتابة باحرف مقطعة قائمة الزوايا وبعضها مدور كالدائرة . وحدثني هذا المستشرق الفاضل عن رحلته في جزيرة العرب وهويتكلم العربية بلهجة يمانية بدوية . وفي سنة ١٨٩٥ نشر في مونيخ كتاباً بالالمانية عن مأرب وحمير والحبشة ثم نشر كتاباً آخر في برلين وقدمه لمؤتمر المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة ١٨٩٧ . ولما اتيت هذه المدينة حضرت الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ في الصوربون وهويلقي دروسه في اللغة الحميرية ويفسر المسندات ويترجمها للفرنساوية وله رسالة ترجم فيها ما في متحف اللوفر من آثار حمير وسبأ . ومن المشتغلين باللسان الحميري هالبفي الفرنساوي مدرس اللغة الحبشية في الصوربون . وله مقالات في المجلة السامية بحث فيها عن اتفاق الحبشة مع أهل سبأ على اهل حمير النازلين في شرقي حضرموت .

وللعلماء اشتغال بهذه اللغة في انكلترا وايطاليا أيضاً لاهتمام الاولى بجمع ما يتعلق بالعالم الاسلامي والعربي ولمناسبة بين الثانية وبين الحبشة واختلاط تاريخ الحبشة بتاريخ حمير . الا ان هذا العلم لم يزل في النشأة الأولى محتاجاً للتدقيق والتمحيص حتى يتيسر للعلماء أن يوضحوا لنا كيف كان اللسان الحميري مع اللسان

المضـري . فان ابن خلدون يقـول في مقدمته « ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحمـيري بمثـابـة ما هو اليـوم اللسان المضري مع لغة العرب لهذا العهد ـ وهي التي بدون اعـراب فقـد منهـا دلالـة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول وعوض عنها بالتقـديم والتأخير وبقـرائن تدل على خصـوصيات المقاصد ـ وتغيرت عند مضر كثـير من موضـوعـات اللسـان الحمـيري وتصـاريف كلماتـه . تشهد بذلك الانقال المـوجـودة لدينـا خلافـاً لمن يحمله القصـور على انهـا لغة واحدة ويلتمس اجراء اللغة الحمـيريـة على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحميري انه من القول وكثير من أشياء هذا وليس ذلك بصحيح . ولغة حمير لغـة أخـرى مغـايـرة للغة مضر في الكثير من اوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر . الا ان العناية بلسان مضر من أجل الشريعة اي القـرآن والسنـة حمل ذلـك على الاستنبـاط والاستقراء . ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا احكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بامور اخـرى موجـودة فيـه فتكون لها قوانين تخصها ولعلها تكون في اواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر » .

فأخـذ ذلـك المستشـرقـون من الافرنج واعتنى بعضهم بتدوين اللسان العامي واستقراء احكامه كما فعل موسيو هوداس الفرنساوي في لغة الجزائر العربية ونشر فيها كتاباً ولم يزل يدرسها في مدرسة الالسن الشرقية في باريس كما تدرس أيضاً في مدرسة المستعمرات وفي المدارس العسكرية بباريس وغيرها . ولهم في ذلك مآرب سياسية لا نخـوض فيهـا . الا ان تدوين اللغـات العـامـة ـ بالنظـر إلى انتشـار العلم وتـوسـع الحضارة ـ له محاذير كثيرة وموجب للتفرقة ونصب الحواجز بين امم هذا العالم العظيم الممتـد من المحيـط الغـربي إلى بلاد العجم والهند . والعلماء في عصرنا يجتهدون في ازالـة المـوانع التي استلزمها تباين اللغات بين الأمم ويسعون في ايجاد لغة عامة لعموم بني البشر وفي جميع افراد الانسان على لسان واحد . فكيف يجوز حينئذٍ تفريق لسان امـة كبـيرة على السنـة همجيـة عاميـة ووضع لسان مخصوص لكل من الجزائر وتونس ومصـر وسـوريـا وبغداد والموصل والزنجبار والمنزوان ثم لمراكش وغيرها من المتكلمين بلسـان جزيـرة العـرب وتـدوين كل واحد من هذه الالسن التي يراد وضعها كما تدون الالسن الجديدة الهمجية مثل لسان حوصه وغيره من لغات أفريقية .

وإنا نجد اللغة الفرنساوية على ما فيها من التباين بين ما يتكلمه سكان المدن وما يتكلمه أهل القرى وعدم فهم الباريزي السن الباتوا التي يتكلمها القاطنون في جبال البرينه واقيرنيه وفي الايالات الغربية والجنوبية من أراضي فرنسا لم يجيزوا فيها تدوين لغة الايالة بروفانس أو بريطانيا مثلاً ولا سمحوا بانشاء جريدة فيهما .

وانتهى بهم التعصب إلى محو ما كتب بلسان الباسك وهم سكان جبال البيرينه من جهة المحيط مع ان المتكلمين بها يفتخرون بقدمهم على سائر الامم الاوروبية .
فكيف يصوغ إذاً تدوين لغة الجزائر ؟ واهلها لا يتعذر عليهم فهم (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) لاستعمالهم مواد هذه الكلمات الاصلية من وقوف وبكاء وذكر وحب ونزول ، وإذا لم يفهموا ما بعد ذلك فالقصور ناشىء من الجهل بالجغرافية لا باصل اللغة التي لم يزل لهم باصولها وموادها ملكة راسخة . فان سقط اللوى ، والدخول ، وحومل ، وتوضح ، والمقراة المذكورة في قول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال

هي اماكن معروفة عند اهل الحجاز كما ان مقرة ومقطع الحديد من الاماكن المعروفة عند اهل الجزائر لشهرتها باستخراج معدن الحديد . فبدلاً من تدوين لغة الجزائر العامية كما دوّنت لغة حوصه ومن نشر المؤلفات والمطبوعات فيها والاجبار على تعليمها في المدارس للاطفال ـ لو سعى اهل العلم وارباب القلم في التقرب من لغة مصر المدونة وازالوا منها (العامية) كما ازيلت (الباتوا) من اللغة الفرنساوية وهذبوها من الجناسات والتشابيه الغامضة واختاروا فيها السهل من الالفاظ والتراكيب واصلحوا املاءها وكتابة اسماء الاعلام فيها لكان فعلهم على ما نظن اسهل وانجح من تدوين لسان عامي بل السن همجية واقامة الحواجز بين المتكلمين بها . مع ان ازدياد وسائط النقل والمخابرة يستدعي كثرة اختلاطهم بعضهم ببعض . وعما قريب سيتم مد الخطوط الحديدي ويصبح السفر من مراكش إلى بغداد والهند أو الى الحجاز أسهل مما كان قديماً بين مصر القاهرة والاسكندرية . فلا يحتاج المسافر إلى استصحاب كتاب « جامع اللغات » ليعلم منه السن الجزائر وتونس وطرابلس ومصر وفلسطين وسوريا وبغداد والحجاز . أما انتشار المطبوعات العربية فهو آخذ بالترقي ونجد لمطبوعات مصر رواجاً في تونس والجزائر ولابد ان تمتد يوماً على عموم سكان القارة الافريقية .

أما لغة مضر فبدون ان نقف على حقيقة الادوار التي دارت عليها ولا على الاطوار التي تقلبت فيها نجدها في العصر السابق للاسلام على جانب من الفصاحة والبلاغة مشتملة على انواع التشبيه والاستعارة والبديع وأكثر حماسة وفيها من التصورات البديعة والتخيلات الشعرية واللطف والرقة والأدب ما يدلنا على ان اللغة لم تكن اذ ذاك في عهد الطفولة فان الفرق بين أشعار المعلقات وبين اشعار « التر وبادور » الفرنساوية عظيم . لما في الأخيرة من الخشونة وعدم الرقة . وإذا غازل شاعر الجاهلية فتاة الحي حسبته أديباً من أدباء باريس . . .

ونجد للعرب قبل الاسلام انواعاً كثيرة من فنون الأدب والشعر منها القصيد والرجز والاغاني ومنها ما ينشد في الحرب على الدفوف . ومنها ما يحدى به للعيس أو يغنى به للرقص وتسكيت الاطفال ومنها السجع والترسل والخطب والرسائل وضروب الامثال والحكم . والحاصل كانت فنون أدبهم أتقن من معيشتهم البدوية . وكان لهم مؤتمر واكاديمية للتفاخر باللسن والفصاحة . وكانوا يقيمون لذلك المواسم والاعياد فيجتمعون اولاً في سوق عكاظ وهو واد بين مكة والطائف فيه ماء وظل وخضرة فيقيمون فيه شهراً ويذهبون منه إلى سوق مجنة ثم إلى سوق ذي المجاز وهما بناحية مكة . ثم يذهبون في ذي الحجة إلى البيت الحرام ، موضع حجهم . فكان أدباؤهم وهم ذوو الرئاسة والمكانة فيهم يتنافسون بالآداب والحكم ويقصدون بهذه الاسواق لانشاد الشعر والقاء الخطب فاذا اجتمعوا بسوق عكاظ ضربت قبة لاكبر الشعراء في عصره كالنابغة الذبياني الذي سمي أشعر العرب فجلس في القبة وجاءته الشعراء كما جاءه حسان مثلاً وعرضوا عليه انفس أشعارهم . وقام الحارث ابن حلزة يتبختر بين الجموع الجاهلية ويقول :

آذانـنـا بينـهـا اسـماء رب ثاوٍ يمـل منـه الـثـوآء
بعـد عهـد لها ببرقـة سمـرا ء فأدنـى ديـارهـا الخـلـصـاء

حتى يأتي على آخر [illegible] فيحتكم في مقاله أولو الذوق الصحيح والطبع السليم ويميزون فيه بين الغث والسمين ويقابلونه بغيره من كلام المعلقات . ثم وقف قس بن ساعدة على بعير أحمر وقال « أيها الناس اجتمعوا وإذا اجتمعتم فاسمعوا وإذا سمعتم فعوا وإذا [illegible] وإذا قلتم فاصدقوا . من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آ[illegible] قد اجتمعوا حوله فبدأ [illegible] بقوله

« أما بعد . . . الخ » كأنه خطيب فرنساوي بل انكليزي يخطب في هايدبارك .

وكان لكل شاعر مبلغ يبلغ عنه الجمهور ورواية يروي له الاشعار . فكانت الرواة في ايامهم كالجرائد في يومنا ولذا كانت الاشعار تنتشر وتشتهر في مدة قليلة بين جميع القبائل في جزيرة العرب . وانتهوا في العصر السابق للهجرة إلى المناغاة في كتابة قصائدهم بالذهب وتعليقها باركان الكعبة كما فعل اصحاب المعلقات السبع وهم :

(١) امرؤ القيس واسمه جندح بن حجر الكندي وكان ابوه يملك في جهة الحيرة على بني اسد ويضرب المثل في شهرة معلقته فيقال « أشهر من قفا نبك » وله غيرها ديوان مشروح ومطبوع ومترجم إلى اللغات الاوربية . ويقال ان احسن ما في شعره وصفه الفرس(١) ولذا ضرب المثل بامرء القيس إذا ركب والنابغة اذا رهب وزهير اذا رغب . وقيل ان امرء القيس توفي سنة ٥٤٠ م وكان مغرماً باللهو الزهو والخمر والنساء وكلامه في المعلقة منادمة ومداعبة . ومدح في شعره تغلب على بكر .

(٢) طرفة بن العبد وديوانه ترجم للفرنساوية في الصوربون وطبعه الموسيو سليغصون (Seligsohn) ومعلقته تبحث في النساء والخمر واللهو وطيب العيش (٣) عمرو بن كلثوم (٤) والحارث بن حلزة اليشكري من قبيلة بكر بن وائل وله ديوان وفي معلقته الهمزية وفي معلقة عمرو المذكور خبر حرب البسوس التي وقعت بين بكر وتغلب (٥) زهير بن ابي سلمى (٦) عنترة بن شداد وفي معلقتيهما ذكر حرب داحس التي وقعت بين عبس وذبيان . وقصة عنتر الشهيرة المطبوعة في بيروت ومصر ترجمها سابقاً للالمانية المستشرق النمساوي همر (Hammer) صاحب تاريخ الدولة العثمانية وتاريخ الأدب العثماني وتاريخ الأدب العربي . وترجم شيئاً من قصة عنتر للفرنساوية مارسل ديفيك (Devic) معلم العربية في كلية مون بيليه وهي من أقدم مدارس الافرنج . وكان اطباء العرب واليهود المستعربون يدرسون فيها الطب .

(٧) لبيد بن ربيعة العامري القائل « الا كل شيء ما خلا الله باطل » وفي كلامه كثير من الحكم ووصف في اشعاره اخلاق عرب البادية واطوارهم وعاداتهم وله

---

(١) بقوله :

وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

له ايطلا ظبي وساقا نعامة وارخاء سرحان وتقريب تتفل

غير المعلقة ديوان أشعار طبع منه الجزء الأول في فينا عاصمة النمسا الشيخ يوسف ضياء الدين باشا الخالدي المقدسي سنة ١٨٨٠ وجعل له مقدمة وشرحاً .

وظهر من فطاحل الشعراء غير من ذكر النابغة الذبياني وطبع ديوانه الاستاذ هارتويغ ديربنورغ (H. Derenbourg) سنة ١٨٦٩ وفسره وحشاه . ومنهم حاتم طي الشهير بالسخاء وقد جمع اشعاره غضبان افندي وطبعها في لوندره وسماها ديوان حاتم طي . ومنهم دريد بن الصمة والشنفرى الازدي والاعشى الاكبر وتأبط شراً وكثير غيرهم . يحكى عن حماد الراوية انه انشد بحضرة الوليد من كلام الجاهلية مئة قصيدة لكل قافية من قوافي الحروف العربية لا تنقص القصيدة عن عشرين بيتاً وفيها ما يربو على المئة بيت . فمهما بالغ الحاكي لا تنكر كثرة ما قرض من الشعر على عهد الجاهلية . ولهم غير الشعر والرجز خطب ورسائل وكثير من ضروب الامثال التي تنقلت عنهم ودونت في المجاميع .

ويسمي كلام هذه الطبقة من الأدباء « كلام الجاهلية » لجهلهم بما جاء به الاسلام والا فهم أئمة في الأدب يقتدى بهم . ولذا اتخذ من جاء بعدهم كلامهم منوالاً نسجوا عليه مثله وقالباً فرغوا فيه شبهه من الالفاظ والتراكيب . ولم يزل الادباء على ذلك إلى يومنا هذا كما فعل اصحاب « عكاظ الأدب » المطبوع في الاستانة عقب الحرب اليونانية الأخيرة . وإذا تأملنا كلام الجاهلية نجدهم وصفوا الطبيعة أحسن وصف وصوروها اكمل تصوير بالنسبة لحالتهم البدوية ولصحاريهم الرملية فميزوا بين انواع الرمل وسموا كل نوع باسم مخصوص منها (الخفف) وهو الرمل المنفرج و(العقنقل) الرمل المعقد الداخل بعضه في بعض و(البطن) من الأرض و(الخبت) من الأرض كل ذلك من أشكال الأرض المختلفة كما قال امرؤ القيس في معلقته :

فقمت بها امشي تجر وراءنا   على اثرنا اذيال مرط مرجل
فلما اجزنا ساحة الحي وانتحى   بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

والمرط نوع من اثوابهم يقال إنه يشبه التنجيل حسب (موضة) ذاك الزمان . وقد وصفوا في هذا النمط جميع ما شاهدوه في الطبيعة ودققوا بما تشعروا به في قلوبهم ووجدوه في انفسهم من التأثر الحسي وان ذكروا بعبرة او درسا لم يتركوا شكلاً الا شرحوه شرحاً مفصلاً . فحيث كانت الفصاحة هي الاقتدار على الابانة عن المعاني

الكامنة في النفوس التي كانت غاية الاديب منهم اثبات اقتداره على ايراد صور مختلفة للشيء الواحد واظهار تعمقه في معرفة اللغة وحسن تصرفه في استعمال الكلمات المترادفة المتقاربة . وكان لهم نظر جيد في العوالم والكائنات كقول قس في بعض الروايات « ليل داج وسماء ذات ابراج ونجوم تزهر وبحار تزخر وجبال مرساة وأرض مدحاة وانهار مجراة الخ » ولهم اساليب بديعة في ذكر البرق والسحاب والمطر وسائر التغيرات الجوية وكذا في ذكر الرسوم والطلل والمنازل والروض والاشجار ومنابت العشب إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم ومعروف .

ولغزارتهم وتمكنهم من اللغة لم يكونوا يتصنعون لتأليف المحاسن البديعة في الكلام انما كانت نوابغ الكلم تتفق لهم اتفاقاً وتطرد في كلامهم اطراداً بخلاف من اتى بعدهم فانهم صنفوا المحاسن البديعة تصنيفاً وتحرروا عليها . ومع ذلك فالبليغ من الكلام لم يصدر من افواه الجاهلية الا بعد التروي والتصنع والتنقيح والتهذيب وقد تعبوا وكدوا أنفسهم وجاهدوا خواطرهم . وكان زهير يسمى كبير شعره الحوليات المنقحة .

وقال عدي بن الرقاع :

وقصيدة قد بت اجمع بيتها   حتى اقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قناته   حتى يقيم ثقافتها ومنادها

وقال سويد كراع :

أبيت بأبواب القوافي كأنما   أصادي بها سرباً من الوحش نزعا

وسموا زهير والحطيئة واشباههما عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . قال الباقلاني « وكانت العرب تعلم اولادها قول الشعر بوضع غير معقول يوضع على بعض اوزان الشعر كانه على وزن (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) ويسمون ذلك الوضع المير واشتقاقه من المتر وهو الجذب او القطع يقال مترت الحبل بمعنى قطعته اوجذبته » . والفرنساويون يسمون العروض ميتر وميتريك ويقولون انه مشتق من معنى القياس باليونانية وله دروس مخصوصة واساتذة في الصوربون والف في العروض العربي المستشرق استاذ لاتي كويار معلم العربية في كلية فرانسا عدة رسائل واستنبط فيه قواعد جديدة نال عليها الجائزة وثناء العموم . وعبر العرب عن قول الشعر ونظمه بالقريض [illegible] . ومعنى القرض [illegible]

الشعر مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة . وكانت عنايتهم في الجاهلية مصروفة للكلام على المنظوم من شعر وسجع لان تأثيره في النفوس اشد لما يحدثه من النغمة التي تطرب لها الأذن وتلهو بها عن تمحيص الحق من الباطل في الكلام . وذلك ان الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم أي المسبوك تنقسم إلى اعاريض الشعر على اختلاف انواعه . ثم الى انواع الكلام الموزون غير المقفى . ثم إلى اصناف الكلام المعدل المسجع . ثم الى معدل موزون غير مسجع . ثم الى ما يرسل ارسالاً وتطلب فيه الاصابة والافادة وافهام المعاني على وجه بديع وترتيب لطيف . وهذا القسم الأخير شبيه بالكلام الذي لايتعمل ولا يتصنع له . بخلاف القصيد من الشعر فانه يلتزم فيه قافية واحدة إلى آخر الكلام ويشترط ان يكون كل بيت كلاماً وحده مستقلاً عما قبله وما بعده وإذا أفرد كان تاماً في بابه في مدح أو غزل أو رثاء أو هجاء أو حماسة . والرجز ضرب من الشعر ولو لم يلتزم فيه أن يكون على قافية واحدة . والسجع يلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة ويذمون كل سجع خرج عن اعتدال الاجزاء . والمقفى قد انتصر له في زماننا عبد الحق حامد بك مستشار السفارة العثمانية في لونده والف فيه رواية اللسان التركي على الطرز الجديد . وأما المرسل فهو الذي يرسل فيه الكلام ارسالاً بدون تقييد بقافية أو سجع أو وزن أو شيء ما بل يطلق اطلاقاً . ويتأتى في هذا القسم من الفصاحة والبلاغة ما لا يتأتى في السجع ولا في الشعر لان السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع أو القافية . وكذلك الشعر يضيق نطاق الكلام ويمنع القول من انتهائه ويصده عن تصرفه على قواعده . ومن يلتزم في كلامه السجع أو الوزن أو القافية فهو يلفق بهما ما ينقصه من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال ويجبره بذلك القدر من التزيين بالاسجاع ورن الصوت بالوزن والنغمة كما يزينه ببقية الصنائع البديعة ويغفل عما سوى ذلك من بلاغة المعاني . فلما سلك الشعراء في الجاهلية على حفظ الالفاظ وتصنيعها دون ضبط المعاني وترتيبها عرض بهم القرآن الكريم فقال «والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون» قال الباقلاني « فاخبر انهم يتبعون القول حيث توجه بهم واللفظ كيف اطاعهم والمعاني كيف تتبع الفاظهم وذلك خلاف ما وضع عليه الابانة عن المقاصد بالخطاب » . ولما شرعت دية الجنين جاء بعض العرب إلى النبي عليه السلام وكلمه

في هذا الشأن ولفقوا كلامهم بالسجع ليجعلوا فيه قوة الحجة الدافعة والبرهان القاطع فقالوا :

- كيف ندي من لا أكل ولا شرب ولا صاح فاستهل اليس دمه قد بطل .

- فقال : - اسجاعة كسجاعة الجاهلية ؟ اسجعاً كسجع الكهان ؟

نعم ان الشعر اذا تهذب ووفي له بجميع الاسباب لم يقاربه من كلام الادميين كلام ولم يعارضه من خطابهم خطاب . ولكن قلما يفلح الشاعر المجيد الا في بعض الابيات لاسيما في الشعر العربي حيث ضيق فيه النطاق على الشعراء والزموا باتباع القواعد التي تخطاها شعراء الافرنج . على أن اكثر فحول الادب في البلاد المتمدنة صارفون عنايتهم في يومنا الى النثر المرسل دون النظم كما فعل فيكتور هوكو في آخر عمره وكما يفعل اليوم اميل زولا وغيره مثل تولستوي اديب الروس .

٤

ثم ظهر الاسلام وجاء القرآن بافصح لفظ وأبلغ معنى على اسلوب جديد يخالف اساليب العرب في النظم والنثر فلا هو مرسل ولا مسجع بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطيع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها . ثم يعاد الكلام في الآية الاخرى من غير التزام حرف يكون سجعاً أو قافية . وسميت آخر الآيات فواصل لانها ليست اسجاعاً ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضاً قواف . ووقع اللفظ في القرآن تابعاً للمعنى ولذا فاق كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد وغير ذلك من انواع بلاغتهم . لان الواحد منهم ان برع في فن من فنون النظم او النثر قصر فيما دونه والقرآن أبدع في جميع ضروب الكلام وطرق الافادة واشتمل على قصص واخبار وشرائع واحكام ووعد ووعيد وترهيب وترغيب وتنزيه وتحميد وحجج على التوحيد وامثال سائرة ومواعظ زاجرة وأصول ادارية وسياسية وغير ذلك مما لم يحط بنصفه بل ولا بربعه اديب من الادباء ولا شاعر من الشعراء وناضل عن الحرية وخفف اذى العبودية وندد بالظلمة وتوعدهم بما تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . فقال في الوعيد « وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون » وبين استبداد المستبدين من الملوك والسلاطين وكيفية ايقاعهم التفرقة بين رعاياهم ثم ايصال الجور والأذى اليهم

فرقة بعد اخرى كما كانت سياسة فراعنة مصر ونماردة بابل وقياصرة الرومان والروم واكاسرة الفرس فقال في تصوير هذا الاستبداد :

« ان فرعون علا في الأرض وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين . ونريد ان نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

قال الباقلاني (١) : « ذكر العلو في الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء واذا تحكم في هذين الامرين فما ظنك بما دونهما لان النفوس لا تطمئن على هذا الظلم والقلوب لا تقر على هذا الجور . ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد وكفت في التظلم وردت آخر الكلام على أوله وعطفت عجزه على صدره . ثم ذكر وعده تخليصهم وجعلهم مستقلين بأمرهم وارثين لارضهم » ومما ورد في القرآن الكريم في السياسة والمناسبات الدولية التي كانت بين مملكة فلسطين وعاصمتها اذ ذاك اورشليم وبين مملكة سبأ وعاصمتها مأرب وما كتب به سليمان بن داوود عليهما السلام إلى بلقيس وما اشتغلت به من التدبير والمشورة واستطلاع عواقب الامور وارسال الهدية لفك عراقيل السياسة بالوسائط الديبلوماتية إلى غير ذلك، ما نصه : (١)

قال - اذهب بكتابي هذا فالقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون .

قالت - يا ايها الملأ اني القي اليَّ كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم إلّا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين .

قالت - يا ايها الملأ افتوني في امري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون .

قالوا - نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين .

قالت - ان الملوك إذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون . واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان .

قال - اتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون .

ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون - إلى اخر القصة - وترى فيها مجيء اهل سباء مسلمين إلى اورشليم والاحتفال

(١) إعجاز القرآن .

(١) سورة النمل . والذي قال هو سليمان عليه السلام وقالت هي بلقيس وقالوا هم رجال دولتها واعيان بلادها .

باستقبالهم . وارائتهم عز الملك وارتقاء الصنائع وما اتى به الذي عنده علم من الكتاب من عرش لملكتهم حتى قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو . واصطناعهم لها صرحاً يذكرنا قصر الزجاج الذي أنشىء في معرض باريس الأخير . وقيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير . . . .
قال الباقلاني ـ وهو القاضي أبو محمد بن الطيب الأشعري المعروف بابن الباقلاني وكان ملك الاسلام في بغداد عضد الدولة من آل بويه ارسله سنة ٣٧١ هـ سفيراً إلى قيصر الروم في القسطنطينية وهو قسطنطين التاسع من سلالة مكدونيا وكانت السفارة في جواب رسالة وردت عليه منه ـ قال : « متى تهيأ للآدمي ان يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة العالية « ألاّ تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين » . والخلوص من ذلك إلى ما صارت اليه بلقيس من التدبير واشتغلت به من المشورة ومن تعظيمها أمر المستشار ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها بتلك الالفاظ البديعة والكلمات العجيبة البليغة . ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها « يا ايها الملأ افتوني في امري ما كنت قاطعة امراً حتى تشهدون » وذكر قولهم « قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين » لا تجد في صفتهم انفسهم ابدع مما وصفهم به وقوله « الأمر اليك » تعلم براعته بنفسه وعجيب معناه وموضع اتفاقه في هذا الكلام وتمكن الفاصلة وملاءمته لما قبله وذلك قوله « فانظري ماذا تأمرين » ثم إلى هذا الاقتصار والى البيان مع الايجاز فان الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والايجاز وهذا ما يزيده الاختصار بسطاً لتمكنه ووقوعه موقعه ويتضمن الايجاز منه تصرفاً يتجاوز محله وموضعه . وكم جئت إلى كلام مبسوط يضيق عن الافهام ووقعت على حديث طويل يقصر عما يراد به من التمام ثم لو وقع على الافهام . . . فما يجب فيه من شروط الاحكام كله أو بمعاني القصة وما تقتضي من الاعظام . ثم لو ظفرت بذلك كله رأيته ناقصاً في وجه الحكمة . أو مدخلاً في باب السياسة . أو مصفوفاً في طريق السيادة . أو مشترك العبارات ان كان مستجود المعنى . أو جيد البلاغة مستجلب المعنى . أو مستجلب البلاغة جيد المعنى أو مستنكر اللفظ وحشي العبارة . أو مستبهم الجانب مستكره الوضع . وأنت لا تجد في جميع ما تلونا عليك الا ما اذا بسط افاد وإذا اختصر كمل في بابه وجاد وإذا سرح الحكيم في جوانبه طرف خاطره وبعث العليم في اطرافه عيون مباحثه لم يقع إلاّ على

محاسن تتوالى وبدائع تترى . ثم فكر بعد ذلك في آية آية أو كلمة كلمة في قوله « أن الملوك إذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » هذه الكلمات الثلاث كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره وكالياقوت يتلألأ بين شذوره . ثم تأمل تمكن الفاصلة وهي الكلمة الثالثة وحسن موقعها وعجيب حكمها وبارع معناها . وان شرحت لك ما في كل آية طال عليك الامر ولكن بينت بها فسرت وقررت بما فصلت الوجه الذي سلكت فيه والنحو الذي قصدت والغرض الذي اليه رميت والسمت الذي اليه دعوت . ثم فكر بعد ذلك في شيء ادلك عليه وهو تعادل هذا النظم في الاعجاز في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة فاجل الرأي في سورة سورة وآية آية وفاصلة فاصلة وتدبر الخواتم والفواتح والبوادي والمقاطع ومواضع الفصل والوصل ومواضع التنقل والتحول ثم اقض ما انت قاض . وان طال عليك تأمل الجميع فاقتصر على سورة واحدة أو على بعض سور . ما رأيك في قوله « أن فرعون علا في الأرض . وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين » هذه تشتمل على ست كلمات سناؤ ها وضياؤ ها على ما ترى . وسلاستها وماؤ ها على ما تشاهد . ورونقها على ما تعاين . وفصاحتها على ما تعرف . وهي تشتمل على جملة وتفصيل وتفسير ذكر العلو في الأرض . . . . الخ » .

ومن ذلك يعلم اقتدار هذا السفير الكبير في « الانتقاد الأدبي » (1) الذي له المقام الأسمى بين علوم الأدب . وللافرنج فيه عناية زائدة وجرائدهم تنشر فيه المقالات الضافية . ولجريدة الطان محرر ماهر في« الانتقاد الأدبي »وهو« غاستون ديشان » وإذا امعنا النظر في القرآن الكريم نجده مملوءاً بالمحاسن والبلاغة ولكننا نتلوه في الغالب تلاوة تعبد بدون نظر في حقائق معانيه وتاريخه . والا تأمل قوله « لهم مالنا وعليهم ما علينا » تجد في هاتين الكلمتين من البلاغة والفصاحة ما لم يأت بمثله غابرييل هانوتو على ما هو عليه من الاقتدار في الأدب والعلم والسياسة والحرية الفرنساوية . وما ادراك ما الحرية الفرنساوية ـ هي الحرية التي انقذت امماً كثيرة من الظلم الاستبداد . وجل ما اتى به في الخطبة التي خطبها أخيراً في الجزائر عن سياسة الاستعمار في افريقية وعما يجب على الدولة المتمدنة في جانب اهاليها المسلمين

(1) critique litteraires

« يجب لهم علينا الأمن ، يجب لهم علينا العدل ، يجب لهم علينا كذلك التساهل » أي بالدين . وقد نشر ملخص هذه الخطبة في جريدة طرابلس الشام . فقابل بين تينك الكلمتين وبين هذه الكلمات الثلاث وحكم ضميرك الحر إن كنت من الاحرار واحكم بعد ذلك بما شئت . لو قرأنا القرآن وفهمناه كما ينبغي لوجدنا فيه مقاومة شديدة للظلم والاستبداد وميلاً زائداً للعدل والحرية . ولقد رفع الاستبداد بسببه يوماً ولكن الأمم الاسيوية والافريقية أبت الخروج من تحت نير العبودية . أو كما عبر أحد الافاضل بقوله « لما ساد عليهم الجهل ولم يستطيعوا ان يصعدوا إلى القرآن بعقولهم انزلوه من مكانه الرفيع ووضعوه مع جهلهم في مستر واحد » .

٥

وبظهور الاسلام ظهرت طبقة جديدة من الادباء قيل لهم اهل الطبقة الاسلامية وهم الذين كانوا في صدر الاسلام وايام الدولة الاموية التي امتدت إلى سنة ١٣٢هـ وفي اوائل الدولة العباسة وسمي المتأخرون منهم شعراء الدولتين الاموية والعباسية ولخص حسان بن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وسلم الطريقة المثلى في الشعر بقوله :

وانما الشعر عقل المرء يعرضه على البرية ان كيساً وان حمقا
وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

وفي مقدمة هذه الطبقة عمرو بن ابي ربيعة كبير قريش وكان له في الشعر مقامات عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجباً به . ومنهم الحطيئة العبسي المشهور في الهجاء وحكم عليه بقطع اللسان في خلافة عمر (رضه) ثم عفا عنه . وكان جرير والفرزدق والأخطل من اعظم شعراء الدولة الاموية وحصل بينهم محاورات ومهاجاة وكان لكل منهم فرقة من الناس تفضل شعره وتطرب لقوله وتنتصر لرأيه وكثيراً ما كان يفضي بينهم الجدال على تفضيل الشعر إلى القتال . والمشهور بين الأدباء ان جرير مرجح على الفرزدق في اكثر انواع الشعر وعلى الأخطل في جميع انواعه . وكان الفرزدق والأخطل متفقين على هجاء جرير ومعاداته . واستخرج المستشرق بوشه من مكتبة جامع ايا صوفيا بالاستانة ديوان الفرزدق وطبعه وحشاه وترجمه للفرنساوية وحرر شيئاً عن عروة بن الورد أيضاً .

وممن عاصر الفرزدق غيلان ذي الرمة الثقفي صاحب مي بنت مقاتل . ومن هذه الطبقة نصيب وبشار المتوفى سنة ١٦٧هـ وهو القائل «والاذن تعشق قبل العين أحياناً» وكثير غيرهم ويجمع كلامهم كتاب الاغاني الذي الفه ابو الفرج الاصفهاني المتوفي سنة ٣٥٦هـ. وكان من نسل مروان الحمار آخر ملوك بني أمية وكتابه هذا مطبوع في بولاق . ومختصره أي رواياته مطبوع في بيروت . وممن اشتهر بالنثر وكتابة الرسائل عبد الحميد الكاتب وكان كاتباً لمروان الحمار فمات منكوباً حينما انقرضت الدولة الاموية . وجمعت رسائله في كتاب .

فأهل هذه الطبقة وان نسجوا على منوال شعر الجاهلية فكلامهم اعلى طبقة في البلاغة واذواقها من كلام الجاهلية في منظومهم ومنثورهم وخطبهم وترسُّلِهم ومحاوراتهم للملوك . والسبب في ذلك حصول الانقلاب في الأمة وتأسس الملك والدولة وتوسع حدود المملكة بالفتوحات واختلاط الاقوام بعضها ببعض فاتسعت بذلك دائرة العقول ونهضت طباع اهل الطبقة الاسلامية وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم . فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأرصف مبنى وأعدل تثقيفاً بما استفادوه من انفتاق الذهن وتوسع دائرة الفكر وبما سمعوه من الكلام العالي الطبقة في القرآن والحديث .

٦

ثم حصل انقلاب كبير في الأمة وقامت الدولة العباسية مقام الدولة الاموية وترجمت كتب العلم والحكمة عن خمس لغات اعجمية وهي :

(١) الفارسية او البهلوية

(٢) الهندية او السنسكرية

(٣) السريانية

(٤) العبرانية وسمي المترجم عنها بالاسرائيليات

(٥) اليونانية

وعكف اهل العلم والفضل على النظر في هذه الكتب ونقلوا للعربية شيئاً قليلاً من أدب اللغات الاعجمية وكان في مقدمة الناقلين ابن المقفع(١٠٩ ـ ١٤٥هـ) واسمه عبد الله بن داذبه وأصله من مجوس الفرس أسلم ودخل في خدمة عيسى ابن

علي عم السفاح اول الخلفاء العباسيين . وأشتهر ابن المقفع بالفصاحة والبلاغة حتى قيل بانه ألف كتاباً يعارض فيه القرآن كما فعل المتنبي . قال الباقلاني : فليس له كتاب يدعي مدع انه عارض فيه القرآن بل يزعمون انه اشتغل بذلك مدة ثم مزق ما جمع واستحيى لنفسه من اظهاره . . الخ . ثم ذكر له الدرة اليتيمة وقال انهما كتابان احدهما يتضمن حكماً منقولة عن كتاب بزرجمهر في الحكمة والآخر في شيء من الديانات وقد تهوس فيه بما لا يخفى .

على ان الكتاب المشهور لابن المقفع هو كتاب كليلة ودمنة المطبوع في بيروت وهو قصة ادبية فلسفية سياسية أول من وضعها أحد ادباء الهند وفلاسفتها ويدعى بيدبا أو بيدبائي وحررها باللغة الهندية فترجمت عنها إلى اللغة البهلوية على عهد انوشروان ثم جاء ابن المقفع وترجمها للعربية نثراً . ثم ظهر على عهد هارون الرشيد ابان بن عبد الحميد من شعراء العرب وانتسب للبرامكة وغمر بانعامهم ونظم لهم كتاب كليلة ودمنة فقال بعد المقدمة :

هذا كتاب أدب ومحنه وهو الذي يدعى كليله دمنه
فيه احتيالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند

وكان لابان نظر جيد في العلم والحكمة ونظم قصيدة فلسفية في مبدأ العالم نسبت لابي العتاهية . وكان ابو نواس يأنف من معاشرته لان كلامه كلام فلاسفة وحكماء لا كلام شاعر اديب متخصص بعلم الأدب . واسترحم ابان بن عبد الحميد يوماً من يحيى بن خالد البرمكي بادخاله على الرشيد وعرض اشعاره عليه فاشار عليه يحيى بنظم قصيدته السياسية التي قال فيها :

نشدت بحق الله من كان مسلماً اعم بما قد قلته العجم والعرب
اعم رسول الله أقرب زلفة لديه ام ابن العم في رتبة النسب
وأيهما اولى به وبعهده ومن ذا له حق التراث بما وجب
فان كان عباس احق بتلكم وكان علي بعد ذاك على سبب
فابناء عباس هم يرثونه كما العم لابن العم في الأرث قد حجب

فلما سمعها الرشيد تهلل وجهه بالبشر وأنعم على الشاعر بعشرين ألف درهم ، ثم ظهر سهل بن هارون الكاتب وصنف للمأمون كتاب قلة وعفرة يعارض به كتاب كليلة ودمنة في أبوابه وامثاله ويزيد عليه في حسن نظمه . ثم جاء ابن الهبارية

واسمه الشريف ابو يعلي محمد بن محمد ونسبه يتصل بعبيد الله بن عباس رضي الله عنه . وكان ابن الهبارية من شعراء نظام الملك وزير الب ارسلان ثم انتسب لابنه ملكشاه ومدحهما بقصائد ونظم كليلة ودمنة وسماه نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة وله كتاب آخر على هذا الأسلوب سماه الصادح والباغم ونظم فيه الفي بيت . وأشعاره سلسلة سهلة ومنها :

يقول ابو سعيد إذ رآني عفيفاً منذ عام ما شربت
على يد أي شيخ تبت قل لي فقلت على يد الافلاس تبت

توفي سنة ٥٠٤ هجرية .

وترجم غير كتاب كليلة ودمنة من لغات الأعاجم أمثال لقمان الحكيم ولطائف الوزراء ولطائف الملوك وكثير من النصائح والمشورات السياسية والادارية وشيء من كتاب زرادشت وكتاب ماني - قال المسعودي في مروج الذهب « وانتشر بايدي الناس في ذاك الوقت كتاب اصله من بلاد العجم واسمه الف ليلة وليلة غير أن حكاياته لا تشبه حكايات الكتاب المعروف بهذا الأسم المتداول بيننا » واشتهر في الكتابة والانشاء أيضا الجاحظ (١٦٥ - ٢٥٥هـ) وهو ابن عثمان الكناني الليثي البصري . له طريقة في الانشاء يقال لها طريقة الجاحظ كما ان له مذهباً في الفلسفة وقيل لاتباعه الجاحظية . وله مؤلفات كثيرة في الأدب منها كتاب البيان والتبيين وكتاب الامصار وكتاب الحيوان . وقد اختصر المؤلف هذا الكتاب الأخير ويوجد نسخة من المختصر في مكتبة اسكوريال باسبانيا وهي التي طبع فهرست كتبها المستشرق الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ . ويوجد نسخة أصلية من كتاب الحيوان في مكتبة هامبورغ . وقد سلك مسلك الجاحظ وأخذ طريقته ولم يقصر عنه ابو الفضل محمد بن العميد(توفي ٣٦٠هـ) وكان مؤدباً لعضد الدولة ومن أعظم وزراء آل بويه وله رسائل كبيرة وأشعار وكتاب (الخلق والخلق) لم ينقحه واثنى عليه الباقلاني فقال : انه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهب الجاحظ ويكملها على شروط صنعته ولا يقتصر على ان يأتي بالاسطر من نحو كلامه كما ترى الجاحظ يفعله في كتبه متى ذكر من كلامه سطراً اتبعه من كلام الناس اوراقاً وإذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتاباً . وكان ابن عباد وزير فخر الدولة يصحب ابا الفضل ابن العميد ولذا قيل له الصاحب ابن عباد .

ومن اشتهـر من الشعـراء أبـو تمام حبيب بن أوس الطائي (١٩٠ -٢٣١هـ) وهو ميال للتصنع والتكلف والتعويض في المعاني . وأحسن ما ألفه كتاب الحماسة وهو مختار من كلام الشعـراء المتقـدمـين . ومطبـوع ولـه أيضـاً كتـاب فحـول الشعـراء وكتاب الاختيارات . ومنهم ابو نواس(توفي ١٩٥هـ)وله سبك جيد وحلاوة ورقة . ومنهم ابن الـرومي وابن المعتـز وأشعـرهم البحتري(٢٠٤ - ٢٨٤هـ)وفضله الباقلاني على جميع اهـل عصـره لبهجة كلامه وبديع رونقه وديباجة شعره وكثرة مائه . وقال المعري : أبو تمام والمتنبي من الحكـماء وامـا الشـاعر فهو البحتري . قالوا والبحتري يغير على أبي تمام اغــارة ويأخـذ منــه صريحاً واشـارة ويستأنس بالأخـذ منـه بخـلاف ما يستأنس بالأخــذ من غيره وقـد طبـعـت المـوازنـة بيـنهـما في مطـبـعـة الجــوائـب .

وكـان الخلفـاء والـرؤ سـاء يشـوقون شعراء الطبقة الاسلامية ويجيزونهم بأعظم الجـوائـز كما يفعـل في يومنـا الافـرنج ولو كان فعلهم مقيداً بالقواعد والنظامات . فان الاكاديميات تحكم في كل سنة بتوزيع الجوائز النقدية التي تقرر صرفها نظارة المعارف أو يتبرع بها أصحاب الخير ومحبو العلم من ذوي الثروة . فهذا الامر شائع بينهم وله دائماً ذكر في جرائدهم . وكان للخلفاء معرفة بفنون الأدب وتبصر بجيد الكلام ورديئه ويحفظـون اشعـاراً كثيرة ويعـانون النظم والنثر لتقوى ملكتهم في اللغة حتى إذا رقوا منـابـر الخطـابـة أو تكلموا في صدور المحافل تمكنوا من استمالة الناس اليهم وألفوا بين قلوبهم كما يفعـل ملوك الافـرنـج في زماننا ولاسيما خطيبهم الشهير امبراطور المانيا فانه من ابلغ الخطبـاء في الملوك . وهكـذا كان الخلفاء يستجلبون القلوب ببليغ الكلام لا بحـد الحسـام . وظهـر في ذوى الـرياسة فحول من الادباء مثل ابن الخليفة العباسي المعتـز بالله بن المتـوكل واشتهر بابن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٦هـ) وتولى الخلافة يوماً واحداً وقتـل وهـو افضـل شعراء بني هاشم . ومثل ابي فراس الحمداني ابن عم ناصر الدولة وسيف الدولة من آل حمدان المنتسبين لبني تغلب من قبائل العرب وامتدت حكومة آل حمدان في حلب والموصل نحو ٦٠ سنة .

ومن شعر ابي فراس الحمداني قوله :

نطقت بفضـلي وامتـدحت عشـيرتي   ومـا أنـا مداح ومـا أنـا شاعـر

وطبع ديوانه في بيروت وكان المتنبي يفضله على نفسه .

ومن اشتهـر في الأدب ابـو بكـر الخـوارزمي وبديع الزمان الهمذاني وكلاهما من

ادباء القرن الرابع للهجرة ونشرت الجوائب رسائلهما . ونسج الحريري على منوال الهمذاني في تأليف مقاماته المشهورة ولم تزل تدرس في الصوربون وقد شرحها شيخ المستشرقين في فرانسا سيلفيستر دوساسي . وينتقد عليها ادباء الافرنج من جهة قصر المقامات وعدم اعتناء المؤلف في تصوير الحكايات وتشخيصها على نسق ما الفه الافرنج او اليونان قديماً وانما صرف الحريري عنايته إلى سبك الالفاظ . وتصنيعها وكانت ولادته في البصرة ثم نفي إلى مشان بقرب البصرة (٤٤٦ ـ ٥١٥ هـ) .

ومن المعلوم ان ايراد خلاصة تاريخ ادب اللسان العربي وذكر المشاهير من الادباء وتعيين طبقاتهم ليس بالامر السهل . ولذا نكتفي بالاشارة إلى بعض من دون أخبار الشعراء . فمنهم ابن قتيبة المروذي (٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ) صاحب « أدب الكاتب » وله « ديوان الكتاب » و« طبقات الشعراء » وغير ذلك . ومنهم المبرد الأزدي (٢١٠ ـ ٢٨٦هـ) وله كتاب « الكامل » و« المتقضب » و« الروضة » . ومنهم ابن المنجم (٢٤١ـ٣٠٠هـ) وكان ابوه من كتاب المأمون ومن نسل يزدجرد آخر ملوك فارس فألف هو في تاريخ الأدب كتاب « الباهر » أو « البارع في اخبار الشعراء » . ثم جاء ابو منصور الثعالي (٣٥٠ـ٤٢٩هـ) وهو عربي النسب نيسابوري المولد وكان يحترف بعمل فراء الثعالب فوضع للكتاب المذكور ذيلاً في ٤ مجلدات سماه « يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر » وجمع فيه اخبار شعراء زمانه ونوادرهم وأشعارهم . ثم جاء ابو الحسن على الباخرزي نسبة لباخرز ناحية بالقرب من نيسابور بخراسان وكان من ذوي المراتب العالية وأهل الديوان وتوفي مقتولاً سنة ٤٦٧ هـ فحرر ذيلاً ليتيمة الثعالبي سماه دمية القصر وعصرة اهل العصر ومنه نسخة في الاستانة . وزاد عليه ابو الحسن ابن زيد البيهقي ـ وبيهق ناحية بالقرب من نيسابور أيضاً ـ ذيلا سماه وشاح الدمية ثم جاء عماد الدين الكاتب الاصفهاني (٥١٩ـ٥٩٧هـ) وزير السلطان صلاح الدين الأيوبي وألف كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ومنه نسخة في الاستانة وأخرى في باريس وفيه تراجم الشعراء واشعارهم من سنة ٥٠٠ إلى سنة ٥٧٢ هـ وألف أيضاً كتاب السيل على الذيل وجعله ذيلاً لخريدة القصر . ثم جاء الوراق وهو ابو المعالي سعد بن علي الانصاري المتوفى سنة ٥٦٨ هـ وذيل ما تقدم بكتابه زينة الدهر وعصرة أهل العصر .

فهذه المدونات من أهم الاجزاء في تاريخ الأدب العربي ويمكن اتمامها باختبار

ما يروق من مؤلفات ابي شامة (٥٩٦ـ٦٦٥هـ)، وابوه المقدسي . نشأ هو في مصر وكتابه « كتاب الورضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية » يدرس في الصوربون وطبع في مصر . ومن مؤلفات الكاتب الدمشقي (٧٠٠ـ٧٥٩هـ) وكتابه مسالك الابصار في الممالك والابصار لا يقتصر على التاريخ والجغرافيا بل فيه كثير من التراجم أيضاً ومجلداته نحو ثلاثين وقيل اربعين وهو مرقم في كتبخانة أيا صوفيا في الاستانة من عدد ٣٤١٥ إلى ٣٤٣٩ ومنه نسخة في مكتبة باريس الأهلية والهمم جارية في طبعه . ولما كنت في الصيف الماضي بالاستانة شاهدت في كتبخانة الكوبريلي أحد المستشرقين من الانكليز يستنسخ بآلة التصوير الشمسي كتاباً كبير الحجم حسن الخط ليس فيه من التراجم الا حرف العين فسألت فاذا هو « ارشاد الالباء في معرفة الادباء » تأليف ياقوت الحموي الرومي (٥٧٤ـ٦٢٦هـ) صاحب « معجم البلدان » الذي طبعه المستشرق ووستنفلد في ليبزيك سنة ١٨٦٩ في أربعة مجلدات وطبع حاشية له في مجلد خامس . وللحموي من المؤلفات النافعة معجم الأدباء (١) ومعجم الشعراء وكتاب اخبار المتنبي وعنوان كتاب الاغاني ومجموع كلام ابي علي الفارسي . . . . فاذا كان حرف العين من ذاك السفر الجليل لم يكمل في مجلد ضخم فما بالك في بقية اجزاء هذا الكتاب . ومما يمكن مراجعته من الكتب في هذا الموضوع نزهة الالباء في طبقات الادباء لمحمد بن شاكر الانباري ونسخته في الاستانة وقد طبع على الحجر . وكتاب ريحانة الالباء المطبوع في بولاق . ونفحة الريحانة في طبقات الشعراء للمحبي ووفيات الاعيان لابن خلكان وفوات الوفيات للكتبي والوافي بالوفيات لصلاح الدين بان ايبك الصفدي واعيان العصر واعوان النصر له أيضاً . ثم تاريخ المحبي في أعيان القرن الحادي عشر والمرادي في أعيان القرن الثاني عشر . وهكذا ينتهي الباحث إلى العصر الذي نحن فيه فيجد شيئاً من آثار المعاصرين في الجزء الأول من عكاظ الادب المطبوع في الاستانة عقب الحرب مع اليونان . وقد استعار صاحب عكاظ وهو أبو النصر السلاوي باشا لكل واحد من شعراء العصر لقباً من القاب المتقدمين وسمى به أصحاب معلقات هذا القرن الرابع عشر للهجرة . فامرؤ القيس الثاني لنقيب الاشراف السيد توفيق افندي البكري . وابو العلاء الثاني للاستاذ عبد الجليل افندي براده المدني . ونابغة العراق لجميل افندي الزهاوي ونابغة مصر لاحمد بك شوقي

(١) هو ارشاد الالباء او ارشاد اللبيب إلى معرفة الأديب وقد عني بطبعه الاستاذ مرجليوث وصدر منه بضعة أجزاء .

وزهير البلاغة لمحمد ولي الدين بك يكن . وصاحب المعجز لاحمد محرم افندي . وحسان الموصل لشاعر العراق عبد الباقي افندي العمري . وشيخ الادبا لاحمد عزت باشا الفاروقي الموصلي . ولبيد العصر للفيلسوف يوسف ضياء الدين باشا الخالدي . ودريد الحكم لحسن حسني باشا الطويراني . وأبو الثناء للشيخ محمود قبادو التونسي .

وأما اللغويون والنحاة فاحسن جامع لاخبارهم ما ألفه جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ وسماه « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » ورأيت نسخة منه في مكتبة يكي جامع وهي عند الجسر في الاستانة العلية . وطبع في مصر وسوريا واوروبا كثير من مؤلفات الاصمعي وابي زيد الانصاري البصري وأبي عبيدة النحوي وابن السكيت وغيرهم من اللغويين الافاضل .

٧

لما حدث الانقلاب الكبير في انتقال الخلافة الاسلامية من الامويين إلى العباسيين وترجمت كتب العلم والحكمة إلى لسان العرب قرأ ادباء المسلمين كتاب المنطق لارسطو ورأوا فيه ذكر اوميروس الشاعر والثناء عليه فلم يحفلوا بشعره ولا بشعر أحد من الأعاجم ولا التفتوا إلى اساطير اليونان ولا لما وضعوه من الروايات التشخيصية ولا قدّروا حرية فكرهم ولا ذوقهم في الكلام حق قدره . لاشتغالهم عن ذلك بما لديهم من فنون الشعر وانواع الخطب والرسائل والدواوين والمعلقات ولاسيما ما أدهشهم من كلام الحديث والقرآن . فترجموا كتب المنطق والنجوم والطبيعيات والطب والهندسة ولكنه لم يترجموا لاديب من أدباء اليونان ولا أدباء الرومان لاقصيدة ولا خطبة ولا رواية ولا حكاية من حكايات أساطيرهم . ولعلهم خافوا على الناس من الرجوع إلى عبادة الأوثان ان بحثوا لهم في آلهة اليونان . ومع ذلك فترجمة كتب العلم والحكمة إلى لسان العرب ظهر لها تأثير في توسيع افكار الشعراء الاسلاميين وظهر فيهم طبقة جديدة هي طبقة المتنبي والمعري في الشرق وابن هانيء في اشبيلية وهو المسمى بمتنبي الغرب . فحيث كان لاهل هذه الطبقة نظر في كتب العلم والحكمة فكلامهم ابلغ معنى وأكثر فوائد لاشتماله على آراء فلسفية وسياسية ومباحث عقلية وعلمية . غير انهم خرجوا عن اساليب الشعر القديم ووضعوا من عندهم

أساليب مخصوصة . فقام عليهم المتعصبون لاساليب العرب الأقدمين وسلقوهم بالنسة حداد وشددوا عليهم النكير كما فعل أصحاب طريقة كلاسيك مع فيكتور هوكو حينما شهر طريقة (رومانتيك) .

فالمتمسكون بالأساليب القديمة من ادباء العرب يقولون ان نظم المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب المخصوصة اذ ليس كل كلام منظوم عند العرب يسمى شعراً . بل الشعر هو « الكلام البليغ » المبنى على الاستعارة والاوصاف ، المفصل باجزاء في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ،الجاري على اساليب العرب المخصوصة » فلا بدّ ان تجتمع هذه القيود في الكلام المنظوم حتى يسمى شعراً . فما خلا عن الاستعارة والاوصاف مثل منظومات المتون العلمية المدرسية والارجوزات الاخلاقية وقول العامي « أغلق الباب وائتني بالطعام » أوما خلا عن تساوي الاوزان واتحاد الروي كقولهم « رب أخ كنت به مغتبطاً أشد كفي بغرى صحبته تمسكا مني بالود ولا احسبه يغير العهد ولا يحول عنه أبداً فخاب فيه أملي . . . . » لان الوزن لم تتساوَ اجزاؤ ه في الطول والقصر والسواكن والحركات . أولم يجرِ على أساليب العرب المعروفة فهو حينئذ لا يكون شعراً وإنما هو كلام منظوم (١) . أما الاسلوب في عرفهم فهو القالب الذي يفرغ فيه الشعر او المنوال الذي ينسج عليه . وذلك انهم يقولون اذا أراد الطالب قرض الشعر ينبغي له ان يكثر من مطالعة أشعار العرب الأقدمين وان يحفظها ويرتاض فيها حتى تصير له ملكة في كلامهم فحينئذ يحصل في ذهنه قالب كلي من التراكيب التي رآها في كل شعر من اشعارهم . وهذا القالب الكلي ينطبق على تلك التراكيب فسؤ ال الطلول قالب كلي يكون بخطاب الطلول كقوله : « يادارمية بالعلياء فالسند » ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤ ال كقوله : « قفا نسأل الدار التي خف اهلها » أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله : « ألم تسأل فتخبرك الرسوم » . وكذا تحية الطلول قالب كلي يكون بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله : « حي الديار بجانب الغزل » او بالدعاء لها بالسقيا كقوله :

اسقى طلولهم اجس هذيم وغدت عليهم نضرة ونعيم

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون .

او بسؤ اله السقيا لها من البرق كقوله :

يا برق طالع منزلاً بالابرق واحد السحاب لها حداء الأنيق

وكذا التفجع في الجزع قالب كلي يكون باستدعاء البكاء كقوله :

كذا فليجل الخطب وليقذع الأمر وليس لعين لم يفض ماؤها عذرٌ

أو باستعظام الحادث كقوله « أرأيت من حملوا على الأعواد » .

أو بالتسجيع على الأكوان بالمصيبة لفقده كقوله :

منابت العشب لاحامٍ ولا راع مضى الردى بطويل الرمح والباع

أو بالانكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريق

أو بتهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله :

ألقى الرماح ربيعة بن نزار أودى الردى بفريقك المغوار

وأمثال ذلك . . فمن أراد قرض الشعر كان هو كالبناء أو النساج والصورة الذهنية المنطبقة في ذهنه كالقالب الذي يبني فيه أو المنوال الذي ينسج عليه . فان خرج عن القالب في بنائه أو عن المنوال في نسجه كان فاسداً . ولذا رأى أهل الذوق في قول الشاعر :

لم أدر حين وقفت بالاطلال ما الفرق بين قديمها والبالي

كلام فقيه لقوله ما الفرق بين قديمها لأن هذا من تعبيرات الفقهاء واصطلاحاتهم لا من تعبيرات الادباء مع ما فيه من الوقوف بالاطلال . فلم يستحسن أهل الذوق هذا البيت ولا وجدوا فيه رقة ولا بهجة ولا ماء، ولذا لم يستحسنوا في الأدب كلام الفقهاء ولا الفلاسفة مع ما في كلامهم من المنطق والحكمة لخلوه من هذا النور الذي يتلألأ في كلام الأدباء ويخرج من نفس الأديب ومن قلبه وروحه . وأما كلام الفقيه أو الفيلسوف فيخرج من عقله ومحاكمته ومقايسته . فهو وان كان برهانه قاطعاً إلا أن تأثيره على النفوس أقل من تأثير كلام الأديب . ومن كثرة حفظهم لاشعار المتقدمين رسخت لهم ملكة في كلامهم حتى كاد ذوقهم يمج الأسماء التي لم ترد في اشعار الجاهلية . روي ان جرير انشد بعض خلفاء بني امية قصيدته :

بان الخليط برامتين فودعوا او كلما جدوا لبين تجزع

كيف العزاء ولم أجد مد بنتم قلباً يقرُّ ولا شراباً ينفع

قال وكان الخليفة يزحف من حسن هذا الشعر حتى بلغ قوله :

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلا هزيتِ بغيرنا يا بوزع

فقال الخليفة افسدت شعرك بهذا الاسم . لان سمع الأديب لم يألف اسم بوزع كما ألف هندومي أو فاطم التي مشى بها امرؤ القيس حتى اجاز ساحة الحي وهي تجر اذيال المرط الموشى بالذهب ولا مشية فيكتور هوكو بمعشوقته جوليت في مراقص باريس ومراسحها . ولم يزل الأدباء يبنون كلامهم في ذاك القالب وينسجونه على ذاك المنوال حتى يومنا هذا . كما فعل اصحاب المعلقات السبع التي نشرها صاحب عكاظ . وكلماتهم السبع التي خصت بكرامة التعليق هي :

كلمة نقيب الأشراف السيد توفيق افندي البكري ومطلعها :

أما ويمين الله حلفة مقسم لقد قمت بالاسلام عن كل مسلم

وكلمة عبد الجليل افندي براده المدني :

كذا فليكن ما يحرز المجد والفخر كذا فليكن ما يجمع الفتح والنصر

وكلمة جميل افندي الزهاوي البغدادي :

هو الفتح ألقى في قلوب العدى هولا واثبت ان الحق يعلو ولا يعلى

وكلمة احمد شوقي بك المصري :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله ايان تضرب

وكلمة محمد ولي الدين بك يكن المصري :

ابت ضيمها في الناس كيف اضيمها حياة تساوي بؤسها ونعيمها

وكلمة احمد محرم افندي المصري :

منازل سلمى لاعدتك الغمائم ولادرست بالجزع منك المعالم

وكلمة ابي النصر السلاوي باشا المصري :

على مثلها فلتحمد الهمم الغر فما هي الا الحرب اعقبها النصر

فالمتنبي والمعري خرجا عن هذا القالب وذاك المنوال الذي وضعه شعراء الجاهلية وجعل كل منهما له مذهباً مخصوصاً في الأدب وأساليب . معروفة في الشعر ولذا قال ابن خلدون « وكان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لانهما لم يجريا على اساليب العرب » .

وبعد ان كان حسان يقول :

وان احسـن بيـت انـت قائـلـه بيـت يقـال إذا انـشـدتـه صدقـاً

وعمـر بن الخطـاب رضي الله عنـه يقول كان زهير لايمدح الرجل إلا بما فيه - صار أهل هذه الطبقة من الشعراء المستنيرين بنور ما ترجم من كتب العلم يمدحون باشعارهم امراء العجم الذين لا يفقهون دقائق البلاغة العربية طالبين معروفهم فقط لاسـوى ذلـك من الاغـراض كما فعـله حبيب والبحـتري والمتنبي وابن هاني ومن بعـدهم . فان حبيباً الملقب بأبي تمام ولـد في قريـة بجوار دمشق ونشأ في مصر وطاف الشـام والعـراق وخـراسان ومدح الخلفاء والملوك والامراء بقصائد كثيرة . والبحتري ولد في قرية بجوار حلب ثم ذهب لبغداد ومدح الخليفة المتوكل ثم طاف بلاد الشام ومدح الامراء واجتمع في حمص على ابي تمام . والمتنبي ولد في الكوفة وأبوه سقاء من قبيلة جعف فجاء دمشق ومدح سيفِ الدولة من آل حمدان ثم ذهب لمصر ومدح كافور الاخشيـدي الخصي الأسـود . ثم ذهب لبغـداد وخراسان ومدح عضد الدولة من آل بويه وغيرهم وهو ممن حاول ان يأتي بمثل القرآن كابن المقفع ولكنهما عجزاً وابطلا ما كتباه ولذا هجا بعضهم المتنبي فقال :

أي فضـل لشـاعـر يطـلب الـفـضـ ـل من الـنـاس بكـرة وعـشـيـا

عاش حيـنـاً يبيـع في الكـوفـة المـا ء وحـيـنـاً يبـيـع ماء المـحـيـا

وكـذا ابن هاني متنبي الغـرب ولـد في اشبيليـة وطاف بلاد افريقية ومدح امراء البربر وهو القائل في المعز لدين الله :

ماشئـت لا ما شاءت الاقـدار فاحـكـم فانت الـواحـد الـقـهـار

فصار عرض الشعر في الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيـه للأولـين وصـار يقـال احسن الشعـر اكذبه . وقلد شعراء العرب العجم في مبـالغتهم وتملقهم للأمـراء دفعـاً للشر واستجلاباً للاحسان والخير . واستبد الرؤساء بالامر وقويت فيهم الشوكة والسلطة فلم يبق بهم حاجة لاستعمال فن الخطابة وطلاقة اللسـان لاجتـذاب قلوب الأمـة اليهم بل رأوا من المصلحـة الـذاتيـة قهـرهم بالقـوة وارهابهم بحد السيف فاستخفوا بالامة وبالرأي العام وتمثلوا بقول أبي تمام :

السيف أصدق أنباءً من الكتب .

وبقول عمارة اليمني السياسي :

وشفرة السيف تستغني عن القلم (١)

وفعلوا بالامة ما قاله لها الحجاج سابقاً « لاعصبنكم عصب السلمة وألحونكم لحو العصا ولاضربنكم ضرب غرائب الأبل يا أهل العراق . يا أهل الشقاق والنفاق . ومساوىء الاخلاق . اني والله سمعت لكم تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به الله في الترغيب . ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب . يا عبيد العصا واشباه الآماء انما مثلي ومثلكم ما قاله بن براقة الهمداني :

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا يا أهل همدان ظالم
متى تجمع القلب الذكي وصارماً وانفاً حميًّا تجتنبك المظالم

وقال المعتضد عند وفاته في سنة ٢٨٩هـ وهو سادس عشر الخلفاء العباسيين ولعله ندم على هذا الاستبداد :

ولا تأمنن الدهر اني امنته فلم يُبقِ لي خلاً ولم يرع لي حقاً
قتلت صناديد الرجال ولم أدع عدواً ولم أمهل على طغيه خلقا
واخليت دار الملك من كل نازع فشردتهم غرباً ومزقتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزًا ورفعةً وصارت رقاب الخلق اجمع لي رقا
رماني الردى سهما فاخمد جمرتي فها انا ذا في حفرتي عاجلاً ألقى

ولكن الرؤ ساء من الأعاجم فعلوا فعلاً بلا قول لعجمة لسانهم واصبح تعاطي الشعر هجنة في الرئاسة ومذمة لأهل المناصب الكبيرة وقدموا الجهلاء على الشعراء ودعوهم بالظرفاء واهملت فنون الأدب وبلغ التفريط في جانب الفصاحة اللسانية إلى درجة كاد فيها الرؤ ساء لا يفوهون بكلمة في المجالس ويعتبرون السكوت عين الأدب وإذا اجتمعوا في حفلة اكتفوا بسماع الدعاء المأثور . وكثيراً ما يتلوه أجهل المجتمعين ويكون قد حفظ الدعاء من الصغر بالسماع .

---

(١) والشطرة الأولى «العلم مذ كان محتاج الى العلم» أو «العلم اول محتاج الى العلم» وهو مطلع قصيدة حرض فيها شمس الدولة على تملك اليمن ومن أبياتها الملتهبة الجمر قوله :

ان المعالي عروس غير وامقة ان لم تخلق ردائيها برشح دم

ومنها :

وكان أول هذا الدين من رجل سعى الى دعوة سيد الأمم

وقد طبع ديوانه الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ سنة ١٨٩٧ مع « كتابه النكت العصرية في اخبار الوزراء المصرية

شاهدت أحد الولاة انخدع بمن يتلو الدعاء المأثور وظنه من العلماء لطول لحيته وكبر عمته فارادتعيينه في منصب فقيل له اميٌّ فلم يصدق ودعاه ليلة وطلب منه ان يقرأ عليه ما كتبته جريدة الجوائب إذ ذاك فلما أمسك الجريدة بالعكس فهم الوالي وتلاهى عنه ولم يعينه . ولقد دقق في هذا المبحث عبد الرحيم افندي احمد مبعوث مصر في مؤتمر المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة ١٨٩٧ ووجد نسبة تامة بين الحرية وبين ارتقاء لسان العرب فكلما اتسع نطاق الحرية في الدولة اتسع معه نطاق الأدب في العربية وزادت فصاحة هذا اللسان وبلاغته وكلما زاد الاستبداد تقيدت عقول الأدباء بالسلاسل وصاروا ينطقون بما يوافق الزمان والمشرب لا بما يشعرون به ويعلمونه ويرونه .

قال مبعوث مصر المشار اليه ولقد لاحظت في المتكلمين بلسان العرب ان الحرية إذا فقدت منهم كثر في كلامهم تكرار (اللازمة) مثل نعم وفاهم . هكذا احلم يا سيدي . الخلاصة . النتيجة وأمثال ذلك من الكلمات التي يرددها المتكلم . هذا في المخاطبات بين اثنين وأما في الاجتماعات العمومية كالأفراح والعزاء واستقبال الولاة والقضاة فاما ان ينقضي الاجتماع بالسكوت والهمس أوبتلاوة الدعاء المأثور . واذ جعل للأدب حرمة فيتلى في ذاك الاجتماع قصيدة مدح أوتبريك أوعزاء وينفض الجمع بغير أن يفوه الرئيس بما يقتضيه الحال والمقام ويصور بكلامه حالة تلك الهيئة المجتمعة .

٨

أما أهل الاندلس فلما وجدوا في جزيرتهم سماء صافية وأرضاً طيبة وهواء نقياً واشجاراً مزهرة وانهاراً جارية وجبالاً راسية وسهولاً واسعة أتسعت أفكارهم واستبحر عمرانهم وراقت أشعارهم ورقت معانيهم وتهذبت فنون الشعر ومناحيه في قطرهم وبلغ التنميق فيه الغاية وكثر فيهم الأدباء والشعراء . فوسعوا دائرة الأدب ونظموا الشعر في جميع الاعاريض المعروفة عند العرب . وأتوا بالمطولات في جميع مذاهب الشعر واغراضه من نسيب ومدح ورثاء وهجاء . ثم لم يكتفوا بكل هذا بل وجدوا الزمان والمكان يقتضي لهما فنوناً جديدة من الشعر ينسج على منوال غير المنوال الذي وضعه عرب الجاهلية ويقرض في عروض غير عروضهم فغيروا اسلوب العشر

وعروضه كما فعل فيكتور هوكو واهل طبقته في تغيير عروض الشعر الفرنساوي وأستحدث المتأخرون من الاندلسيين الموشح والزجل والمربع والمخمس والمعصب على أربعة اجزاء والمزدوج والكاري والملعبة والغزل وعروض البلد والاصمعيات والحوراني والمواليا والدوبيت وهما لاهل الشرق وغير ذلك من التفنن الذي لا يدخل تحت حصر . فاول من وضع الموشح مقدم بن معافر الضريري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني وأخذ ذلك عنه أبوعبد الله احمد بن عبد ربه (٢٤٦-٣٤٨هـ) صاحب كتاب « العقد الفريد » . وقد انتشر هذا الكتاب انتشاراً عجيباً ولم أدخل مكتبة من مكتبات الاستانة (١) الا واجد فيها نسخة او أكثر من هذا المؤلف . ثم شاع استعمال الموشح في الاندلس واستظرفه الناس ونظم كثير من الأدباء ونسج على منوالهم أدباء الشرق وطبع كثير من الموشحات واشتهر . فمنها ما نظمه الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب وكان معاصراً لابن خلدون وكأنه ندب حضارة الأندلس بمطلع هذا الموشح حيث قال :

جادك الغيث إذا الغيث هما يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك إلا حلما في الكرى أوخلسة المختلس

ومن أبدع ما أتوا به من الموشحات قول بعضهم :

كحل الدجى يجري من مقلة الفجر على الصباح
ومعصم النهر في حلل خضر من البطاح

ثم نسج أهل الامصار على منوال الموشح ونظموا مثله بلغتهم الحضرية من غير التزام اعراب وسموا هذا النوع من الموشح بالزجل وأول من أبدعه أبوبكر ابن قرمان . ومع انه قرطبي الدار كان يتردد كثيراً إلى اشبيلية مركز الأدباء ومجمع الظرفاء وهي على نهر الوادي الكبير تشبه حمص القريبة من نهر العاصي . ولذا اطلقوا عليها اسم حمص فكان أبوبكر ابن قرمان يركب مع اصحابه في النهر للنزهة والصيد وتدور بينهم المحاضرات الشعرية والمحاورات الأدبية وهم في الزورق . وقد استخرج

---

(١) في الاستانة ما يقرب من الخمسين مكتبة تختلف في الجسامة والأهمية ومجموع مافيها من الكتب أقل من ثمانين ألفاً بقليل . وكتب فهرستها مطبوعة ولكن فيها خطأ كثيراً وربما قيد في الفهرست المجموع المشتمل على عدة رسائل باسم الرسالة الأولى . وفيها من نفائس الكتب ما لا يقدر .

صاحب جريدة الأرز من مكتبة رومة شيئاً من زجل الاندلسيين ونشره في مجلد . وأما الاصمعيات فهي الشعر البدوي وسميت « اصمعيات » نسبة للاصمعي راوية العرب (١٢٢-٢١٦هـ) وهي قصيدة طويلة بلا اعراب بل هي بلغتهم الدارجة ويبتدأ فيها غالباً باسم الشاعر وفيها كثير من البلاغة والفوائد التاريخية والمعصب يجئون فيه على أربعة اجزاء يخالف آخرها الثلاثة في راوية ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة . والحوراني بارض الشام . ولا نطيل الكلام ببيان هذه الفنون وأقسامها وفيها من البلاغة والفوائد التاريخية ما لاينكر . بخلاف ما احدثوه من الصنائع اللفظية .

وبيان ذلك ان ادباء العرب في الجاهلية والاسلام صرفوا عنايتهم في النظم والنثر إلى الالفاظ لا الى المعاني فالهدف الذي كان الأديب منهم يروم اصابته هو التفنن في طرق الافادة وبيان المعنى الواحد بأساليب مختلفة من الكلام . وشبهوا المعنى بالماء والالفاظ والتراكيب بالاناء فمنه آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف . فغرض الشاعر منهم اسقاء سامعه الماء الواحد الذي لا يختلف ولا يتغير باجمل اناء يصوغه له حسب قدرته . ولم يكن غرضه اسقاء سامعه انواع المياه الخفيفة المهضمة من منابع مختلفة معدنية ولا اسقاءه انواع الخمور او المرطبات والبزورات بأي اناءء كان . ولذا اظهر الادباء كل مهارتهم في الالفاظ وبينوا اقتدارهم في معرفة اللغة وحفظ الاسماء الكثيرة والمترادفات وافادة المعنى الواحد بطرق مختلفة فكانت الالفاظ طوع قريحتهم يتصرفون بها كما يتصرف الصائغ في سبك الفضة . فألفوا في الالفاظ المهمل والمنقوط والمشجر وما يقرأ طرداً وعكساً ولزموا في القوافي ما لا يلزم ونظموا الخاليَّة وامثالها - يروى عن اديب انه اجاب من شتمه بقوله الكلب من لا يعرف للكلب مائة اسم . وحفظوا اسماء كثيرة للبعير والناقة والسيف ولكل ما اشتهر بالخسة والشرف . وقالوا كثرة الاسماء تدل على شرف المسمى اوخسته . ونجد امرأ القيس إذا وصف الفرس لم يدع عضواً من اعضائه الا شرحه تشريحاً وألفوا كتباً كبيرة من الاحرف المهملة أو المعجمة مثل التفسير الذي الفه مفتي الشام السابق المرحوم محمود افندي حمزه بالحروف المهملة . ولما طبع هذا التفسير بدمشق بعثني والدي بنسخة منه إلى المرحوم مفتي الخليل التميمي وكان علامة الديار المقدسية . فنظر في التفسير طويلاً ثم رده إلي وقال لو لم يقيد قلمه بالاحرف المهملة لافادنا باكثر من هذا . وكتاب عنوان

الشرف المشتمل على عدة علوم في متن واحد يقرأ بصور مختلفة وهو مطبوع في مصر . وعلى نسقه كتاب آخر مطبوع في الاستانة . ولما قال العماد الكاتب « سر فلا كبا بك الفرس » أجابه القاضي الفاضل « دام علاء العماد » . والجملتان مما يقرأ طرداً وعكساً . وكان القاضي الفاضل رئيساً للمراسلات السياسية عند السلطان صلاح الدين الايوبي والعماد الكاتب بمعيته رئيساً لقلم المصالح الشامية وكتابه الفتح القدسي طبع في السنين الأخيرة . وقال ابو عبد الله ابن بيس من علماء الأندلس وهو شيخ لسان الدين بْن الخطيب المشهور :

اساجعه بالواديين تبوأي ثماراً جنتها حاليات خواضب
دعن ذكر روض زانه سقي شربه صباح ضحى طي ظباء عصائب
غرام فؤادي قاذف كل ليلة متى ما نأى وهناً هواه يراقب

فجمع في أول الكلمات حروف الهجاء من الألف إلى الياء على الترتيب .

فادباء الافرنج يقولون . نعم ان الشعر العربي فيه كثير من الصنائع البديعية وله رونق وبهجة وفيه تهييج للمسامع وهو على اسلوب التوراة وعلى نسق اللغات السامية ولكن الكلام الذي فيه تصنع في الالفاظ وتعمل في الشكل الخارجي لا يكون فيه حركة ذهنية ولا تخيل فكري . وما لم يكن فيه ذلك ليس فيه احساس ولا عظمة مطلقاً وإذا ارتفع نفس الشاعر او الكاتب في الكلام الذي فيه تصنع وتعمل لم يبق على ارتفاعه بل ينقطع حالاً وينتقل إلى غير ما هو فيه . بخلاف الشعر اليوناني او الافرنجي كرواية ايرناني مثلاً فان فيكتور هوكو نظمها على نفس واحد ونسق واحد وأبدع فيها بما قاله عن لسان شارلكين من الكلام العالي الملوكي فاذا نطق به المشخص على مرسح التشخيص أخذ بمجامع القلوب واستمر المشخص يهدر كما يهدر النهر حتى يصل كلامه لاعماق افئدة السامعين ويؤثر فيها تأثيراً عظيماً ، ومن قاس بنظره بين مقامات الحريري وبين رواية مضحكة من روايات موليير التشخيصية فهم معنى اعتراضهم وحقيقة انتقادهم على مقامات الحريري والهمذاني وامثالهما . وينتقدون على المقامات أيضاً من جهة التهتك بالاخلاق والتغزل بالبنين كالتغزل بالبنات ووضع الحب في غير موضعه الطبيعي مما لم نعهده في كلام ادباء الافرنج المشهورين الا من ندر منهم مثل الاديب الانكليزي الذي حكم عليه منذ سنوات في لوندرا ودافع عن نفسه بمشروعية هذا الحب في أصل الخلقة والطبيعة وبوجوده عند اليونان والرومان .

والحق ان هؤلاء الافاضل لم يقصدوا بتأليف المقامة تصوير رواية مضحكة على أسلوب الكوميدية ولا رواية محزنة على نسق التراجيدية وانما قصدوا اظهار المقدرة على تصنيف الكلام وتدبيجه بديباج الاستعارات والباسه حلل التشابيه وترصيعه بلآلىء البديع كقول الحريري في وصف الخطيب « يختلب الاسماع بجواهر لفظه ويجتذب القلوب بزواجر وعظه » من الكلام المدبج المصنع المرصع الذي لو نطق به على مرسح التشخيص لا يفهمه العوام ويحتاج الخواص إلى النظر في صنائعه واعمال الفكر في بدائعه . والا لو صرف الواحد من اولئك الافاضل عنايته لتصوير رواية على نسق روايات اليونان أو الرومان أو الافرنج لسقانا بكأس من الزجاج الشفاف أطيب الخمور واعلاها طبقة . ولكنه أراد أن يغترف من ماء البحر باناء صاغه لنا من الذهب الخالص وطلاه بالمينا الثمينة ورصعه فوق ذلك بعروق واوراق من الجواهر واللآلي ليخفي لنا الماء بابهى اناء ويرينا أحسن المصوغ والمجوهر . وقد يغرق فكر الكاتب العربي الملتزم للصنائع البديعية في لجج تلك الاستعارات والجناسات ويحتاج في استخراجه إلى غواص ماهر له ملكة راسخة في اصطلاحهم . لان الكاتب منهم لم يكتب للعوام واهل السوق وانما يكتب للخواص من علماء الرجال وأدبائهم ولاصحاب الذوق منهم في الكلام وفي معانيه . ولذا فهو يتجنب الكلمات السوقية المبتذلة وينتقي أعلى طبقات الكلام واعوصها في اللغة . فالمعري على ماله من جلالة القدر في الأدب لم يسقنا الحكمة من كأسه إلا وهو يغوص في المباحث اللغوية ويأتي بالشواهد والامثال كما يتضح لمن طالع رسالة الغفران وهي التي شبهها مندوب مصر في مؤتمر المستشرقين الحادي عشر برسالة الجحيم التي الفها الشاعر دانتي الطلياني . ومن طالع رسالة دانتي أو ترجمها رآها تسيل على نسق واحد كما يسيل الماء ليس فيها تصنع في الالفاظ والتراكيب ولا فيها احتياج الى تفسير الالفاظ اللغوية والاستشهاد بالكلام المعترض .

فالاندلسيون أصلحوا كثيراً من الخلل الموجود في أدب العرب وجاءوا بالمطولات في فنون كثيرة من الشعر والنثر وأوجدوا فنوناً مستحدثة واتبعوا في الكلام شعورهم واحساسهم القلبي فطافوا على قرائحهم بصحاف من ذهب وأكواب فيها بعض ما تشتهي الانفس . ونرى في توصيفهم المناظر الطبيعية وتصويرهم وجوه الأرض مشابهة باشعار الافرنج كوصف حمدونه وهي من بنات الاندلس الشواعر

لوادي آش وهو في أيالة غرناطة قالت :

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ سقاه مضاعف الغيث العميم (١)
حللنا (٢) دوحه فحنا علينا حنوَّ المرضعات على الفطيم
ورشفنا على ظماءٍ زلالاً ألذَّ من المدامة للنديم
تروع حصاه حالية العذارى فيلمس جانب العقد النظيم

وقال أبو الفداء لابل الابيات لاحمد بن يوسف المنازي المتوفى سنة ٤٣٧هـ وزير ابي نصر احمد بن مروان الكردي صاحب ديار بكر وترسل إلى القسطنطينية ومرَّ في بعض اسفاره بوادي بزاعا فاعجبه حسنه فقال فيه الابيات . ووادي بزاعا في ولاية حلب واليه ينسب أبو فراس الحمداني وغيره من الشعراء .

ولو طال على الاندلسيين الامد في الحضارة وتعاقبت الادوار على اللغة وتوالت عليها الانقلابات لاتوا باحسن مما جاء به فيكتور هوكو وأميل زولا من محصول العقل ومجتنى الفكر البشري . ولكن عاجلهم الانقراض وفاجأهم الاستبداد فامحلت عقولهم وسدت قرائحهم . وقد اجتمعت في باريس بوفد السلطنة المراكشية وهو ذاهب لحضور الاحتفال بيوبيل فيكتوريا ملكة الانكليز فوجدت رئيس الوفد الذي هو السفير الكبير أميًا .

ثم ان العارفين باللغات نصوا على ان لادب اللسان العبراني تأثيراً على أدب العرب قبل الاسلام وبعده وذكروا مشابهة وتوارداً في الخواطر بين ما جاء في شعر امرىء القيس الذي ضرب فيه المثل إذا ركب وبين ما ورد في سفر ايوب من التوراة في وصف الفرس . ونقل بعد الاسلام من العبرانية إلى العربية ما سمي بالاسرائيليات مثل التواريخ وقصص الانبياء ومناقب الصالحين مما هو في التوراة والتلمود . وكان نقلها عن احبار اليهود الذين اسلموا مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وأمثالهما رضي الله عنهم ، وقد رأينا فيما سبق كيف ترجم عن اللغة الفارسية والهندية كتاب كليلة ودمنة وما شابهه وكيف نسج الأدباء على منواله واعتنوا بنظمه مما كان له مفعول قوي في الحركة الذهنية والتصورات الأدبية والاختلاقات الفكرية . ومع ذلك فجميع ما ذكر لم يكن له كبير تأثير على الشعر العربي ولم يغير شيئاً من اساليبه القديمة ودامت اساليب شعراء الجاهلية هي الهدف الذي يصوب نحوه كل شاعر بالعربية في قديم الزمان وحديثه .

(١) نسخة : وقاه مضاعف النبت العميم . (٢) نزلنا .

فيتضح مما تقدم ان العرب لم يأخذوا من الأمم الذين ترجموا كتبهم الا العلم والحكمة فقط ولم يحفلوا بشعر اليونان ولا برواياتهم الشخصية ولا بشعر اللاتين وخطبهم ولا ترجموا شيئاً من ذلك . مع انهم رأوا في كتاب المنطق لارسطوثناء طيباً على اوميروس الشاعر اليوناني ولكنهم لم يقلدوه ولا اتبعوه ولا نهجوا منهجه في شيء ولم يكن للكتب المترجمة تأثير على طبقة المتنبي والمعري وابن هاني الا من جهة افادتهم الاراء الفلسفية لا من جهة افادتهم اساليب النظم وطرق الكلام .

ومن فحول هذه الطبقة ابو العتاهية وكان في أيام المهدي وهارون الرشيد والمأمون وأكثر في اشعاره من ذم الدنيا لغدرها بابنائها ومن تذكير الغافلين بالموت وتشويقهم للآخرة ونعيمها ومن لطيف شعره :

الا أننا كلنا بائدٌ وأيٌّ بن آدم خالد
وبدؤهم كان من ربهم وكلٌّ إلى ربه عائد
فيا عجب كيف يعصى الالـ ـه أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدلُّ على انه واحد

ومن فلاسفة الشعراء أيضاً ابن الشبل ابو علي حسين بن عبد الله البغدادي المتوفى سنة ٤٧٤ هـ وكان له وقوف على كثير من علوم الحكمة والفلسفة وله ديوان وقصيدة فلسفية يقول فيها :

بربك أيها الفلك المدار اقصدٌ ذا المسير ام اضطرار
مسيرك قل لنا في أي شيء ففي افهامنا منك انبهار
وفيك نرى الفضاء وهل فضاء سوى هذا الفضاء به تدار
وعندك ترفع الارواح أم هل مع الاجساد يدركها البوار

الخ . .

ولابن سينا والرازي اشعار فلسفية وقصيدة ابن سينا في النفس مشهورة ومنها :

هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجع

الخ . .

وله اشعار بالفارسية أيضاً يرد بها على من اتهمه بالكفر والالحاد .

ومن كلام أبي بكر الراز محمد بن زكريا قوله :

لعمري ما أدري وقد آذن البلى بعاجل ترحال إلى أين ترحالي
وأين محل الروح بعد خروجها من الهيكل المنحل والجسد البالي

إلى غير ذلك مما أتى على هذا النسق من كلام أهل هذه الطبقة ، فان لم يكن لفنون الأدب الأعجمية تأثير كبير على شعر العرب ونثرهم فهل لفنون الأدب العربي تأثير على شعر الافرنج ؟

بينا أنا أبحث عن جواب هذا السؤال رأيت في جريدة طرابلس الشام عدد ٤٦٢ مقالة في الزجل والتوشيح وكتاب العذارى المائسات الذي استخرجه صاحب جريدة الأرز من سفر قديم العهد مخطوط بالحرف المغربي المثبج . عثر عليه في خزانة كتب بدير القديس انطونيوس للرهبانية الحلبية في رومة وقال فيه :

« فتصفحته فاذا فيه طائفة كبيرة من الشعر الفائق مقطعات ومختارات خرج بها ناظموها عن اوزان الشعر العربي المعينة واجزاء بحوره المفروضة واحكام أعاريضها وضروبها المطردة ، بيد انهم اجادوا في ذلك منتهى الاجادة فانتقيت مما عثرت عليه كل نفيس . . . خدمة لأهل الأدب واثباتاً لسبق العرب اليها . . . » وبعد ان ذكر صاحب المقالة تعريف الموشح والزجل وعروض البلد والمزدوج والكاري والملعبة والغزل وغير ذلك قال :

« وقد استحسن شعراء الافرنج من الاسبان والالمان والطليان والفرنساويين هذه الضروب من فنون الشعر العربي ونسجوا وعلى منوالها كما يرى ذلك في دواوين شعرائهم . ولا مراء بان ذلك انتقل اليهم من العرب حيث لم يأنسوا بانوار هذه المستحدثات الا في اواخر القرن الثالث عشر . والمتصفح لكتب العرب والافرنج يرى شذرات من هاتيك العذارى ولكن قل ان يراها مجتمعة في صفحات عديدة أوكتاب واحد مع انها في درجة عليا من الحسن والجودة وتطريب السامع » (انتهى) .

فايضاحاً لمجمل هذا القول رأينا ان نبحث في منشأ الأدب الافرنجي وفي دخول العرب بلاد الافرنج .

٩

كانت فرانسا في قديم الزمان تسمى أرض الغول وكان يسكنها قبائل الغولوا والسلت (القلت) من البربر المتوحشين . فلما استبحر عمران الرومانيين في رومة وقويت شوكتهم ساقوا العسكر من ايطاليا على سواحل فرنسا الجنوبية واستولوا على اسبانيا لجودة الهواء والأرض فيها . وشكلوا في اطراف مرسيليا ومصب نهر الرون ولاية سموها بروفانس ومعناه الايالة وجعلوا عاصمتها مدينة اكس وهي في شمالي مرسيليا . وبنوا على الحدود الاسبانية مدينة نربون بالقرب من مستنقع على شاطىء البحر واتخذوها محطاً لرحالهم في سفرهم إلى اسبانيا وإلى الحمامات المعدنية التي في جبال البيرينة . وقبل الميلاد بخمسين سنة تعين يوليوس قيصر والياً على بروفانس فوسع حدود الولاية وفتح أرض الغول والحقها باملاك الدولة الرومانية فصارت الولاة ترسل إليها من رومة ومعهم العسكر والمأمورون . فنظموا ادارتها وفتحوا طرقها وعمروا فيها القلاع والحصون والمدن ونشروا فيها شيئاً من حضارتهم ومن لغة عوامهم وهي اللغة اللاتينية الدارجة . وادخل المبشرون بالمسيحية الدين فيها فصارت اللاتينية لغة الدين والدولة واستمرت بلاد الغول في ايدي الرومانيين نحو اربعمائة سنة .

وحينما انقسمت دولة الرومان الى شرقية مقرها القسطنطينية والى غربية مقرها رومه وذلك في سنة ٣٩٥ م كانت فرنسا في قسمة الغربية ضرورة . غير ان تشتت الولاة وضعف قوتهم العسكرية اباح لقبائل الجرمان التجاوز الى أرض الغول والاستيطان فيها كما استوطن من قبلهم قبائل القوط والفاندال ارض اسبانيا وسموا الاندلس باسمهم فقالوا فاندالوسيا أو اندالوسيا . ففي اوائل القرن الخامس للميلاد نزلت قبائل الويزي قوط في جنوب نهر لوار المار في وسط فرنسا والمنصب في المحيط بالقرب من مدينة نانت . ونزلت قبائل البورغوند في وادي الرون وجبال جورا ونزلت قبائل الفرنك في شمالي أرض الغول أي في بلاد البلجيك ونزلت الالمان على ضفاف الرين العليا . واستمرت حكومة الرومانيين محصورة وسط بلاد الغول على ضفاف نهر السين . غير ان القبائل النازلة سالموا الحاكم الروماني وقاتلوا تحت قيادته قبائل

الهـون الاسيـوية وكانت قد هجمت على غربي اوروبا وخربت البلاد واراقت الدماء فهـزمـوا رئيسهم اتيـلا سنـة ٤٥٠ م امـام مدينة شالون على نهر مارن . فلمت قبائل الهون شعثها وجمعت جموعها وفاضت على الممالك الرومانية في ايطاليا كالسيل الجارف واستـولـوا على رومـة سنـة ٤٧٦ م وابـادوا ملكهـا . فتفـردت قيـاصـرة الـروم في القسطنطينيـة بالحكم على الـرومـانيين واستقلت القبائل النازلة في أرض الغول وكان أشجعهم وأقدرهم قبائل الفرنك فاستبدوا بالأمر وطرد رئيسهم قلوفيس الوالي الروماني وقـام مقـامـه في حكومة الغول وتزوج بمسيحية من البورغوند فنصرته هووقومه ونصره الـرهبـان على قبائل البورغوند والويزي قوط فحكم عليهم واسس سنة ٤٨١ الدولة التي سميت باسم جده « مير وفـة » فقيـل لها (مير وفينجيان) أي آل مير وفة وهي أول دولة من الافرنج ودام حكمها ثلاثة قرون . وحيث كان ملوك الافرنج يقسمون الملك بين أولادهم انقسمت دولـة المـير وفينجيـان إلى أقســام متفـرقـة فضعفت قوتهـا وتضعضعت واصبحت ايام دخول العرب اليها منقسمة إلى اربع ممالك يملكها ملوك من آل مير وفة وهي

(١) اوسـترالـيـا أي المملكـة الشـرقيـة وهي عبارة عن الالـزاس واللورين وما جاورهما من ضفـاف نهر الـرين . ولم يكن لملكهـا من آل مير وفـة نفـوذ فيها بل كانت الكلمة فيها لاعيانها وكبيرهم دوق أوستراليا ومقرهم مدينة مج .

(٢) نوسـتر يـا أي المملكة الغربية وهي على ضفاف السين إلى اورليان جنوباً وعاصمتها باريس وكذا أورليان والمالك عليها من سلالة مير وفنيجيان أصحاب الملك الشرعي على عموم فرنسا .

(٣) بورغونيا وهي على ضفاف الرون والسون وعاصمتها ديجون .

(٤) اكيتـانيـا وهي ما بين جبـال البـير ينـة ونهر غارون المنصب في المحيط بعد مروره بطولوز وبوردو . وكانت إذ ذاك تحت حكم الدوق أو الملقب بدوق اكيتانيا وهو من نسـل مير وفـة ومقـره طولـوز . وتسمى الايالة المحيطة بها لانغيدوق وما في جنوبها سبتمانيا كما يسمي القسم الذي على ساحل الاوقيانوس المحيط غسكونيا وأطلق عليه في كتب العرب أرض غشكونية .

ففي سنة ٦٨٧ م تداخل دوق استراليا المسمى ببين دريسنال في شؤون مملكة نوسـتر يـا لغفلة ملوكهـا من آل مير وفه واهمالهم مصالح الملك حتى اطلق عليهم اسم

الملوك البطالين لقعودهم وتخنثهم . وجعل ببين نفسه مشيرا للملك في باريس واميراً للامـراء في المملكـة على مثـال ما حدث في عهد الخلفاء العباسيين ثم انضمت اليهم بورغـونيـا فصـار لدوق اوسـترالـيـا نفـوذ في أكثـر المملكة وهيأ الأمر لابنه شارل مارتل صاحب الـوقـائـع مع العـرب ولحفيـده من بعـده . فحقد ببن الامراء من آل مير وفة لاسيما اود ، دوق اكيتانيا لتفوقهم عليه في الأصالة وشرف النسب .

وقبـل دخـول الـرومـانيين أرض المغول كان لسكانها من قبائل الغولوا والسلت النـازلـين أرض بريطـانيـة السن مخصـوصـة همجية فلما انتشر بينهم عسكر الرومانيين ومأمورهم ومن تبعهم من التجار والسوقة صاروا يتكلمون لغة عوام اللاتين وسوقتهم أي اللاتينية الدارجة ويلوكون بها ألسنهم كما يلوك الزنجي لسانه بالعربية أو السنغالي بالفرنساوية . فلما استولت قبائل الفرنك على أرض الغول وطردوا منها والي الرومان اقتبسوا لسان اهلها وما لديهم من الحضارة الرومانية وضموا إلى هذه اللاتينية المحرفة كلماتهم الفرانكية البربرية فظهر من هذا الاختلاط لغة سميت (رومان) وهي لاتينية سوقيـة تحرفت بلسـان الغـولـوا والسلت ثم امتـزجت بلسـان الفرانك . وحيث كان اللســان والـدولـة تابعـين لقانون واحد في الترقي والانحطاط والانقسام انقسمت لغة رومان بانقسام الدولة إلى قسمين احدهما كان يتكلم به أهل الجنوب ويسمى (أوق) ومنه لسان بروفانسال المنسوب لايالة بروفانس وهو أقرب للسان الطليان والاسبانيول منـه إلى اللسـان الفـرنسـاوي الجـديـد . والثـاني كان يتكلـم به أهل الشمال ويسمى (اويل) . ثم انقسمت لغة أهل الشمال إلى لهجات متعددة غلبت على الجميع لهجة جزيـرة فرانسـا وهي الايالة التي عاصمتها باريس وتعممت في الولايات الشمالية حتى صارت اللغـة الفـرنسـاويـة الحـالية . ثم انتشرت في الايالات الجنوبية حينما استولى عليهـا سنـة ٩٨٧ م هوغ قابت مؤسس الـدولة الثالثة من دول الافرنج في فرنسا . ولم تزل الحكومة الفرنساوية تسعى في نشرها وتعميمها واصلاحها إلى يومنا هذا . ومع ما تصـرفـه من العنـايـة في تعليمهـا لم يزل في اهـل القـرى من لا يعـرف منهـا الكلمـة الـواحـدة . ونـزلتُ ذات يوم قرية من قرى الفرنساويين في جبال البيرينة فلم استطع التفـاهم مع اهلهـا حتى جاءني رجل من القـريـة المجـاورة ولـه تردد على الامصـار الفرنساوية ومدنها العامرة .

فالفـرنسـاويون اخذوا لسانهم من قوم ليس لهم به قرابة جنسية وسموا انفسهم

باسم قبيلة اجنبية من قبائل الجرمان الذين خرجوا من المانيا وتغلبوا على فرنسا واسسوا فيها حكومتهم وسموها باسمهم وتناسوا اسمها القديم وهو ارض الغول واسم سكانها الغولوا .

ولما دخل العرب فرنسا كان أهلها يتكلمون لغات كثيرة همجية غير مدونة إذ كانت القراءة والكتابة باللسان اللاتيني الفصيح في فرنسا وفي عموم أوربا الغربية بما فيه انكلترة . فمن تلك اللغات التي لم تدون حينئذ لغة الباسك وكان يتكلم بها قبائل الواسكون سكان البلاد في قديم الزمان ومنهم سميت اكيتانيا بارض غسكونية ولم يزل من المتكلمين بلسان الباسك نحو ١٢٠٠٠٠ في فرنسا ونصف مليون في اسبانيا . ومنها لغة بروفانسال ولم يزل لها عدة لهجات (باتوا) يتكلم بها أهل القرى في الولايات الجنوبية وفي ضواحي مرسيليا . ومنها لغة بريتون وهي بقية لغة القلت أو السلت ولم يزل من المتكلمين بها نحو مليون ونصف في شبه جزيرة بريطانيا غربي فرنسا . ومنها لغة فلاماند وهي نوع من الالمانية ولم يزل يتكلم بها نحو ١٦٥٠٠٠ من سكان الحدود الشمالية ، وغير ما ذكر من اللغات التي انقرضت بدون ان يبقى لها اثر في اللغة الفرنساوية كلغة اكيتانيا أو بقي لها اثر فيها يسمونه (باتوا) من لغات أهل القرى . إذ لكل ناحية (باتوا) مخصوصة بها لا يفهمها أهل الناحية الاخرى بخلاف اللغة العربية الدارجة فان المرسيني والاسكندروني والبيروتي واليافي والاسكندري والطرابلسي والتونسي والجزائرلي والطنجي يفهم بعضهم بعضاً بادنى تأمل واقل فكر مهما تحرفت كلماتهم . وكذا أهل المدن في داخل تلك السواحل فلا يتعذر عليهم فهم لهجات بعضهم بعضاً مع انه لم يحصل عناية ولاهمة في نشر اللغة العربية وتعليمها بل الهمم مصروفة في تلك البلاد العربية لنشر غير العربية من اللغات الاعجمية كالفرنساوية والانكليزية والطليانية والتركية . فبينما كانت فرنسا متفرقة الكلمة لغة وسياسة اذ دهمها العرب واستولوا على اكثرها .

١٠

لما جلس الوليد بن عبد الملك بن مروان (ولد ٤٨-٩٦هـ) سادس الخلفاء الامويين والثالث من آل مروان كانت افريقية ولاية ملحقة بامارة مصر والعامل عليهما عبد العزيز بن مروان فلما اتاه الحسن بن النعمان بالغنائم التي غنمها من البربر طمع فيه فشكاه الحسن بن النعمان إلى الوليد فسلخ عن مصر افريقية وولاها موسى بن نصير . وكانت مملكة القوط في اختلال من استبداد رودريك بالامر وتغلبه على طليطلة عاصمة الملك وظلمه في قبائل القوط وتسلطه على اعراض بناتهم . فاستجار الاسبانيول بالعدالة الاسلامية واغتنم موسى الفرصة وكتب للخليفة يستأذنه في فتح بلاد « أطيب هواءً من الشام واخصب أرضاً من اليمن وأعطر زهراً من الهند » .

وبعد استحصاله على اذن الخليفة سير طارق بن زياد بجيش من البربر فاجتاز بحر الزقاق على المراكب من اضيق محل فيه ونزل بساحل اوربا عند صخرة هائلة كانها الجبل فسميت باسمه . وقيل لها جبل الطارق وقيل لمجمع البحرين المتكنفين بها بوغاز جبل طارق (جبر التار) وكان ذلك سنة ٩٢ للهجرة وسنة ٧١٠ م والف عبد الحق حامد مستشار سفارة لونده رواية تشخيصية باللسان العثماني سماها طارق وأبدع في نظمها ونثرها وبين فيها هذا الفتح المبين . فانتصر طارق في محاربة وادي لبتة بالقرب من جزيرة قادس . ولحقه موسى بن نصير بجيوش من العرب وأشراف قريش وفتحوا مالقه واشبيلية وهي على شاطىء الوادي الكبير وقرطبة وطليطلة عاصمة ملوك القوط وهي على نهر باجه المسمى بنهر التاج . وظلوا سائرين حتى بلغوا أسفل جبال البيرينه الفاصلة بين اسبانيا وفرانسا وفتحوا استورغة وهي في أسفل تلك الجبال وهذه أول مرة رأى فيها القرشيون جبال البيرينة وهم تحت قيادة موسى بن نصير وسموها (جبل البرنات) بكسر الراء - هذا من جهة الغرب .

وأما من جهة الشرق فسير الحجاج والي العراق جيشاً عقد لواءه لابن عمه محمد بن القاسم الثقفي تجاوز به نهر السند وفتح الهند وسير جيشاً آخر تحت قيادة قتيبة ابن مسلم تجاوز به نهر جيحون من خراسان وفتح ما وراء النهر وتقدم حتى بلغ كاشغر وأخذ الجزية من ملك الصين - وأصبح ما بين المشرق والمغرب تابعاً للوليد وهو منعم في

قصره لم يخرج في غزوة ، واستوثقت له ا لأمور ولم تتغلغل عساكره المنصورة الا في بلاد الترك وهي في قيادة الحجاج وفي بلاد الروم وهي في قيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك . وبلاد الترك هي تركستان وما بين بحر الخزر وبحر خوارزم (بحيرة ارال) وما في شمالها من أراضي سبيريا وكانت في حكم خاقان الترك كما هي اليوم في حكم قيصر الروس . وبلاد الروم هي بر الاناطول والروم ايلي وكانت تابعة لقيصر الروم أي لدولة الرومان الشرقية كما هي اليوم من اجزاء الممالك العثمانية . ومن حسن حظ الوليد توفيقه لبناء المسجد الأقصى ومسجد المدينة وجامع دمشق وفي كل بنيان منها دليل شاهد على حضارة ذاك الزمان وترقي أهله في الصنائع والعمران .

ثم جلس على كرسي الخلافة أخوه سليمان (ولد ٥٤ ـ٩٩هـ) بن عبد الملك بن مروان وجازى قتيبة بن مسلم فاتح الشرق بما جازى به أخوه الوليد فاتح الغرب وهو موسى بن نصير . وهكذا كانت الخلفاء تجازي فاتحي الممالك الاسلامية باشنع مما جوزي به سنمار . فماتوا منكوبين قهراً لا يملكون شيئاً مما جنته أيديهم من أموال الغنائم . وزادت نكبة موسى بن نصير بقتل ولده عبد العزيز مكافأة على حسن ادارته في ولاية اشبيلية . وكان موسى متأهباً للاغارة على الأمم التي بين جبال البيرنية وخليج القسطنطينية وأدخالها جميعاً في الاسلام كما دخلت أمم آسيا وأفريقيا ولم يكن هذا الامر على موسى بعزيز لوجود الاختلاف والتفرقة بين امراء الافرنج وعدم النجابة في ملوكهم الملقبين بالبطالين . ولكن سوء تدبير الامويين صده عن هذا العمل العظيم ومكن الافرنج في فرانسا مما لم يتمكن منه القوط في اسبانيا من الائتلاف والاتحاد وصد هجمات العرب . وبسوء تدبير الخلفاء أيضاً وعدم غرسهم المعروف في أهله وعدم مكافأتهم المخترعين والمكتشفين كما كانوا يكافئون الشعراء والمغنين التحق البعلبكي مخترع النار اليونانية بقيصر الروم وأسرّ كيفية عمل هذه النار فأمر باصطناعها في معامل القسطنطينية براً وبحراً . لان مسلمة ابن عبد الملك أخا الخليفة اخترق بعسكر الاسلام بر الاناضول وعبر من مضيق الدردنيل المسمى (بوغاز جنا قلعه) وطلع لاوربا وأتبع ساحل بحر مرمره حتى وصل أسوار القسطنطينية ووضع الحصار عليها كما حاصرها من قبل سفيان بن عوف الازدي في خلافة معاوية سنة ٤٧ هـ واستشهد اذ ذاك ٣٠ ألفاً من أهل الاسلام وفيهم خالد أبو أيوب الانصاري . ولم يزل ضريحه يزار في الحي المنسوب اليه على ساحل الخليج المسمى بقرن الذهب . وبينما

كانت عساكر مسلمة تحاصر من جهة البر كان أسطول الاسلام المجهز في سواحل سورية ومصر من خشب احراج لبنان راسياً في مياه القسطنطينية . فالذي منع العرب من فتح القسطنطينية هي النار اليونانية لانها أضرت بعسكر المسلمين وأحرقت مراكبهم وكانت عدتها الف وثمانماية مركب والكبار منها عشرون مركباً أمام عاصمة الروم كأنها الغاب من الصواري والكماة فيها كالاسود ، فاحترقت باجمعها ولم يعد منها للاسكندرية سوى خمسة مراكب - فالمخترع لهذه النار السيالة على ما ذكره المؤرخ الانكليزي جيبون هو رجل من بعلبك يسمى كالينيقوس كان يصطنعها من النفط والكبريت وفحم الصنوبر بطريقة مخصوصة ومقدار معين فكانت تشتعل في الماء والهواء وتدمر ما تنصب عليه ولذا سميت أيضاً النار البحرية . وما زال العسكر في الحرب يعولون عليها ويتقون ضرها إلى أن اكتشف العرب على ما يظن بارود المدافع باضافتهم إلى مسحوق الفحم والكبريت ملح البارود . ونقله عنهم في القرن الثالث عشر للميلاد روجر باكون الانكليزي (١٢١٤ - ١٢٩٤م) وغيره من كيماويي الافرنج واشتهر استعمال البارود في المدافع سنة ١٣٤٦ في المحاربة التي وقعت بين فرانسا وانكلترا في قريسي وهي في شمال باريس على نهر صوم . فكان ملك الانكليز ادوارد الثالث يقود العساكر هو وأبنه دوغال وكانوا مسلحين بالقوس والنشاب ومعهم بعض المدافع التي ظهر استعمالها في ذاك الوقت فغلب الانكليز مع قلة عددهم بسبب الانتظام والترتيب العسكري . فهذه اول محاربة في أوربا استعملت فيها المدافع ولكن المظنون ان العرب استعملوها قبل هذا التاريخ أي في اواخر القرن الثالث عشر للميلاد في محاصرتهم جزيرة صقلية سنة ٦٧٢هـ - وعلى كل فلا ندري كيف ترك هذا الكيماوي البعلبكي خدمة الخلفاء الامويين والتحق بقيصر الروم . وفي الدولة الأموية في ذاك العصر من يحرص على الكيمياء وعلى تفرعات مسائلها مثل خالد وجعفر وجابر ومن أخذ عنهم .

توفي سليمان بن عبد الملك مرابطاً في مرج دابق من أرض قنسرين وأخوه مسلمة منازل القسطنطينية . ثم جلس عمر (٦١-١٠١هـ) بن عبد العزيز بن مروان وأبقى ابن عمه مسلمة على حصار القسطنطينية وتجاوزت عساكر الاندلس إلى وراء جبال البيرينه من أرض فرانسا ليحققوا آمال موسى بن نصير في الذهاب براً إلى القسطنطينية . وكانت مدينة نربون تفوق مرسيليا في العمران وتتصل في البحر الشامي

بترعة طولها ثمانية كيلومترات فتدخلها المراكب كما تدخل اليوم حاضرة تونس الخضراء . فحاصرها علقمة بجيوش المسلمين من البر والبحر وأمتد الحصار سنتين لتحصنها بالمستنقعات وبالقلاع الرومانية .

ثم جلس يزيد (٧٦ ـ ١٠٥) بن عبد الملك بن مروان تاسع الامويين وسادس المروانيين وفي أيامه دخل علقمة بالسيف إلى نربونه فرممها وزاد في تحصينها واتخذها مركزاً لحركاته العسكرية في فرانسا وصار العرب يسمونها أربونة وأفتتحوا ما حولها من القرى والقصبات التي في أرض سبتمانية وظلوا سائرين حتى دخلوا ايالة لانغيدوق والقوا الحصار على مدينة طولوز (طلوشة) وكانت اذ ذاك مقر دوق اكيتانيا المسمى أود . فخرج لهم الدوق بجيوشه من الويزي قوط والواسكون والفرانك وأقتتلا قتالاً شديداً قتل فيه كثير من الجانبين . وكان علقمة يستشيط غيره وحمة ويكر بنفسه ويشجع الابطال بكلامه فاصابه سهم قضى به نحبه . وافترق الجمعان وكان ذلك في شهر مايس سنة ٧٢١ م وسنة ١٠٣ هـ . فاستلم قيادة الجيش عبد الرحمن من ذوي الحمية والاقتدار ومن اصحاب عبد الله بن عمر وانقلب راجعاً إلى ضواحي نربون وإلى مصب نهر الرون .

وفي سنة ١٠٥ هـ أو سنة ٧٢٤ م توفي يزيد بن عبد الملك حزناً على حبابة فجلس على كرسي الخلافة أخوه هشام (٧٠ ـ ١٢٥هـ) بن عبد الملك بن مروان وعين والياً على الاندلس عنبسة فأراد الاخذ بثار سلفه علقمة وتجاوز بالعساكر جبال البيرينة ونزل ايالة سبتمانية . وهي اليوم ولاية البيرينة الشرقية وولاية أود وما جاورها وافتتح مدينة قرقسون وسموها (قرقشونة) وهي في غرب نربون وعلى سكة الحديد الواصلة بين مرسيليا وطولوز وبوردو . وتقدم عنبسة بالعسكر فجاءً أهل مدينة نيم وهي في الشمال الغربي من مرسيليا وطلبوا منه الامان فأمنهم ودخل مدينتهم بالصلح وسموها نيمة وأخذ أبناء اعيانها رهناً على طاعة ابائهم وحفظهم في برسلون (برشلونة) وهي على ساحل البحر الشامي في ايالة قطالونيا المشرفة عليها جبال البرينة . وتقدمت جيوش عنبسة على ضفاف الرون حتى دخلت مملكة برغونية وغزت مدينة أتون سنة ١٠٧ هـ وسنة ٧٢٥ م . وفي هذه السنة قتل عنبسة في احدى المعارك وبلغ ما غنمه المسلمون في زمن ولايته ضعف ما غنموه في السنين السابقة من بلاد فرنسا .

واستلم قيادة الجيش بعده حديثة ورجع بالعسكر إلى الحدود الاسبانية فلاقى

بها المدد الذي بعث به المرابطون في الاندلس فكّر بهم على بلاد الافرنج وألقى الرعب في قلوب أهلها . وأوغل في الأرض الشمالية وفي مملكة برغونية . ويزعم مؤرخو الافرنج ان العرب اكثروا في هذه الحروب من أراقة الدماء وعدم البناء واحراق الكنائس والاديرة وتخريبها واتلاف الاموال وغصبها . ومنهم من يعترف بان العرب اخف وطأة على بلادهم من قبائل الهون الاسيوية الذين أتوهم من الشمال الشرقي تحت قيادة أتيلا ودمروا بلادهم تدميراً . ولم يزل الفرنساويون ينسبون إلى العرب تخريب كل خرابة يشاهد أثرها في الأراضي الجنوبية من فرنسا .

ويظهر من تواريخ الافرنج ان العرب بعد فتحهم هذه البلاد قسموها إلى ايالات وجعلوا الأرض التي على جانب البر ينة في فرنسا واسبانيا من جهة البحر الشامي المتوسط ولاية اسمها سيردانية وهي اليوم عبارة عن قطالونيا في اسبانيا وعن ولاية البير ينة الشرقية في فرنسا . وكان الوالي عليها قائداً من البر بر مثل طارق بن زياد يسميه الافرنج مونيزا . فاتفق الدوق أود مع هذا القائد المسلم وزوجه بنته وعاهده على عدم الغزو في بلاده فاصبح في جبال البير ينه حاجزاً أمام غزاة المسلمين فاغتاظوا من هذا الاتفاق واظهروا ميلهم لعبد الرحمن الذي كان قد استلم قيادة الجيش بعد قتل علقمة . وكان عبد الرحمن من اصحاب عبد الله بن عمر متخلقاً باخلاق الخلفاء الراشدين واكابر الصحابة والتابعين حريصاً على اعلاء كلمة الله وعلى نشر الدين في جميع اقطار الارض . فكان يجتهد في تحقيق امال موسى بن نصير والاستيلاء على اوروبا والوصول منها إلى القسطنطينية . فعينه الخليفة هشام والياً على الاندلس سنة ١١٢ هـ أو سنة ٧٣٠ م فدخل بالعسكر مدينة بويسردا وهي عاصمة ولاية سيردانية وقتل القائد المتفق مع أود وبعث بزوجته وهي بنت الدوق إلى دمشق . وقيل بل انتحر هذا القائد المسمى مونيزا خزياً وحياءً . وكانت مدينتا نيم ومون بيليه تابعتين للمسلمين فتقدم عبد الرحمن بالعسكر إلى ضفاف الرون وعبر إلى شاطئه الايسر وألقى الحصار على مدينة آرل فانجدها الفرنساويون بمفرزة من العسكر وحميت نار الحرب وكثر فيها القتلى حتى امتلأ النهر باجسادهم . ثم سار على ضفاف نهر الرون صاعداً في الشمال وألقى الحصر على مدينة افيون وافتتحها . وهذه المدينة هي التي صارت في القرن الرابع عشر للميلاد مركزاً للبابوية بدلاً من رومة واستمرت تابعة للباباوات إلى ما بعد الانقلاب الكبير أي لسنة ١٧٩١ م .

وكانت فرنسا إذ ذاك في حكم الملوك الذين هم آواخر سلالة مير وفينجيان ويلقبون لبطالتهم وعطالتهم (فينيان) أي الذين لا يعملون شيئاًبل كانوا يملكون بلا حكم ولا قدرة ويموتون بلا عز ولا نصرة كما وصفهم المؤرخون . وكانوا يقيمون في قصر بجوار مدينة قومبينية في شمال باريس وفيها حصلت ملاقاة قيصر الروس في زيارته الأخيرة لفرنسا . فكانوا كأنهم في حبس لا يأتون عاصمة الملك الا مرتين في السنة مرة في شهر مارس وأخرى في مايس لحضور المجلس المؤلف من اعيان الافرنج أو لملافاة السفراء . فاذا انعقد المجلس اركب الملك في كارة يجرها ستة رؤوس من فحول البقر لا من عدم وجود الخيل والبغال وانما للراحة وعدم الانزعاج بكثرة الحركة والجري وأتى به إلى المجلس ليصدق على المقررات التي يتخذها ناظر السراي أو امير الامراء وهو في ذاك التاريخ دوق اوستراليا المسمى شارل مارتيل . وكانت بقية الامراء أشبه بالمستقلين في اماراتهم يبغضون بعضهم بعضاً وكلمتهم متفرقة . ولو دخل عليهم موسى بن نصير سنة ٩٢هـ حينما افتتح اسبانيا لامتلك اوروبا باجمعها ولأدخل جميع القبائل الجرمانية الوثنيين في الدين الاسلامي .

غير ان الافرنج لما سمعوا بظهور العرب ومحاصرتهم القسطنطينية وكانوا يترقبون ورودهم من شرق أوروبا فلما رأوهم نازلين عليهم من جبال البيرينة أخذهم الرعب فانضموا باجمعهم إلى أمير الامراء شارل مارتل وكان اشدهم بأساً وادهاهم سياسة وأحسنهم رأياً وعقلاً . فلم يدر عبد الرحمن بان الوقت فات على فتح بلاد الافرنج وأخذ يتأهب لقتالهم وحشد العساكر من الشام ومصر وافريقية والمغرب وسار بهم من جهة المحيط لا من جهة البحر الشامي المتوسط على سابق العادة في دخول غزاة المسلمين لفرنسا ومر بهم من رونسيفو وهو ممر ضيق في جبال البيرينه تمر منه جيوش الفاتحين في قديم الزمان وحديثه . فمنه مرَّ هنيبال القائد القرطجني ومنه مرت جيوش شارلمان حينما قاتل العرب . ومنه مرت جيوش نابليون حينما فتح اسبانيا ومنه مرَّ فيكتور هوكو في ذهابه لاسبانيا وايابه منها . فمر رونسيفو واقع بين مدينتي بامبلونه في اسبانيا وبايون في فرنسا وهي التي سماها العربي « بيونه » ويقطع المسافر منها بالقطار ستين كيلومتراً إلى منتهى الحدود الفرنساوية ثم يسير على الخيل والعجل ١٥ كيلومتراً أخرى فيصل حلق الوادي المسمى رونسيفو . فسار عبد الرحمن في هذا الطريق وخرج لأرض غسكونيا التي سموها غشكونية وهي سهول واسعة كثيرة المياه

والاحراج والقسم الساحلي منها أشبه بتهامة من جزيرة العرب ولذا سماها بعض الجغرافيين تهامة الافرنج . غير ان الوديان التي تسيل في تهامة العرب تبتلعها الرمال المحرقة أوما المياه التي تسيل في رمال تهامة الافرنج التي تدعى لاند فتروي ارضها وتكثر عشبها واشجارها .

فظل عبد الرحمن سائراً في الأراضي المخصبة آمناً على عسكره ودوابه من العطش حتى بلغ نهر غارون المار بطولوز وبوردو عرضه ربما يقرب في بعض الأماكن من عرض النيل . وطول الجسر الذي عليه في مدينة بوردو ٤٨٧ متراً فهو اطول من جسر القاهرة الذي على النيل نحو ماية متر . فلقي عبد الرحمن على ضفاف النهر الدوق أود بما جمعه في العسر من قبائل الواسكون وبقية اهالي اكيتانيا وانتشب القتال بين الفريقين وكانت معركة شديدة انجلت عن انهزام الدوق وعسكره وتحصنهم في قلعة بوردو . فلحقهم عبد الرحمن وحصر المدينة ، وفتحها بالسيف وأباح الغزو فيها لعسكره فكانوا يسمونها مدينة برغشت، واصبح ما بين مصب نهر غارون في المحيط وما بين مصب نهر الرون في البحر الشامي داراً للاسلام تلقن فيه الشهادة ويعلم القرآن. وهذا القسم العظيم من اوربا قد أصبح اليوم جزيرة بسبب قناة الجنوب التي انشأها الفرنساويون ويسمونها ايضاً قناة لانغيدوق باسم الايالة القديمة والبضاعة الواردة من البحر المحيط تدخل نهر غارون وتمر ببوردو ثم تدخل هذه القناة عند طولوز على مراكب مخصوصة تسير موازية لنهر أود حتى تخرج في شمال نربون للبحر الشامي . وهم يتحدثون اليوم في توسيع هذه القناة وجعلها صالحة لسير السفن الكبيرة لتمر منها وهي آتية من قنال السويس وتستغني عن المرور في جبل طارق والطواف حول اسبانيا .

فانتشر خبر فتح بوردو في بلاد الافرنج ودخل الرعب في قلوب الناس وفرح اكثرهم بفشل الدوق اود لمظالمه ــ لان المظلومين من الأهالي يفرحون دائماً بنكبة الجبابرة المستبدين الذين يحكمون فيهم ولا يراعون حقوقهم ويسومونهم انواع العذاب لمنافعهم واغراضهم . ولذا كان الكثير منهم يهرعون لعبد الرحمن ويشوقونه للدخول في بلادهم واجراء العدالة الاسلامية فيما بينهم . أما الدوق أود فلما رأى ذهاب ملكه هضم نفسه واستجار برقيبه شارل مارتل وطلب نصرته رغم بحضه اياه لان الدوق أود وان لم يرق الى رتبة ملك إلا انه كان

مستبداً في اكيتانيا كالملك يفعل ما يشاء ويختار وهو ذو اصالة وينتسب الى قلوفيس مؤسس سلالة ميروفينجيان صاحبة السيادة والحق الشرعي في الملك على قبائل الافرنج وعموم فرنسا ، فاصالته كانت فائقة على اصالة شارل مارتل لأن شارل لم يولد من زوجة شرعية وانما زني بأمه ببين دوق اوستراسيا فولدته وكبر حتى خلف والده في مسنده وتغلب على ملوك اوستراسيا ونوستريا وبورغونيا من آل قلوفيس حفيد ميروفه وكان في الظاهر امير الامراء وناظر السراي الملوكية وفي الباطن صاحب الامر والنهي في عموم فرنسا سيما بعد استيلاء العرب على مملكة اكيتانيا . فلما استجار الدوق اود بشارل اجابه : دعهم الآن فانهم كالسيل الجارف لا يصطدمون بشيء إلا ابادوه وفيهم حمية تغنيهم عن التدرع بالدروع وفيهم شجاعة تكفيهمعن التحصن في داخل القلاع ولايزالون على ذلك الى أن تمتلىء ايديهم بأموال الغنائم فاذا تنعموا بنعيم الدنيا وذاقوا لذائذ الحياة وقع الطمع في رؤسائهم فانقسموا وتفرقوا فحينئذ نهاجمهم ونخرجهم من ديارنا » . وكان الامر كما قال . فان عبد الرحمن بعد فتحه بوردو رأى الاهالي مائلة اليه ووعدوه بالتسليم والانقياد وشوقه بعض رؤسائهم الى فتح تورويوانيه لما فيهما من الأموال والخيرات . لان البلاد لم تكن في ذاك الوقت غنية ومعمورة كما هي اليوم . وانما الاموال والخيرات كانت مذخرة في الكنائس والاديرة وقصور الحكام الجبابرة . فتجاوز عبد الرحمن بالعسكر نهر غارون ووطىء بخيله ورجله تلك الأراضي المخصبة والكروم التي يعصر فيها أحسن خمر في الدنيا . وعبر نهر دوردونيا وهو يجتمع في نهر غارون بقرب بوردو ويسميان حينئذ نهر جيروند كما يجتمع الفرات ودجلة ويقال لمجتمعها شط العرب . ويصب لاجيروند في المحيط الغربي عند مدينة روايان الشهيرة بحماماتها البحرية والتي ينسب اليها سمك روايان المشابه للسردين . وتسمى ضفة لاجيروند اليسرى من بوردو الى البحر ارض ميدوق وفيها شاتولافيت وشاتولاتور وشاتومارغو وجميع كروم العنب والقصور التي يعصر فيها اطيب الخمر وتتلى اسماؤها المتنوعة على الزجاجات التي تباع في اوتيلات الأزبكية وتفتح على موائد اعاظم الرجال . وعلى شاطىء نهر غارون قبل دخوله بوردو أرض سوتين وفيها شاتوابكيم وبقية القصور التي تعصر فيها الخمر البيضاء التي تشرب في أوائل الطعام عند اكل لحوم السمك .

ولما وصل عبد الرحمن مدينة انكوليم وجد جيشاً من الافرنج ففرق جمعهم ودخل المدينة منصوراً ظافراً . وفي غربها مدينة كونياك المنسوب اليها خمر الكونياك

المعـروف . وظـل عبد الرحمن سائراً بعساكره المظفرة في تلك المروج والغابات الكثيرة المياه . وكـانت كجنـات تجري من تحتهـا الانهـار بالنسبـة لصحاري افريقية وجزيرة العـرب . والفـرسان ترتع وتلعب على خيولها ومعهم نساؤ هم واولادهم حتى وصلوا مدينـة بواتيـه ففتحت لهم ابـوابهـا . ويـزعم مؤرخـو الافـرنج ان العرب سلبوا ما في كنيستهـا من أواني الـذهب والفضـة والاقمشـة المـزركشـة . والمنصفـون من هؤلاء المؤرخـين يعـترفون للعرب بالعدل والحق والرفق بالمغلوبين . ثم عبر عبد الرحمن نهر فينـا المـار بايـالة فينا وهي التي مركزها بواتيه بخلاف فينا عاصمة النمسا التي حاصرها الاتراك واقاموا عساكرهم المظفرة على ابوابها . وفي جنوب ايالة فينا إيالة أخرى يقال لها فينا العليا ومركزها ليموج . وما زال عبد الرحمن يتقدم حتى وصل مدينة توروهي على نهر لوار المنصب في المحيط . والحق أكثر من نصف فرنسا بممالك الدولة الاموية الحاكمة إذ ذاك على الهند وما وراء النهر إلى كاشغر والصين وتركستان وكان الفاتح لها سنة ١١٩هـ اسـد بن عبـد الله القسري فانه أدخل المسلمين بلاد الترك وقتل ملكهم خاقان وغنموا شيئاً كثيراً .

فمنتهى الحدود التي وصل إليها العرب في اوربا هي نهر لوار ومدينة تور . وفي شرقيهـما مدينـة ديجـون ثم مدينـة بزانسون . والخط المار بهذه النقط يقسم فرنسا إلى قسمـين شمالي وجنـوبي . فالجنـوبي باجمعـه دخل في ملك المسلمين وأقاموا في بعضه قليلاً وفي بعضه كثيراً واستسلموا كثيراً من أهله وتزوجوا ببناتهم وأعقبوا منهم ولم يزل لأهل الجنوب من الفرنساويين شبه بالعرب في سيماء الوجوه .

قال المؤرخ الانكليـزي جيبـون في ذكـر حوادث سنة٧٤٢ م « تقدم العرب في أوربـا أكثـر من ثلاثـمائـة مرحلة Ligues من صخـرة جبـل طارق إلى مصب نهر لورا كلهـا مظفـريـات ولـو تقـدمـوا ثلاثمائة مرحلة اخرى لوصلوا حدود بولونيا في شرق أوروبا أو جبـال أيقـوس من انكلترا ولسهـل عليهم عبـور نهر الرين المار بالمانيا كما سهل عليهم عبـور الفـرات والنيـل ولكـان الاسطول العربي من جهة اخرى دخل نهر التيمس بلا محاربـة بحـريـة ـ لعـدم وجـود اسطول انكليزي في ذاك الوقت يضاهي أسطول مصر وسوريا أو اسطول تونس ـ ولرأينا اليوم العلماء يفسرون القرآن في مدارس اوكسفورد ويفقهـون افـراد أمـة الانكليـز المختتنين ويشـرحون لهم وهم مرتفعون على كراسي الوعظ معجزات النبي العربي . فالذي خلص العالم المسيحي من ذلك هو ابن الزانية

شارل مارتيل ناظر سراي الملوك الفرنساويين من سلالة مير وفينجيان » . آهـ

وذلك أن شارل المذكور لما رأى المسلمين لم يبق بينهم وبين باريس الا ٢٣٤ كيلومتراً حشد اليه العساكر الجرارة من القبائل الشمالية الالمانية وهم يمتازون عن سكان الايالات الجنوبية في فرنسا بطول القامة وزرقة الاعين وشقرة اللون وبالصبر في الحرب والمهارة في الطعن والضرب ولم يزالوا متصفين بهذه الاوصاف إلى يومنا هذا . ولذا اختار مقام السرعسكرية العثمانية منهم المعلمين للمكاتب الحربية في الاستانة مثل غولج باشا وقبله مولتكه باشا مرتب حركات الجيش في حرب السبعين الفرنسوية .

وكان عبد الرحمن نازلاً بالعسكر امام مدينة تور في الوادي الذي يجري فيه نهر لوار ويحيط به سلسلتان من التلال تتقاربان كلما قربتا من المدينة . فبغت شارل مارتيل المسلمين وهم في هذا الموقف الحرج وحاربهم من أعالي التلال وانتشب القتال بين الفريقين . وأظهر عبد الرحمن من المهارة في حركات الجيش وسوق الفرسان ما حير أخصامه واضطر أخيراً على الخروج من ذاك الموقع الضيق والرجوع إلى سهول بواتيه وفيها التقى الجمعان وأصطف الجيشان في محل لم يزل يقال له الى (موسه ـ لا ـ باتايل) ويراه المسافر من بوردو إلى باريس في القطار الحديدي على بعد عشرين كيلومتراً عن بواتيه شمالاً أي على الضفة اليمنى لنهر كلين المنصب في نهر فينا المنصب في نهر لوار . واستمر الفريقان بضعة أيام على أهبة الحرب والطعان وشارل لا يجسر على الهجوم خدعة منه وحذراً ، ففتح عبد الرحمن الحرب وأنزل للميدان مفرزة من فرسانه ودام القتال ستة أيام والنصر فيها للمسلمين وفي اليوم السابع هجمت عساكر شارل هجمة اليأس والقنوط على مكان الحريم والغنائم فشغلت أفكار المسلمين على أموالهم وعيالهم . وقتل عبد الرحمن على رواية مؤرخي الافرنج بعد مقاومة شديدة وكان ذلك في شهر تشرين أول سنة ٧٣٢ م وسنة ١١٤ هـ ورجعت بقية السيوف من أهل الاسلام لا عن طريق رونسيفوبل عن طريق طولوز وقرقشون ونربون لرسوخ قدمهم في تلك الجهات . ولحقهم شارل مارتل وأسترجع مدينة افينيون ولم يقدر على استرجاع نربون فهدم ما في شمال نهر اود من الحصون والقلاع وصيرة قفراً لكيلا يطمع فيه العرب . وقد نظم أحد شعراء الفرنساويين المسمى (قارل دوسنت غارد) في حدود سنة ١٦٨٤ ديواناً عنوانه اخراج العرب من فرانسا وجعل فيه البطل المغوار في

هذه الحروب شيلوبراند أخ شارل مارتيل فنكت عليه الشاعر بوالو وجهله على مدحه بطلاً لم يحقق التاريخ وجوده بين أبطال تلك الحروب .

فاشتهر شارل في البلاد وصار الناس يتحدثون به في فرنسا وايطاليا وعموم أوربا ويروون عن شجاعته احاديث ملفقة . ويزعمون ان بلطته أوفأسه المسمى مارتو أومارتل قتل بها ما يربو على ثلاثمائة ألف من العرب . غير ان واقعة بواتيه على التحقيق لم يكن فيها تغلغل كبير على عساكر الاسلام ولوبقي في شارل بعدها قوة لاخرجهم من ناربون ورمى بهم إلى ما وراء جبال البيرنيه وحصن منافذ الجبال وجعلها مانعة لهجومهم ولكنه لم يستطيع ذلك . وأستمر العرب في جنوب فرنسا حقبة من الزمان سيما في اطراف مرسيلية . ولم نزل نشاهد في متحف نربون كثيراً من اثارهم وأوانيهم الخزفية . واليهم تنسب (جبال المور) (١) وهي في شمال طولون ومارسيليا .

كما نسبت اليهم قسطل سارازين وهي مدينة بين بوردو وطولوز والقسطل هو الحصن أو القلعة . ولم يزل في ضواحي القدس قرية يقال لها القسطل . فقسطل سارازين معناها حصن العرب وقيل غير ذلك والله أعلم .

وكان هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الأمويين قد عين على افريقة عبيدة بن عبد الرحمن بعد استشهاد واليها بشر بن صفوان الكلبي في فتح صقلية وهي جزيرة سيسليا التابعة اليوم لايطاليا . غير ان ولاية عبيدة لم تطل بل عزل ونصب مكانه عبيد الله بن الحبحاب وهو الذي زين تونس بالمباني الفاخرة وأنشأ في ساحلها دار صناعة للسفن أي (ترسانة) كما يسميها الاتراك أو (شانيه) كما يقول الافرنج . فلما بلغ عبيد الله وفاة عبد الرحمن في واقعة بواتيه بعث والياً على جزيرة الاندلس عبد الملك بن قطن فاصلح حال الجيش وزوده وساقه على فرانسا سنة ١١٧ هـ سنة ٧٣٥ م فاسترد الايالات الجنوبية التي في أطراف نربون وقرقسون وعلى ضفاف أود وعبروا نهر الرين وضبطوا ايالة بروفانس باجمعها سنة ١٢٠ هـ أوسنة ٧٣٧ م من حاكمها مورونت ومركزه

(١) يسمي الافرنج عرب اسبانيا مور (Maurs) نسبة إلى موريتانيا القديمة وهي عبارة عن تونس والجزائر ومراكش ويسموهم أيضاً (Sarrasins) سارازين واختلفوا في أصل هذه الكلمة فقال بعضهم من (سارقين) العربية وآخرون بل نسبة إلى (سارا) زوجة ابراهيم الخليل عليه السلام لأنهم أولاد جاريتها (هاجر) أم اسماعيل جد العرب وقال غيرهم إنها تحريف شرقيين .

اكس في شمال مرسيليا . وظلوا سائرين على سواحل البحر الشامي حتى دخلوا ايطاليا وأغاروا فيها على مملكة لومبارديا التي عاصمتها ميلان . فاتفق ملكها لوي بران مع المتغلب على ملك الافرنج وهو شارل مارتيل دوق أوستراسيا وناظر السراي الملوكية وأرجعا العرب إلى قرب جبال البيرينة سنة١٢٢هـ أو سنة ٧٣٩ م ولم يقدرا على اخراجهم من نربون ولا من قرقسون .

ثم ان عبيد الله بن الحبحاب والي افريقية عين عقبة بن الحجاج على الاندلس فحضر اليها واستلم زمام الامر فيها فحصلت فتنة وتغلب عليه عبد الملك بن قطن الفهري فذهب عقبة بن الحجاج الى قرقسون في فرانسا وكانت عامرة بالمسلمين وبقي هناك إلى ان مات ودفن في تربة قرقسون . فغضب هشام وعزل عبيد الله وولى مكانه كلثوم بن عياض والياً على افريقية وبعث معه اثني عشر الف فارس من فرسان الشام يقودهم بلج بن بشر . فقتل كلثوم في المغرب الاقصى في واقعة جرت له مع البربر ودخل بلج بن بشر بعسكره جزيرة الاندلس وقاتل عبد الملك بن قطن وتولى مكانه . فبعث هشام لافريقية حنظلة بن صفوان الكلبي والي مصر فجاء القيروان سنة ١٢٤ هـ أو سنة ٧٤١ م وأصلح ما فسد في قبائل افريقية والغرب الأقصى وبعث ابا الخطار الكلبي والياً على الاندلس فورد اليها ونزل قرطبة وفرق عساكر الاسلام في البلاد فانزل الدمشقيين في البيرة (الويره) وهي الولاية التي عاصمتها غرناطة وتكثر فيها المياه والغوطات والرياض . ومدينة غرناطة مبنية على ثلاث تلال يمر من وسطها نهر حداره (دارو) المنصب في نهر شنيل وهو ينصب في الوادي الكبير (غواد الكفير) المار باشبيلية . ولذا دعاه العرب نهر اشبيلية . وفي غرناطة قصر الحمراء الشهير وغرناطة في جنوب مادريد وعلى خط الطول المار منها . وأما خط الحديد بينهما فمسافته ٦٩٦ كيلومتراً ولذا اطلق على البيرة وغرناطة دمشق . وانزل الحمصيين في اشبيلية (سفيلة) ويمر منها الوادي الكبير وفيها القصر المشهور عند الافرنج باسم (القازار) وكان داراً لملك بني عباد . ولذا أطلق على اشبيلية حمص . وأنزل أهل قنسرين على ضفاف الوادي الابيض (غواد لفياد) المنصب في البحر الشامي قرب بلنسية فاطلق على تلك النواحي قنسرين . وانزل اهل الاردن في مالقه (مالاغه) وهي على ساحل البحر الشامي شرقي جبل طارق ويمر منها (وادي المدينة) واليها ينسب الخمر المعروف باسم (مالاغه) . وانزل أهل فلسطين في سيدونيا أي مدينة

شريش (اكسيرس) وما جاورها وهذه المدينة بالقرب من قادس على مسافة ٢٢ كيلو متراً عن البحر المحيط وإليها نسب كثير من الأدباء فقيل لهم الشريشي ومنهم شارح المقامات وكتابه مطبوع في مصر . وينسب إليها اليوم الخمر المشهور باسم (شري) و(اكسيرس) . وفيها فاز طارق بن زياد على رودريك ملك القوط وشتت عساكره واخذ ملكه .

وانزل ابو الخطار الكلبي المصريين في تدمير وهي الايالة المشتملة على مرسية وهي على نهر سفوره تبعد عن ساحل البحر الشامي المتوسط بين البحور ٣٥ كيلومتراً بجانبها سهول هو ثرته المشابهة لوادي النيل في بركة المحصول وقوة الانبات ولذا أطلق عليها مصر . ولم يزل فيه بقايا الترع العربية والقنوات . وبينما كان المسلمون في الاندلس ينظمون شؤونهم ويستعدون لفتح بلاد الافرنج ونشر الدين الاسلامي فيها ظهر الفساد في دمشق عاصمة الممالك الاسلامية ودار خلافتها واختلت امور الدولة بعد وفاة هشام وجلوس الوليد (٨٤-١٢٦هـ) بن يزيد بن عبد الملك بن مروان حادي عشر خلفاء بني أمية . وجلس بعده في تلك السنة يزيد (٨٠-١٢٦هـ) بن الوليد بن عبد الملك ثم اخوه ابراهيم . ثم رابع عشر خلفاء بني امية وآخرهم وهو مروان الحمار (٧٠ - ١٣٢هـ) بن محمد بن مروان بن الحكم . ولم ينتظم الأمر ولا لواحد منهم بعد موت هشام ولا سكنت الفتن في ايامهم ولذا لم تتقدم الفتوحات في بلاد الافرنج .

١٢ - داخلية أوروبا بعد رجوع العرب عنها

أما فرنسا فاستيقظت بسبب هذه الحروب من غفلتها واجتمعت كلمتها على شارل مارتل ناظر سراي الملوك من آل فلوفيس حفيد مير وفه فاستبد بالأمر وصار الآمر الناهي في المملكة وزال نفوذ الملوك من سلالة مير وفينجيان واصبحوا كالخلفاء العباسيين في آخر امرهم . ولم يستطع شارل مارتل ان يملك على الفرنساويين لشدة ظلمه وسوء سيرته وتعديه على املاك الاديرة والرهابين ولكنه هيأ الملك لولده ولحفيده من بعده . وأما هو فلم يرض بعمله المسلمين ولا النصارى لانه ضبط أوقاف الاديرة والكنائس ليجهز العساكر ويقوم بنفقات هذه الحروب العظيمة فاغضب بذلك الاساقفة والرهابين المتمتعين بهذه الأموال فلم يغفروا له هذه السيئة واغمضوا العين

عن جميع حسناته عليهم . وحكموا في مجتمعهم الرهباني (قونصل) في فرنسا بكفره وأدخلوه في نار جهنم . ورآه احد اوليائهم بعين الكشف وهو يعذب في النار والافاعي تنهش من جثته المنتنة . فشارل مارتل واضع اساس الدولة الثانية في ملك الافرنج لم يرض عنه المسلمون ولا النصارى .

ولما مات قام بالأمر بعده ابنه ببين القيصر وحارب قبائل الجرمان في المانيا وقبائل اللومبارد في ايطاليا وكانوا معادين للباباوات في رومة فاكتسب بذلك نفوذاً وقوة وانتخبته قبائل الافرنج ملكاً عليها . وأمر البابا بدهنه بالزيت المقدس وتتويجه فدهنه وتوجه القديس بونيفاس أسقف مايانس سنة ٧٥٢ م وانقرضت دولة مير وفينيجان بعد ان ملكت (٤٤٨ ـ ٧٥٢م) ثلاثة قرون . وسميت الدولة الثانية قارلوفينجيان نسبة إلى شارلمان بن ببين القيصر وحفيد شارل مارتل وملكت الدولة الثانية (٧٥٢ ـ ٩٨٧) قرنين ونصف قرن تقريباً وفي سنة ٧٦٠ م أو سنة ١٤٣ هـ اغار ببين القيصر على بلاد المسلمين واسترجع منهم نربون وجميع ايالة سبتمانيا . فلم يستطيعوا الدفاع عنها لاشتغالهم بما حدث عندهم من الانقلاب العظيم بسبب سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية مقامها . فقتلوا بني أمية واستخفى من سلم منهم فهرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ودخل الاندلس سنة١٣٩هـ أو ٢٥ أيلول (سبتمبر) سنة ٧٥٩ م فاطاعه بعض المسلمين فيها واستولى على اشبيلية وجعل قرطبة دار المملكة واخضع لحكمه جميع جزيرة الاندلس ونكل بالمتشيعين منهم للخلفاء العباسيين ـ فيلفهم السبب الذي مكن الافرنج من استرجاع نربون وقرقسون .

ولما مات ببين سنة ٧٦٨ م أو سنة ١٥١ هـ جلس مكانه على كرسي ملك الافرنج ابنه شارلمان (سنة ٧٤٢ ـ ٨١٤م) ومعناه شارل الكبير فنسبت اليه السلالة الثانية من سلالات ملوك الافرنج وقيل لها (قارلوفينجيان) أي آل قارلو لان اسم شارل يلفظ بصورة مختلفة حسب اللغات واللهجات . فالالمان يلفظونه قارل وعند

نقلنا هذه الخلاصة التاريخية عن كتاب « بلاد العرب » (Arabie) الفرنساوي تأليف نوئيل ديفرجه (Noel desvergers) المطبوع في باريس سنة ١٨٤٧ ونقل هو عن المستشرق (Renaud) مؤلف كتاب « هجوم العرب على فرانسا » المطبوع سنة ١٨٣٦ في باريس واعتمد في ما كتبه على تواريخ العرب المحفوظة في المكتبة الأهلية وكانت تسمى قبلاً المكتبة الملوكية ولاسيما على « تاريخ المقري » وعلى « تاريخ النويري » وغيرهما .

الاسبانيول قارلوس وعند الانكليز جارلس بالجيم الفارسية . ففتح شارلمان ممالك لومبارديه وعاصمتها ميلان وهي القسم الشمالي من ايطاليا وكان بين ملوكها وبين باباوات رومة ضغائن وعداوة فامتن البابا من ذلك وبارك شارلمان ورضي عنه ثم فتح بافاريه وساقسونيا وهما من ممالك المانيا . واخضع ايالة اكيتانيا التي كانت ميدانا ترمح فيه غزاة المسلمين . فجمع شارلمان في حكمه بين فرنسا والمانيا وايطاليا ومزج الاقوام الجرمانية بالاقوام الرومانية الذين كانوا في حكم دولة الرومان .

ولما تولى شارلمان كان مشتركاً في الملك مع اخيه اتباعاً للقواعد المرعية في ذاك الزمان وهي تقسيم الملك بين الاولاد . ففي سنة ٧٧١ م استقل بالملك وجعل عاصمته اكس لاشابل وهي على نهر الرين في المانيا وزينها بالمباني والقصور ولذا يعتبره الالمانيون في عداد ملوكهم كما يعتبره الفرنساويون . وفي سنة ٧٧٨ م وسنة ١٦٢ هـ تجاوز شارلمان بعساكره جبال البيرينه من ممر رونسيفو الذي مر منه عبد الرحمن حينما فتح بوردو وبوانيه وتور ومر منه قبلاً هنيبال القائد القرطاجني حينما قهر الرومانيين ، هو ممر صعب في جبال البيرينه قريب من البحر المحيط . ولذا لم يرجع العرب منه بل كانوا يتجاوزون على فرنسا من جهة البحر الشامي عن طريق (بويسيردا) و(نربون) فضبط شارلمان ولاية نافار وولاية قطولونيا وتقدم على ضفاف ايبر حتى بلغ مدينة سرقسطة مركز ولاية اراغون والقى الحصار عليها وكانت بيد المسلمين . فبعث اليه عبد الرحمن الأول سنة ١١٣ - ١٧١ هـ (٧٣١ - ٧٨٧ م) الملقب بالعادل . بجيش منظم طرد عساكر شارلمان من اسبانيا وارجعها الى ما وراء البيرينه . وكان المسيحيون من النفاريين والواسكون أي الباسك متفقين مع المسلمين حباً في العدل الاسلامي وكرها في ظلم شارلمان لوطئه بالعسكر بلادهم وقتله رجالهم وأولادهم ولذا رجحوا الاتفاق مع المسلمين مع انهم على غير دينهم وانتقموا من شارلمان وجنوده وهو يدين بما هم يدينون به :

والدين انصافك الاقوام كلهم	وأي دين لآبي الحق ان وجبا
والمرء يعييه قود النفس مصحبة	للخير وهو يقود العسكر اللجبا

فلما ارتدت جنود شارلمان على عقبها خاسرة اغتنم أهل نافارا وغسكونيا المسيحيون هذه الفرصة وانقضوا عليهم وهم في ممر رونسيفيو وابادوهم عن آخرهم . وقتل في هذه المعركة رولان قائد الجنود البريطانية نسبة إلى ايالة بريطانيا في غرب

فرانسا ورفيقه اوليفية ونظمت في هذه الواقعة أغاني رولان الآتي ذكرها . وهي عند الفرنساويين كقصة عنتر لا بل كقصة بني هلال أو الزير . واسترد عبد الرحمن العادل وهوالمعروف بالداخل ولاية أراغون وقطالونية واسترد ابنه هشام (١٤٠-١٨٠هـ) مدينة جير ونيه ونربون وجميع ايالة سبتمانيا سنة ٧٩٢ م (سنة ١٧٦هـ) واستخدم الاسرى في بناء جامع قرطبة وكان أبوه قد باشر عمارته فنصب شارلمان ابنه لويس ملكاً على اكيتانيا وأمره بمحاربة العرب . فكانت بينهما حروب على سفح جبال البير ينه من سنة ١٨٠ هـ(٧٩٦م) وهي السنة التي توفي بها هشام وجلس فيها ابنه الحكم خلفاً له وخرج عليه عماه سليمان وعبد الله ابنا عبد الرحمن وتحاربوا مدة وكان النصر للحكم على عميه . ودامت الحروب مع الافرنج إلى سنة ١٩٧هـ (٨١٢م) واخذ الافرنج في هذه الحروب ولاية نافارا وسبتمانيا وجزءا من قطالونيا وهو المشتمل على مدينة برشلونه التي على ساحل البحر الشامي . فشارلمان لم يتمكن من اسبانيا ولكن حكمه كان نافذاً في عموم اوروبا الغربية وكان البابا وعموم الكهنة يميلون اليه ويرغبون في اعادة نفوذ امبراطورية الرومان الغربية ليضاهوا بذلك الامبراطورية الشرقية القائم بها قياصرة الروم ويحصلوا على العز الذي حصل عليه بطاركة القسطنطينية وكهنتها المنشقون ولذا دهن البابا شارلمان بالزيت المقدس وألبسه تاج الامبراطورية في آخر القرن الثامن أي سنة ٨٠٠ م (سنة ١٨٤هـ) .

وكانت الخلافة العباسية في بغداد قد بلغت منتهى العز وأوج الرفعة على عهد الرشيد فاخذ شارلمان يتقرب منه وبعث اليه بسفارة مؤلفة من سفيرين فرنساويين يصحبهما يهودي اسمه اسحق وكان الخليفة يحارب قيصر الروم فرأى من السياسة التمايل الى الافرنج اعداء الامويين فاحسن ضيافة الوفد الافرنجي واكرم مثواه وأجاب طلبه بالرخصة لحجاجهم في زيارة بيت المقدس وبعث الى شارلمان بهدية فاخرة منها سرادق كبير من الحرير وساعة دقاقة وشطرنج لم يزل بعض احجاره محفوظة في المكتبة الاهلية بباريس وهي من العاج دقيقة الصنعة والقطعة منها كبيرة الحجم . وكان ذلك قبل موت الرشيد بسنة أي في سنة ١٩٢هـ(٨٠٧م) وتوفي شارلمان بعد ذلك بسبع سنين أي سنة ٨١٤ م وجلس في مكانه ابنه لويس الى سنة ٨٤٠ م ثم انقسمت المملكة الى ثلاثة أقسام المانيا وفرانسا وايطاليا وضعف حال ملوك فرنساوهجم عليهم الأقوام الشمالية الذين يسمونهم نورمان من بلاد اسوج ونروج والدانيمارك وأسسوا في

شمال فرانسا دوقية نورماندية وانقسمت المملكة الى دوقيات وكونتيات وكان حكامها أشد نفوذاً من الملك . وصارت السلالة الثانية من سلالات ملوك الافرنج الى ما صارت اليه السلالة الاولى فاستبد بالامر دوق فرنسا كما استبد قبله دون اوستراسيا . وفعل هوغ قابت ما فعله ابن شارل مارتل وأحدث السلالة الثالثة في مملكة الافرنج وهي سلالة قابتيان . وملكت هذه السلالة من سنة ٩٨٧ م إلى سنة ١٤٢٨ م وفي زمنها ظهرت فرانسا للوجود وسميت مملكة فرانسا نسبة إلى هوغ قابت دوق فرنسا . وانتقل الملك بعد ذلك إلى فرع ثان من تلك السلالة وهو المسمى فالوا ثم إلى فرع ثالث وهو آل بوربون .

١٣ ـ فتوح المسلمين في جنوب اوربا والحروب الصليبية

ثم ان المسلمين عدلوا عن فتح فرنسا ولعلهم فعلوا ذلك لشدة البرد في الاقاليم الشمالية وعدم توسع العمران فيها اذ ذاك ولصعوبة المرور من جبال البير ينه وهي أشد برداً من جبال لبنان التي يقول المتنبي :

وجبال لبنان وكيف بقطعها وهي الشتاء وصيفهن شتاء

ومالوا الى فتح جزر البحر الشامي فاستولوا على جزائر باليار وهي مايورقه ومينورقة وأفبس وما يتبعها سنة ٨٢٠ م (سنة ٢٠٥ هـ) وكانوا يسمونها (مايرقه) و(منرقه) ويابسة . واستمروا فيها إلى سنة ١٢٣٢ م واستولوا سنة ٢٢٦ هـ على جزيرة قورسيقة فبقيت مستقلة عن غيرها بالحكم إلى سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠م) واغاروا على سواحل مرسيليا مراراً وأسسوا سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩م) مستعمرة فراقسينه فيما بين وينيس وطولون . وكان الفينيقيون اسسوا قبلهم مستعمرة في جوار موناقو . ومكث المسلمون في فراقسينة طول القرن العاشر وتزوج بعضهم بنساء تلك الايالة الفرنساوية واشتغلوا بفلاحة ارضها حتى أصبحت زاهية بحضارتهم . ثم جالوا سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) في اقليمي تارنتيزه ووالس ثم في بلاد السويس (سويسرا) التي نهبها المجر قبل ذلك ومدوا نفوذهم سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) على فريجوى وطولون وجميع سواحل البحر الشامي في فرانسا . ولم يزل يقال للجبال التي في شمال مرسيليا وطولون (جبال المور) ومدوا نفوذهم على ايطاليا أيضاً . فان بني الاغلب استولوا على جزر سيسيليا (صقلية) ومالطة وسردانيه وجميع القسم الجنوبي من ايطاليا في حدود سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨م) الى

سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨م) ورسخت لهم قدم في جميع هذه البلاد واستبحر فيها عمرانهم وحسنت بهم الزراعة والصناعة . وكانت مدينة امالفي ومدينة ساليرم وهما في جنوب نابولي (وكتبوها نابل) زاهيتين بحضارتهم وهما اليوم قريتان خربتان لم يزل يشاهد فيهما آثار العرب وبقايا الطواحين التي عمروها ولسان الحال يقول : ان آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار . واستولوا على اوستيه وكانت مينا رومة العظمى وهي بقرب مصب نهر التيبر وعلى بيزا ذات البرج المائل وكانوا يسمونها (بيش) وعلى جنوه التي في شمالها وبقي المسلمون في جزيرة (سردانيه) سردينيه إلى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧م) وفي طارانت التي في جنوب ايطاليا الى سنة ٣٩٦هـ (١٠٠٥م) وفي جين (جنوه) الى سنة ٣٢٥هـ (٩٣٦م) (انظر خريطة مملكة العرب في اطلس شرادر الفرنساوي المطبوع في باريس) .

واختلف المؤرخون في التاريخ الذي أغار فيه العرب على ليون وما في شمالها من الايالات الفرنساوية - لا ليون التي في شمال اسبانيا الغربي وتكتب (Leon) ويكثر ذكرها في تواريخ العرب - هل كان في عهد شارل مارتل فقط أم في عهده وبعد ذلك أيضاً حينما دخلوا من سواحل طولون وتقدموا في الشمال حتى بلغوا بلاد السويس . ولكن المؤرخين متفقون على ان المسلمين ضبطوا ايالة دوفينة وهي في شمال بروفانس على ضفة الرون اليسرى وضبطوا في شمالها ايالة بورغونية وسموها (أرض بورغونة) وايالة فرانش كونتة وايالتي فينا - وفينا هذه ايالة في وسط فرنسا الغربي بخلاف سميتها عاصمة اوستريا والمجر وكان حاصرها الاتراك - وضبطوا في فرنسا جميع ضفاف الرون وغزوا القرى والمدن التي في تلك الايالات . وأمهات هذه المدن هي : ليون وهي على نهر الرون وأول مدينة في فرنسا بعد باريس ثم ماقون واليها ينسب الخمر المسمى باسمها من خمور بورغونيه ، وشالون التي على نهر السون ، وبون وسماها العرب (بونة) واوتون واحترقت فيها كنيستان عظيمتان حينما هاجمها العرب ، كنيسة سان ناظير وكنيسة سان جان وكذا دير سان مارتن ، وديجون وهي منتهى ما أخذوه في الشمال من المدن العظيمة وفي شرقي ديجون وبالقرب منها مدينة بيزانسون التي ولد فيها فيكتور هوكو ، وجميع هذه المدن هي في ممر السكة الحديدية من باريس - ليون - البحر المتوسط أي مرسيليا وما جاورها من المواني البحرية . ولم يجد العرب اموالاً كثيرة في غزواتهم لان البلاد لم تكن في الثروة والعمران التي هي عليها اليوم ولكن مقصدهم

الاصلي كان اعلاء كلمة التوحيد ودعوة الامم بقولهم « تعالوْا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ان لا نعبدَ إلا الله ولا نُشرِكَ به شيئاً ولايتخذَ بعضنا بعضاً أرباباً مِن دونِ اللهِ » .

الحروب الصليبية

فجميع الحروب التي وقعت بين المسلمين والنصارى من ابتداء ظهور الاسلام بمكة وفتح المسلمين للقدس على عهد ثاني الخلفاء الراشدين هي من نوع الحروب الصليبية . الا ان المؤرخين اصطلحوا على اطلاق هذا الاسم على الحروب التي وقعت بين المسيحيين من الأمم الاوربية وبين المسلمين من الأمم الشرقية وامتدت من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر للميلاد وكان الباعث عليها التعصب الديني والغاية منها تخليص قبر السيد المسيح عليه السلام . واتخذ المحاربون من الامم الاوروبية الصليب شعاراً لهم ونقشوه على اثوابهم وجلودهم . ولذا قيل لهم الصليبيون . وعدد الحروب الصليبية ثمانية وهي :

الاولى (١٠٩٦ - ١٠٩٩م) - الحرب التي دعا اليها بطرس الناسك وقرر إجراءها البابا اوربين الثاني في المجمع الروحاني المنعقد سنة ١٠٩٥ م في مدينة كليرمون فيران وهي بالقرب من مدينة ليون في فرنسا . وكانت النتيجة ارسال جيشين للشرق احدهما تحت قيادة بطرس الناسك والقائد غوتيه وكان مؤلفاً من ناس لاخبرة لهم في الحرب ومعهم نساؤهم وأولادهم بغير تأهب للسفر فمات أكثرهم في الطريق وقتل آخرهم السلجوقيون في بر الاناضول . والثاني جيش متأهب للسفر ومتسلح للحرب تحت قيادة غود فروا دوبوليون دوق ايالة اللورين . عبروا بوغاز الدردنيل واستولوا في بر الاناضول على ازنيق وطرسوس وهي مينا اطنة وعلى انطاكية وكانت هذه المدن تابعة للدولة السلجوقية ومركزها قونية . ثم استولوا على القدس وكانت تابعة لخليفة مصر العلوي وقتلوا فيها كثيراً والبسوا غودوفروا تاج الملك . وذهب المستنفرون إلى بغداد فلم يستطع أهلها غير البكاء وقال المظفر الايبوردي ابياتاً منها :

وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات ايقظت كل نائم

واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

الثـانيـة (١١٤٧ ـ ١١٤٩) الحـرب التي دعـا اليها القديس برنار وقادها قونراد الثـالث امـبراطـور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا فوصلوا دمشق الشام وحاصروها ورجعوا عنها .

الثـالثـة (١١٨٩ ـ ١١٩٣) الحـرب التي دعـا اليهـا غليوم أسقف صور بسبب اسـترداد صلاح الـدين الايوبي للقدس . وقادها فريدريك باباروس امبراطور المانيا من جهـة وفيليب اوغست ملك فرنسـا وريشـار قلب الأسـد ملك انكلترة من جهـة اخـرى . فالأول غرق في النهـر بعـد اخـذه قونيـة . والآخران اخذا قلعة عكا وعقدا الصلح مع صلاح الدين .

الرابعة (١٢٠٢ ـ ١٢٠٤م) الحـرب التي دعـا اليها فولك وقادها بغدوين وهو بودوين التـاسـع كونت ايـالـة فلانـدر وكـانت ايالة مستقلة بين فرنسا وبلجيكا . فلما وصلت هذه البعثـة إلى فينيسيـة (البنـدقيـة) استـدعاها قيصر الروم في القسطنطينية لنصـرتـه على اخيـه وكـان قد اراد التغلب عليـه فاجـابت دعـوته وأيدته على كرسي مملكتـه . وبعـد وفـاته انتخب الصليبيون مكانه بودوين المذكور بعد أن خربوا المدينة وأتلفـوا ما فيهـا من الآثـار النفيسـة والمبـاني الظـريفـة واستمـرت دولـة الـلاتـين في القسطنطينية ٥٧ سنة (١٢٠٤ ـ ١٢٦١) .

الخـامسـة (١٢١٧ ـ ١٢٢١) الحـرب التي اشهرها جان دوبريين ملك القدس واندره الثاني ملك هونغارية وذهبوا فيها إلى مصر وعادوا منها خائبين .

السـادسـة (١٢٢٨ ـ ١٢٢٩م) الحـرب التي قادهـا فريـدريك الثاني امبراطور المـانيـا لادعـائـه بمـيراث مملكة القدس عن جان دوبريـين . فعقد مع الملك الكامل معاهدة الصلح واستلم بموجبها القدس .

السـابعـة (١٢٤٨ ـ ١٢٥٤م) الحـرب التي قادهـا لويس التـاسـع ملك فرنسا ايفـاءً بنـذر نذره . فخـرج لمصر وغلبه الملك الكامل خامس الملوك الايوبية في محاربة المنصورة واسره فاخلى دمياط وسلمها للمسلمين فكاكاً لاسره .

الثـامنـة (١٢٧٠م) الحرب التي قادهـا لويس التـاسـع ملك فرنسـا الملقب بالقـديس لويس ومـات فيهـا امام اسوار تونس الخضراء . فاسترجع المسلمون حينئذ مدن فلسطـين وسـوريا من الافرنج واحدة بعد الاخرى . وكان آخرهن فتح عكا سنة ١٢٩١ م وانتهت بذلك الحروب الصليبية .

وكان هذه الحروب نتيجتان احداهما مادية عسكرية والاخرى معنوية أدبية فالنتيجة المادية رجوع الافرنج عن الغنيمة بعد الكد بالقفل وتخليتهم القدس وجميع ما ملكوه في الشرق . والنتيجة المعنوية انتباههم من الغفلة التي كانوا فيها بمخالطتهم المسلمين وأهل الشرق وسلوكهم منذ ذاك التاريخ سبيلي « الانتظام » و« الترقي » ويسميها الافرنج (اوردر وبروغره) . قال رينان « حدث بعد الحرب الصليبية الثامنة التي قام بها لويس التاسع ومات على ابواب تونس حركتان واضحتان من جهتين مختلفتين الاولى انحطاط العالم الاسلامي والاخرى نهوض العالم المسيحي لان العلوم الاسلامية لما لقحت جراثيم الحياة في جسم البلاد الاوروبية انطفأت جراثيم حياتها . واخذ العالمان يسيران في وجهتين متعاكستين علواً وهبوطاً .

سارت مشرقة وسار مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

١٤ ـ ما اقتبسه الافرنج من قواعد الشعر العربي

فيتضح لك من هذه النبذة التاريخية المعترضة في هذه الرسالة ان الاختلاط بين العرب والافرنج لم ينقطع لا في الحروب الصليبية ولا قبلها حينما دخل العرب أرض فرنسا وتوطنوا في جنوبها وحرثوا ارضها وتزوجوا ببناتها وتاجروا مع أهلها وعمروا مدن نربون (نربونه) وقرقسون (قرقشونه)وفراقسينه واخذوا الاسرى من الافرنج وشغلوهم في عمارة جامع قرطبة القائم ليومنا هذا على ألف وثلاثة وتسعين عموداً وفي غيره من المباني الفاخرة كالقصر والزهراء والحمراء والقنطرة . فكانت الافكار تتبادل بين الفريقين ضرورة ولو كانا على طرفي نقيض . وحيث كان المسلمون في ذاك العصر أرقى حضارة وأدباً من جيرانهم المسيحيين كانت الافرنج تقتبس من معارف المسلمين وتحصل العلم في مدارسهم وجوامعهم كما فعل البابا سيلفستر الثاني . واسمه الذي سماه به ابوه جربر (٩٣٠ ـ ١٠٠٤م) فانه بعد ان حصل مبادىء العلوم اللاهوتية باللغة اللاتينية في مدينة أورياق التي ولد فيها وهي بالقرب من طولوز وفي شمالها الشرقي ارتحل في طلب العلم إلى الاندلس فقطع عقاب البيرينه والوادي الكبير المار بجوار قرطبة ومن اشبيلية والمنصب في خليج قادس من المحيط غير بعيد عن شريش وجاور في مدرسة اشبيلية ثلاث سنين وعاد لاوروبا متبحراً في العلوم والمعارف حتى

حسبه الناس ساحراً واتخذه الملوك مؤدباً لاولادهم وتقلب في المناصب حتى احرز رتبة البـابـاويـة . وقيـل انه أول من ادخل لبلاد الافرنج ما يسمونه الارقام العربية ونسميه الارقام الهندية وهي التي تدل بذاتها على عدد وبمنزلتها على عدد آخر . وكانوا لذاك العهد يستعملون الاحرف اللاتينية التي هي بمثابة الحروف الابجدية .

واقتفى طلاب العلم أثر هذا البابا الحكيم وكذا المتحلون منهم للشعر والأدب كانـوا يقلدون شعـراء العـرب وأدبـاءهم . وكـان المجاورون للعرب من أهالي فرنسا وشـمال اسبـانيـا يحيـدون عن تعلم اشعـار الـلاتين ويكبون على تعلم اشعار العرب وأزجالهم . وكان فقراؤ هم في القرن الحادي عشر للميلاد ينشدون الأناشيد والمدائح العـربيـة وهم يستعطـون على الأبـواب وفي الطرقات فيستمع الناس لهم ويتصدقون عليهم لا لفهمهم ما يقولون وانما شوقاً منهم وحناناً للالحان والانغام والقوافي الرنانة كما كانت العربية هي اللسان الرسمي في صقلية على عهد رجار ومن خلفه من الملوك بعد انقراض الحكومة الاسلامية منها وكانوا يحررون بالعربية على المباني العمومية في تلك الجزيرة .

وذكـرنـا فيـما تقـدم ان لغـة « رومـان » وهي لاتينية سوقية محرفة بكلام الغولوا والفـرنـك انقسمت إلى شعبتـين (١) لسـان أوق تكلم به أهل الجنوب لاسيما سكان بروفانس (٢) لسان أويل تكلم به أهل الشمال لاسيما سكان جزيرة فرنسا وهي الايالة التي عاصمتهـا باريس وكـان في الشـمال شعراء يقال لهم (تروفير) وفي الجنوب شعراء يقـال لهم (تـروبـادور) . فالـتر وبـادور الـذين كانوا في ايالة بروفانس هم صنف من المـداحـين يطـوفـون من قصـر لقصـر ومن قلعـة لاخرى يغنون قصائدهـم ويمدحون الامراء وذوي الوجاهة ويسمون ادبهم بالعلم المطرب . ولم تكن اشعارهم ذات قواف كاشعار العرب وانما لها بدل القافية مراكز ومواقف كاشعار التي يتغنى بها رعاة الغنم . وكـان لهم فن من الشعـر يسمـونه تنسون (Tenson) على شكل المخاطبات يشابه ما أوجـده الانـدلسيـون من الفنـون الشعـرية . واجمع العارفون على ان القوافي اول ما ظهرت في الشعر البر وفانسال وانها مأخوذة من العرب . فالقافية عند الفرنساويين هي اتحـاد الأحـرف الصـوتيـة الأخيرة وما يتبعها من الأحرف الساكنة في نهاية كل بيتين أو قطعتين من الشعر مثل ساج وباج (Sàge, Páge) فالذي أخذوه عن العرب بالسماع والتقليـد هوعلم القـوافي . وكـانـوا يستعملون قبل ذلك عوضاً عن القافية ما يسمونه

(اسـونـانس) وهـو اتحاد الأحرف الصوتية الأخيرة بقطع النظر عما بعدها من الأحرف الساكنة في نهاية كل بيتين مثل ساج (Sâge) وآرم (ârme) وكان استعمالهم للقوافي في القرن الثالث عشر واخذوا عن العرب في المنظوم أنواع المدح والغزل والنسيب والهجو والهـزل أي ما يسمـونـه ليريـك ومـا يسمـونـه ساتـيريك . كما اخذوا عنهم في المنثور القصص والملح وضـروب الامثـال ومنهـا ما نقلوه نثراً ثم نظمـوه في لغتهم . وجـاروا العـرب في الفكـاهـات أيضـاً فألفـوا حكـايـات وتظريفات على اقسة القرى وخدمة الكنـائس ليضحكـوا منهم الامـراء والفرسان الذين يسمونهم « شيفاليه » . وفي هذه الحكـايـات والنـوادر المأخـوذة عن العـرب ما أصله الأول من حكـايات الفرس والهنود وتـرجمت إلى العـربيـة ثم نقلت للافـرنجيـة . فلو كان الحكم والغلبـة لأهل الجنوب المجـاورين للعـرب وللغتهم المسـماة « أوق » لوجـدنا في اللغة الفرنساوية الحالية شيئاً كثـيراً من فنـون الأدب العـربيـة . ولكن الحكم والغلبـة كانتـا لاهـل الشـمال وللغتهم المسـماة « أويـل » وكـان شعـراؤ هـم الـترو فـير لا يعـرفـون غير اشعـار الحـماسـة وقصـائـدهـم قصيرة والبيت مؤلف من عشرة هجاءات ليس له قافية وانما له (اسونانس) كما في اغاني رولان الآتي ذكرها واستمروا على هذا النظم إلى آخر القرن الثاني عشر . وفي القرن الثالث عشر أخذ شعراء الشمال وهم الترو فير ينسجون على منـوال (الـتر وبادور) وتعلموا منهم القوافي ورقة الغزل واللحن الموسيقي وصار فرسان الافـرنـج يقلدون فرسـان العـرب في انتحـال الشعر فكانت فضائل الفارس المهارة في الفـروسيـة وحفـظ الشعـر والتمثل به وفي لعب الشطرنج . فتحسن الشعر الافرنجي بادخال القوافي العربية فيه وباقتباس أدب الاندلسيين ورقة غزلهم .

١٥ ـ اقتباس الافرنج اقاصيصهم عن العرب

والحـاصـل ان الـرومـانيـين لما فتحـوا أرض الغـول ادخلوا اليها مدنيتهم ولغة عوامهم وهي اللاتينية الدارجة فلما استولى قبائل الافرنج على أرض الغول اخذوا ما وجـدوه فيهـا من اللسـان والمـدنيـة فنتج من هذا الاختـلاط لغـة جديـدة قيـل لها « رومان » . وأقدم المدونات في هذه اللغة هريمين ستراسبوع وهو صورة القسم الذي أقسم به العسكـر لاحفـاد شارلمـان حينما عقدوا معاهدة فيردون وقسموا مملكة شارلمان

إلى ثلاثة أقسام فرانسا وجرمانيا وايطاليا وأخذ كل منهم قسماً وذلك في سنة ٨٤٣ م أو سنة ٢٢٩هـ أي في خلافة الواثق بالله هارون بن المعتصم بن هارون الرشيد في بغداد وعبد الرحمن بن الحكم في قرطبة . فهذه أول مرة دونت فيها لغة رومان وقامت مقام اللغة اللاتينية . ثم انقسمت لغة رومان إلى لسان اويل والى لسان اوق وانقسم لسان اويل وهولسان الشمال الى لهجات غلب على الجميع لهجة جزيرة فرانسا - وهي الجزيرة المحاطة بالانهار المشتملة على باريس وما في جوارها - فصارت اللغة الفرنساوية . ثم عم استعمال هذه اللغة في الأيالات الجنوبية وغلبت على لسان أوق سنة ٩٨٧م حينما تأسست الدولة الثالثة من دول الافرنج وهي الدولة التي دامت إلى حدوث الانقلاب الكبير وظهور الحكومة الجمهورية . وكان مؤسس الدولة الثالثة هوغ قابت دوق جزيرة فرانسا فاطلق هذا الأسم على عموم المملكة وعلى اللغة .

ولما كان اتساع دائرة النظم في تاريخ الأدب سابقاً لاتساع دائرة النثر كان الكلام المنظوم أساساً للأدب الفرنساوي وأقدم نظم فيه هو« أغاني رولان » وتاريخ نظمها في النصف الأخير من القرن الحادي عشر وناظمها أو ناظموها مجهولون ولا دليل على أنه تير ولد المذكور اسمه في آخر بيت منها . ورولان هو قائد جنود شارلمان الذين حاربوا الاندلسيين . وذلك ان شارلمان لما فتح الفتوحات العظيمة وتتوج بتاج الامبراطورية واستحصل من الخليفة العباسي على الاذن لحجاج النصارى في زيارة بيت المقدس طار له ذكر في الافاق وتحدث الناس به ونظموا فيه القصائد وقصوا عنه القصص والحكايات وانشدوا الاناشيد وفعل الافرنج له ما فعله العرب لهارون الرشيد . غير ان فنون الأدب الافرنجية لم تكن زاهرة كفنون الادب العربية بل كانت حديثة النشأة لم تهذب بعد وكانوا يكتبون باللغة اللاتينية ما يحتاجون إلى كتابته وتدوينه ولم يكن الملوك والامراء ولا الرعية يفهمون اللاتينية الفصحى وانما كان يفهمها بعض الاساقفة والرهابين فنظمت (اغاني رولان) و (حج شارلمان) باللسان الفرنساوي الذي كان يتكلمه أهل ذاك العصر أي بعد شارلمان بأكثر من قرن . وفي اغاني رولان من المبالغات ما في قصة عنترة وجسمت فيها الحرب التي حصلت بين الافرنج وعرب الاندلس وجعلت رولان عنتر زمانه والحقته بنسب شارلمان وادعت بانه ابن اخيه وذراعه اليمنى . وذكر في هذه الأغاني ان سبب هزيمة رولان هو خيانه غانيلون . وذلك ان رولان بعث بتابعه غانيلون إلى والي سرقسطة مركز ولاية اراغون بهمة حربية

وكان في ذهابه إليها خطر على حياته فاغتاظ هذا المأمور من آمره وانضم إلى المسلمين ودبر في قتل رولان وانهزامه فلما رجع رولان ببقية الجنود إلى فرنسا ووصل مضيق رونسيفو في جبال البيرينه هجم عليهم أهالي نافارا وغاسكونيه المتفقون مع المسلمين في جيوش جرارة عدتها اربعمائة الف فارس . وكان لرولان مستشار ورفيق اسمه اوليفيه فنصحه بالاستمداد من شارلمان واستدعائه لنجدته فلم يصغ في بادىء الامر لمقاله . ولما أراد ان يعمل برأي اوليفيه العاقل ويتبع مشورته فات الوقت وذهب الاوان وغلبهم العدو بكثرة عدده وامسوامتخبطين في ظلام النقع وقتل بعضهم بعضاً وضرب اوليفيه صاحبه رولان بالسيف ضربة خطاء لاعمد فجرحته وسببت موته فصورت تلك الاغاني موت رولان ثم موت اوليفيه وطلب كل منهما السماح من الآخر ومباركة الاسقف توربين عليهما وغفران ذنوبهما . واراد رولان قبل موته ان يكسر سيفه المسمى (دوراندال) لئلا يقع في أيدي اعدائه أويصل إلى مارسيل (Marcile) والي المسلمين في سرقسطة فلم يستطع كسر هذا السيف لانه من السيوف التي لا تكسر ولا تفل ولعله من المعدن المسبوك منه صمصامة عنترة وذو الفقار علي رضي الله عنه وهو الذي قيل فيه لاسيف الا ذو الفقار . وقد تهور الافرنج في وصف (دوراندال) كما تهورت الشيعة في وصف ذي الفقار وجعلوا القوة والشجاعة باجمعها في السيف حتى لم يبق منها شيء لصاحب السيف ولم يزل أثر الضربة التي ضرب بها رولان الصخرة بسيفة باقياً إلى يومنا هذا يشاهده السائحون والمارون بمضيق رونسيفو كما يشاهدون تل العلائف في جوار قرية اريحا من فلسطين وهو التل الذي احدثه على زعمهم جيش ابي زيد الهلالي حينما مروا بقرية اريحا وارادوا الصعود إلى جبل القدس فنفضوا مخالي الشعير في اسفل العقبة فتكوم من الغبار الذي فيها هذا التل العظم لانهم كانوا لا يحصون عدّاً لكثرتهم . هذا ما تتناقله الالسنة ويرويه الاباء عن الاجداد ولعل الباحثين في الآثار القديمة لو حفروا في تل العلائف لوجدوا فيه أثراً من الآثار كما لو بحث العارفون بطبقات الأرض وبشكل الجبال لذكروا سبباً (لضربة رولان) في صخرة رونسيفو . ولرولان حصان كأنه هو وابحر عنترة بن شداد فرسا رهان . ولم يفت ناظم اغاني رولان ذكر الملائكة وكيفية نزولهم واصطفافهم حوله لقبض روحه . فصور في منظومته الجهاد المسيحي وجعل فضائل المجاهدين الشجاعة العسكرية والطاعة لأولى الامر وهم (السوزيرين) والتصلب في الدين المسيحي وبغض من لم

يعتقدوا بها امر به وينتهوا عما نهى عنه بغضاً لوجه الله لا لعداوة دنيوية ولا لمال ودولة . وهذه الاغاني مطبوعة ومترجمة للفرنساوية العصرية . ومنها يظهر اعتقاد الافرنج اذ ذاك في الاسلام والمسلمين فانهم كانوا يحسبون المسلمين دعاة إلى عبادة الاصنام ويعدون من اصنامهم ابولون ولم يزل الكثير من أهل القرى الفرنساوية يعتقدون هذا الاعتقاد إلى يومنا هذا كما تبين لي من محادثة الكثيرين منهم . وكان لاغاني رولان شأن في عموم اوربا وفي انكلترة وترجمت في القرن الثاني عشر للميلاد للغة الالمانية ولغة السويد والنوروج .

ومما نظم على نسق اغاني رولان حج شارلمان الى بيت المقدس وقصائد وحكايات كثيرة في الحروب الصليبية ربما يعتني في المستقبل بترجمتها ومطالعتها المشتغلون بالتاريخ العربي كما يعتني الافرنج في زماننا في استخراج الكتب العربية وطبعها وترجمتها ليقفوا منها على حقيقة تاريخية يوضحون فيها ما غمض من تاريخهم وفي اواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر أقبل شعراء الشمال ينسجون على منوال شعراء الجنوب يقتبسون منهم المحسنات الشعرية ورقة الغزل والقوافي العربية ووضعوا الالحان الموسيقية وتغزلوا بها وطبع من ذلك داووين ورسائل كثيرة لاحاجة لذكرها . ثم ظهرت الاشعار الهجوية والهزلية والملح والفكاهات مما هو على نسق كليلة ودمنة وضروب امثال لقمان وبقية الحكايات المؤلفة على السنة الحيوانات فمن ذلك (رومان الثعلب) و(أمثال ايزوب) و(رومان روز) وغير ذلك وقيل للمنظوم من ذلك (الاغاني) أو (اغاني القصص) .

١٦ ـ اقتباس الافرنج العلوم عن العرب

ولما اختلط ملوك اوربا وأمراؤ ها بملوك الشرق وامراء المسلمين في اثناء الحروب الصليبية رأوا باعينهم ادباء العرب وشعراءهم ومؤرخيهم واطباءهم وحكماءهم سيما من كان منهم بمعية صلاح الدين الأيوبي مثل القاضي الفاضل والعماد الكاتب وعمارة اليمني الشاعر والطبيب الحاذق الذي طبب ريشار قلب الاسد فقدروا الادب حق قدره واعترفوا بلزوم وضع تاريخ لدولتهم . فالف بعض الرهبان السالكين طريقة القديس ديني (St. Denis) تاريخاً لدولة الافرنج . وكان ذلك على عهد لويس

التاسع الملقب بالقديس وهو المتوفى سنة ١٢٧٠ م في تونس اثناء الحرب الصليبية الثامنة . فكان هذا التاريخ أول سجل لضبط وقائع ملوك الافرنج وتاريخ جلوسهم ووفاتهم وذكر شيء من اخبارهم وحروبهم . وداموا على هذا السجل إلى ان ملك لويس الحادي عشر المتوفى سنة ١٤٨٣ . وأنشأوا في مدينة مون بيليه مدرسة للطب وذلك في القرن الثالث عشر وهي أقدم مدرسة طبية في أوربا بعد مدرسة ساليرن التي بجوار نابولي . وكانت الاندلس في منتهى عزها وحضارتها فجلبوا منها لمدرسة مون بيليه المعلمين والمدرسين من العرب واليهود المستعمربين . وفي سنة ١٣٢٣م أنشأوا في مدينة طولوز جمعية أدبية دعوها مدرسة العلم المفرح (College du gai scavoir)؛ وجعلوا جوائز الشعر ازهاراً مصوغة من الذهب والفضة تفرق على نوابغ الشعراء بعد تقدير الجمعية وحكمها ، وفي أواخر القرن الخامس عشر للميلاد أوقفت إحدى المحسنات من نساء طولوز أموالها على هذه الجمعية فاتسعت ثروتها وزادت رغبة الشعراء فيها وأقبلوا على انتحال فنون الادب وحسنوا المنطق والكلام باللسان الفرنساوي . ولم تزل هذه الجمعية الأدبية زاهرة إلى يومنا هذا وتسمى جمعية أو (أكاديمية لعب الازهار) وتتألف من أربعين محافظاً ومن معلمين كثيرين . وسمي أعضاء هذه الجمعية بالمحافظين أشارة إلى ما يجب عليهم بحسب قانونهم من المحافظة على قواعد اللسان وفنون أدبه . ويحتفلون في اليوم الثالث من شهر مايو في كل سنة ويوزعون الجوائز والنقود على مستحقيها ولهم تسع جوائز من الذهب والفضة كل جائزة على شكل زهرة مخصوصة مثل الاقحوان والياسمين والسوسن ومنها ماهو للشعر ومنها ما هو للنثر والخطب - ورأينا فيما سبق كيف نال فيكتور هوكو جائزة هذه الجمعية .

وفي القرن الرابع عشر للميلاد ترجم الافرنج الكتب اللاتينية للفرنساوية ونقلوا علوم اليونان وفلسفتهم عن العرب ولم يكن لهم معرفة باللغة اليونانية ولا بما دون فيها فترجموا كتب ارسطو عن اللاتينية المترجمة عن العربية والعربية مترجمة من اليونانية أو السريانية . ثم ظهر فن التشخيص وكان منشأه من الكنيسة ومن تشخيص آلام المسيح عليه السلام وما شبه لهم فيه من القتل والصلب . فهذا اساس فن التشخيص ثم وسعوا دائرة هذا الفن ووضعوا فيه المؤلفات الكثيرة واستحدثوا فيه أنواعاً مختلفة وطرقاً متنوعة واقبلوا على درس أدب اللغة اللاتينية وأدب اللغة اليونانية وتبحروا فيهما

وانتقشت اساليب هاتين اللغتين في نفوسهم وحذوا حذو شعراء الرومان واليونان واتخذوا أشعارهم ورواياتهم منوالاً نسجوا عليه امثالها من كلمات أخرى فرنساوية ولم يزالوا كذلك حتى بلغوا شأواً كبيراً على عهد لويس الرابع (١٦٣٨ - ١٧١٥م) الملقب بالكبير وأصلحوا فنون الأدب وهذبوها وفتحت الماركيزة رامبويه دارها للأدباء من سنة ١٦٣٥ إلى سنة ١٦٦٥ م وكانت تستقبلهم هي وبناتها ويعقدون في حضرتها منتدى ادبياً يحضره الشعراء والادباء والظرفاء ويتسامرون فيه وينشدون الاشعار ويقصون القصص والنوادر الادبية والعلمية . فكان اول ناد في باريس خدم انتشار الادب والمعارف وساعد على ترقي اللغة وعلى اجتماع الرجال بالنساء في جلسة ادبية محترمة وتقرب الادباء من الامراء وأرباب الوجاهة بعد ان كانوا مختصرين لا يحترفون بالادب الا لاستجداء المعروف وطلب الاحسان . وصارت السيدات الفرنساويات يقلدن الماركيزة في الاقبال على تحصيل الادب والمعارف وفتح ابوابهن للشعراء والكتبة . وأرادت بعض سيدات الاستانة قبل اعلان الدستور تقليد الماركيزة في حماية الادب فنجح عملهن مدة ثم أقفلت دورهن . وفي سنة ١٦٣٥ أسس الكاردينال ريشيليو الاكاديمية الفرنساوية من اربعين عضواً وفوض اليهم جمع قاموس اللغة الفرنساوية ثم أسست اكاديمية الفنون والآداب واشتغلت بالتاريخ والآثار القديمة ثم اكاديمية العلوم الاخلاقية والسياسية واشتغلت في الفلسفة وعلوم الاقتصاد ثم اكاديمية العلوم الرياضية والطبيعية واكاديمية الصنائع النفيسة وغير ذلك من المؤسسات العلمية النافعة وظهر من الأدباء بالزاق وفواتير وديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠م) وهو الذي أحيا الفسلفة وأوجد التعبيرات الفلسفية في اللغة الفرنساوية . وكان اماماً في الأدب فسلك فيه مسلكاً جديداً واتخذ لنفسه طريقة مخصوصة تنسب إليه وتسمى باسمه . ثم أنشأ الكساندر هاردي مرسحاً في باريز شخص فيه روايات كثيرة أخذ موضوعها من اسبانيا لتقدم فنون الأدب فيها لسبب مجاورتهم للعرب . وظهر من فحول الأدباء بيرقورنيل (١٦٠٦ - ١٦٨٤م) صاحب رواية هوراس التي صور فيها فضائل الرومان ومحبتهم لاوطانهم وبذلهم دونها المال والبنين . وأبدع ما في هذه الرواية حديث المرأة التي أتت شيخاً من قبيلة هوراس تخبره بموت ابنيه في حرب لهم مع قبيلة كورياس وبنجاة ولده الثالث بالفرار من ميدان الحرب فتجلد الشيخ على موت ابنيه وغضب من فرار ولده الثالث .فقالت له المرأة « ماذا تريد ان يفعل وهو

وحـده مع ثلاثـة من اعـدائـه » فاجابها الشيخ « أريد ان يموت » . ومن أئمة الأدب المؤسسين لطريقة (كلاسيك) راسين (١٦٤٩ ـ ١٦٩٩) وكان معاصراً لقورنيل ورقيباً له . نظم رواية اندروماخه ونسجها على منوال رواية بهذا الاسم لاحد شعراء اليونان الاقدمين ثم درس تاريخ العبرانيين ونظم رواية (استير) ورواية (أتالي) التي قال فيها فولتـير بانهـا أحسن ما الفـه العقـل البشـري وسموا هذا النوع من الروايات الفاجعة التـاريخيـة (تـراجيـدي) ومن مشـاهير أدبائهم المتقدمين بواولو الشاعر الهجاء مؤلف الهزليات وصاحب المذهب في فن الأدب . ومولير مؤلف المضحكات المساة كوميدي وفنلون مؤلف تيلماك المترجم للعربية والمطبوع في بيروت وترجمه للتركية يوسف كامل باشـا بألفـاظ لغـويـة وعبارة عويصة وترجمه احمد وفيق باشا بألفاظ سهلة . ولا فونتين مؤلف الحكـايـات المنظـومـة على السنـة الحيوانات وكانت المدارس الابتدائية تعول عليهـا في تدريس اللغـة الفرنساوية وتحفظها للأطفال وأما اليوم فقلت الرغبة فيها . ثم مونتسكيـو مؤلـف (أسبـاب اعتـلاء الـرومـانيـين وسقـوطهم) و(روح القـوانـين) و(الـرسـائل العجمية) . وبوفون مؤلف التاريخ الطبيعي وفولتير الشهير الذي لم يدع بابـاً من أبـواب الكتـابـة وفنون الشعر والانشاء الا طرقه . وديدرو صاحب الانسكلو بيـديـا وجـان جاك روسـو الـذي هيج الافكار بمؤلفاته وهيأ حدوث الانقلاب الكبير وبرناردن دوسن بير مؤلف بول وفرجيني وغيرها من القصص والسياحات .

١٧ ـ الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية في أدب الافرنج

وما أخذوه من ذلك عن العرب

أدب كل لسـان ـ كما لايخفى ـ هو مجمـوع ما حصلت الاجـادة في تأليفه بذلك اللسـان من فني المنظـوم والمنثـور . فمن أمعن النظـر في أدب اللسان العربي وجد فيه طرقاً كثيرة ومذاهب شتى ورأى فريقاً من الذين أحرزوا قصب السبق في أدب العرب يتوخى حفظ الالفاظ وتصنيعها وفريقاً آخر يختار ضبط المعاني وترتيبها . وعلم ان لكل واحـد من أئمـة البـلاغـة وأمراء الفصاحة منهاجاً معروفاً وطريقة مألوفة . فلو راجعنا البصـر في رسـائلهم المنثـورة وتأملنـا طرز انشـائهـا لتبين لنا ان منهم من سلك طريقة

الأصل أو طريقة السجع أو طريقة الجاحظ أمام الادب . ومنهم من جمع بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين حتى خلص لنفسه طريقة . ثم لو أعدنا النظر ثانية في نظم اشعارهم لظهر لنا ان منهم من نسج على منوال شعر الجاهلية ولم يخرج عن الاساليب التي راعوها ومنهم من لم يجر على أساليب العرب المتقدمين كالمتنبي والمعري، بل اتخذ كل منهما منوالاً خاصًا لنسج كلامه وأوجد قالباً جديداً لبناء شعره فاصبح في الأدب اماماً يقتدى به ، ثم اذا بحثنا في مؤلفات اولئك الأئمة باعتبار آخر رأينا منهم من اطلق العنان للمخيلة الشعرية فاتى بالمعجز من آيات البيان ومنهم من استغرق في الحب استغراق ابن الفارض وتجليه . وإذا وصفوا الامكنة والاشخاص أو المواد والمعاني منهم من يصور لك الموصوف على حقيقته بلا خلف فيه ومنهم من يجعل وصفه يربو على الموصوف ويتعداه أو يقصر عنه . ثم اذا استقصينا البحث نجد طائفة من امراء البلاغة قد تركوا لغة مضر وما فيها من الاعراب ونظموا اشعارهم بلسان الحضر وهي اللغة الدارجة في امصارهم لان البلاغة لا تختص بلسان مضر بل توجد فيه وفي لسان الحضر وفي غيرهما من الالسن الاعجمية . ونجد منهم أيضاً طائفة اخرى في الاندلس وغيرها خرجوا عن أوزان العروض المعروف عند العرب إلى اعاريض مختلفة ومقاطيع متفاوتة . إلى غير ذلك مما هو مفصل في مواضعه ومعلوم عند اربابه سيما بعد طبع كتب الباقلاني والجرجاني وغيرهما من الأئمة الواضعين لفن الانتقاد الأدبي .

فالأمم الاوروبية على اختلاف قومياتهم وتفرق لغاتهم ظلوا لاواخر القرن الحادي عشر لميلاد محرومين من الأدب وفنونه ولم يكن فيهم الا أفراد من القسوس والاساقفة يحفظون في الاديرة شعر فرجيل اللاتيني ولايفهمون مغزاه كما يحفظ مشايخ الاعاجم في زماننا شعر المتنبي والمعلقات . ففي أوائل القرن الثاني للهجرة والثامن للميلاد اخذت الافكار تتبادل بين المسلمين وبين أمم اوروبا من الاسبانيين والطليان والافرنج ودامت الصلات لا تنقطع بين الفريقين المتحاربين لا في الحرب بواسطة الاسرى والسفراء - ولا في السلم بسبب الأخذ والعطاء . وكان الأرسخ قدماً في الحضارة يكسب جاره ادباً وعرفاناً . وفي القرن العاشر للميلاد تغلب البابا سيلفستر الثاني على التعصب الديني وخرج من مدينة أورياق مسقط رأسه وقطع عقاب البيرينه ومياه الوادي الكبير وجاور في اشبيلية ثلاث سنوات . وفتح لقومه باب العلم

والمعارف فدخلوه طوعاً أو كرهاً وارتحل الافرنج في طلب العلم الى مدارس الاندلس وحضروا على مشايخها وعادوا لاوطانهم متنورين يلقون الدروس في ساحات المدن الكبيرة وتجتمع حولهم الطلبة والعوام على مألوف العادة الجارية ليومنا في المدارس والجوامع الاسلامية . فادرك الناس فوائد العلم وقرب الملوك والامراء منهم علماء المسلمين وأغدقوا عليهم . فكان الشريف الادريسي صاحب الجغرافية عند رجار المعروف عندهم بروجر الثاني ملك صقلية ونابولي وهو من سلالة الملوك النورمانديين . وكان احفاد ابن رشد المتضلعون في علم الحيوان والنبات عند خلفاء رجار في مملكة صقلية ونابولي المعبر عنهما بالصقليتين . فكان مثل هؤلاء كمثل الاوروبيين المستخدمين اليوم في الممالك الشرقية . وظل الافرنج بعد استرداد صقلية يكتبون بالعربية على المباني العمومية والعمارات الملوكية واستعمل علماؤهم اصطلاحات العرب العلمية في جميع أوروبا . وفي القرن الثالث عشر للميلاد فتحوا مدرسة للطب والعلوم في مدينة مون بيليه القريبة لمرسيليا وجاؤا لها بالمعلمين من عرب الأندلس ويهودها المستعربين . فكانت تلك المدرسة أقدم المدارس في أوربا بعد مدرسة سالير ن القريبة لنابولي . ولم تزل مدرسة مون بيليه عامرة يقصدها طلبة العلم من الاستانة ومصر وغيرهما من بلاد الشرق . ثم في سنة ١٣٢٣ أنشأ أدباء الافرنج في مدينة طولوز التي فتحها العرب سابقاً جمعية ادبية لم تزل زاهرة الى يومنا هذا وتسمى جمعية لعب الازهار وتفرق في كل سنة على نوابغ الشعراء عشر جوائز مصوغة من الذهب والفضة على هيئة الأزهار . وكانت لفيكتور هوكو منها أوفر نصيب كما تقدم . ومعلوم ان العرب اقاموا مدة بتلك الاصقاع وحرثوا أرضها وتزوجوا بناتها وعمرت بهم مدينة اربونة (ناربون) وقرقشونة (قرقسون) وفراقسنة وكانت مستعمرة للعرب في شرق مرسيليا . وقسطل سارازين معناها قلعة العرب وهي في الشمال الغربي من طولوز .

فتعلم الافرنج من العرب القوافي ورقة الغزل وأداب النظم والنثر وتلحين الاغاني والشعر ونقلوا عنهم القصص والحكايات والنوادر وضروب الامثال والحكم المنقولة عن الفرس والهنود كما هو مفصل في تواريخ الأدب الفرنساوي . والى ذلك أشار الموسيو رينه دوميك في كتابه المتداول بأيدي طلبة العلم في عموم المدارس الفرنساوية . وبعد ان اطلع الافرنج من كتب الاسلام على ما عند اليونان من الفلسفة والحكمة اقبلوا على درس اللغة اليونانية ولم يهملوا كتب ادبها كما اهملها العرب

من قبلهم . بل تهافتوا على درس أدب اليونان واللاتين وعلى حفظ أشعارهم والتمثل بها . وهاموا في قص قصصهم وفي تشخيص رواياتهم لان فن التشخيص او التمثيل كان شائعاً عند اليونان والرومان . وألف أدباؤ هم كثيراً من الروايات واشتهر منها مؤلفات اوريبيد لاسيما رواية اندروماق التي نسج راسين على منوالها . ولا يزال السياح يشاهدون في أثينة على سفح الجبل تحت قلعة الافروبول اثار المرسحين العظيمين اللذين هما من بقايا التمدن القديم .

وكان أسبق أمم أوربا إلى تحصيل فنون الادب الاسبانيول والطليان المجاورون للعرب . فظهر في الاولين من فحول الشعراء لوب دوفيكه ونظم نحو ألف وثمانماية رواية تمثيلية . وظهر فيهم أيضاً الشاعر قالديرون ولوقين وغيرهم . وفي الطليان ظهر الشاعر دانتي (١٢٦٥ ـ ١٣٢١م) وطار له ذكر في العالم وهو يعد في مصاف اكبر شعراء الامم القديمة والحديثة . وسبب شهرته كتابه الموسوم بالكوميدية الالهية ـ ديفين كوميدي ـ الفه في غضون سنة ١٣٠٠ م وجعله على ثلاثة أبواب باب في جهنم وباب في الاعراف وباب في الجنة . وسمى الباب منها بالنشيد وقسمه إلى مائة غناء وكل غناء يشتمل على ١٣٠ أو ١٤٠ بيتاً . وافتتح كتابه بباب جهنم وصور نفسه مشرفاً على غابة مظلمة تقشعر الجلود من وصفها . وهمَّ بدخولها لولم يعترضه ثلاثة سباع كاسرة . وبينما هو بين أظفار المنية ظهر له فرجيل الشاعر اللاتيني وعرض عليه ان يكون قائداً له في الاعراف والسعير فقط لانه لا يستطيع دخول الجنة ولا وطء عتابها لكونه من عبدة الاوثان فقبل دانتي بقيادة فرجيل له وسارا معاً في عالم أهل النار . وأطنب الشاعر في وصف اصحاب السعير وصور عذاب الذين مر بهم من الظلمة والجبارين . وأتى على قصة ايكولين وكان جباراً عنيداً في مدينة بيزا فوقع بايدي أعدائه فوضعوه مع اولاده في برج وسدوا عليهم جميعاً فاشتد به الجوع وأكل اولاده ثم هلك . فوصف دانتي جميع ذلك بصورة هائلة على الاسلوب المعروف بالدراماتيقي . ولما أدته خاتمة المطاف إلى الجنة وجد ببابها بياتريس وكانت من ربات الجمال المشهورات بمدينة فلورانسا وقيل كانت معشوقته فتلقته واخترقت به طبقات الجنة المسيحية او طباق السموات فلقي فيها كثيراً من الابرار والقديسين والملائكة المقربين وباحثهم بالمسائل اللاهوتية والعلوم الالهية والكلامية وجمع دانتي في مؤلفه علوم العصر وآدابه ومعارفه ووضع به اساس اللغة الطليانية فكان كتابه كدائرة

المعارف والأداب . ولم يزل يستوقف انظار الادباء بحسن ترتيبه وجودة سبكه وبما فيه من المهارة العجيبة في التنقل من مبحث إلى آخر . فالكوميدية أو المضحكة الالهية اشبه برسالة الغفران التي حررها المعري قبل تأليف الكوميدية باكثر من قرنين وقدمها جواباً لرسالة وردت عليه من أحد اصحابه الافاضل في حلب وانتقل فيها لذكر الجنة ونعيمها وذكر من دخلها من الشعراء الذين يتبعهم الغاوون وفي كل واد يهيمون . وما كانوا يدخلونها الا بعمل صغير كان له عند الله أجر كبير فغفر لهم ما تقدم من الذنب وما تأخر وقالت لهم الملائكة طبتم فادخلوها خالدين .

واقتفت الامم الاوروبية أثر الاسبانيين والطليان في العدول عن اللغة اللاتينية الى وضع لغاتهم القومية وتدوينها . واقبل الادباء في انكلترة على التأليف باللغة الانكليزية واصلح الفرنساويون لسان رومان وهذبوه فاصبح اللغة الفرنساوية . واقتفى الالمان أثر من ذكر من الأمم ودونوا لغتهم الالمانية . وكان فن الأدب منحصراً في الخواص شأنه عند العرب ولا نظر للعوام فيه ولذا اختار الادباء اصطلاحات مخصوصة من اللغة وتصنعوا في كلامهم وتعملوا له . لان الخواص من الناس يأنفون من استماع الكلام السوقي المبتذل ويألفون الغوص على المعاني واعمال الذهن في استخراجها . ثم ظهر في فرنسا الكسندر هاردي وهو أول من اصلح فن التمثيل واللعب على المراسح . واتخذ الروايات الاسبانية نموذجاً له ونظم على منوالها كثيراً من الروايات الفرنساوية وشخصها على مرسح باريس في حدود سنة ١٦٠٠ م . وفن التمثيل كما لا يخفى هو من أكبر العوامل على ترقي فنون الأدب واصلاح طرق النظم والنثر . لان الاديب يخاطب بهذا الفن الجمهور واصناف الناس فيتحرى في كلامه التعبير الذي يستطيعون فهمه والاساليب التي لها وقع في نفوسهم بخلاف من يؤلف كلامه للخواص فانه يتعمل في التأليف ويتصنع ليظهر تفننه واقتداره على ايراد النكت والدقائق التي لا يفهمها إلا أصحاب الغوص على المعاني .

والتمثيل كما لا يخفى مشتق من ضرب المثل . فان الرواية التمثيلية ما هي الا ضرب مثل جامع للاطراف والتفاصيل واحسن ضروب الامثال وابدعها وردت في القرآن الكريم الذي تحدى به النبي عليه السلام العرب وقال اتوني بسورة من مثله فقالوا انت تعرف من اخبار الامم ما لا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكنّا . قال فهاتوها مفتريات . فالرواية هي أسلوب من أساليب المفتريات . واساس فن

التمثيل عند الاوروبيين مستفاد من أعمال المعبدين في الكنائس ومن تشخيص ما شبه لهم في المسيح بن مريم عليهما السلام من القتل والصلب ومن تمثيل آلام الذين اقتدوا به من القديسين والشهداء في سبيل النصرانية . ولما درس الافرنج اليونانية واللاتينية وانتشقت اساليب هاتين اللغتين في نفوسهم حذوا حذو شعراء اليونان والرومان واتخذوا رواياتهم منوالاً نسجوا عليه امثالها من كلمات اخرى فرنساوية وربما ترجموا ابيات شعرهم وسرقوا معانيهم وصاغوها في الفاظ فرنساوية من الطبقة العليا وتأنقوا فيها نهاية التأنق وراعوا قواعد النحو والصرف والعروض وبقية علوم الآلات المدرسية والاساليب المتعارفة فجاءت ابياتهم متينة وقوافيهم عامرة . وكل بيت منها كلام تام في مقصوده ويصلح ان ينفرد دون ما سواه . ولم تحصل الملكة في ذلك الا لمن هو على جانب من العلم وله الحظ الأكبر من الذوق السليم لاحتياجه إلى تلطف كثير في استحصال الملكة حتى يبزغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له .

وبلغ الأدب الفرنساوي في عصر لويس الرابع عشر أي من سنة ١٦٠٠ الى سنة ١٧١٥ أوج الكمال ومنتهى البلاغة . واصلح الأدباء فنون الأدب ورتبوها على القواعد وهذبوها ووضعوا المؤلفات الجليلة والروايات البديعة وظنوا بانهم لم يتركوا شيئاً للمتأخرين . فكان عصر لويس الرابع في الأدب عصراً مدرسيًّا (كلاسيك) أشبه بعصر أوغسطوس عند الرومان وبعصر بيرقلس عند اليونان . ونبغ من شعراء الفرنساويين في فن الفاجعات (تراجيدي) الأديب بيير قورنيل والشاعر المفلق راسين . ونبغ في فن المضحكات (كوميدي) الاديب موليير . ونبغ في فن الهجويات (ساتير) الأديب المدقق بوالو . فهؤلاء من نوابغ العصر المذكور الذي بلغ اللسان فيه منتهى الفصاحة والبلاغة . ومن احسن مؤلفات بيير قورنيل رواية السيد والكلمة عربية لقب بها احد ابطال الاسبانيين في القرن الحادي عشر للميلاد . وبيان ذلك :

ان العرب بعد استيلائهم على جزيرة الاندلس (١) التجأت بقية السيوف من القوط إلى جبال استوريا وتحصنوا فيها ولموا شعثهم وشكلوا حكومات وإمارات صغيرة فلم يعبأ بهم العرب وحسبوهم من قطاع الطرق المشتردين في الجبال وتشاغلوا عنهم

(١) قالت العرب جزيرة الاندلس وجزيرة العرب وذلك أخف من قولنا شبه جزيرة الاندلس وبحيث جزيرة العرب والاندلس تطلق على مملكة اسبانيا ومملكة البورتغال ما عدا جزر صغيرة في الشمال الغربي من مملكة اسبانيا .

بتعمير تلك السهول وتمتعوا برياضها الغناء . فمن الامارات التي اسسها القوط في شمال الاندلس استورية وليون وقشتالة وكان المالك عليها في ابتداء القرن الحادي عشر للميلاد فرديناند الأول فأوصى بتقسيم الملك بعد وفاته بين أولاده فكان ابنه الفونس السادس على ليون الاسبانية وابنه الثاني سانش على قشتالة . فالسيد صاحب الرواية ولد سنة ١٠٣٠ وسمي رودريك وكان أبوه الدون ديغوا من اشراف القوط فادخله في سراي فرديناند الأول . وبعد وفاته دخل في خدمة ابنه سانش ولما اقتتل الاخوان وانهزم سانش في احدى المواقع قوّى السيد عزمه واشار عليه بالمشورات الحسنة فاتبع رأيه وانتصر على اخيه وحبسه وتفرد بالملك على ليون وقشتالة . فكان السيد له نديماً ووزيراً وناصحاً ومشيراً . ثم حدثت فتنة وقتل سانش في محاصرة زاموره وخلفه اخوه الفونس السادس فأمن السيد واقسم له الايمان المغلظة بانه لا مدخل له في قتل اخيه سانش وقربه منه وزوجه بواحدة من قريباته وكانت على رواية التاريخ عجوزاً شنعاء ولم يتزوجها السيد الا طمعاً في مالها . وبعد ان تم الامر لالفونس السادس وأمن غوائل الرقباء فعل بالسيد ما يفعله المستبدون من الملوك من فتك [1] ومصادره واراد الفتك به فقر من ملكه الى الحدود الاسلامية وعمر قلعة على قلعة بالقرب من سرقسطة (ساراغوس) بين دارقة والقنيز . ولم يزل اثر تلك القلعة على صخرة عالية تسمى صخرة السيد كما تنسب الصخرة التي في رونسيفو أي في مدخل جبال البيرينة إلى رولان . واستقل السيد بحكمه في تلك القلعة وكان يتعيش هو ورجاله من النهب والغارة على القرى المجاورة ومن قطع الطرق على القوافل الاسلامية والمسيحية . فاشتهر خبره وتحدثت الركبان بشجاعته ثم اتفق مع امير سرقسطة وامير البراسين وهما من امراء المسلمين وقاتل معهما امير اراغون المسيحي وحارب كذلك عسكر الفونس السادس والمتفقين معه من امراء المسلمين لانهم كانوا متفرقي الكلمة يقاتل بعضهم بعضاً . فجاءهم يوسف بن تاشفين بعساكر المرابطين من افريقية ووحد كلمة الاسلام في عموم جزيرة الاندلس مع انه كان أمياً بربريًّا . فوقف السيد أمام المرابطين ودفع هجماتهم عن بلنسية ولم يمكنهم من الاستيلاء عليها الا بعد وفاته في سنة ١٠٩٩م . فتحدث القريب والبعيد بشجاعة السيد وثبات عزمه وطار له ذكر بين الفرسان ونظمت فيه القصائد العنترية أو الهلالية بلسان رومان . ثم جاء قورنيل

---

١ ـ عبارة « من فتك » غير موجودة في الأصل ولعلها سقطة مطبعية .

ونظم فيـه روايتـه المشهـورة بدون التفات للتـاريـخ ولا تعمق فيه بل نسج على منوال القصـائـد الـرومـانية وتخيل فيها تخيلاته الشعرية وجعل تلك المرأة التي تزوجها السيد بديعـة الحسن والجـمال . ولما عشقها وعشقته اتفق انوالدها اهان والده فانقض عليه السيـد وقتله وتمكن من تسليـط ارادتـه على عشقـه . أما اسم « السيد » فأطلق عليه حينما كان متفقاً مع امير سرقسطة وأمير البراسين وحارب معهما ولم نتعمق في التاريخ لنفهم هل دخـل السيـد في الاسـلام أم لا . ومن أبيـات قورنيـل في روايتـه المذكورة قوله : (كلاهما سمياك سيدهما بحضوري لان السيد بلسانهم تعادل كلمة سنيور) .

أمـا ما ألفـه راسـين من الروايات الموافقة تماماً للقواعد المدرسية فاحسنها رواية (انـدرومـاق) ونسجهـا على منـوال سميّتها الرواية اليونانية المؤلفة قبل الميلاد باربعة قرون وتخـالف روايـة السيـد في وحـدة الـزمان وفي اخلاق بطلها لتغلب العشق عليه وانتصـاره على ارادة العـاشق . ومن روايـات راسـين استـير الاسرائيلية ويشخصها احياناً طلبة المدارس في بيروت . ورواية اتلي وهي من الاسرائيليات ايضاً .

قال فولتير انها احسن محصولات العقل البشري . ومن أحسن ما ألفه موليير في المضحكات رواية تارتوف وهو رجل مرائي في نسكه وعبادته أغفل بخبثه أحد المتمولين من البسطاء واستولى على امواله وعياله فصار اسم تارتوف كناية عن الرياء والخبث . وقد اتى المعري بابيات كثيرة تشتمل على مضمون هذه الرواية كقوله :

ولـيس عنـدهـم ديـن ولا نسـك	(فلا تغـرك أيـدٍ تحمـل السـبحـا)
وكـم شيـوخ غدوا بيضـاً مفـارقهم	يسبحـون ويـاتـوا في الخنـا سبحـا

والف بوالو كتاب الهجويات (ساتير) ووضع في قواعد الشعر كتاباً سماه الفن او الصنـاعـة الشعرية (آربويتيك) وانكر الشعر والشعراء في المتقدمين وقال لم تأت فرانسا بشـاعـر قبـل (ماليرب) أي ان الشعراء الذين جاءوا قبل دخول القرن السابع عشر لا يستحقـون الـذكـر في مصـاف الشعراء لعدم اتيانهم بالكلام المدرسي المنتظم المعقول ولتهـافتهم على التصنـع البـارد في الكلام واظهار الرونق الكاذب فيه وبيان مهارتهم وعلمهم بكل ما هو من فضول الكلام ولذا فكلامهم لا طعم له وفيه كثير من الغرور والاعجـاب . فبـوالـو بالـغ في كلامـه وحـط كثـيراً من كرامة المتقدمين ولكنه أصلح اسـاليب الشعـر الفرنساوي كما اصلح باسكال أساليب النثر . وكان باسكال اماماً في العلوم الرياضية والطبيعية . واقتفى اثر بوالو في انتقاد كلام المتقدمين الوزير ضيا باشا

وألف مجموعة سماها الخرابات خرب فيها كثيراً من اشعار الفرس والترك والعرب المتقدمين عليه وكانت وفاته في بروسة سنة ١٢٩٥ هـ فجاء كمال بك امام الأدب في اللسان العثماني وكتب عليه انتقاداً سماه تخريب الخرابات ونشره في مطبعة ابو الضياء .
فالغاية التي يتطلبها أئمة الادب العثماني كاللذين ذكرا وعبد الحق حامد بك مستشار سفارة لوندرة واكرم بك وسعيد بك من اعضاء الشورى والمعلم ناجي افندي المتوفى منذ بضع سنين وبقية النشأة الجديدة ـ هي تخليص لسانهم من مبالغات الفرس الاعاجم والسلوك فيه منهج بوالووراسين وقورنيل وموليير وبقية ادباء عصر لويس الرابع عشر . لان هؤلاء الادباء يذهبون إلى أن التخيل الشعري ينبغي ان يكون مقروناً بالتعقل . فعندهم ان الشعر ليس أعذبه اكذبه بل احسنه اصدقه كما قال حسان :

وان أحسن بيت انت قائله   بيت يقال إذا انشدته صدقا

واشترطوا في الروايات التمثيلية ثلاثة شروط :

وحدة الزمان

وحدة المكان

وحدة العمل .

أي ان الحادثة الممثلة على المراسح يشترط تصور حدوثها في زمن واحد أي في ظرف ٢٤ ساعة مثلاً ليكون التمثيل أقرب الى الحقيقة واشبه بالواقع لان حوادث الاربعة والعشرين ساعة يمكن اختصارها وتمثيلها في ساعتين . فراسين راعى هذا الشرط في رواية اندروماق . وقورنيل خالفه في رواية السيد ونقل بطل الرواية من سنة الى اخرى . فالقائلون بهذا الشرط تنقبض نفوسهم من تمثيل الحوادث التي حدثت في ازمان متطاولة . وقصدهم من وحدة المكان اشتراط وقوع الحادثة في مكان واحد لئلا ينتقل ذهن السامع من مكان لآخر فيبتعد بذلك عن الحقيقة . ولذا كانت مراسح القائلين بهذا الشرط ثابتة المناظر من أول اللعب إلى آخره . بحيث اذا رفع الستار عن مكان يبقى المكان بعينه في الفصل الثاني وما بعده من فصول الرواية لمراعاة شرط وحدة المكان . والمراد من الشرط الثالث ان يكون بطل الرواية واحد وعروسها واحدة ثم السعي وراء عمل واحد وهو الحب مثلا وينتهي بفناء المحبين أو أحدهما أو انتصارهما أو تغلب ارادة العاشق على عشقه كما فعل السيد وقتل ابا معشوقته أخذاً بثار ابيه أو بالعكس كما قتل سفير اليونان زوج محبوبته في رواية اندروماق وخان بذلك وطنه ولم يرع عهد من ائتمنه كل ذلك مرضاة لمعشوقته .

فمصدر هذه الشروط والقيود امثالها هو التعقل في الكلام الأدبي وتحكيم الذوق السليم في فنونه . ولم يكن الأدباء قبل عصر لويس الرابع عشر يتعقلون في نظمهم ونثرهم لا يحكمون الذوق السليم فيها . ولذا كانت فنون ادبهم مشحونة بالخرافات والاباطيل وبما هو خارج عن الطبيعة والاعتدال وخارق للعادة ومشتمل على المبالغات العجمية وعلى زخرف القول . فلما تعقل الادباء في كلامهم وجدت الطريقة المدرسية التي قيل لها (كلاسيك) . والكلمة كما هو معلوم مشتقة من الصف والدرس والمدرسة . لان السالكين هذه الطريقة لا بد لهم من درس آثار الواضعين لقواعدها والارتياض في كلامهم لتحصل لهم ملكة في النظم والنثر . وأمام الطريقة المدرسية وشيخها الاكبر راسين .

١٩ ـ الطريقة المدرسية عند الافرنج

فروايات الادباء والشعراء المتقدم ذكرهم يقال لها روايات مدرسية كما يقال للكتاب الذي يدرس في المدارس كتاب مدرسي . ويقصد به الكتاب الاقرب الى مرتبة الكمال في الفن الذي هو مؤلف فيه . فرتبة الكمال يمكننا تصورها والاحاطة بها في العلوم المدرسية كالنحو والصرف والبيان والمعاني والعروض أو الفقه والحساب . ولكن في الأدب وفي الروايات التمثيلية ليت شعري ما هي مرتبة الكمال ؟ ففي جواب هذا السؤال وقع الاختلاف بين مشايخ الطرق الأدبية من مدرسية ورومانية وحقيقية أو طبيعية . وفي نهايتهم الطريقة الانسانية وهي موضوع حديث القوم في يومنا بسبب كتاب نشره المسيو فيكتور بيرار مستشار نظارة البوستة والتلغراف وبحث فيه عن الاوديسة التي نظمها اوميروس الشاعر اليوناني . وكان المسيو بول ادم بحث عن هذه الطريقة الادبية الجديدة في مقدمة قصته التي عنوانها اسرار الجمهور (مستير دوفول) وبول ادم يحرر اليوم في جريدة الجرنال الباريسية .

فاصحاب الطريقة المدرسية يذهبون إلى ان مرتبة الكمال في الادب هي « أولاً » تمام النسبة التي بين اساس الفكر وبين شكل التعبير . اي بين المعاني التي يختلقها الشاعر وبين قوالب الالفاظ التي يسكب تلك المعاني فيها . فعلى مذهبهم لا يكفي ان يكون المعنى حسناً بل ينبغي ان يكون الحسن ايضاً في كيفية اداء هذا

المعنى . فالكلام الجاري على الطريقة المدرسية هو معنى بديع في لفظ حسن (١)

فهذه الموازنة التي بين أساس الفكر وشكل التعبير هي الخاصة المميزة لمؤلفات العصور المدرسية كعصر لويس الرابع عشر وعصر اغسطوس وعصر بيرقلس . والعصر المدرسي لا يوجد عند جميع الاقوام بل بعض الامم ليس لهم عصر مدرسي ولا أدب مدرسي مطلقاً ولا يتيسر لهم الوصول الى مرتبة الكمال في الادب أبداً . لانهم إذا تمكنوا من الاتيان بالمعاني البديعة فلا يتمكنون من اداء هذه المعاني بالالفاظ الحسنة ولا يقدرون على الترجمة عن أفكارهم حق الترجمة لاحد السببين : اما ان اللسان الذي يتكلمون به لم يزل على خشونته ولم يكتسب بعد الشكل البديع . وأما ان تكون اساليب الفن ولوازم الصناعة الادبية لم تعرف بعد عند المتكلمين به . ثم انهم يشترطون في التأليف المدرسي ان يكون ظهوره في الزمن التي بلغت فيه اوج الكمال ويقولون لا بد من هذا الشرط . ويعترضون على أصحاب الطريقة الرومانية لانهم تجاوزوا النسبة التامة التي بين اساس الفكر وشكل التعبير . ولم يكتفوا بالتعبير البسيط الذي يؤدي معانيهم تمام الاداء . بل أرادوا زيادة عن هذه النسبة التامة . بل تطلبوا أزيد من ذلك أيضاً . فارجعهم تهافتهم إلى الوراء وساقهم إلى الاساليب الاجنبية وأوصلهم إلى طريقة لوب دوفيكه الاسباني وإلى طريقة بايرون وشكسبير الانكليزيين .

ويذهب أصحاب الطريقة المدرسية إلى ان مرتبة الكمال في الأدب هي « ثانياً » وجود موازنة بين التخيل الشعري وبين التعقل . بل يشترطون وجود هذه الموازنة بين جميع الحواس فإذا كان التخيل الشعري في التأليف الأدبي منافياً للعقل فلا يعتبرون ذلك

(١) قال ابن خلدون : الذي في اللسان والنطق انما هو الالفاظ . واما المعاني فهي في الضمائر . فالمعاني موجودة عند كل واحد . وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا تحتاج إلى صناعة ؟؟ وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج لصناعة (Art) . وهو بمثابة القوالب للمعاني . فكما ان الاواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف . والماء واحد في نفسه . وتختلف الجودة في الأواني المملوءة باختلاف اجناسها لا اختلاف . . . آه كلامه . وفي بعضه نظر ولا يخفي أن الشاعر المفلق أقدر من غيره على تصوير الأشياء ببصره وباصرته وعلى التعبير عنها بلسانه . فالمعاني المتحصلة في ذهنه لا توجد عند كل واحد .

التأليف على نهج الطريقة المدرسية . مثال ذلك مبالغات شعراء الفرس ومن خالطهم من شعراء الترك والعرب . ومبالغات العرب أقل من غيرها لاسيما في كلام الجاهلية وأهل الطبقة الأولى من الاسلاميين الذين لم يكثر اختلاطهم بالاعاجم ولا حصلت لهم الفة بفنون أدب الفرس ولا بتعبيراتهم . ومن هذه المبالغات قول المتنبي في صباه يصف ما فعل به العشق :

أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدني . . إلى أن قال : لولا مخاطبتي اياك لم ترني .

فهذه المبالغة لا تنطبق على العقل ولا تحدث في العادة والمتنبي ولد في الكوفة وذهب إلى فارس واختلط بادباء العجم . ومبالغات نفعي كبير شعراء الترك المتقدمين (القرن الحادي عشر للهجرة) قوله بالالفاظ الفارسية والتركيب التركي يصف يوماً شديد الحر :

(. . . . كيم برمور   بردم كرم ايله ايلريدي درياي سراب) ومعناه ان النملة بنفس حار تجعل البحور السبع سراباً . ومن قرأ ديوان نفعي حسب ناظمه من زمرة عوج بن عناق وظن تمثال رودس الذي كانت المراكب تمر من بين ساقيه صورة له ومنها قول ضيا باشا - وهو في مقدمة ادباء النشأة الجديدة العثمانية وله وقوف على الفرنساوية - باللسان العثماني الجديد الذي يكثر فيه استعمال الالفاظ العربية . (سرولر افلاكه سرجكمش مثال قديار) . ومعناه مثل قد الحبيب كأشجار سرو تناطح برؤ وسها الافلاك . ويذكرني هذا ما قاله احد الواعظين في جامع ايا صوفيا بان ن صام كذا وصلى كذا وسبح كذا في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر رزقه الله في الجنة حورية طولها ما بين بعد المشرقين . فان كنا نستهجن طول الانسة ايلابوين أطول نساء العالم ولا تتوق النفس إلى قربها وهي لا تزيد عن الطول المعتاد باكثر من قدمين فما بالك ان زاد قدُّ عروسنا عن ذلك ؟

ويقسم علماء المعاني المبالغة إلى ثلاثة أقسام : وهي ما كان وقعها جائزاً عقلاً وعادة ويقال لها التبليغ . ومعقولة وهي ما كان وقوعها جائزاً عقلاً لا عادة ويقال لها الاغراق . وغير معقولة وهي ما لا يجوز وقوعها العقل ولا العادة ويقال لها الغلو . فاهل الطريقة المدرسية يرفضون الغلو والاغراق في الكلام . ويقولون بان بعض الامم أو بعض العصور في الامة الواحدة لها تخيل شعري وليس لها تعقل . وقد جاءت هذه الامم او هذه العصور بكثير من المؤلفات البديعة التي لا تخلو من الفوائد ولكن

مؤلفاتهم ليست بمدرسية لوجود التخيل الشعري فيها بدون تعقل . كما هو الحال في ماهـا بهاراتـه وراماياته من أشعار الحماسة الهندية وفي الشعر الفارسي والتركي القديم وبعض اشعار العرب المخالطين للعجم . فمن خصائص العصور والآداب المدرسية تحكيم الذوق السليم في مؤلفاتها والذوق السليم لا يميل طبعاً إلا للجمال والتناسب والقياس ولا وجود لما ذكر في زمن تشكل اللسان ولا في زمن انقراضه .

ولاصحاب الطريقة المدرسية مسألة ثالثة أيضاً وهي محبتهم الصدق والحقيقة . فهم يذهبـون إلى ان احسن الشعـر أصدقـه لا أكـذبـه . ولكنهم لايقصدون باتباع الحقيقـة تصـويـر الحقيقة بعينها تصويراً تاماً كما ذهب إليه أصحاب الطريقة الحقيقية وورد في مؤلفـات امـامهم اميـل زولا . كلا بل يقـولـون فقـط بلزوم ارتباط التصوير الذهني وحده في الشعر لايكفي .★

وعندهم أيضاً ان التآليف المدرسية يجب ان تكون منحصرة في تصوير الجميل والبديع فالتآليف المغايرة للآداب الاخلاقية والموجبة لاشمئزاز النفس يندر فيها الجمال فلا تكـون مدرسيـة . فهم لا يطـالبـون الكـاتب الذي يسلك طريقتهم بان لا يحرك قلمـه الا في المـواعـظ الحسنـة والاخلاق المستحسنة ولا يصور فيها شيئاً غير الجمال . ولكنهم ينذرونه بسقوط مؤلفاته ان ملأها بوصف الاشياء القبيحة والافعال الشنيعة . كما فعل زولا في كتاباته وصور فيها بؤس المعيشة وسفالة الحياة . ونظم احد الادباء في العـام المـاضي روايـة صور فيهـا الامـراض الزهرية والعلل الافرنجية التي تحدث من الانهماك في العهر وشرح ذلك على مرسح اللعب شرحاً اليق ان يكون في غرفة الطبيب المخصصـة لمعـاينـة الامراض السرية . فمنع المراقب تمثيلها في باريس كما منع رقصة الشربة والشمعة من المرسح المصري في المعرض الأخير . ويقال بان الرواية المذكورة في غاية من البلاغة وباعثة على التعفف .

ويشترطون في الطريقة المدرسية شرطاً أخيراً وهو ان تكون المؤلفات فيها ملية قوميـة أي مصـورة لافكـار القـوم الفلسفيـة ولاحوالهم الاجتماعية . فان كان التأليف الأدبي وضع تقليداً للاجانب فلا يكون مدرسياً . فبناء عليه يكون هذا الشرط مرعيًّا في المؤلفات التي استخرج صاحب (مجاني الادب) زبدتها في كتابه لانها من المؤلفات المختصـة بالعـرب قبل الاسلام وبعده . بخلاف المؤلفات العربية الموضوعة في زماننا على الاسلوب الافـرنجي ـ وربـما كانت مترجمـة عن لسان من الالسنة الاجنبية فانها

★هكذا في الاصل؟ .

ليست على وفق الطريقة المدرسية . مع ما فيها من الفوائد التي سنذكرها في بحث الطريقة الرومانية .

فهذه زبدة الأقوال وخلاصة القواعد التي أسست عليها الطريقة المدرسية . فكان من أتى من الادباء بعد عصر لويس الرابع وهو القرن السابع عشر الذي بلغ اللسان الفرنساوي فيه درجة الكمال لا يخرجون في النظم والتأليف عن الاساس الذي وضعه مشايخ الطريقة المدرسية ولا عن الاساليب التي راعوها . ويتكلفون لذلك الصعاب ويعانون طول الدرس ومراعاة القواعد ليتمكنوا من تحسين العبارة ومن تطبيقها على ما يتخيلونه من التشابيه والاستعارات ويلتزمون عدم الخروج عن اوزان العروض المصطلح عليها بين قومهم وجماعتهم ويجعلون كل بيت في الغالب كلاماً تاماً ولا يأتون بشيء من الكلام السوقي المبتذل ولا يصورون رذيلة من الرذائل ولا سوأة من سوآت الانسان وعوراته ولا يصفون شيئاً من بؤس المعيشة أو سفلة الحياة الدنيا . وينتخبون مواضيع مؤلفاتهم من تواريخ القرون الاولى أي من تاريخ اليونان والرومان والعبرانيين . فكان كلامهم مشتملاً على التخيل الشعري وعلى التعقل المشروط وجودهما في الطريقة المدرسية ولكنه بارد ممل بسبب ما فيه من التصنع والتعمل ومن مراعاة تلك الشروط والقيود التي قيدت عقول اصحابه ومنعتهم عن الخوض في مضمار الوسط الذي هم فيه ويشعرون به ويريدون البحث عنه فيمنعهم مراعاة تلك القواعد والاساليب الانشائية . فمؤلفاتهم باستيفائها للشروط المدرسية لم تحدث تأثيراً على النفس ولا تهيجاً للعواطف كمؤلفات الطريقة الرومانية لعدم مراعاة شرط الاحساس القلبي فيها . ولذا قالوا بان راسين وقورنيل وموليير واهل طبقتهم لو اطلقوا العنان لاقلامهم ولم يقيدوها بسلاسل تلك الشروط المدرسية لأتوا باحسن مما جاؤ ا به من درر الالفاظ وغرر المعاني .

فهذا ما كان عليه فن الأدب الفرنساوي قبيل الانقلاب الكبير ولذا كان الكثير من الكتبة لاسيما النشأة الجديدة يتذمرون من تقيدهم بتلك القيود المدرسية ويرون انفسهم كالمقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه . فكان مثلهم كمثل غلام في مكاتبنا اراد التحرير لوالديه فلم ير امامه من نموذج الانشاء سوى ما طبع في الاستانة من رسائل الخوارزمي والبديع والهمذاني . وكانت هذه النشأة الجديدة ترى أيضاً قصور الطريقة القديمة عن حقيقة البلاغة وهي مطابقة

الكـلام للواقـع ومقتضى الحـال . لان اصحاب الطريقة المدرسية مع محافظتهم على التعقـل في الكـلام كانـوا بكثـرة تشـابيههم واستعـاراتهم لا يسمـون الأشياء باسمائها الحقيقيـة ويستعملون الحشـو ويتكلفون للعبارات التي لا لزوم لها . فاذا اراد أحدهم أن يعـين الـوقت وهو يكتب قصة أو رواية ويقول مثلاً : «قبل مرور ساعة من الزمان» دبج عباراته وكثر استعاراته وقال :

(قبل ان يتم العقرب خطاه المنظومة وينقل إلى مينا الساعة المجلاة ستين خطوة موزونة . . .) الخ . .

كما فعـل الشـاعـر الفـرنسـاوي اندره شينيه وهو خاتمة الشعراء السالكين منهج الطـريقـة المـدرسية وابلغهم كلاماً . وكانت ولادته في الاستانة وامه رومية فارتحل إلى باريس وصـار فيهـا أمـام أهـل طبقتـه فلما قتـل سنة ١٧٩٤ م مع من قتل من افاضل الـرجـال وأكابرهم بآلة الكيليوتين انقرضت الطريقة المدرسية بعد ان كانت قواعدها واساليبها هي المرعية بين الأدباء . يتبع فيها الخلف اثر السلف . ومع اعتراف النشأة الجـديـدة بما فيهـا من القصـور والخلل لم يقـدم أحد منهم على تركها ولا الخروج عنها لاوائل القرن التاسع عشر .

فقبـل هذا التـاريـخ كان جمهـور الناس وعوام الأمة في تسيب وغفلة لا يقيدون على المصالح انتظمت أو لم تنتظم ويدعون الامور تجري في مجراها حسناً كان أو قبيحاً نافعـاً أو مضـرًّا كما يجري المـاء في الأرض الطيبـة بدون حفـر النهـر ولا كريـه . وكانوا يستعملون هذا التعبـير (Laisser aller) كما نستعمـل تعبـير (طيب معليش) . ولا يهتمون بالمسائل العمومية والاجتماعية كانها لا تعنيهم ولا يعود خيرها وشرها عليهم .

فلما حدث الانقلاب الكبير في فرنسا سنة ١٧٧٩م تغيرت البلاد ومن عليها في بضع سنـين وانقلبت افكـار الناس وعاداتهم وخلاقهم ويزال عنهم التسيب والغفلة والكسل والـرخـاوة وشغفـوا بحب الانتظـام والـدقة . فتقيدوا بالمسائل وتبصروا بالامور وكانوا صامتـين ناصتـين مفكـرين متعقلين لا يضيعون اوقاتهم في مالا فائدة فيه ولا يشتغلون بالعبث من اللهـو اعتـادوا على الأداب العسكرية في انتظام الحركات والسكنات لان الامـة باسـرهـا حتى النسـاء والصبيـان كانـوا باجمعهم تحت السلاح الكامل يكرون ويفـرون من غرب اوربـا إلى شرقيهـا ومن قارة افريقا إلى قارة آسيا أي من مصر إلى سوريا . فكان الواحد منهم لا يهمل في قيامه وقعوده امراً ولا يغفل في ملابسه عن زرّ

ولا يترك فيها فتقاً بغير رتق . وإذا وقف استقامت قامته لان الانسان مستقيم القامة وإذا مشى اوركب لا يتوكأ على الخدم كما تفعل اكابر بعض الأمم دلالاً وعظمة بل اعتمد في حركاته على نفسه . وانتزع من عقولهم اكثر الخرافات والاباطيل التي تولد في الانسان عادة ويكبرها الوهم في مخيلته مادام في مكانه لا يخرج منه ولايسيح في الأرض فينظر كيف كانت عاقبة المتقين .

فانقلاب الاخلاق والعادات والاطوار استلزم انقلاب اللهجة وتغيير التعبيرات ولذا كان العصر الجديد مفتقراً لاسلوب جديد في النظم والنثر وكان رجال العصر يترقبون حصول انقلاب في الأدب كما حصل في السياسة والعادات . فولد فيكتور هوكو وللعصر الجديد سنتان وصار رجل هذا الانقلاب الأدبي .

٢٠ - الطريقة الرومانية

اسلوب الطريقة الرومانية ابتدأ ظهوره في مؤلفات شكسبير امام الأدب وامير البلاغة . ثم نسج على منوال هذه الطريقة ادباء الالمان وراجت بضاعتهم فيها . ثم جاء فيكتور هوكو وكشف اساس الطريقة وأوضح مزاياها وصار امامها المشار اليه بالبنان .

(الادب عن الانكليز) فالانكليز كانوا في مقدمة الأمم الاوربية التي انتبهت من غفلة القرون الوسطى وبادرت الى اصلاح لسانها ووضع فنون الادب والعلم فيه . وقبل ظهور الادب الانكليزي كان الانكليز انفسهم يعتنون باشعار المداحين وشعراء الربابة من الفرنساويين . وكانت اللغة الفرنساوية لسانهم الرسمي على عهد ملكهم كليوم الفاتح (١٠٢٧ - ١٠٨٧) ومن خلفه عليهم من السلالة النورماندية . ولذا بقيت الكلمات الفرنساوية مستكثرة في اللغة الانكليزية شأن الكلمات العربية في التركية والفارسية . ثم اشتغل الانكليز بتهذيب لغتهم واصلاحها فأصبحت اليوم من اغنى اللغات الجديدة أدباً بعد اللسان الفرنساوي . ونبغ فيها وليم شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦م) وجمع في مؤلفاته ما تفرد به قورنيل وراسين من فن المبكيات وما

اختص به موليـر وبـومـارشـه (١) من فن المضحكـات وصـار اماماً في كثير من الفنون الأدبيـة كفن الـتراجيـديـا التـاريخيـة والـدرام والكـوميديا والاغاني المعبر عنها بالشعر الموسيقي (ليريك) . فكان في افانين الأدب كما قال الشاعر :

ولـيس على الـله بمسـتـنـكـر ان يجمـع الـعـالم في واحـد

والف شكسبير نحواً من ٣٥ رواية ترجمت لجميع اللغات الأوربية وترجمها للفرنساوية فرنسـوا بن فيكتـور هوكـووطبعت في ١٨ مجلداً ولم تزل روايـاتـه تمثـل على مراسـح الفـرنسـاويـين والطليـان وغـيرهما من الأمم . وتمثـل احياناً في الاستانة وازمير ومصر الاسكنـدريـة أيضـاً . واشهـر ما يمثـل منها (روميو وجوليت) وهما فتى وفتاة تحابًا حبًّا شديـداً وقـاسيـا تبـاريـح الجـوى بسبب العداوة التي بين أهل الفتى المحب وبين اهل محبـوبتـه . على مثـال ما يقـع بين قبائل العرب من العداوات التي تحول بين العاشق والمعشـوق . بل على مثـال ما يحدث في سوريـا وفلسطـين بين العـائـلات والبيـوت القديمة من العداوات الجاهلية المانعة لوصال المتحابين ليومنا هذا . ففي أواخر القرن التـاسـع عشـر للميلاد حدث في طرابلس حادثة هائلة تشابه ء ثق روميو وجوليت من وجوه عدة لاسيمافي اقتران المحبين سرًّا بمعرفة فقيه من المشايخ كما اقتر ن روميو بجوليت على يد الـراهب لورانس وافضى الأمـر الى هلاك المحبـين في الحـادثتين هلاكاً تذرف الـدمـوع لقص خبره وتنفطر القلوب لمشاهدة تمثيله . فالتهويل بالموت بالحادثة الممثلة يجعلهـا من فن المبكيـات . وتـزيـين المجلس بظرف الراهب أو لطف الفقيه ما يقرب الحادثة الممثلة لفن المضحكات الذي مثلناه فيما سبق برواية تارتوف لانهاأحسن نموذج لهذا الفن . ولكن الفـرق عظيـم بين تارتـوف وبين لورانس . لان تارتوف تمثال مجسم للريـاء والمكـر يخدع النـاس بحمـل السبحة بيده ويصيد قلوب المغفلين باظهار النسك وكثـرة العبـادة . وليس فيه شيء من الظرف والمجون ولا العلم والأدب المتصف بهما ابـوزيـد السـروجي بطل مقامات الحريري . بخلاف الراهب لورانس او الشيخ . . فانهما من ذوي النـامـوس والـوجـدان . ولم يدخـل كل منهما في الحادثة التي تخصه الا لاصـلاح ذات البـين . فيظهـر الـواحـد منهما على المرسح بهيئة الكمال والوقار وعيون المتفرجين ترمقه بالاستحسان والاعتبار . ومع ذلك فوجوده في الرواية يقربها لفن المضحكات .

---

(١) بومارشة (١٧٤٢ ـ ١٧٩٩) هو الأديب الفرنساوي صاحب رواية (حلاق اشبيلية) و(زواج فيغارو) وقد انتقد في الروايتين المذكورتين على اخلاق المعاصرين وفساد ادابهم وصور فيها ما يشبه مجون أبي نواس

ومن روايات شكسبير المشهورة أيضاً « هاملت » وهو اسم ولد لملك من ملوك الدانيمارك في قديم الزمان . وخلاصة الرواية ان ام هاملت اتفقت مع عمه وهو أخ الملك وكان شاباً حسن المنظر فسقى الملك سماً وتولى مكانه وتزوج ام هاملت فانتقم هاملت من عمه وقتله . وكان لهاملت معشوقة بديعة الحسن تلاهى عنها بتدبير الحيل في طلب الانتقام فماتت كمداً . وابلغ ما في الرواية حديث هاملت مع حفار القبور وهم يحفرون قبر معشوقته ويشربون من القرعة ويتنادمون . فالنكات الفلسفية التي يفوه بها حفار القبور يقرب الرواية لفن المضحكات مع انها من أبكى المبكيات . وقتل الملك على الوجه المتقدم له امثال في التاريخ . منها قتل ام خالد بن يزيد لمروان بن الحكم في الدولة الاموية . ولم تزل الممثلة الشهيرة ساره برنار تمثل على المراسح دور هاملت بطل هذه الرواية وتلبس لباس الرجال كما تمثل دور النسير وهو ابن نابليون الأول وحفيد امبراطور النمسا في رواية (ليكلون) التي نظمها شاعر العصر ادمون روستان . ومن روايات شكسبير ايضاً ما قبت وهو قائد لجيوش دونقان ملك ايقوسيا من بلاد الانكليز . قتل سيده وتغلب على ملكه وحكم من سنة ١٠٤٩ الى سنة ١٠٥٧ م فصور الشاعر قصته في تلك الرواية وخلاصة الكلام فيها : ان ماقبت اجتاز يوماً مع رفيق له بمفازة مقفرة فمر بثلاث عجائز ساحرات كانهن جنيات .

فقالت احداهنَّ : ـ السلام عليك يا ماقبت يا أمير غلاميس .

وقالت الثانية : ـ السلام عليك يا ماقبت يا امير قاودور .

وقالت الثالثة : ـ السلام عليك يا ماقبت يا من سيكون ملكاً على ايقوسيا .

فقال رفيقه بانقو : اعوز بالله منكن أي النسوة انتن ؟ امن الانس ام من الجان ؟ تفاءلتن بكل خير لرفيقي ولم تنبئنني بشيء .

فقالت كبراهن : ـ اما انت فنخبرك باحسن مما اخبرنا به رفيقك لان عاقبته مشئومة ويموت بلا ولد يخلفه في الملك . وأما نسلك فسيملك على ايقوسيا ويمتد الملك فيهم . قلن ذلك واختفين كلمح البصر . وكان الأمر كما تنبأن به .

ففي يوم من الأيام نزل الملك دونقان مع بعض خواصه عند ما قبت فبالغ لهم في الضيافة والاكرام وفرش للملك في المخدع ولقرنائه في الغرفة المجاورة وكانت زوجة ماقبت حريصة على تحقيق ما أخبرت به الساحرات فحرضت زوجها على قتل ضيفه وسيده . فدخل في ظلام الليل الحالك واخذ خنجراً لاحد القرناء وهم غارقون في

النوم وغطسه في صدر الملك . فلما قتله اخذته الرهبة واستولى عليه الخوف والدهشة من هذا الجرم وغاب عن رشده . فتداركت زوجته الأمر ودخلت المخدع وغرفت بيدها من دم المقتول ولطخت وجوه قرنائه وايديهم لاتهامهم بايقاع الجرم فتمت الحيلة وجلس ما قبت وزوجته على سرير الملك ولكن لم يهدأ روع ليدي ماقبت ولا استراح ضميرها . فصور الشاعر ندامتها في الفصل الاخير من روايته بابدع اسلوب وأبلغ تعبير . وأخرجها على المرسح حاملة مشعلاً وهي لا ترى في عينيها الا الظلام وتفرك بيدها كانها لم تنق من لطخ الدماء ولا ذهبت الرائحة منها مع ما تطيبت به من طيب جزيرة العرب وعطرها المشهور وتحسب زوجها معها فتقول له : اغسل يديك والبس ثوب النوم وقلل من اصفرار لونك الخ . . . ومن روايات شكسبير أيضاً (اوتيلو) بين فيها غيرة الزوج وشدته على زوجته وترجمها نظماً للفرنساوية الفرد دوفينية وله غير ذلك من الروايات .

وأجاد شكسبير في تصوير أخلاق الرجال وتوصيفهم وبيان المزايا الخاصة بكل فرد من أفرادهم . فسلك في الأدب طريقة مستحدثة حاد فيها عن لهجة القدماء المؤسسة على اساليب اليونان والرومان ونبذ وراء ظهره قواعد الطريقة المدرسية ولم يلتفت في الرواية إلى وحدة الزمان والمكان ولا تصنع في الانشاء ولا تقصد فيه ايراد البديع من الكلام ولا تهافت على التشابيه والاستعارات . بل اخذ ما يلهمه اياه الوجدان ويمليه عليه الضمير ويصور الاحساسات الباطنية والآداب الاجتماعية بلهجة مألوفة للعموم آخذة بمجامع القلوب يتقلب فيها من طور الحلم والجود والكرم إلى طور الغضب والبطش والاستبداد وبين عوامل الحب والبغض واليأس والقنوط والحسد والطمع وحب الانتقام والتكبر والتجبر والتفاخر والتكاثر إلى غير ذلك مما هو مغروس في طينة الانسان من الاخلاق والطبائع ويظهر تأثيرها على النفس بعبارات سلسة جلية ليس فيها تصنع ولا تعمل .

ثم نبغ في الانكليز الشاعر ميلتون ١٦٠٨ - ١٦٧٤ م وكان كاتباً لقروميل الشهير فلما مات وانقرضت دولته غدر الزمان بالشاعر وعمي بصره وذهب ماله فاملى على زوجته وبنتيه كتاب « الجنة الضايعة » وهو في الحماسة المسيحية نظمه سنة ١٦٥٨ بشعر لا قافية له ورتبه على اثني عشر غناء فجاء من أحسن ابنية الشعر الانكليزي ومن ابدع ما الفه شعراء الامم الاوربية بعد كتاب (المضحكة الالهية) المشابه لرسالة الغفران .

فتحسنت اللغـة الانكليـزيـة واتسعت دائـرة الأدب والتخيـلات الشعرية فيها ومـال ادبـاؤ هـا لقـراءة الاشعـار القـوميـة الـدارجـة التي نظمهـا في القرون الوسطى التر وبادور والزوفير وهم من شعراء الربابة المعاصرين لعرب الاندلس وأوجدوا للشعر شكـلاً جديـداً واسلوبـاً مبتكـراً . ونبـغ فيهم مثل شلي (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢م) وزوجته واللورد بايـرون وكـان ذا نفس عال وتخيـل واسـع فنظم القصـائد المعروفة بالشرقيات وتشيع فيها لليونان تشيع العجم للسادات وتفانى في حبهم ولم يزل غرام العشق يلعب برأسه اثناء حرب المورة الى ان حطه العشق والهيام من أعلى قصور لوندرا إلى اسفل أكواخ ميسولونكي وهي قرية على ساحل خليج قورنت الفاصل بين شبه جزيرة المورة وبقيـة بلاد اليـونـان . وبسبب وخـامـة تلك القرية وعدم نظافتها كان هواءها فاسداً فاصـابت الحمى الشـاعـر الانكليـزي وعجلت بروحـه الى الآخرة ونقلت جثته الى انكلترا واقيم له في ميسولونكي تمثال يشاهده السائح في تلك البقاع . فاللورد بايرون هومؤسس الطريقة الرومانية باللغة الانكليزية وله في الشعر الدراماتيقي رواية ما تفرد نظمهـا في ايطـاليا على نسق رواية فوست وذكر فيها السحر والأرواح وخوارق الطبيعة ولـه أيضـاً روايـة دون جيـان نظمها على اسلوب مبتكر . وكلتا الروايتين تمثلان الآن على المراسح الباريزية .

ومن مشاهير ادباء الانكليز والترسقوت (١٧٧١ ـ ١٨٣٢م) كتب بالانكليزية اكثر من سبعين قصة تاريخية بين سنة ١٨١٤ و١٨٣٢ كلها في غاية التدقيق عول عليها المؤرخون ومنهم ميشله المؤرخ الشهير . لان صاحب القصص له في الوقائع التاريخية نظـر دقيق وشـروح وافيـة قلما يتيسر للمؤرخ الاحـاطـة بها . ونسـج على منـوال والـترسقـوت في القصص التاريخية وليم غودوين . ثم ظهـر في عالم التحرير المؤلف والسياسي [illegible] الاسرائيلي [illegible] اشتهـر في التـاريخ باسم اللورد بيغونسفيلد ونبغ في فنون الأدب والسياسة وساح سنة ١٨٢٩ في ايطاليا واليونان وبلاد الارناؤوط وبر الاناضول وسوريا ومصر والحبشة [illegible] كتب سياحته على طرز قصصي وبين فيها آراءه السياسية وعرب المقتطف [illegible] قصة سياحته في سورية وفلسطين وله قصة اخرى عنوانها « اسكندر باك [illegible] » وصار هذا الاسرائيلي [illegible] لوزارة المحافظين وكان مخالفاً في السياسة [illegible] رئيس [illegible] امام [illegible] وعارض في [illegible]

ايـاستـافـانـوس سنـة ١٨٧٧ ولكنـه طمع في الاجرة على هذه الخدمة وربح اكثر من اللازم في تجارته وتوفي سنة ١٨٨١ .

فيفهم مما تقـدم أن اول واضـع لاسـاليب الطـريقـة الرومانية وليم شكسبير . ولكن أول ناسج على منوال هذه الطريقة ومظهر لمزاياها هم شعراء الالمان . وجميعهم من انكليز والمان وفرنساويين اقتبسوا افانين الأدب من الاسبانيين والطليان المخالطين للعرب في القرون الوسطى .

٢١ ـ الطريقة الرومانية عند الالمان والفرنساويين

امـا الالمـان فأقـدم تأليف أدبي لهم أغـاني هيلد براند نظمت في القرن التاسع للميلاد بلسان الالمان كما نظمت أغاني رولان بلسان رومان . وفي القرن الثالث عشر جمع ديـوان نيبلوتجن كما جمعت قصـة عنـتر وذكـر فيـه الحـروب التي حدثت بين قبائل نيبلوجن وبين اتيلا الذي هجم عليهم من الشرق وابادهم . فهذا الديوان هو الحماسة الالمانية . ثم حدث الانقلاب الديني وظفر لوتر مؤسس احكام الديانة البروتستانتية وتـرجم للالمـانيـة الكتب المقـدسة فاتسعت بذلك اللغة وتهذبت نوعاً ما وظهر نفر من الكتاب والشعراء والعلماء ومع ذلك استمر الالمان للقرن الثامن عشر للميلاد محرومين من فنـون الأدب المعتـبرة عنـد الادبـاء . وكان الأمراء والاعيان في المانيا مكبين على تحصيـل الادب الفـرنسـاوي وعلى حفـظ الاشعـار الفـرنساوية والتمثيل بها والتكلم بالفـرنسـاويـة في نوادي سمـرهم ومجتمعـاتهم وضيافاتهم تشبهاً بملوك بروسيا وبها في القصـر الملوكي ببرلـين اذ النـاس على دين ملوكهم . وكـان لفـريدريك الثاني ملك بروسيـا اعجـاب شديـد بالشـاعر الحكيم فولتر الفرنساوي فقربه اليه وأحله في قصره محلاً رفيعاً . والحاصل كانت بضاعة الأدب الفرنساوي رائجة عند الالمانيين كرواجها عنـد الـروس . وكـرواجهـا أيضا بعد حرب القرم في الاستانة العلية ومصر القاهرة . حضـرت يومـا في مدرسـة العلوم السـياسيـة بباريس امتحان طالب تركي استامبولي اجاب جوابا مقبولا عن اكثر الاسئلة التي القيت عليه بما يتعلق بأحوال فرنسا وشؤونها الداخلية اللازم معرفتها لأبنائها . فلما انتبه له المعلم وسأله عن البوسنة والهرسك وعن احوال مسلميها وجدته لا يعرف شيئاً عنها ولا يدري ان كان فيهما مسلمون أم لا .

ورأيت في باريس تلميذاً مصرياً يحسن التكلم والكتابة بالفرنساوية ويتكلم العربية ولا يكتبها وله والدة تركية تحرر له المكاتيب باللغة العثمانية ولم يكن هو يعرف اللغة العثمانية لا تكلماً ولا كتابة سوى بعض عبارات متعارفة ربما كانت والدته تعرف قدر ذلك من العربية فيتيسر لهما التفاهم والتكالم باللغة العربية التركية واما المخابرة التحريرة فلم يتمكنا منها الا بواسطة الترجمان والكاتب مع ان كليهما ليسا باميين بل هما على جانب من العلم والأدب فالانهماك باللغة الاجنبية أدى إلى أن الولد أصبح لا يعرف لغة أمه كما تجب معرفتها ادبياً وطبيعياً . لان لغة الأم هي اللغة الطبيعية التي يسميها الفرنساويون (لانغ ماترنيل) ويسميها الاتراك (لسان مادر زاده) ومادر هي الأم بالفارسية .

وهكذا كانت الحال في المانيا بسبب تهافتهم على أدب اللغة الفرنساوية ففي الثلث الأخير من القرن الثامن عشر أي ما بين سني ١٧٧٠ ـ ١٧٨٠ م جاء ادباء الالمان بطرز جديد من الأدب كان له رواج على مرسح اللعب وأقبل الناس عليه اقبالاً عظيماً . مع ان الطرز الجديد الذي جاؤ وا به كان عارياً عن تلك الصور والاساليب البديعة التي في مؤلفات اهل الطريقة المدرسية وخالياً عن ذاك التصنع أو التعمل الذي كانوا يتكلفون له ومجرداً عن تلك المحاسن التي كانوا يؤ لفونها تأليفاً . وانما كان كلام الادباء الالمانيين في هذا الطرز الجديد صادراً عن تأثر وتهيج وانفعال في النفس . وعن احساس في القلب . فنفخ هذا الانفعال والاحساس الروح في كلامهم وصيره كلاماً حيًّا تألفه ارواح المستمعين وتحنُّ إليه . ولم يقصد ادباء الالمان في ما الفوه الامتياز بالفضل والعلم بين الخواص وانما كانت غايتهم افهام كلامهم لعوام الناس ولجميع الاصناف من أولاد البلد الذين يقال لهم (بورجوا) . فمن أجل هذا عدلوا عن الأخذ بعالي الطبقة من الانشاء المصنع واستعملوا اللهجة المألوفة بين قومهم وابناء بلدهم وجعلوا اهتمامهم في نفخ روح الحياة في كلامهم وأدخلوا فيه كل ما يحدث انفعالاً في النفس وتهيجاً في العواطف بغير تهافت على البديع من الالفاظ ولا على رعاية القواعد وصوروا في كلامهم الغرائب والعجائب التي تتشوق الاسماع لاستطلاع حقائقها ولا تطمئن القلوب الا بعد الوصول لنهايتها فان الاذن تعشق بطبعها الاخبار ولذا نرى عوامنا في كل قطر وبلد يدورون وراء القصاص (الحكواتي) من قهوة إلى اخرى ويتلذذون بسماع ما يتلوه عليهم من اخبار عنترة بن شداد والزير

ابي ليلى المهلهل والزناتي خليفة وعلي الزئبق عايق زمانه وقصة الملك سيف والملك زاد بخت بن شهرمان وجميع ما ورد في ألف ليلة وليلة من الحكايات . وإذا بات بطل الرواية في ضيق وكرب لا يهدأ بالهم ولا تنام أعينهم الا بعد تمام الخبر وفهم ما جرى له .

وكان أدباء الالمان اذا الفوا رواية فاجعة اخذوا موضوعها مما يرونه في قومهم ويشاهدونه في بلادهم وإذا بحثوا عن الوقائع التاريخية اختاروا مباحثهم من تواريخ القرون الوسطى لاسيما من القصص والحكايات الدارجة على السنة الأمم الالمانية والجرمانية ترجيحاً لها على تواريخ القرون الأولى وعلى قصص اليونان والرومان . كما فعل كوته (١٧٤٩ - ١٨٣٣م) شيخ ادباء الالمان فإنه اختار فوست بطلاً لروايته الشهيرة بهذا الاسم . وتداول اسم فوست على السنة العامة في المانيا وفي انكلترا قبل تأليف هذه الرواية الالمانية واشتهرت سيرته بين الناس بانه من السحرة الذين باعوا الدنيا بالآخرة واشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ولا كانوا مؤمنين وأختاروا بطلا لورواية اخرى (اكمون) وهو أمير في البحر هولاندي الاصل اشتهر في تاريخ الالمان بخدمته لشارلكين وانتصاره على الفرنساويين وعلى ملكهم فرانسوا الأول المستنجد بالسلطان سليمان القانوني . ومن بديع ما ألفه ايضاً الشاعر كوته قصة وارتر ثم ديوان الشرقيات (ديفان اورينتال) وهو مجموع أشعار نظمها على اسلوب غريب قلد فيها ديوان الحافظ الشيرازي احد مشاهير شعراء العجم المتوفى سنة ٧٩٤ هـ أو ا ٧٩ هجرية وكان الحافظ ممن اجتمع بتيمورلنك حينما ضبط شيراز وجرى بينهما لطائف مشهورة . وقد ترجم ديوان الحافظ للغات الاوربية كما ترجمت مؤلفات الاكابر من شعراء الفرس مثل الفردوسي صاحب الشهنامة المتقدم ذكرها ومثل الشيخ مصلح الدين سعدي صاحب الكلستان والبستان وترجمه إلى الفرنساوية الموسيو باربيه دومينار مدير مدرسة الالسنة الشرقية بباريس . والكلستان مترجم إلى العربية التركية ويدرس في عموم المكاتب العثمانية . وكان الصليبيون قد اسروا مؤلفه وحبسوه في طرابلس الشام وشغلوه في بناء الابراج المحيطة بها من جهة البحر . فرق له احد الاغنياء من اعيان حلب وأفتداه بمال وخلصه من الاسروكانت وفاته سنة ٦٩١هـ . فافرنج زماننا يحترمون سعدي قدر ما احتقره اسلافهم وذكره فيكتور هوكو في مؤلفاته ونقل عنه . ومن مشاهير ادباء الالمان شيلر (١٧٥٩ - ١٨٠٥م) وكان معاصراً لكوته

ورفيقاً له فاتخذ وليم تل بطلاً لروايته المشهورة بهذا الاسم . وكان وليم تل المذكور رئيساً للعصبة التي خرجت في بلاد السويس على حكامها النمساويين وحررت البلاد من قيد اسارتهم سنة ١٣٠٧م . والمذكور من خبره في التاريخ ان الدوق أي والي بلاد السويس المعين من قبل امبراطور الالمان نصب ذات يوم عموداً في ساحة المدينة ورسم في رأسه تاج الدوقية وأمر الناس بالخضوع امامه . فرفض وليم تل الانقياد لهذا الأمر الذي فيه التحقير والاذلال لنوع الانسان مع ما اختصه الله به من الكرامة وورد في القرآن الشريف «ولقد كرّمنا بني آدم»(١) . وكان وليم تل من أشد الابطال بأساً وامهرهم رمياً بالنبل فغضب عليه الوالي وأحضره بين يديه وحكم عليه بوضع تفاحة على رأس ولده وفلذة كبده ورميها بالقوس والنشاب . ففعل ذلك وقلبه يتميز من الغيظ وأصاب الهدف بعد ان كان الخطاء اقرب اليه من الصواب . فصور الشاعر هذه القصة التاريخية وبين فيها عوامل الاسبداد وعدم صبر النفس الابية على الظلم والجور والاستعباد وكان شيلر يلقب بشاعر النساء والشبان لتأثير اقواله فيهم اكثر من تأثيرها في المتأدبين من الرجال المائلين الى التعمل والتصنع في الكلام والى الانشاء العالي الطبقة . لان كلامه كان سهلاً بسيطاً خالياً مما في الطريقة المدرسية من أصول الصك والسبك ومن انواع البديع والاستعارات وفيه كثير من الالفاظ العامية والتراكيب المتداولة ولكنه كان على السامع أشد تأثيراً وأخذ بمجامع القلوب .

فبعد ان كان الالمان في الأدب عيالاً على الفرنساويين وليس عندهم من المؤلفات الأدبية الا ما هو ترجمة أو تقليد لما حرر بالفرنساوية على نهج الطريقة المدرسية صاروا أئمة في الأدب يقتدى بهم وينسج على منوالهم . واشتهرت الطريقة التي سلكها كوته وشيلر وليستغ ومن اقتفى اثرهم بالطريقة الرومانية نسبة للغة رومان وهي اللاتينية الدارجة التي جاء بها جنود الرومانيين وموظفوهم إلى بلاد الغولوا والسلت أي لفرنسا فتحرفت فيها وامتزجت بلسان الفرانك وانقلبت الى اللغة الفرنساوية الحالية . فكلمة رومان كانت تطلق في القرون الوسطى على ما دوّن بلسان رومان من فني المنظوم والمنثور . وذلك مثل يمين ستراسبورغ وهو اقدم الابنية في لسان رومان

(١) ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا اية : (٧٠) سورة (١٧) .

ومثل رومان رولا[illegible] ...يضاً اغاني رولان ورومان المائدة المستديرة ورومان الثعلب ورومان السيد وغير غير ذلك . فكانت المحررات الرومانية أي المدونة بلغة رومان تعتبر من التآليف الجاهلية بالنسبة للمحررات اللاتينية وهي ما حرر باللغة اللاتينية من التواريخ المقدسة وسير الصالحين والقديسين والصلوات الدينية . فاللسان اللاتيني كان إذ ذاك لسان المدارس والكنائس والمعول عليه في العلم والدين . وكان في سبكه تصنيع وتعمل ومراعاة لقواعد الغراماطيق والعروض وبقية علوم الآلات المدرسية . ويبلغون علوم الآلات في العربية إلى اثني عشر علماً كما لا يخفى . فلغة رومان لم يكن فيها شيء من ذلك بل كانت على فطرتها الطبيعية وليس في سبك عباراتها ادنى تصنع ولا تهذيب . فما اختار أدباء الالمان مواضيع رواياتهم من رومان القرون الوسطى ورجحوه على مؤلفات اللاتين واليونان سميت طريقة ادبهم بالطريقة الرومانية . واطلقت كلمة (رومانتيك) الفرنساوية على الأدب المستحدث تسمية له باسم اجنبي كما اطلقت كلمة (فرانك) الجرمانبة على قبائل الغولوا والسلت وقيل لهم فرنساويون .

فطريقة رومانتيك المنسوبة لفيكتور هوكو تولدت في المانيا واشتهرت برقابتها للطريقة المدرسية وبميلها لاظهار قريحة القرون الوسطى وتصوير اخلاق اهلها وعوائدهم وحماسة فرسانها وصلابتهم في الدين وتعصبهم للمذهب وتهورهم في المسائل ومبالغتهم في الاخبار وتصديقهم بالخرافات والخزعبلات . واراد أهل الطريقة الرومانية الفوز على اهل الطريقة المدرسية - لا بانتقاء الالفاظ وسبك العبارات وانسجام المعاني ومراعاة القواعد - بل بالاتيان بكل ما يحدث انفعالاً في النفس ويفتح مجالاً للتصور والخيال . ولذا عمدوا إلى القصص الدارجة على الالسن والمنقولة عن الاسلاف والجدود ووضعوها في قالب شعري وألفوا بها رواياتهم واهملوا أساطير القرون الاولى من الاسرائيليات والخرافات اليونانية والرومانية . وجاء الفيلسوف الالماني هكل وفسر تفسيراً فلسفيًّا حقيقة الطريقة الرومانية وهو يبحث في الصور المختلفة التي تغلب فيها العقل البشري فوجد فيها ثلاث طرق في صناعة الأدب منذ نشأته الأولى إلى زمانه وهي :

(١) الطريقة الرمزية (سيمبوليك)

(٢) الطريقة المدرسية

(٣) الطريقة الرومانية . كما سنذكره .

ويظهر الفرق بين الطريقة المدرسية والطريقة الروماني لكل مدقق حضر تمثيل رواية مؤلفة على نهج الطريقة المدرسية مثل مؤلفات راسين ومنها رواية (اندروماق) اليونانية و(استير) و(اتالي) الاسرائيليتين ومثل مؤلفات قورنيل ومنها (هوراس) وهي رواية الأخوة الثلاثة الرومانيين ثم حضر في مراسح الاستانة وازمير او مراسح مصر واوربا تمثيل رواية فوست مثلاً . فأول ما يشاهد عند رفع الستار شيخ عليه الهيبة والوقار جالس على كرسي في غرفة المطالعة وأمامه مائدة تراكمت فوقها الكتب والدفاتر والاقلام والمحابر وهو يفكر في ما يكون اليه المرجع والمآب ويقلب على نور السراج اوراق الكتاب الذي خط فيه جابر ومسلمة علوم السحر والكيمياء ويتهلف على أيام الشباب وزمن التصابي ويقول :

إذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فالخسر للعلماء

وبعد ان يستولي اليأس على هذا الشيخ الفاني ينفخ في رأسه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ويحرضه على دعوة الشيطان اليه وتلاوة العزائم عليه فبأسرار التلاوات وخواص الطلسمات يظهر صاحب الاسم والعزيمة المتوسل بها وهو خادم من الجنة ويعلمه ماانزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر . وهكذا يقول الخادم للشيخ فيبيع الاخرة بالدنيا ويشتري الضلالة بالهدى ويعلم منه ما يعيد الشباب والغناء ولعل ذلك بواسطة الاكسير الذي من خواصه اعادة الشباب وقلب المعادن إلى الذهب على زعم المتقدمين فينهمك الشيخ فوست في اللذات ويغرق في الهناء والمسرات ويعشق بنتاً يقال لها مارغريت فيراودها عن نفسها ويفرق بسحره بينها وبين أمها ويستويها بالجواهر واللآلىء ويطغيها الشيطان . . فتستحق لعنة الله والملائكة والناس اجمعين . فيغتاظ اخو مارغريت من عهر اخته ويقف لعاشقها بالمرصاد ويبارزه بالسيف فيقتل بوخزة خفية من ذاك الخادم الجني المرافق لفوست . فتستحيي مارغريت من هذه الفضائح ويذهب الرشد منها فتقتل الولد الذي حملت به من فوست ويأخذها حاكم البلد بما جنت يداها ويلقيه في السجن فيأتي عاشقها لتهريبها وهذه أشد ساعة على مارغريت حيث يتنازع قلبها عوامل الحب من جهة وعوامل الندامة من اخرى فلا تجد لها ملجأ غير رحمة الله التي وسعت كل شيء فتحول وجهها عن عاشقها وتتوب إلى الله توبة

خالصة . وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسهِ الرَّحمة أنهُ من عملَ مِنكمْ سُوءاً بجهالة ثمَّ تابَ مِنْ بعدهِ وأصلح فإنهُ غفورٌ رحيم (١) . فيغفر الله لها ما تقدم من الذنب وما تأخر ويقبضها اليه فتخر ميتة وتذهب نفسها الناطقة الخالدة الى عالم الأرواح على شكل الحمامة التي وصفها ابن سينا بقوله :

هبطت اليه من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وتنشق في آخر الليل سماء المرسح وتظهر مارغريت بابهى الحلي والحلل في اعلى عليين بجانب اخواتها تحف بهنّ الملائكة المربون . وفوست ينظر اليها والعبرات تسيل من عينيه . واختلفوا في فوست فقالت طائفة انه من الهالكين ومقره في الدرك الأسفل من النار . وقالت طائفة اخرى لا بل استشهد في الحب وتاب إلى الله فتاب الله عليه والله خير التوابين . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ان الله كان تواباً رحيماً . انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً (٢) .

ويرى المتفرج على هذه الرواية أفعال السحر والسحارات المكارات اللواتي يطبخن المواد السحرية في القدر ويصببنها بين المفارق ليسحرن المارين في الطرق ويرى ايضاً اعمال الشيطان الرجيم وغوايته لمن يتبعه من الانس وقدرته على خرق العوائد واظهار العجائب وحكمه في هذه الدنيا الدنية الفاسدة وكيفية استعاذة النصارى منه بالصليب . ولذا جعل أهل القرون الوسطى قبضات سيوفهم على شكل الصليب ليتعوذوا بها من شر الشيطان الرجيم . وبهذا يكون السيف قاطعاً بقبضته في الروحيات وبحده في الماديات .

ولما ذهب نابليون الاول بعساكره إلى بروسيا اجتمع في برلين بالشاعر كوته مؤلف رواية فوست المذكورة وحادثه طويلاً وعجب به وأحسن عليه بنيشان الافتخار فاتجهت نحو مؤلفاته افكار الادباء من الفرنساويين كما اتجهت قبلاً افكار ادباء الالمان نحو مؤلفات فولتير حينما كان في سراي برلين من المقربين وكانت اساليب الطريقة الرومانية دخلت فرانسا على عهد نابوليون الأول بواسطة شاتو بريان ومدام دوستايل .

(١) سورة الانعام آية ٥٤

(٢) سورة النساء آية ١٦ .

أمـا الأول فهـو الإمـام الـذي اقتدى به في الأدب فيكتور هوكو وقال : « أما ان اكـون شاتـوبريـان اولاشيء » . واسمـه فرانسـوا رينه فيقـونت وشـاتـوبريـان نسبـة لشـاتـوبـريـان أي لقصـر بريـان المشيـد على نهر لورا بالقـرب من نانت . وحيث كان من اشـراف العائلات ذهب أيام الانقلاب الكبير إلى اميركا وساح بين اهلها المتوحشين وعاد منها لانكلترا ثم لفـرانسـا ونشـر قصـة (اتـلا) وذكر فيها ما شاهده في سياحته من عجائب الأمم المتـوحشـة . ثم نشر قصة (رينه) وقص فيها اخبار نفسه وبين افكاره وانفعالاته بسبب ما كشف له من الحقـائق المـزعجـة . وامتـاز بين الكتـاب برونق الانشاء وكثرة التصـورات والاحسـاسـات وبشدة الهيام وفصاحة الكلام فراجت بضاعته في الأدب ونشـر حينئـذ (حكمـة الديانة المسيحية) وأقبل على تدقيق هذا الدين وخرج لمشاهدة الاماكن التي ظهر فيها والبلاد التي انتشر بين اهاليها فساح في اقطار فلسطين وسوريا ومصـر وبـر الانـاضـول ونشر سنة ١٨٠٩ كتاب الشهداء وبين فيه كيفية ظهور الدين المسيحي على الدين الوثني ونشر سنة ١٨١١ (دليل السياحة من باريس إلى القدس) وعرف الفرنساويون بشؤون القرون الوسطى بعد ان كان ادباؤ هم مشغوفين بتعريف القرون الاولى وبتقليد ادباء اليونان والرومان . وكانت جريدة الديبا المشهورة بحسن الانشـاء وجـودة التحـرير حديثة الظهور فاقبل على التحرير فيها وبرع في قوة التصوير والوصف والتلوين وكـان لكلامه تأثير على النفوس فصار لمؤلفاته دخل كبير في ظهور اساليب الطريقة الرومانية . ودخل شاتوبريان الوزارة الخارجية وتعين سفيراً ثم ناظراً للخارجية .

أما المادام دوستايل فهي بنت الوزير نيكر الشهير . اشتغلت بالعلوم والمعارف كما هي عادة سيـدات النسـاء في ذاك العصـر ونبغت في فنـون الادب واصبحت عالمة فاضلة يشـار اليهـا بالبنـان . فحررت سنة ١٨١٠ م كتاباً مفيداً عن المانيا وكتبت عن الادب باعتبـار ما له من العـلائق بتشكيـل الهيئة الاجتماعية . فدرست درساً فلسفيًّا ادب اليـونـان واللاتين . وبينت مدخل الدين المسيحي في تقريب عقول أهل الشمال من عقول أهل الجنوب . وذكرت الخواص المميزة لكل من الأدب الطلياني والاسباني والانكليـزي والالماني . ومـا لكـل منهـا من العـلائق بالفكـر السيـاسي والأدبي . وشـرحت تأثير الـدين والاخلاق والشـرائـع على فنـون الأدب . واستنتجت من تدقيقـاتهـا العميقـة ان الفكـر البشـري تابـع لنـامـوس الارتقاء مع المعاني الاخلاقية

والفلسفية والعلمية والسياسية . . الخ ولكنه لم يتبع ناموس هذا الارتقاء في التخيلات الشعرية ولا في التصورات الخيالية . فعندها ان الشاعر هومير وس مثلاً لا يذهب رونق كلامه وطلاوته ولا في عصر من العصور ولا يسمح به الدهر مرة أخرى .

ثم ظهر لا مارتين الشاعر السياسي الشهير ونظم ديوان التفكرات الشعرية فكان أول بناء من أبنية الشعر الجديد الموسيقي (لير يك) وخالف فيه اساليب من
تقدمه كما خالف المتنبي اساليب الشعراء الجاهليين . واشتمل ديوان لا مارتين على ٩
تمجيد الله الذي شرف عن التمجيد وعلى استغراقات في الحب وتجليات لطيفة ووصف مظاهر الكون وعالم الطبيعة وصفاً بديعاً . ومن أحسن ما نظمة قصيدة (البحيرة) التي ترجمها نظماً للسان العثماني سعد الله باشا سفير الدولة العلية في فيانا وباريس سابقا . وفهمت بان احمد بك شوقي شاعر الحضرة الخديوية ترجم القصيدة المذكورة للعربية . وساح لا مارتين في الشرق وأحسن عليه ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان بمزرعة (جفلك) في ولاية أزمير فمكث فيها وفي ربى لبنان وحرر سياحته الشرقية وتاريخ الدولة العثمانية في ثمانية مجلدات ونظم ديوان الالحان الشعرية والدينية وغيرها .

٢٢ ـ ظهور فيكتور هوكو

فجميع من ذكرناهم من الشعراء الفرنساويين وغير الفرنساويين تقدموا على فيكتور هوكو او عاصروه ومهدوا له طريق الأدب الجديد . وكانت النفوس في ابتداء القرن التاسع عشر تائقة لرؤية أسلوب مستحدث في النظم والنثر ولحصول انقلاب في الأدب كما حصل انقلاب في السياسة . لأن النشأة الجديدة من الخواص كانوا نافرين من قيود الطريقة المدرسية . وجمهور العوام كانوا متألمين من استبداد اصحاب الانقلاب الكبير باسم الحرية . فان رؤساء هذا الانقلاب لم يكتفوا بتغيير شكل الحكومة بل هدموا اساس الدين وسببوا حدوث الفوضوية في الأمة . أي انهم افرطوا في جانب الدين والسياسة كما افرط قبلهم ذوو التيجان من الملوك المستبدين . فكان الجمهور يترقب ظهور إمام في الأدب يعيد لهم الرجاء والامل بالله . والشعراء يترقبون ظهور هذا الامام ليخلص فن الأدب من القيود الذي قيده بها بوالو في كتابه

المسمى (آربوئتيك) أي صناعة الشعر . فكانوا يتمنون كسر هذه القيود واعطاء الحرية التـامـة للفكر كما كسرت سلاسل الاستبداد وهدم بيت المظالم الا وهو حبس الباستيل الشهير واطلق سراح المحبوسين فيه ظلماً وعدواناً .

فظهـر فيكتـور هوكـو وبرع في اللغة الفرنساوية وفي طرق الافادة بها فضلاً عن معرفته بالمفردات والتراكيب اللغوية . وصار له خبرة بها للكلمات من القيمة الموسيقية أي بالنغمـة التي تحدثهـا كل كلمـة والتأثـير الـذي يحصـل من جمع نغـمات الكلمات والحانها . لان الكلمة عند خروجها من الفم لها نغمة مخصوصة ولحن بحسب مخارج الحروف . وتختلف المخارج باختلاف الالسنة ولذا ورد في الحديث الشريف « اقرؤا القرآن بلحون العرب » .

وقد عبر أئمة البلاغة من العرب عن هذه القيمة الموسيقية « بأجراس الكلم » ولا يخفى ما في هذا التعبير من الحلاوة لان الصوت يرن بالالفاظ رنة الجرس . وصار لفيكتور هوكو أيضاً مهارة بعلم القوافي . فقوافيه عامرة مختلفة ليس فيها ما هو مكرر أو مبتذل بل جميعها ترد على غير ما ينتظره السامع . والخلاصة كان يعرف أي كلمة يلزم وضعها في أي بيت وأي بيت يقتضي انتقاؤه لأي موضوع . وساعده الحظ في السفر إلى ريـاض الأنـدلس التي تتغـذى القـرائـح بنفحـات أزهـارهـا وتقر العيون بحسن منـاظـرهـا . فصـار ذهنـه كأنـه آلة بديعـة تفي بوظيفـة السينـماتـوغـراف والفـوتـوغـراف معـاً. فيصور ما يمر به من مشاهد الكون ويطبع ما يسمعه من حوادث الدهر ويعرضه على القراء والمستمعين بدون ان يضيع منه خبراً أو يغفل منظراً . فصور في أشعاره الخمائل وهي الشجـر المجتمـع الكثيف وكيفيـة تلاعب النسيم باوراقهـا والاغصان الملتفة وما ترسمه على بساط المرج الأخضر من الظل الظليل والجبال الراسية وما ينحدر عنها من الماء السلسبيل والانهار الجارية وما ينعكس على مرآة سطحها من ضياء القمر وشعاع الشمس . ووصف صفير البـلابـل وهـديـل الحـمام وبغام الظباء وسجع اليمام وذكر غدوها ورواحها ما بين الرياض المزهرة والاشجار المثمرة والجداول المنحدرة وصور غير ذلـك أيضـاً تصـويـراً حقيقيًا باوضح بيان وافصح تعبير حتى يخال لمن يقرأ اشعاره انه ينظـر إلى لوح من الالـواح المصورة بقلم الرسام وفرشاته . ويسمع خرير الماء وصوت مزمـار الـراعي وهـو يتنـاقص كلما ابتعـد مع محبوبته في جوف الغابة . وجعل الالفاظ تلبس المعـاني كما يلبس الثـوب على الجسم فجـاءت الفاظه طبقاً على معانيه . وكان

بمجـرد نظـره في المـواد تتفجـر المعـاني من قريحته فيزنها بميزان الحس ويصوغ لها على قدرهـا قوالب من الالفـاظ والتراكيب كأحسن صائغ للحلى وأمهر سباك للمعادن .

فكانت طريقته في بادىء الأمر عبارة عن وصف الطبيعة ومناظرها البديعة . ثم هجم على قواعـد المتقـدمـين وأساليبهم هجمة الامة المستيقظة من غفلتها وكسر القيود التي قيـد بها بوالـوعقـول الشعراء ونبذ قواعد الطريقة المدرسية وراء ظهره واصلح عروض الشعر الفرنساوي وغير تركيبه بمقاطيع مختلفة وجوز تكميل معنى البيت بالبيت الذي بعـده فوضـع الجملة الـواحدة في بيتين مما لم يجوزه المتقدمون وجعل نظم الشعر موافقاً لاحتيـاجـات الفكـر . وفتـح لاخـوانـه من ذوي النشأة الجديدة طريقة مستحدثة في الأدب كانوا هائبين اقتحامها والولوج فيها .

فاوجد فيكتور هوكو بذلك الطريقة الرومانية وحاد فيها عن استعارات الطريقة المـدرسيـة وتشبيهـاتهـا القديمة . ولم يتخذ كلام المتقدمين منوالاً لينسج عليه كما فعل انـدره شينيـه خاتمـة اهـل الطـريقـة المدرسية . بل اتخذ الذوق الطبيعي والاحساس الباطني دليلاً له في النظم والنثر كما فعل المتنبي والمعري وأهل طريقتهما الخارجين عن أساليب العرب المتقدمين . فكلما شعر فيكتور هوكو بشيء صوره بقلمه كما يحس به في قلبـه بدون تهافت منـه على ترضيـع الكـلام بجـواهـر البـديع وتدبيجه بحلل المجاز والتشابيه ، فان اتى بشيء منها في كلامه عفواً بلا تصنع ولا تكلف فنعم . والا فهو لا يهتم الا بالمعـاني وبـما يتخيله فيهـا من حقـائق الشعـر وإذا اراد تعيـين الـزمان مثلاً لم يتكلف ترتيب تلك الجمل المصنعة ولم يذكر حركات العقرب على مينا الساعة ولا شبه ذلك بدوران الفلك ولا بمنازل الشمس بل قال بذوقه الطبيعي :

« غداً اليـوم الخـامس والعشـرون من حزيـران سنـة ألف وستـمائـة وسبـع وخمسين . . . » كما ورد في مطلع روايـة قرومـويـل وهي من الـروايـات التشخيصيـة المنظومة شعراً . فهذا مقتضى البلاغة في تعيين الزمان . وهذه الشطرة المطابقة للحال أبلغ من سواهـا . ومن المثال السـابق الـذي مثلنـا به من كلام انـدره شينيه . فكان السالك نهج هذه الطريقة إذا عطش قال هات اسقني كما قال أبو نواس :

الا فاسـقـني خمراً وقـل لي هي الخمـرُ   ولا تسـقـني سرًّا إذا امكـن الجـهـرُ

وأمـا السـالـك نهج الطـريقـة المدرسية فكان يحيد عن السوق الطبيعي ويصنع كلامه ويقول « ألا ماء بارد نطفىء به حرارة جوفنا » كما قال ذلك البارد المتنحي .

فايضاحاً لحقيقة الطريقة الرومانية لا نرى بدأً من تلخيص القواعد التي أوردها بوالو في صناعة الشعر ثم تلخيص القواعد التي ذكرها فيكتور هوكو في مقدمة رواية كرومويل وعارض فيها بوالو وجميع المنتسبين للطريقة المدرسية .

٢٣ ـ طريقة بوالو

نظم الشاعر الفرنساوي بوالو كتابه الموسوم بصناعة الشعر سنة ١٦٧٤ م وهي أرجوزة طويلة محكمة البناء عالية النفس جامعة لقواعد الشعر وانواعه . اعتنى الشاعر في انشائها كثيراً وفكر فيها طويلاً لتكون قاعدة ونموذجاً في الشعر واقتفى في نظمها وتأليفها اثر الشاعر اللاتيني هوراس وهو نقل عن أرسطوطاليس في كتابه الموسوم بصناعة الشعر . ولأرسطوطاليس في الشعر كتاب آخر لخصه القاضي أبو الوليد بن رشد وطبع هذا التلخيص المستشرق فوستولازينو في مدينة فلورانسه من ايطاليا سنة ١٨٧٣ ولا نظن بوالو اطلع على قصيدة ابن رشيق ولا على مؤلفاته في هذا المبحث لان الافرنج لم يكن لهم الفة بأدب العرب في القرن السابع عشر . وانما كانت عنايتهم باللغة العربية قبل ذلك حينما ترجموا كتب علمها الى اللاتينية ولم يعودوا لدرسها الا في اواخر القرن الثامن عشر حينما نبغ شيخ المستشرقين سيلفستر دوساسي في باريس وشرح مقامات الحريري وألف الكتب المعتبرة . ولما ظهر ضيا باشا من متأخري الادباء العثمانيين وقرأ العربية ثم الفرنساوية اقتفى اثر بوالو ونظم بالتركية كتابه المعروف بالخرابات وانتقد فيه على كثير من شعراء الترك والفرس والعرب . فجاء كمال بك وانتقد عليه في رسالة سماها تخريب الخرابات وخطأه في كثير من مباحثه .

فالفصل الأول من كتاب بوالو في صناعة الشعر يشتمل على تفصيل القواعد التي اجملناها في الكلام على الطريقة المدرسية . وأكثر المؤلف في هذا الفصل من الحض على مراعاة قواعد النحو والصرف والمعاني وغير ذلك من علوم الآلات . وحذّر كثيراً من الابتعاد عن سلامة الذوق ولو قدر شبر . وشرع في الفصل الثاني والثالث في تطبيق هذه القواعد العمومية على افانين الشعر المختلفة وعرف كل فن منها على حدته . وبلغت فنون الشعر عنده إلى نحو أربعة عشر فناً . منها أنواع الغزل والتشبيب والمرقصات والمطربات وما احتوى على ذل العشق ورقة الكلام والادوار

المنسوجة على منوال شعراء الترو بادور المعاصرين للاندلسيين . ومنها انواع المدح وانواع الهجاء والهزل والسخرية والذم المشابه للمدح ومنها أنواع الرثاء ونحوذلك . وتكلم أيضاً عن الروايات التمثيلية وهي (التراجيدا) أي الفاجعات و(الكوميديا) أي المضحكات وعرف كلاً منها وبين الشروط المقتضى مراعاتها في تأليف الرواية التمثيلية ولزوم وحدة الزمان والمكان والعمل . وعرف الشعر الموسيقي وهو النشيد والتلحين المسمى عندهم (ليريك) من كلمة لير وهي العود الذي يغنى عليه . وعرف أيضاً الشعر الحماسي المسمى عندهم (إيبوبه) ومعناها في الأصل الخطبة التي يقولها الخطيب .

فالشعر الموسيقي يمتاز عن الشعر الحماسي بخاصته الشخصية أو الفردية أي المتفردة في ذات صاحبها . وذلك ان الشاعر يرى الحسناء فيشعر بالحب ويأمل الوصال . ويظهر له رقيب فيشعر ببغضه وبانقطاع رجائه من الوصال . وينال معروف الكريم فيشعر بالشكر له . ويموت صديق له فيشعر بالتفجع عليه . فبسبب هذه المشاعر تفيض نفس الشاعر بالغزل والنسيب والمدح والهجاء والرثاء ويشاهد أيضاً بدائع المخلوقات وينظر في خلق الأرض والسموات فتفيض نفسه بالتسبيح والتهليل والتقديس والترتيل . فكل واحد مما ذكر فن من افانين الشعر الموسيقي . ويختلف عروض كل منها وقوافيه باختلاف المشاعر التي يشعر بهاواختلاف الالهام الذي يهبط عليه . ويعتريه من ذلك دهشة أو انذهال وحيرة وسرور وانشراح أو انقباض وحزن فيظهر أثر ما ذكر في نظمه وشعره .

وأما الشعر الحماسي فهو رواية الوقائع العجيبة التي يقوم بها الشجعان . فقولنا رواية أي خبر يفصل هذا النوع من الشعر عن الشعر الموسيقي لانه نشيد وغناء وعن الشعر الدراماتيقي أي الدرام لأن اساسه العمل . ولا يلتبس بالتاريخ الذي هو خبر ورواية أيضاً لان موضوع التاريخ الوقائع الصحيحة بلا اطراء ولا غلو . وأما الشعر الحماسي فموضوعه الوقائع الملفقة المشتملة على غرائب الشجاعة ونوادر الفروسية . واشهر كتب الحماسة الالياذة والاوذيسة لهوميروس اليوناني . و(انيد) لفرجيل اللاتيني . والكوميدية الالهية لدانتي الطلياني . والجنة الضائعة لملتون الانكليزي . وتخليص اورشليم لطاسو الطلياني وهانرياد لفولتر الفرنساوي . والحماسة النابليونية لفيكتور هوكو . وعند أهل الشرق ماها بهاراته وراماياناه للهنود والشهنامه للفرس

وكتب الحماسة للعرب واشهرها كتاب الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي وقد طبعه مع شرح ابي زكريا يحيى بن علي التبريزي عليه المستشرق الالماني فريتغ سنة ١٨٢٨ في مطبعة مدينة بونه . والجزء الأول من عكاظ الأدب هو في الحماسة الحميدية فهو (ايبوبة) الحرب اليونانية الاخيرة كما حرر فيكتور هوكو الايبوبة النابوليونية . ومن امعن النظر في الشعر العربي وجد اكثره من قبيل الشعر الموسيقي أي النشيد والاغاني وهو الممتاز بخاصته الشخصية وباظهار الحواس الباطنة ووجد فيه أيضاً من الشعر الحماسي وهو الذي روى فيه أخبار الحروب وأطنب بشجاعة الشجعان . ووجد المقامات تشابه ما عند الافرنج من فن الكوميديا . غير ان صاحب المقامات جعل اهتمامه في انتقاء الالفاظ وبلاغة التعبير ولم يلتفت كصاحب الكوميديا لدرس اخلاق الرجال وبيان المزايا الخاصة بافراد القوم أو الهيئة الاجتماعية . وكان الباحثون في أدب العرب لايجدون فيه مثالاً «للدرام» الآتي تعريفه فجاء عبد الرحيم افندي احمد وعرض على المستشرقين في المؤتمر الحادي عشر المنعقد سنة ١٨٩٧ م في باريس رسالة الغفران للمعري وبين مشابهتها بالكوميديا الالهية ووعد بنشرها . وكان يوسف ضيا باشا الخالدي استنسخ رسالة الغفران المذكورة سنة١٣٠٧هـ من النسخة القديمة المحفوظة الآن بمكتبة الكوبريلي وهي تجاه نظارة المعارف وتربة السلطان محمود في الاستانة . وهمَّ إذ ذاك بطبعها فحال دونه سفره لبلاد الاكراد واشتغاله السنين الطوال بترتيب القاموس الكردي وتدوين قواعد هذا اللسان الذي نبغ من ابنائه امثال صلاح الدين الأيوبي صاحب الفتح القدسي . فاذا نشرت رسالة الغفران كما تطبع ترجمة الايلياذة الآن في مطبعة الهلال تمكن قراء العربية من الاطلاع على فن جديد في أدب العرب غير الشعر الموسيقي والشعر الحماسي . والمأمول ممن ينشر رسالة الغفران ان يقابل بين النسخة المصرية والنسخة الاستامبولية لكيلا يقف ذهن المطالع كما حصل في المثال المنقول سابقاً من كتاب اعجاز القرآن للباقلاني بسبب وجود بياض في الأصل (١) . ومن دقق النظر في لزوميات المعري عرف ما هو عليه هذا الشاعر الحكيم من علو الفكر واتساع القريحة ولم يشتبه في ان كتابه الموسوم بالايك والغصون لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من فنون الشعر والأدب إلا أحصاها . وقد أطنب المؤرخون في كلامهم على كتاب الايك والغصون وزعموا انه فيماية مجلد . ولكن

(١) طبعت « رسالة الغفران » بمصر سنة ١٩٠٨ وصححها المرحوم الشيخ ابراهيم اليازجي

إذا نظرنا في قولهم ان اللزوميات في خمسة مجلدات ثم رأيناها مطبوعة في الهند في مجلد واحد وفي مصر في مجلدين حملنا ذلك علي الظن بان المائة مجلد من كتاب الأيك والغصون هي بمثابة عشرين مجلداً من اللزوميات طبعة الهند أو اربعين مجلداً من طبعة مصر . وعلى كل فهو من أعظم دوائر المعارف الأدبية في لسان العرب . ولا يعجز عن الاتيان بمثلها رهين المحبسين والايك هو الشجر الكثير الملتف . فكأنه أشار بهذا الأسم إلى أن الكتاب شامل لاصول الأدب وفروعه .

ثم أن بوالو بعد ما فرغ من بيان القواعد العمومية للشعر وبيان فنونه ولزوم اتباع الصدق والحقيقة فيه ذكر في الفصل الرابع من كتابه في صناعة الشعر ما ينبغي ان يتخلق به الشاعر من الأخلاق الحميدة وما يجب ان يحض عليه من الخير والمعروف . فاعترضوا عليه بذلك وقالوا بان هذا الفصل من مباحث علم الاخلاق لا من مباحث العلم والأدب . ولاموه ايضاً على اعتباره الشعر في مجرد قوالب الالفاظ وعلى تحديده بالحدود والتعاريف والزام الشاعر بمراعاة هذه الحدود في كل فن من فنونه وعدم الخروج عنها . وقالوا بان الشعر هو الهام من الله والطبيعة ونور يفيض على القريحة التي فيها استعداد طبيعي لقبوله ولا يمكن تعليم ذلك ولا تحديده بالحدود والتعاريف . والصحيح ان بوالو يعترف بأن أساس الفكر المعاني الشعرية لا يمكن تعليمها بالقواعد ويقول بانها هبة من الله واستعداد فطري وغريزي في قريحة الشاعر . وإنما الذي يدخل عنده تحت القواعد المذكورة هو شكل التعبير أي في قوالب الالفاظ التي تقاد بها تلك المعاني الشعرية .

٢٤ ـ هوكو والأدب الفرنساوي

ولما ألف فيكتور هوكو رواية كروميل التمثيلية سنة ١٨٢٧ وضع لها مقدمة بين فيها ما هو الاساس الذي أنشأ عليه ابنية اوراقه وما هو أصل الشجرة التي أثمر فرعها فاكهة روايته . كما وضع المعري مقدمة للزوم ما يلزم وافتتحها بقوله « كان من سوالف الاقضية اني انشأت ابنية اوراق توخيت فيها صدق الكلمة ونزهتها عن الكذب والميط » . ثم ذكر القواعد التي راعاها في تأليف هذا الكتاب وبين اللوازم التي تلزم القافية بدون ان يفتقر اليها حشو البيت واتى لها بالأمثال والشواهد المعتبرة من كلام

الحكمة والموعظة الحسنة كما هو مفصل في بابه . فخلاصة مقدمة كرومويل :

ان الانسـان منـذ النشأة الاولى الى الـزمـان الحاضر تقلب باعتبار التمدن أي الحضارة والعمران في ثلاث ادوار : (١) القرون الابتدائية (٢) القرون القديمة (٣) القرون الاخيرة . وحيث كان الشعر سابقاً على اجتماع الانسان وملازماً له فقد تقلب معه أيضاً في ثلاثة اشكال :

(١) الشعر الموسيقي أي الغناء (١) (ليريك)
(٢) الشعر الحماسي أي الحماسة (ايبيك)
(٣) الشعر الدراماتيقي أى الهائلة (دراماتيك) .

وذلك ان الانسان لما انتبه في القرون الابتدائية لعوالم الموجودات ـ وكانت قريبة عهد بالحدوث ـ انتبه معه الشعر . فانبهر من رؤية بدائع المخلوقات واسكرته الدهشة حتى لم يكن أول كلامـه الا « هيللة » . وكـان تفكـره تجلياً وجذباً وتصوره وحياً لقربه من موجد الكائنات وهو الله . فكان يناجي بقلبه ويهلل بلسانه كما يتنفس برئتيه . ولم يكن لعـوده الا ثلاثـة اوتـار الخالق والنفس والمخلوقات .(٢) غير ان هذا السر المثلث يشمـل كل ما في الـوجـود . وكـانت الأرض مقفـرة تقريباً وليس عليها من بني آدم الا بطون وفصائل ولم توجد بعد القبائل ولا الشعوب وكان لهم آباء لا ملوك . وكل عرق من عروق البشر متمتع ببقائه ولا معرفة لأفراده بالملكية ولا بالشريعة ولا بالخصومة ولا بالحرب . بل الكل لكل واحد وللكل .

فكـان الاجتـماع الانسـاني شركـة لاشيء فيهـا يضايق افراد الانسان . وكانوا يعيشون عيشة الرعاة والبداوة التي ابتدأ منها كل تمدن وعمران . وهذه المعيشة أوفق ما يكـون لسـائحات الفكر وهواجس القلب . فكانت نفس الانسان سائحة على جناح

(١) قد يتغنى المرء بالشعر الحماسي أيضاً . لأن الغناء انما هو تلحين الشعر موسيقياً كان أو حماسياً . ولكن الغالب في الغنـاء اظهـار ما في نفس الانسـان من الحس والشعـور ولـذا خصصناه هنا بالشعر الموسيقي الممتاز عن الشعر الحماسي بخـاصتـه الشخصيـة . وكتاب الاغاني الفه ابو الفرج الاصفهاني مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد . ولكنه جامع لكل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء فهو ديوان العرب .

(٢) لا يخفى ان فيكتور هوكو حينما الف رواية كرومويل كان من حزب الملوكيين المتمسكين بالدين الكاثوليكي ولذا فهو يرى التثليث في كل امر ومسألة .

الأهـواء سابحـة في بحـر الخيـالات وفكـره اشبه بسحابة تسيرها الرياح وتغير شكلها ووجهتهـا بحسب مهبهـا . فهـذا هو الانسـان الاول . وهذا هو الشاعر الأول . فهو شاب وموسيقي . ودينه الصلاة بمعناها اللغوي فقط وهو الدعاء وشعره الغناء . فهذا الشعر وهذا الغناء الذي للقرون الابتدائية هو « سفر التكوين » .

ثم زال عن الانسـانيـة هذا الشـاب رويداً رويداً واتسعت فيها جميع الدوائر . وصار البطن قبيلة والقبيلة شعباً وامة . واحتشد كل مجتمع من هذا الاجتماع الانساني العظيم حول مركـز مشتـرك وتأسست الممالـك . وحلت طبيعة العمران محـل طبيعة البـداوة وتبـدلت الخيـام بالقصـور ومحطات الرحال بالمدائن وتابوت العهد بالهيكل . واصبح رؤ ساء هذه الدول المستحدثة رعاة ـ للمواشي ـ بل للشعوب والأمم وتبدلت عصا الرعاية بصولجان الملك . ووقف كل شيء وتعين . واخذ الدين شكلاً مخصوصاً وانقلبت الصلاة من المعنى اللغوي إلى المعنى المصطلح عليه عند اهل كل مذهب . وتعينت أقوالها وافعالها بحسب ذاك المذهب . وضرب الاعتقاد نطاقه على العبادة . وعلى هذا الـوجـه اقتسم الكـاهن والملك ابـوة الشعب وعلى هذا الـوجه قامت مقام الشـركـة الابـويـة الجمعيـة الثيـوقـراتيـة وهي الـدولـة الجامعة أحكامها بين الديانة والسياسة . وازدحمت الشعوب والأمم على سطح الكرة فتضايقوا وتخاصموا وانتشبت بينهم الحـروب واصطـدمت الممالك بعضها ببعض ، وطغى قوم على قوم . فاوجب هذا الطغيـان مهاجمـة الشعـوب والامم وتغـريبهم ورحـلاتهم . وتصـور الشعر هذه الـوقـائـع العظيمة . وانتقل بذلك من الافكار الى الاشياء وتغنى بالقرون والشعوب والممالك وصار حماسة وولد هومير وس فهذا الشاعر في الحقيقة أحسن معرف للاجتماع الانسـاني في القـرون القـديمـة . . وكل ما في هذا الاجتماع بسيط وحماسي . والشعر عنـدهم دين والـدين شريعة أي قانون . فبعد بكارة الدور الأول ظهرت طهارة الدور الثـاني من ادوار الانسـانيـة . واستولى نوع من الوقار والاحتشام على الاخلاق البيتية والاخـلاق العمـوميـة . ولم تحفظ الشعوب من عوائد بداوتها الا حرمة الغريب ورعاية ابن السبيل . وصار للعائلة وطن يربطها ونشأت محبة الوطن والدار وزيارة القبور .

فالتعبـير عن مثـل هذا التمـدن لا يمكن ان يكـون باشعار الحماسة . وتقلبت اشعار الحماسة في اشكال كثيرة بدون أن تضيع خاصتها المميزة لها . فاذا تأملنا كلام الشـاعـر اليـونـاني بندار وهو من أهل القرن الخامس قبل الميلاد والملقب بأمير الشعراء

الغنائين لجودة قريحته في الشعر الموسيقي نجد كلامه كهنوتيًا اكثر مما هو ابوي وحماسيًا اكثر مما هو موسيقي . وفي هذا الدور الثاني من أدوار العمران ظهر المؤرخون وجمعوا الآثار وأرخوا القرون . ومع ذلك فظهور التاريخ لم يستلزم محو الشعر من الوجود بل استمر التاريخ حماسة وكان المؤرخ هيرودوس كأنه هوميروس ثان . ومن نظر في روايات التراجيديا القديمة التي ألفها شعراء اليونان ومثلوها على مراسحهم تبينت جليًا أساليب شعر الحماسة ورأى علوهم في كل شيء وتجاوزهم الحد في العظمة والجبروت والهيبة والفخامة . فالاشخاص الممثلة في هذه الروايات هم من الجبارين وانصاف الآلهة والآلهة . ومواضيع الروايات احلام وهواتف ومقدرات والواحها تعداد نفوس وتشييع جنازات وحروب وغارات . وما كان ينشده الرواة من الأشعار كان يشدو به الممثلون . ففن التمثيل عند اليونان كان مقتصراً على هذا فقط ، وكانوا يبنون مراسحهم على سفح الجبل بلا سقف يقي حر الشمس ومطر السماء وانما هي درجات بعضها فوق بعض على شكل نصف الدائرة المسمى عندهم (امفيتياتر) وموضع التمثيل على الأرض في صحن المرسح وهو في غاية السعة والجسامة ويستوعب تمثيل معبد بفنائه وسراي بدوائرها وقصورها وابراجها ومدينة بأسواقها ومعسكر بمهماته . وكذا محل المتفرجين يستوعب ثلاثين الف متفرج . مع ان مراسح الاوروبيين لا تستوعب اربعة آلاف . والمرسح الفرنساوي في باريس لا يستوعب الا ١٤٠٠ ومرسح الاوبره فيها يستوعب ٢٢٠٠ ومرسح الشاتيلة وهو أكبر المراسح في باريس يستوعب ٣٦٠٠ وكان التمثيل عند اليونان يبتدىء في الصباح ولا ينتهي الا في المساء . وربما مثل في المرة الواحدة روايتين أو أكثر . وكان الممثلون يفخمون اصواتهم ويعظمون قيافاتهم ويتبرقعون بالبراقع المناسبة للرواية حتى يحاكى الواحد منهم الجبار العنيد أو البطل الصنديد الذي يمثل دوره . فيمثل برومته بن تيتان وهو مقيد بالسلاسل فوق جبل قفقاس والنسر يأكل في احشائه . لانه صور من طين الأرض على هيئة الانسان ثم أراد ان يأخذ من نار السماء أو نورها لينفخ فيه الروح فاغضب الآلهة وجازاه كبيرهم بذلك الجزاء على ما اقترفت يداه . ويمثل ايضاً انتيغون وهي في اعلى الابراج تفتش عن اخيها الذي كان في معسكر الاعداء من الفينيفيين . وقد ذكر خبرها الشاعر سوفوقل في رواية نظمها قبل الميلاد باربعمائة سنة وسماها (اديب الملك) ونسج على منوالها الشاعر الفرنساوي فولتير وسمى روايته الفرنساوية بهذا

الأسم أيضاً . واديب هذا ابن ملك من ملوك اليونان قتل اباه وملك على قومه وتزوج بأمه بدون علم منه . فلما وقف على حقيقة الامر لم يتحمل هذه المصيبة فقلع عيني نفسه بيديه وخرج من ملكه هاجاً وابنته انتيغون تقوده . ويمثل المثلون أيضاً على مراسح اليونان مركباً كبيراً ينزل منه خمسون أميرة بها يتبعهنّ من الخدم والحشم كما في الرواية التي ألفها الشاعر ايشيل قبل الميلاد بخمسة قرون . فكان يجتمع على مراسحهم فخامة البناء مع فخامة الكلام . ويمتزج التاريخ بالدين . وكان أول المضحكين عندهم من الكهان . وكانت العابهم احتفالات دينية ومواسم أهلية . فجميع الروايات المحزنة اليونانية هي من اشعار الحماسة وجميع الشعراء المتقدمين عيال على هوميروس ورواياتهم مستنتجة من الالياذة والاوذيسة ومواضيع الجميع منها يعود إلى محاصرة ترواده .

٢٤ ـ الديانة المسيحية والأدب

ثم أخذ هذا الدور الثاني من ادوار الشعر يتقلص ويتعتق كما تعتق العمران القديم وجاء الرومانيون ونسجوا على منوال اليونانيين ونسخ شاعرهم فيرجيل عن هوميروس . وانتهى دور الشعر الحماسي وفتح دور جديد للشعر والتمدن بظهور الديانة المسيحية . فالديانة الوثنية مادية ظاهرية والديانة المسيحية روحانية باطنية فلما حلت أحداهما محل الاخرى ودخل الايمان بالمسيح قلب التمدن القديم قتله ووضع في جنازته المتعفنة جرثومة التمدن الحديث وثبت بتعاليمه دعائم الاخلاق . وأول حقيقة جاء بها هذا الدين هي القول بوجود حياتين للانسان . احداهما فانية والثانية خالدة احداهما على الأرض والثانية في السماء . وأعلم الانسان بانه مركب من حيوانية ونطق أي من جسد ونفس . وبانه نقطة الفصل المشترك وهو في علم الهندسة النقطة المشتركة بين خطين والخط المشترك بين سطحين والسطح المشترك بين جسمين أو بأنه الحلقة المشتركة بين سلسلتين من المخلوقات احداهما تتألف من الماديات والثانية من الروحانيات . احداهما تبتدىء من الجماد وترتقي للانسان . والثانية تبتدىء من الانسان وتصعد الى الله .

ربما فقه بعض الحكماء المتقدمين شيئاً من هذه الحقائق ولكن اول من أوضحها

وجلاها الانجيل الشريف . فاصحاب الديانة الوثنية خبطوا خبط عشواء وساروا في غلام الليل على هدى ولم يفرقوا في طريقهم بين الحق والباطل . والبعض من فلاسفتهم افاض من نبراس حكمته على الاشياء نوراً طفيفاً لم يضيء منها الا الجانب الاصغر وزاد في الظل الممتد وراء جانبها الاكبر . فنشأ من ذلك تلك الاشباح والخيالات التي وردت في فلسفة المتقدمين واساطيرهم . لان اضاءة تلك الاشياء بتمامها لا تتيسر الا بنور الحكمة الالهية . فلما جاء امر الله قام النور الالهي مقام هاتيك الانوار المرتجة التي اتت بها الحكمة الانسانية . وكان فيثاغورس وبقراط وسقراط وافلاطون سرج الليل فجاء المسيح بن مريم (عليهما السلام) ضوء للنهار فحيث كانت عبادة الاوثان ديانة مادية لم يخطر على بال الاقدمين التفريق بين الروح والجسد كما في الديانة المسيحية . بل اوجدوا شكلا وهيئة لغير الماديات وشخصوا المعنويات . فكل شيء عندهم مرئي ، محسوس ، متجسد ، والهتهم مفترقون لسحابة يختفون فيها عن الابصار . فهم يأكلون ويشربون وينامون . وتصيبهم الجراح فتسيل منهم الدماء . ويلقي بهم من السماء الى الارض فيتحطمون كما حدث لفولكين اله النار حينما حملت به امه من (جوبيتر) المشتري كبير الالهة ووضعته في اشنع صورة فاستنكفت منه ان يكون ابنها ورمت به إلى الارض فهبط على جزيرة ليمن من جزر الممالك العثمانية وانكسرت رجله . وذهب لبركان اتنا ووضع فيه كور الحديد . فهو يعرج من وقعته ويشتغل في صنعته ابد الابدين ودهر الداهرين . ومن هؤلاء المعبودات ماهم آلهة ومنهم ما هو انصاف آلهة فقط . ودنياهم معلقة بسلسلة من الذهب يمسكها كبير الالهة . وشمسهم يجرها في مركبه اربع رؤوس من جياد الخيل . وجهنمهم هاوية عميقة يعين الجغرافيون فوهتها على سطح الكرة . وجنتهم على جبل اوليمبوس في تساليا يسكنها لالهة ويتلذذون بنعيمها . فالديانة الوثنية عجنت جميع المفتريات من أساطيرها في طينة واحدة وصغرت آلهتها وكبرت اوادمها حتى تشابه الفاني بالحي الذي لا يموت . فالابطال الذين تكلم عنهم هوميروس في اشعاره كادوا يكونون أقرانا للمعبودين . فابو الفوارس اجاكس غضب على جوبيتر وهو راجع من محاربة ترواده وأعلن الحرب عليه وعلى جماعته . واشيل عنترة الحروب اليونانية يضاهي في القوة والشجاعة المريخ (مارس) له الحرب وجلاد الفلك . بخلاف الدين المسيحي فانه فرق بين المادة والروح . وحفر واديا عميقاً بين الجسد

والنفس ووادياً آخر بين الانسان والآلهة فبظهور النصرانية وبنشر تعاليمها دخل قلب الناس شعور جديد لم يكن معروفاً للمتقدمين واتسعت دائرة هذا الشعور عند المتأخرين اتساعاً غريباً . فهذا الشعور هو الماليخوليا أي السوداء وهي اشد من الوقار المستولي على قلوب القدماء وأخف من الحزن . فالنصرانية وضعت في طبع المتدينين بها المزاج السوداوي وجعلت الصلاة للفقير كالغنى للغني وأسست بين الناس المساواة والشفقة والحرية . فمنذ ادخل الانجيل النفس بين الحواس ووضع الخلود وراء الحياة اصبح المتمسكون به يرون الاشياء بشكل جديد .

وعدا هذا في التاريخ الذي انتشرت فيه الديانة المسيحية حدث في العالم انقلاب كبير لم يتيسر معه ان لا يحصل انقلاب في العقول . لان الانقلابات التي حدثت قبل ذاك التاريخ كانت عبارة عن سقوط دولة وقيام اخرى ولم يكن لذلك تأثير كبير في قلوب العموم . بل المصيبة الحاصلة من تلك الانقلابات كانت كالصاعقة لا تصيب إلا الاماكن العالية والمقامات المرتفعة فعبروا عنها باشعار الحماسة . ففي الاجتماع الانساني القديم كان الفرد سافلاً حتى كانت المصائب لا تؤثر عليه الا إذا نزل بيته وأصابت اهله . ولا يعرف الواحد من أهل تلك القرون الخالية البؤس ولا التعاسة خارج الآلام البيتية . ولا كان يسمع في تلك الاجيال بان المصائب العمومية الحادثة في المملكة تمس المعيشة الفردية . فلما حدثت تلك الانقلابات الكبيرة ابان انتشار الديانة المسيحية وأصبحت الامم الاوروبية في هرج ومرج يتلاطمون كالأمواج في البحر العجاج وانقرض التمدن القديم باستيلاء الاقوام البربرية على ممالك الرومان حدث من ذلك تأثير في قلوب العامة وانفعال في نفس كل فرد من أفرادهم . وأخذوا يفكرون في مصائب الدهر ومرارة الحياة وعرفوا بان هذه الدنيا الفانية ما هي الا هزر ولعب وكدر وتعب لا ينبغي للعاقل ان يغترّ بها . فهذا الشعور الذي ولد اليأس في قلوب المشركين كما علم من حال الاديب قانون ، وولد في قلوب المتنصرين الماليخوليا وهي السوداء .

وفي ذاك التاريخ أيضاً تولد فكر التجسس والاختبار . لأن تلك الوقائع العظيمة كانت أشبه برواية كبيرة مثلت على مرسح الدنيا وشهد المتفرجون عواقبها المدهشة . فهذه الوقائع عبارة عن وثبة وثبها الشمال على الجنوب وتغير بسببها شكل العالم الروماني . فأصبح يقاسي نزاع الموت وبلغت روحه التراقي . فلما مات هذا العالم

قام جمهور من النحويين والبيانيين والسفسطائيين يتقاتلون على جنازته ويقبلون جسده الذي لا حراك به . ويشرحون ويفسرون ويعبرون ويحللون ويناقشون ويجادلون كانهم ذباب يتساقط على جيفة التمدن القديم . فمن سعادة هؤلاء المشرحين للعقول وحسن حظهم انهم وجدوا جيفة يجرون عليها أول تجاربهم ويسبرون قروحها بمسبارهم . فكان أول جسد شرحوه جسد امة ميتة .

وعلى هذا الوجه نرى الآن ظهور جنية الماليخوليا والتفكر بجانب عفريت التحليل والتضاد . ونجد في احد طرفي هذا الدور الانتقالي البياني الشهير لونجين (٢١٠ - ٢٧٣م) ولد في حمص من سوريا والف باليونانية في علم البيان رسالة الاعجاز التي ترجمها بوالو للفرنساوية . ونجد في الطرف الآخر القديس اوغوستين (٣٥٤ - ٤٣٠م) صاحب المؤلفات اللاتينية . فجميع ادباء القرون الوسطى استقوا افانين العلم والادب من حياض الروم في القسطنطينية . ولا يجوز لنا احتقار هذا الدور الانتقالي من ادوار الادب لان فيه النطفة التي تخلقت وولدت وكبرت حتى صارت عروساً تتمتع اليوم ببديع جمالها . فكتبة ذاك الدور - ونرجو هضم هذا التعبير الحرمع انه سوقي مبتذل - زبلوا رياض الأدب ليجتني المتأخرون ثمارها .

فحيث كان هناك دين جديد وأمة جديدة اقتضى ان ينشأ على هذين الاساسين أبنية جديدة في الشعر . لان شعر المتقدمين كان حماسة صرفاً وبسبب تأثير الدين الوثني والفلسفة القديمة كان الشعراء لا يدرسون من الطبيعة الواجب عليهم تقليدها الا وجهاً واحداً وهو وجه الجمال . وينبذون وراء ظهورهم جميع ما لا علاقة له بشيء من نموذج الجمال بدون ان تأخذهم رأفة على صناعة الأدب المقتضي لها تقليد ما في الطبيعة من خير أو شر . فهذه الطريقة كانت في بادىء امرها معتبرة . ولكن باضطرادها على قياس واحد زال رونقها وذهبت طلاوتها ونقصت قيمتها كما هو شأن كل ما اضطرد على وتيرة واحدة . فلما ظهر الدين المسيحي جرّ الشعر الى الحقيقة ووضعه في مكانه . وصارت قريحة الشاعر النصراني ترى الموجودات بعين أوسع وأرق مما كانت تراه قريحة الشاعر الوثني . فشعرت هذه القريحة الجديدة بان المخلوقات ليست كلها جميلة باعتبار الانسان بل الشنيع منها بجانب الجميل والمستظرف بقرب المستقبح والشر اكثر من الخير والظلام سابق النور والجد مخلوط بالهزل وكلام السخرية وراء الاعجاز بالفصاحة . فقالت القريحة في نفسها :

أحكمة الشاعر النسبية الجزئية أحسن من حكمة الخالق المطلقة الكلية ؟
أبلغ من حد الشاعر ان يقوم ما اعوج على زعمه من خلق الله ؟
وهل الابتر والاجدع والاجذم أجمل من كامل الاعضاء ؟
وهل يحق لصناعة الادب ان تنزع بطانة الثوب الذي تردت به الانسانية والحياة والمخلوقات ؟
وهل يجوز نزع عضلة من الجسم أو لولب من الدولاب ان أريد انتظام دورانه .
وهل من الواجب على المطرب ان لا يعرب ؟

ثم نظرت هذه القريحة الجديدة في وقائع العالم فوجدتها مضحكةً مرهبة معاً واعتراها المزاج السوداوي بسبب الاعتقاد المسيحي واثر عليها أيضاً الانتقاد الفلسفي المستفاد من ذاك الدور الانتقالي فخطت في الأدب خطوة كبرى زلزلت بها العالم العقلي وقلبت عاليه سافله وحذت في الشعر حذو الطبيعة وخلطت في اختلاق المعاني النور مع الظلام وكلام السخرية مع الاعجاز بالفصاحة بدون ان تمزج أحدهما بالثاني . وبتعبير آخر جمعت في الشعر بين النفس والجسد وبين الحيوانية والنطق . لان الشعر والدين متلازمان والنقطة التي يسير منها أحدهما يسير منها الآخر . فاوجدت في الشعر نموذجاً جديداً واسلوباً غريباً بالنظر للمتقدمين . وشرطت فيه شرطاً قلب شكله وأصلح قالبه . فهذا النموذج وهذا الشرط هو كلام السخرية الذي يظهر في قالب الكوميدية . فهذا هو الفرق الذي يفرق في نظرنا بين صناعة الأدب الجديدة وصناعة الأدب القديمة وبين الشكل الجديد الحي والشكل القديم الميت . أو بتعبير أشهر من هذا ولو كان مبهماً هذا هو الفرق بين أدب الطريقة الرومانية وأدب طريقة المدرسية .

فيقول لنا حينئذ اهل الطريقة المدرسية :

ـ ها نحن امسكناكم واخذناكم بالسنتكم . انتم تتخذون من القبيح نموذجاً للتقليد ومن كلام السخرية اسلوباً لصناعة الأدب ؟ ولكن اين اللطافة في ذلك اين حسن الذوق ؟ أما تدرون ان صناعة الأدب ينبغي لها ان تقوّم ما اعوج من الطبيعة ؟ أما تعلمون ان الواجب عليها اعلاء شأن الطبيعة ؟ اما تعلمون ان الاجدر بها انتخاب الاحسن مما في الطبيعة ؟ هل ادخل المتقدمون القبيح او السخرية في كلامهم ؟ هل مزجوا الكوميديا بالتراجيديا ؟ فاتبعوا يا سادة اساليب المتقدمين واقتفوا في فنون الادب أثر أرسطو وبوالو ولا هارب . . . الخ .

ـ وفي الواقع ان حجج أهل الطريقة المدرسية دامغة . ولكن لسنا مكلفين بالرد عليهم لاننا لا نريد وضع قواعد جديدة ولا تقييد العقل بالعقال كما قيدوه . اذ حمانا الله من القـواعـد . وانـما نحن حققنـا وجـود امـر فنحن مؤرخون ولسنا منتقدين ولا مشـرعـين . فهـذا الامـر موجـود سواء أعجبهم أولم يعجبهم . فقريحة الشعر الجديد تولـدت من انضـمام نمـوذج السخرية بالكلام إلى نموذج الاعجاز بالفصاحة . وهي غزيـرة المنبـع في ابتكاراتها مختلفة الاشكال في تصويراتها . بخلاف الشعر القديم فانه وحيد الشكل وحيد الاسلوب لبساطته واضطراده على وتيرة واحدة . فهذا هو الفرق الحقيقي والاساسي بين أدب الطريقتين الرومانية والمدرسية .

نعم ان المتقـدمـين لم يجهلوا بالكليـة حقيقـة الكوميديا ولا السخرية التي نحن بصـددهـا إذ لابـد لكل شيء من أصل . وجرثومة الدور الثاني لا بد من ان تكون في الـدور السـابق عليـه . ففي الايليـاذة كل من (فـولكـين) و(تـيرسيت) نمـوذج لهذه السخـريـة والكـوميـديا . والأول مثال للآلهة وقد مر ذكر السبب في عرجه وليس على اعرج من حرج . والثاني مثال للبشر ووصف هوميروس في الفصل الثاني من الايلياذة هذره في المنطق وهـذيـانـه في الكـلام وبـين كثرة جلبته واستهزائه بجميع الناس حتى بالملوك . فكـان في محاربـة تروادة مضحكـة اليونان يسخر بهم ويسخرون منه لان فيه جميـع النقـائص والعيوب .. ومن امثلة السخرية أيضاً مكالمة منيلاس مع بواب القصر في رواية (هيلانة) التي نظمها الشاعر اليوناني أوريبيد في القرن الخامس قبل الميلاد .

ومن السخرية أيضاً ما نراه عند اليونان من الاشخاص الخارقة للطبيعة كالذي نصفه الواحد انسان ونصفه الآخر سمكة والذي بعين واحدة في جبهته وعرائس الجن اللواتي يظهرن على الانس كأنهن حور الجنان كل واحد من ذلك نموذج للسخرية . غير أن أدبـاء اليـونـان الاقـدمـين لم يتمكنـوا من ايفاء هذا الموضوع حقه بسبب ما في أشعـار حماستهم من الفخـامـة ومـا في روايـاتهم من العظـة والجـلالة . فالسخرية في كلامهم ليست في موقعهـا لأنهـا مستـورة بجـلالـة الشكل الحماسي واسلوب الحماسة يفـوق فيهـا على اسلوب السخـريـة ويمنعهـا من الظهـور والبيان . بخلاف الادباء المتأخـرين فان اسلوب السخـريـة له في شعـرهـم وروايـاتهم موقـع مهـم . وهو في كل موضـع من كلامهم . ويصـورون بهذا الاسلوب الشناعة والفظاعة من جهة واللعب من جهة اخرى . ويلحقون به في الدين الف وسوسة وأباطيل غريبة وفي الشعر الف

معنى مبتكر وتصور بديع . فاسلوب السخرية هو الذي أوجد في القرون الوسطى جميع هذه المخلوقات التي اعتقد الناس وجودها بين الانسان والله من عوالم الجن والروح والملك وملؤا بها الهواء والماء والأرض والنار فلم يبق محل في الفضاء الا وهي ساكنة فيه، ومنها من هو على اكتافنا يكتب اعمالنا ومنها من يأكل ويشرب معنا من طعامنا وشرابنا ومنها من يلبسنا لبس الجلد على اللحم ولا يخرج منها الا بالضرب الشديد والتعذيب . وهذه السخرية هي التي جعلت لشيطان النصارى قرون التيس وأرجل الخنزير وأجنحة الخفاش وجرت الشاعر دانتي الطلياني وملتون الانكليزي الى تصوير تلك الصور الجهنمية العجيبة ووصفها بالاوصاف الهائلة والاشكال المخيفة حتى جاء في القرن السادس عشر المصور الشهير ميكل انجلو ونقش على جدار كنيسة في الفاتيكان الذي يسكنه البابا صورة مفخمة بديعة سماها اليوم الآخر وهو يوم العرض والحساب . ولو قرأ القرآن الكريم لصور جهنم ترمي بشرر كالقصر كانه جمالة صفر . ومن أمثلة هذه السخرية أيضاً الخادم الجني ميفستوفلس المرافق لفَوست في الرواية المتقدم ذكرها ومنها الساحرات التي مركزهنّ في رواية ماقبت وانواع كثيرة من الخدام والرصد القائمين على حفظ الكنوز المخيفة والعيون الجارية والاشجار الكبيرة . وكذا الحوت الذي يظهر في البحر كالجزيرة المعشبة والثعابين التي تحاكي في الضخامة الفيلة وتحرق بنفسها كل مخضر ونحو ذلك . فالمتأخرون عبروا عن جميع ما ذكر بكلام أفصح وأبلغ من كلام المتقدمين .

فاسلوب السخرية ماهو في نظرنا الا ضد قام بجانب اسلوب الاعجاز بالفصاحة ليميزه ويظهره . لان الاشياء تتميز بضدها . فهو اغزر المنابع التي فتحتها الطبيعة لصناعة الادب . فطريقة المتقدمين أورثت الملل والكلال باطرادها على نسق واحد ومراعاتها لاسلوب واحد وهو اسلوب الاعجاز . لان الاعجاز على الاعجاز والبلاغة وراء البلاغة والبين تلو البيان متعب للفكر مجهد للذهن . فاذا فصل بينهما بكلام السخرية تفكه العقل وارتاح مما اجهده واضناه واستأنف السير نحو الاعجاز وهو في نشاط وارتياح بسبب توقفه بكلام السخرية والهزل . ثم لا يخفى ان الجميل إذا قرن بالقبيح زاد جماله رونقاً وصفاء وتلألوءا واعتلاءً . ولذا كانت الجنة التي وصفها ميلتون ألذ وأشهى من جنان الايليزه التي وصفها هوميروس وفرجيل . لان ميلتون صور تحت جنة عدن جهنماً أشد دهشة ونكالاً من (تارتار) المتقدمين . ولو لم يصف لنا

دانتي حبس ذاك الجبار العنيد في برج مدينة بيزه وسد باب البرج عليه حتى هلك جوعاً بعد ان أكل اولاده لما وجدنا طلاوة لحسن فرانسواز دوريمني ولا لجمال بياتريس التي دخلت به جنان النعيم إذ لو لم يكن في كلامه تلك الشدة والقسوة والعذاب الاليم لما كان فيه تلك الحلاوة الرائقة والعذوبة السائغة .

ففي شعر المتأخرين الاعجاز بالفصاحة يشبه النفس الناطقة المطمئنة بتعاليم النصرانية . والسخرة أي الهزر بالكلام يشبه الجسد الحيواني الذي في الانسان . فالنموذج الأول بتجرده من الهذيان وسلامته من العيوب حاز كل الحسن والجمال والرشاقة والاعتدال والجذب واللطافة والرقة والحلاوة . واخرج من خدور الافكار عرائس مثل جوليت واوفيليه اللتين صاغهما شكسبير في رواية روميو وجوليت ورواية هاملت . ولعلهما تشبهان ليلى التي افتتن بها قيس العامري على عهد الدولة الاموية ولقب لاجلها بمجنون ليلى . وفاطمة التي هام بحبها امرؤ القيس وقال لها « أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل » والنموذج الثاني ظهرت فيه جميع العيوب والعلل واتصف بالبشاعة والشناعة والهذيان والانهاك في الشهوات الحيوانية والرذائل الدينية وفي جر المنافع ولو بإيقاع المفاسد والجنايات . فهو فسيق ، دنيء ، شره ، مهذار ، بخيل ، طماع ، مرائي ، مفسد ، مفتن ، قواد ، غدار ، كذاب ، محتال . ويتمثل في صورة باصيل وفيغارو وتارتوف وهارباغون . والأول اسم راهب يحب مسايرة العاشقين على اهوائهم ولكنه كثير الطمع في اموالهم . والثاني اسم خادم نشيط ظريف قواد لسيده اوصله إلى معشوقته ومكنه من وصالها بمهارة حيله ودسائسه . وهما من الاشخاص التي أوجدها مارشه في رواية (حلاق اشبيلية) و(زواج فيغارو) ونكت بها على اخلاق المعاصرين من الفرنساويين قبل الانقلاب الكبير أي في عهد لويس السادس عشر والخامس عشر وبيّن اسرافهم واستهزأ بأفعالهم . وفي سنة ١٨٥٤ أي في عهد الامبراطورية الثانية انشأ احد الكتبة جريدة هزلية سماها (فيغارو) اشارة الى انها تخدم خدمة فيغارو مع التنكيت والتبكيت وعدم المبالاة بشيء ولا التعصب لامر . فاصبحت جريدة الفيغارو اليوم من أعظم الجرائد اليومية في باريس . و(تارتوف) نموذج الرياء وهارباغون نموذج البخل وهما من اشخاص روايات موليير . ويمكن ان يعد من هذا القبيل أيضاً أبوزيد السروجي في وعظه للناس بالمواعظ الحسنة ثم جمعه الفلوس واشترائه اللحم والخمر والجلوس للمنادمة مع غلامه كما هو موضح في

مقامات الحريري . فالجميل ليس له إلا نموذج واحد والقبيح له الف نموذج لان جمال الجميل ما هو إلا نسبي بالنظر إلى الانسان وباعتبار تركيب أعضائه والقبيح له نسبة وعلاقة مع غير الانسان فهو جميل بالنسبة إلى عموم المخلوقات وقبيح بالنظر للانسان وحده .

ففي القرون الوسطى نرى لكلام السخرية موقعاً بجانب الإعجاز بالفصاحة وكثر استعمال السخرية في الأدب في الرسم والتصوير والحفر وفي الاخلاق والعادات كالرسوم التي احسن في تصويرها المصور الشهير ميكل انجلو الطلياني والمصور مويلو الاسباني وابدع ما أتت به قريحته الراسمة التي نقش فيها كيفية الصعود إلى السماء ثم ظهر شكسبير وصار ملك الشعراء كما قال دانتي عن هوميروس ومزج كلام السخرية بكلام الاعجاز وصاغ منهما الدرام . فشكسبير هو ابو الدرام والدرام هو الخاصة المميزة للدور الثالث من ادوار الشعر والادب العصري وهو جامع للمرهب والمضحك من الكلام أي للكوميديا وللتراجيديا .

٢٦ - الاجمال

فاجمالاً لما تقدم لنا ذكره نقول :

ان الشعر له ثلاثة ادوار وهي الغناء والحماسة والدرام . ولكل منها مناسبة بدور من ادوار الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم . فالقرون الابتدائية غنائية . والقرون القديمة حماسية . والقرون الجديدة درامية والغناء يترنم في الأزل والحماسة تحتفل بالتاريخ والدرام يصور حياة الانسان . وخاصة الأول السذاجة . وخاصة الثاني البساطة . وخاصة الثالث الحقيقة . فرواة اليونان ـ ويسمونهم رابزود وهم اشبه برواة العرب الذي جاء منهم حماد الراوية وكانوا يطوفون القرى ويروون اشعار بندار وهوميروس وأيشيل ـ يدلون على دور الانتقال من الشعراء المغنين أي الناظمين لشعر الاغاني إلى الشعراء الحماسيين . والرومانيون أي مؤلفو الرومانات وهي الاقاصيص الموضوعة يدلون على دور الانتقال من الشعراء الحماسيين إلى الشعراء الدراميين . وبظهور الدور الثاني ظهر المؤرخون . وبظهور الدور الثالث ظهر الباحثون في حكمة التاريخ وبيان اسباب الوقائع وعللها .

وأشخاص شعر الاغاني عظام الاجسام طوال القامات والاعمار مثل ادم وقابيل وهابيل ونوح . ويدخل في زمرتهم عوج بن عناق . واشخاص شعر الحماسة من القوم الجبارين وهم أقوياء أشداء . مثل أشيل بطل الحروب اليونانية واستره آلهة العدل وأوريست بن اغاممنون الذي ألف فيه شعراء اليونان رواياتهم . ثم جاء فولتر ونسج على منوالها روايته المشهورة باسم اوريست . ويدخل في زمرتهم عنترة بن شداد . واشخاص الدرام هم بشرٌ على الصورة الحقيقية للانسان مثل هاملت وماقبت واوتيلو الذين صورهم شكسبير في رواياته المشهورة بهذه الاسماء . وربما دخل في زمرتهم أبو زيد السروجي في مقامات الحريري والشيخ علي بن منصور الحلبي في رسالة غفران المعري . ومنبع الاغاني الوهم والخيال ومنبع الحماسةوالعظمة والفخامة ومنبع الدرام الحقيقة . وتتفجر هذه الينابيع الثلاثة من ثلاثة بحور كبيرة التوراة وهوميروس وشكسبير .

فهذه هي أشكال الفكر المختلفة بحسب اختلاف القرون التي تقلب فيها الانسان والعمران . وهي في ثلاثة أدوار الشباب والكهولة والشيخوخة فسواء نظرنا في أدب أمة على حدتها أوفي أدب البشر على وجه العموم فالنتيجة التي نستنتجها من جميع ذلك واحدة . وهي تقدم الشعراء المغنين او الغنائيين وهم الناظمون أشعار الاغاني على الشعراء الحماسيين أي الناظمين شعر الحماسة . وتقدم الشعراء الحماسيين على الشعراء الدراميين . ففي فرانسا ماليرب (١٥٥٥ ـ ١٦٢٨م) سابق على شابلين (١٥٩٥ ـ ١٦٧٤م) وشابلين سابق على قورنيل (١٦٠٦ ـ ١٦٨٤م) والأول هو الشاعر الغنائي (ليريك) الذي اصلح اللغة الفرنساوية وقال فيه بوالو « وفي النهاية أتى ماليرب » . . فذهبت مثلاً . وأما الثاني فانتقد عليه بوالو في الشعر وسخر به حتى جعله اعجوبة وهزءًا . ويلقب الثالث بأبي التراجيديا وهي الروايات الفاجعات . وكذلك الحال عند قدماء اليونان فشاعرهم المسمى (اورفيوس) متقدم على هوميروس . وهوميروس متقدم على (أيسيل) الملقب بابي الترجيديا اليونانية . وفي كتاب العهد القديم أي التوراة سفر التكوين متقدم على سفر الملوك وسفر الملوك متقدم على سفر ايوب عليه السلام . وإذا نظرنا في أدب البشر على وجه العموم نرى التوراة قبل الإلياذة والالياذة قبل شكسبير .

ولا غرو في ذلك فان الاجتماع الانساني الذي هوعمران العالم يبتدىء في الترنم

بما يتخيله . ثم يقص ما يعمله . ثم يصور ما يفتكره . فالدرام يجمعه بين الاوصاف المتضادة كان أوعب للأفكار الفلسفية والتصورات العميقة . وكل ما في الطبيعة ومافي الحيـاة يتقلب في هذه الاشكـال الثـلاثة وهي الغناء والحماسة والدرام . لان كل ما في الـوجـود يولـد ويعمـل ويمـوت . ولو أبيح التعبير عن الحقائق البرهانية بالتخيلات الشعرية لقال الشاعر بلسان الشعر ان الشمس عند طلوعها ترنم بالغناء وعند القائلة أي الظهـيره تفـاخـر بالحـماسـة وعنـد الغـروب تفجـع بالمصيبـة وهي الـدرام . فهذ التعبير هو من باب الشعر وربما كان ضرباً من الجنون . انتهى كلامه ببعض تصرف وزيادة .

ثم شرع صاحب مقـدمـة كروميل في الرد على اصحاب الطريقة المدرسية في تقسيمهم الشعر الى الاجناس التي سبق ذكرها في الكلام على بوالووفي تحديدهم كل جنس منها بالحدود والتعاريف وفي تفريقهم بين التراجيديا والكوميديا . وابطل قولهم بلزوم وحـدة الـزمـان والمكـان في الـروايات التمثيلية ولم يقبل من وحداتهم الثلاثة الا وحدة العمل . وقد ضربنا صفحاً عن ايراد كلامه في هذه المباحث مراراً من التطويل ولان الـروايـات التمثيليـة على ما فيها من الفوائد الجليلة في أساليب البلاغة لم تشتهر لهذا الزمان بين المتكلمين بالعربية ولا اعتنى فحول ادبائنا في تأليف الروايات لا بالنظم ولا بالسجع ولا بالنثر كما فعلت النشأة الجديدة من ادباء اللسان العثماني .

وقد حض فيكتور هوكو في تلك المقدمة على تأليف روايات (الدرام) بالشعر لا بالنثـر وقـال : بان بيت الشعـر يحيـط بالمعنى احاطة الثوب الافرنجي بالبدن ويضيق عليـه ويـوضحـه معـاً . ويعطيه شكلاً الف وادق وأتم من شكل النثر . ويديره علينا كأنه نوع من أنواع الاكسير الذي استخرجه الكيميائيون من خمير الذهب وزعموا ان فيه لذة للشاربين وشفاء للأجسام من جميع العلل والاسقام . فبيت الشعر على رأي فيكتـور هوكـو هو القـالب الشفـاف للمعنى . وإذا تلطف الشـاعـر في نظمه وانشائه اكسب المعنى رونقـاً لولا بيت الشعـر لمرّ ذاك المعنى غير ملتفت اليـه . فالشعـر هو العقدة التي تربط سلك المعاني أو المنطقة التي تضم حواشي الهدم على الجسم وتطويه طيـات متنـاسبـة بالهنـدام . والشعـر يزيـل من الالفـاظ ما هوسوقي مبتذل أو عامي سخيف ويكسب المعاني حلاوة وطلاوة ورشاقة . سيما اذا قتصر الشاعر على استعمال الالفـاظ المتعـارفـة بين النـاس المتـداولة على الالسن . وترك ما كان وحشيًا غريباً في اللغـة . وعـرض فيكتـور هوكـو بالذاهبين إلى ان « أعذب الشعر اكذبه » بقوله ليت

شعري ما الذي يضيع من الشعر ان دخلت فيه الطبيعة والحقيقة ؟ وهل تنقص الخمر صفة من أوصافها ان وضعت في اباريق الزجاج وختم عليها ؟ كلا بل تصير رحيقاً معتقة ختامها مسك يتنافس بها المتنافسون . وختم المؤلف مقدمة كروميل بيان المقتضى للشاعر من النسج على منوال الطبيعة (لأن كل ما في الطبيعة هو في صناعة الشعر) . وان كان الشاعر جيد القريحة فلا حرج عليه في شيء من القواعد وله الحرية المطلقة في التصرف بجميع افانين الشعر على حسب ما يرتئيه .

فهذه خلاصة مقدمة كروميل الشهيرة بين الأدباء على اختلاف لغاتهم وتباين مذاهبهم . ومنها يفهم ان الطريقة الرومانية ارجعت الشعر الى الحقيقة والطبيعة والحياة وتركت فيه التصنع وزخرفة الكلام واجراس الالفاظ ولم تلتفت إلى زعم اهل الطريقة المدرسية بان زخرف القول من مقتضى الذوق السليم للشاعر . وازالت جميع الحواجز التي تعرض امام سجية الطبع وتصد الفكر عن تصوُّر الحقيقة وتوصيف الموجودات بحسب ما هو مغروس في جبلة كل منها سواء كان من صفات القبح او صفات الجمال بلا تفريق بينهما . ولذا نكتت بعض الجرائد بقولها على سبيل القريظ والتبكيت : « فليعش الانكليز والالمان . فلتعش الطبيعة الهمجية الوحشية التي نشاهد جمالها في اشعار فيكتور هوكو واخوانه من أهل الطريقة الرومانية » . اشارة الى ان اساليب هذه الطريقة أو ما ظهرت في أدب الانكليز والالمان كما تقدم بيانه . وعرف بعضهم الروماني أي السالك نهج الطريقة الرومانية « بأنه رجل ابتدأ عقله في الاختلال » .

فمن امعن النظر في المبحث الاخير من تلك المقدمة وجده مطابقاً لما ذكره أئمة البلاغة والادب في لسان العرب كابي بكر الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وابن خلدون وامثالهم . ولا حاجة لايراد اقوالهم في هذا الباب فانها معلومة ومحصلها وجوب نصرة المعنى على اللفظ لان الالفاظ خدم المعاني . قال الباقلاني « والشعر ان ضيق نطاق القول فهو يجمع بحواشيه . ويضم اطرافه ونواحيه . فهو اذا تهذب في بابه . ووفى له جميع اسبابه . لم يقاربه من كلام الآدميين كلام ولم يعارضه من خطابهم خطاب » وقول فيكتور هوكو بان الخاصة المميزة لأدب الطريقة الرومانية عن غيره هي الجمع بين نموذج السخرية ونموذج الاعجاز بالفصاحة اشبه بقول المتنبي « وبضدها تتميز الاشياء » ولعل السبب الذي حمل المتنبي والمعري على ترك اساليب الجاهلية

والنسج على منوال جديد هو الذي ذكره فيكتور هوكو من ان اساليب المتقدمين كانت معتبرة في بادىء امرها ثم باضطرادها على قياس واحد مراعاة للقوانين ثقلت على السمع وملها الطبع وسترى حقيقة ذلك في التعريف الآتي للطريقة الرومانية .

أما عدم تعرض فيكتور هوكو لأدب العرب كما تعرض لأدب الأمم الاوروبية ولأدب الفارسية العذبة فهو لجهله ـ سيما في ذاك التاريخ الذي ألف فيه مقدمته ـ بفصاحة العرب وإعجاز القرآن وحضارة الاسلام . فإن التمدن العربي لم يُدرس حق درسه ليومنا هذا . ولم يزل صاحبنا المستشرق البودابستي العلامة كولدزير يحض المستشرقين من كل أمة على التعاون والاشتراك في تأليف دائرة للمعارف الاسلامية . فان تم هذا المشروع وأنجزت ترجمة المهم من الكتب العربية ربما تيسر بعد ذلك للباحث الاطلاع على كنه العلوم والآداب الاسلامية . ولم يزل المستشرقون يترجمون في الصوربون القرآن الكريم وتفسير البيضاوي ترجمة صحيحة ولايكملون في كل سنة اكثر من بضع صحائف . ولم يترجم كلام المعري سوى وريقة فيها نحو مائتي بيت نشرت بالالمانية في فيينا عاصمة النمسا سنة ١٨٨٨م . فهم يتقربون من فهم حقيقة الادب العربي رويداً رويداً . وقد رأينا فيما تقدم ان صاحب أغاني رولان يعتقد بان الاسلام فرع من عبادة الاصنام ويحسب بوالون من جملة أوثان المسلمين . ولو علم فولتير من أحوال الشرق ما يعلمه علماء هذا العصر لاستحى من نفسه ومزق الراية التي حررها باسم « محمد النبي » عليه السلام وقدمها للبابا بنوا الرابع عشر بعد ان سجد لديه وقبل قدميه (١) .

ولما ذهب فيكتور هوكو لاسبانيا رأى آثار العرب في المباني والقصور والقناطر وقدرها حق قدرها ولكنه لم يفهم من الآيات والابيات المنقوشة على جدرانها أكثر مما نفهمه من احرف الصين المنقوشة على البضائع الصينية ولاسيما على علب الشاي . ولما ظهر رينان وصار شيخ العلماء في عصره درس ادب العرب الاندلسيين من حيث الفلسفة ولخص ما حققه في كتاب سماه « ابن رشد » . فقام اليوم البارون قرا دوفو معلم العربية في الانستيتو الكاثوليكية بباريس ونشر كتابين احدهما « ابن سينا » والثاني

(١) قدم فولتير روايته المذكورة مع تحرير منه للبابا ختمه بالسجود بين يديه ولثم قدميه وكان ذلك منه رياء فحمله البابا على ظاهره وأجاب عليه بجواب لطيف مؤرخ ١٩ سبتمبر سنة ١٧٤٥ .

« الغـــزالي » ودرس في الأول ادب العـــرب وفلسفتهم الشــرقيـة وفي الآخـر علومهم الكـلاميـة والالهيـة . فالكتب الثـلاثـة المـذكورة من أحسن ما حرر في هذا الصدد . ولكن المـوضـوع محتـاج الى تعمق وتدقيق . ولا يتيسر ذلك الا بعد استخراج الكتب العـربيـة وفهمهـا . وقد خبط رينان في بعض ما حرره عن الاسلام خبط عشواء وفتح لشـارل ميـزمر وامثاله باباً للاعتراض عليه : كما ان البارون الكاثوليكي تعصب على ابن سينـا والغـزالي في ما حرره . ومـع هذا قال رينـان في الخطـاب الـذي نشـره سنة ١٨٨٣ م « بان اوربـا ظلت منحطـة في العلم والادب عن العـالم الاسلامي وخاضعة فيهـما اليـه حتى أوائـل القـرن الثـالث عشر . وفيه أخذ العالم المسيحي يرقى درجات العلم والعمـران والعـالم الاسـلامي يهبـط في الـدرك الاسفـل من الجهـل وانحطـاط الحضارة . واندثرت علوم العرب بعدما لقحت جراثيم الحياة في جسم العالم اللاتيني الغربي واستمر المترجمون من سنة ١١٣٠ م الى سن ١١٥٠ يترجمون في مدينة طليطلة كتب العلم من العـربيـة الى اللاتينية وهم تحت حماية الاسقف ريموند . وفي السنين الاولى من القرن الثالث عشر شرعت مدرسة باريس الكلية في تدريس كتب ابن رشد ارسطـو طاليس العـرب . امـا ارتحال البابا سيلفتر الثاني لطلب العلم في أشبيلية وان كان مشكـوكـاً فيـه فقسطنطـين الافـريقي علامـة عصره لا شبهة في أخذه العلم عن المسلمـين » . اهـ . وقسطنطـين الافـريقي الـذي يذكره رينان ولد سنة ١٠١٥ م في قرطاجنة وبعد ان حصل علوم الطب والحكمة صار كاتباً لاحد الامراء ثم دخل سلك الـرهبنـة في ايطـاليا وادخل فيها علوم العرب وله مجموعتان كبيرتان باللاتينية طبعتا في بال سنة ١٥٣٩م .

ودام قول فيكتـور هوكـو هو المعـول عليه في الطريقة الرومانية إلى ان اشتهرت الطـريقـة الطبيعيـة (نـاتـوراليزم) في سنة ١٨٦٠ على عهد الامبراطورية الثانية وقام اصحـابهـا ينـاقشـون فيكتـور هوكـو وشيعتـه وينتقدون عليهم . على ان الرجل وان ظهـرت له معجـزات في آيـات البيـان فهو ليس بنبي ولا تجب لهم العصمة عن الخطأ والنسيان ومن هو الرجل الذي تحمد كل سجاياه ؟ ومن هو المبرأ من كل عيب ؟ وكفاه نبـلاً انـه خطا في الادب خطوة للامام ومهد الطريق لمن اتى بعده ولولا ظهور الطريقة الرومانية لما ظهرت الطريقة الطبيعية ولاحصل ارتقاء ونهضة في الادب . ثم ان مقدمة كرومـويـل وان بحث فيهـا المؤلـف عن تاريـخ الأدب وبيـان الخـاصـة المميزة لأدب

الطريقة الرومانية عما سواه فهي أحق بأن تكون تعريفاً لنوع الدرام وحده وهو فن من فنون الشعر والأدب . وأما التعريف الشامل لجميع ما حرر من فنون الادب على نهج هذه الطريقة المستحدثة منظوماً كان أو منثوراً فهو ما يأتي . إذ من شرط التعريف ان يكـون جامعـاً للافـراد مانعاً من دخول الأغيار فيه . ولا يكفي أن يكون منطبقاً على فرد من الأفـراد فقـط . وتعـريف الطـريقـة الـرومانية تعريفاً جامعاً مانعاً ليس بالأمر السهـل ولا يتيسـر إلا بالنظـر في الخـواص الظـاهـرة والمشـتركة بين جميع فنون الأدب المنسوجة على أساليب الطريقة الرومانية والمنشأة في قوالبها .

٢٧ ـ تعريف الطريقة الرومانية

الطريقة الرومانية هي أدب يبحث فيه عن مشاعر النفس وبدائع المخلوقات . وهـذا الأدب قسم من الشعـر الموسيقي او الغنائي الممتاز بخاصته الشخصية كما سبق تعريفه . وبيان الفرق بينه وبين شعر الحماسة والدرام . فاذا نظرنا في أعراض النفس نجـدهـا على نوعين أحدهما أعراض قائمة بالنفس كالشعور بالحب والرجاء والشعور بالبغض واليأس والشعـور بالفـرح والطرب والابتهاج أو بالحزن والغم والانقباض . . والثاني انفعالات تحصل للنفس بواسطة الحواس الخمس وهي البصر والسمع والذوق والشم واللمس . فهـذه الحـواس منهـا ما هو حائز على الصفة التمثيلية للعالم كالبصر والسمع وهما بهذه الصفة آلات يبني الانسان بها العالم الخارجي الذي يحمل صورته في نفســه . ومنهــا ما لم يحز على هذه الصفـة التمثيليـة بسهـولـة وبـلا واسطـة كبعض الانفعـالات العضليـة وحـاستي الشم والـذوق عنـد أكثـر النـاس . فأهـل الطـريقة الـرومـانيـة اكتفـوا بالتعبيـر عن النوع الاول وعن القسم الأول فقط من النوع الثاني وصـوروا بدائـع المخلوقات بصور يخال منها للقارىء أنه يسمع ويرى . كما يتضح لمن طالع وصفاً من أوصاف فيكتور هوكو في مناظر الطبيعة وأصواتها في بيان حنين النفس وانفعـالاتهـا . وتركوا التعبير عن القسم الثاني من النوع الثاني أي عن الحواس التي لم تحز الصفة التمثيلية لخلفائهم من المتأخرين وهم أهل الطريقة الطبيعية الذين قادهم أميـل زولا . فصـور هذا الإمـام في الأدب حقيقـة كل ما بحث فيـه وتكلم عنه ومثله تمثيـلاً حقيقيـاً وعـبر عن حاسم الشم بما كتبـه عن الهـال وهو سوق الخضر في باريس

وجعل القارىء يشم ما فيه من روائح السمك والقديد فضلا عما يسمعه من جلبة البائعين والمشترين ويراه من السلع والمركبات وانهماك الغادي والبادي في الاخذ والعطاء .

ثم إذا نظرنا في ما حرره الشعراء والأدباء من أية أمة وفي أي لسان نجد منهم من يتكلم عن شعور وتصور . ومنهم الذين يقولون ما لا يفعلون وينظمون قصائد الغزل والرثاء وهم لا يشعرون بشيء من الغرام أو التفجع ويمدحون الممدوح قبل معرفته ويصفون الحبيب قبل مشاهدته ويهيمون في ذكر الطلول والرسوم وفي التشبيه بالشمس والقمر والترشيح بكثرة الرماد وطول النجاد حتى يلتبس الامر على السامع فلا يدري هل القائل من أهل القرن الرابع عشر للهجرة أم من الذين مضوا قبل البعثة . فمن شرط السالك نهج الطريقة الرومانية أن يتكلم عن مشاهدة وتصور وشعور وإحساس وانفعال وتأثر واعتقاد واقتناع . وإذا سمع العامي شيئاً من كلامه في الحب مثلاً قال هذا كلام عاشق محروق . وإلى ذلك أشار ابن زشيق فيما نقل عنه من كتاب العمدة بأن من بواعث الشعر العشق والانتشاء ومن شروطه الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والأزهار وكذا المسموع من غناء البلابل وطنين الأوتار . فاهتمامنا بانفعالات الشاعر التي ليست بانفعالاتنا وبإحساسه الذي ليس بإحساسنا إنما هو لكوننا بشراً . والشاعر بشر مثلنا . فبيننا وبينه مشاركة في الطبيعة وفي منبع الحس والانفعال . ويزيد الشاعر عنا باقتداره على الإبانة عن المعاني الكامنة في نفسه ونفوسنا . لأن له سجية الشعر وملكة راسخة في التعبير عن شعوره واحساسه . ولعل هذا مقصد ابن خلدون في قوله « المعاني موجودة عن كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا يحتاج إلى صناعة . وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة . فالذي في اللسان والنطق انما هو الالفاظ وأما المعاني فهي في الضمائر » . قال الفيلسوف الالماني هيكل : « لا تكون شهوات النفس وعواطف القلب من معاني الشعر الا إذا كانت عامة ، متينة ، دائمة » بحيث يكون الشعر المشتمل على شهوة من شهوات النفس أو عاطفة من عواطف القلب مؤثراً في كل من قرأه أو سمعه . ويكون هذا التأثير دائماً في جميع الازمان مثل الايلياذة والاوذيسة وماهابهارته ورامايانا المؤلفة قبل الميلاد بقرون كثيرة . ولا يكفي ان يكون الشعر مؤثراً على فرد من افراد معدودة في مجلس أو مجالس محدودة . وقول امرىء القيس « قفا نبك من ذكرى حبيب

ومنزل » يؤثر على جميع الخبيرين بلسان العرب في عصرنا هذا وفي العصور الآتية كما أثر على آبائنا الاولين في العصور الخالية . فالكلام العالي المتين المنسوج على منوال الطريقة الرومانية هو الذي تشخص فيه الانسانية . وتأثيره على السامعين انما هو من جهة عمومه وشموله في تصويره ما في سويدآء القلب من العشق والغرام والهموم والأحزان ، وفي وصفه المناظر المبهجة التي في الطبيعة ، وبيان مالها من الاشكال الغريبة البديعة ، وفي استطلاعه حالة الانسان وحظه من هذا العالم على حد قول الشاعر العربي :

سبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامه
أعمى وأغشى ثم ذو بصر وزرقاء اليمامة

فالسالك نهج الطريقة الرومانية لا يكتفي بقوله لا عتاب ولا ملامه بل يسأل في كل موضع من كلامه من نحن ؟ إلى اين ذاهبون ؟ ويفكر في هذا السراج الذي يضيء فينا مدى العمر ثم ينطفىء بالموت . وفي أمر هذه الحياة التي تجري كالسيل ثم تنقطع . فيستفهم عن هذه الأنانية المختفية فينا وعن معنى (أنا) ؟ ويقول ماهو هذا الموت الذي يطفىء سراج العمر ويقطع مجرى الحياة ؟ هل هو نهاية أو وقفة أو باب تمر به من برزخ لبرزخ ؟ ماذا يوجد وراء ذلك ؟ والحاصل ما هو السبب ؟ ماهو سبب (أنا) الموجود ؟ ما هو سبب هذا العالم الذي أعكسه في نفسي ؟ فان كان المفكر بما ذكر قادراً على تأليف شيء موافق لأساليب الطريقة الرومانية فهو يفتش عن هذا الشيء في خفقان قلبه وفي مناظر الطبيعة . فأدب الطريقة الرومانية تشف معانيه عن الخشية الحاصلة لأصحابه مما وراء الطبيعة . وهذه هي الخاصة المميزة له والمظهرة لعظمته واعتلائه . وفي تصويره الاحساس الباطني وتوصيفه مناظر الطبيعة يعطي الانسان فكراً عن الامر الكلي ويرمز لهعن المجهول .

فموضوع أدب الطريقة الرومانية هو مجموع هذه الانفعالات الشخصية المختصة بكل فرد من أفراد الانسان وتلك الشروط الضرورية للمجتمع الانساني . فهذا جلُّ ما يبحث فيه السالكون نهج الطريقة الرومانية . ويبقى عليهم ما ذكرناه في قواعد الطريقة المدرسية من تمام النسبة بين أساس الفكر وشكل التعبير أي فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى ووجود الموازنة بين التخيل الشعري وبين التعقل واتباع الصدق والحقيقة في الشعر . فاهل الطريقة الرومانية لا يهتمون بالقواعد التي وضعها علم

النفس (بسيكولوجي) لا بالحقائق العلمية . وليس لهم عناية بصناعة التفكير ولا بصناعة التعقل . وانما دليلهم في النظم والنثر الإحساس . بخلاف أهل الطريقة المدرسية فان دليلهم في ذلك العقل والذوق السليم . وهذا ما جعل لمؤلفاتهم التي ألفوها في القرن الثامن عشر وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر فائدة وقيمة وندرة . . فالطريقة الرومانية تتميز عن الطريقة المدرسية بأمرين أحدهما نفي والثاني عكس قضية :

أما النفي فهو عبارة عن حذف القواعد التي أسست عليها المؤلفات الادبية ونفيها عن الأدب . وكانت هذه القواعد على ثلاثة أنواع . (١) تعريف كل من الفنون الأدبية على حدته كالغزل والمدح والرثاء والهجاء . . الخ والتفريق بينهما تفريقاً لا اتصال فيه . (٢) وضع قواعد لكل فن من هذه الفنون من شأن هذه القواعد توحيد النموذج وتغليبه على جميع الامزجة المختلفة . (٣) قواعد الذوق وهي التي تعين حدًّا للشاعر في اختيار أساليب التقليد وكيفيات التعبير وتحصر فكره .

وأما عكس القضية فهو عبارة عن العمل بضد ما عمل به أرباب الطريقة المدرسية فادب القرن الثامن عشر في جمع أوربا كان على أساليب أدباء الفرنساويين الذين نبغوا في عصر لويس الرابع عشر أوفي القرن السابع عشر مثل كورنيل وراسين وبوالو وموليير وهؤلاء نسجوا على منوال المتقدمين من اليونان والرومان واختاروا مواضيعهم من القرون القديمة كما هو الحال في رواية (استير) و(اتالى) و(اندروماق) الخ . وأما أهل الطريقة الرومانية فاتخذوا مواضيعهم من القرون الوسطى والبلاد الأجنبية وتاريخ النصرانية كما هو الحال في رواية (فوست) و(كليوم تل) وجميع روايات فيكتور هوكو التمثيلية .

فالطريقة الرومانية وسعت أولاً دائرة الأدب . أوبالحري نقلت هذه الدائرة من مركزها لمركز آخر . ثم مزجت أساليب الفنون الأدبية من تراجيديا وكوميديا بعضها ببعض . فنشأ عن ذلك تشويش في بادىء الأمر ثم ظهر من هذا التشويش ترتيب جديد . وجاء الأدباء بشعر موسيقي وأدب مبهج وتاريخ حي . فالطريقة الرومانية أزالت تلك الأساليب المعينة المحدودة التي من شأنها أن تمنع الشاعر من أن يتصرف فيها بفكره واختياره كما انها أزالت عن السبك والانشاء هاتيك العوائد الاستبدادية التي من خصائصها أن تصفي إلهامات الشاعر وترفع منها الغرابة . فبتغييرها أساليب

الفنـون والقـواعـد والـذوق واللغـة والعـروض وضعت الأدب في قالب غير معـين .
وسـاقت أدبـاء العصـر الجـديـد للتحـري بكـل حريـة على أسـاليب وقـواعد وفنون جديدة . فعثروا أول الأمر على قواعد الطريقة الطبيعية وهـم الآن شارعون في وضع قواعـد للطـريقـة الانسـانية . ويتقربون بذلك الى الكمال شيئاً فشيئاً ويرقون معارج البلاغة درجة فدرجة .

فاذا تأملنـا كلام المعـري ومن سلك مسلكـه من الشعراء نجد فيه اهتماماً زائداً بأمـر الآخـرة وبـما بعد الموت وتفكيراً عميقاً في خلق السموات والأرض ودهشة مقلقة وحـيرة زائـدة وانفعـالاً نفسـانياً وإحساساً غريباً . فكان كلامه يدخل تحت التعريف المتقـدم ذكـره للطـريقـة الرومانية . ولكن بسبب فقده حاسة البصر التي لها المكان في هذه الطـريقـة لم يتيسـر له وصف الطبيعة وصفاً لائقاً بها وبفصاحة لسانه . ولاحاجة لايراد مثال من كلام المعري فان كل كلمة من اللزوميات تشعر بهذه الدهشة والخشية والحـيرة والانفعـال والاحساس والتألم ألماً يهون معه الموت ولا يحسب بجانبه مصيبة .
وهذا بخلاف الجاحظ الذي يقول في أول كتاب الحيوان :

« جنبـك الله الشبهـة . وعصمك من الحيرة . وجعل بينك وبين المعرفة سبباً وبـين الصـدق نسبـاً . وحبب اليـك التثبُّت . وزين في عينـك الانصاف . وأذاقك حلاوة التقـوى . وأشعـر قلبـك عز الحق . وأودع صدرك برد اليقين . وطرد عنك ذل اليأس . وعـرفـك ما في البـاطـل من الزلة . وما في الجهل من القلة » . فهوبعيد عن القلق والحـيرة متثبت في الفكـرة . وتأليف الكـلام على هذا النمـط يسمى طريقـة الجاحظ وهي مخالفة لطريقة السجع .

وقـد تصـدى ابن رشيق (٣٩٠-٤٦٩ هـ) لما تصـدى اليـه بوالو ووضع كتابا في قواعد الشعر سماه العمدة . قال ابن خلدون « وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة واعطاها حقها ولم يكتب فيها احد قبله ولا بعده مثله » . فليت شعري هل اطلع على شيء من مؤ لفـات اليونان في قواعد الادب والبيان كالذي الفه ارسطو طاليس وترجم شيئـاً منـه ابن رشيـد في القرن السادس للهجرة والذي الفه البياتي لونجين الحمصي وتـرجمـه بوالـو للفـرنسـاويـة وسـماه (رسـالة الاعجاز) فان ادباء العرب كان لهم عناية بالقـواعـد الادبيـة باعتبـار انهـا من جملة المنطق والفلسفـة وان لم يعتنوا باشعار اليونان وروایاتهم التمثيلية . وكان ابن رشيق في القيروان فلما حدثت فيها الفتنة فرَّ منها الى

جزيرة صقلية ونزل مدينة (مازر) وأقام بها إلى ان توفي ودفن بمقبرتها . وكان الافرنج مستولين على بعض الجزيرة والمسلمون في بعضها الآخر . ولعل ذلك كان على عهد رجار الأول (روجر) . ونظن البعوض آذى ابن رشيق ايام فراره ومحنته حتى قال :

يارب لا أقوى على دفع الاذى ... وبك استعنت على الضعيف الموذي
مالي بعثت إليَّ الف بعوضة ... وبعثت واحدة إلى نمروذ

وله غير كتاب العمدة أيضاً (الانموذج) وكتاب الشذوذ وهو جامع لشواذ اللغة (وقراضة الذهب) . وقد تصدى لوضع قواعد الشعر وبيان اساليبه كما يفهم من القصيدة الآتية المفردة له وهي اشبه شيء بقصيدة بوالو التي جمعت فاوعت قال :

لعن الله صنعة الشعر ماذا ... من صنوف الجهال منه لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما ... كان سهلاً للسامعين متينا
ويرون المحال معنىً صحيحاً ... وخسيس الكلام شيئاً ثمينا
يجهلون الصواب منه ولايد ... رون للجهل انهم يجهلونا
فهم عند من سوانا يلامو ... ن وفي الحق عندنا يعذرونا
انما الشعر ما يناسب في النظم ... وان كان في الصفات فنونا
فاتى بعضه يشاكل بعضاً ... وأقامت له الصدور المتونا
كل معنى اتاك منه على ما ... تتمنى ولم يكن أو يكونا
فتناهى من البيان إلى أن ... كان حسناً يبين للناظرينا
فكان الالفاظ منه وجوه ... والمعاني ركبن فيها عيونا
فاذا ما مدحت بالشعر حرًّا ... رمت فيه مذاهب المشتهينا
فجعلت النسيب سهلاً قريباً ... وجعلت المديح صدقاً مبيناً
وتعليت ما يهجن في السمع ... وإن كان لفظه موزونا
وإذا ما عرضته بهجاء ... عبت فيه مذاهب المرقبينا
فجعلت التصريح منه دواء ... وجعلت التعريض داء دفينا
وإذا ما بكيت فيه على العا ... دين يوما للبين والظاعنينا
حلت دون الاسى وذللت ما كا ... ن من الدمع في العيون مصونا
ثم ان كنت عاتباً جئت بالوعـ ... د وعيداً وبالصعوبة لينا
فتركت الذي عتبت عليه ... حذراً آمنا عزيزاً مهينا

وأصح القريض ما قارب النظم وإن كان واضحاً مستبينا
فاذا قيل أطمع الناس طرًّا وإذا ريم اعجز المعجزينا

فذكر ابن رشيق من صنوف الشعر أو فنونه المدح . والنسيب . والهجاء بالتصريح اوبالتعريض . والرثاء . وفرقة الاحباب . والعتاب بالوعد اوبالوعيد . وذكر غيره من هذه الصنوف بكاء الديار واهلها فقال :

وإذا بكيت به الديار وأهلها أجريت للمحزون ماء شوونه

فبوالو ذكر هذه الاجناس او الانواع في قصيدته (صناعة الشعر) وزاد عليها التراجيديا والكوميديا والايبوبة وعرف كل نوع منها وجعل له احكاماً وقواعد كما مر . وتوسع في هذا البحث حتى تألف من كلامه رسالة مطولة .

٢٨ ـ مؤلفات فكتور هوكو

طبعت مؤلفات فيكتور هوكو مراراً عديدة في قطع متفاوتة في الصغر والكبر ومنها ما هو مزين بالتصاوير والرسوم البديعة ومنها ما هو على أجمل ورق وتمكنت المعامل الاوربية من طبخه وصقله . وآخر طبعة طبعت للجمهور في أجزاء صغيرة الحجم (قطع ٣٢) يقرب عددها من ثلاثمائة جزء ثمن الجزء ٢٥ سنتيما . وواسط هذه الطبعات ما كان بالقطع المثمن في ٤٨ مجلداً ثمن المجلد عشرة فرنكات يضاف اليها اثنا عشر مجلداً طبعت بعد وفاة المؤلف فيبلغ بذلك عدد المؤلفات ستين مجلداً . منها ١٦ مجلداً في الشعر وهي : (والارقام بين الاقواس عدد المجلدات) :

(١) المدائح والمطربات
(١) الشرقيات . أوراق الخريف .
(١) اغاني الشفق . الاصوات الداخلية . الاشعة والظلال .
(١) القصاص (٢) التأملات أي سانحات الفكر .
(٤) سير الدهور
(١) اغاني الشوارع والاحراج (١) السنة المهولة
(١) صناعة كون الانسان جدًّا
(١) البابا . الرحمة العالية . الاديان والدين . الحمار

(١) رياح العقل الأربع
ومنها خمسة مجلدات في الروايات التمثيلية المنظومة وتسمى « درام » وهي :
(١) كروموبل
(١) ايرناني . ماريون دولورم . الملك تيسلي
(١) لوكريس بورجيا . انجلو . ماري تيدور
(١) روى بلاس . اسميرالده . بورغراف
(١) توركماده . امي روبار .
ومنها أربعة عشر مجلداً في القصص وتسمى « رومان » وهي :
(١) هان الاسلاندي
(١) بوغ جارغال . آخر يوم من أيام المحكوم عليه أو قلود كو
(٢) نوتردام دوباري أو كنيسة باريس الجامعة
(٥) البؤساء
(٢) المشتغلون في البحر وفي مقدمته ارخبيل بحر المانش
(٢) الانسان الضاحك
(١) ثلاث وتسعون
ومنها ثلاثة في التاريخ وهي :
(١) نابوليون الصغير
(٢) تاريخ جرم
ومنها مجلدان في السياحة عنوانهما (نهر الرين) .
ومنها مجلدان في الفلسفة احدهما أدب وفلسفة والآخر وليم شكسبير
ومنها ستة مجلدات في الأقوال والاعمال وهي :
(١) قبل النفي
(١) مدة النفي
(٢) بعد النفي
(٢) فكتور هوكو تاريخه .
هذا ما سلمه الشاعر بعد التنقيح والتهذيب للطبع فنشر في حياته . وله مؤلفات أخرى جمعت من التساويد التي سودها والاوراق التي تركها وطبعت بعد وفاته

بغير تصحيح في اثني عشر مجلداً وهي :

(١) الاشياء المرئية (١) الله (١) عاقبة الشيطان (٣) كل العود

(١) المرسح الحر (١) التوائم (١) مراسلات الخطيبة .

(١) السياحة في فرانسا والبلجيك (١) السياحة وفي جبل الالب في جبل البيرينة

(١) السنون المشؤومة .

فما ينشر بعد موت المؤلف يسمى (Posthumes) ويجوز فيه التنقيح والتهذيب عند اعادة طبعه . والذي ينشر في حياة المؤلف يسمى (ne Varietur) أي الذي لا يتغير ولا يجوز التبديل فيه بعد وفاة صاحبه ولا تحريف الكلم عن مواضعها . ولو وجد من يتحرى في اوراق فيكتور هوكو لربما تمكن من استخراج مجلد أو مجلدين أيضاً . كما جمعت اخيراً المكاتيب التي حررها العلامة رينان لامه وهو في المدرسة حديث السن وطبعت في مجلد . ولعل القارىء يستكثر عدد هذه المؤلفات التي لا يجد الانسان وقتاً لمطالعتها فضلاً عن تحريرها وسبك انشائها ولاسيما ما يحتاج منها لدقة وتلطف كقرض الشعر ونظم الروايات التمثيلية . ولكنه إذا تأمل في همة رجال العلم والأدب واقدامهم زال استغرابه وعلم ان ملكتهم رسخت في النظم والانشاء حتى صار التحرير طبيعة ثانية لهم كالكلام . وانا نشاهد المبعوثين في مجلس نواب الامة يتكلم الواحد منهم الساعات الطوال بدون أن يتلعثم ويضبط كلامه بالاصول المعروفة بالاستنوغرافيا وينشر في جرائد المساء فيملا الاعمدة الكثيرة والصحائف الكبيرة . وقد بلغنا عن مبعوث في بلاد المجرانه تكلم في موضوع اثنتي عشرة ساعة بحيث انه بدأ في الصباح وبعد استراحة الظهر عاد لموضوعه واكمل بحثه في اليوم الثاني . فتألف من كلامه مجلد ضخم . ولو قرأنا فهرست الكتب التي الفها الكندي والرازي واصحاب المعاجم والتأليف الضخمة لوجدناها تقارب هذا المقدار أو تزيد عليه . ورأينا في ما تقدم ما ألفه العرب في افانين الادب من المؤلفات الكبيرة ككتاب الايك والغصون للمعري ونحوه . على ان لفيكتور هوكو معنيين في اعماله . فتاريخ فيكتور هوكو في مجلدين حررته زوجته الشرعية الشاهدة على حياته . وكانت الممثلة البارعة جوليت دروه تنسخ له وهو يملي عليها . وربما كتب له أيضاً الشاعر اوغست فاكيري . وحرر ابنه فرنسوا من جزيرة كيرنزي لاحد أصحابه في فرنسا يقول :

« نحن كلنا نشتغل . والدي يتمم نظم الحماسات الصغيرة . وشارل يصنف روماناً وانا اتحف فرنسا بشكسبير واجتهد بان أكون ترجماناً صادقاً لهذه القريحة الواسعة » .

وفي الحقيقة ان فرانسوا هوكو ترجم مؤلفات شكسبير احسن ترجمة فطبعت في ثمانية عشر مجلداً بعد ان عرضها على ابيه واستكتبه عليها المقدمات والحواشي . فجميع المؤلفات كانت تعرض على فيكتور هوكو وبعضها يطبع باسمه لانه كان رأس هذه العصبة ومدير هذه الجمعية المؤلفة من زوجته وصاحبته واولاده واصحابه . ولم يزل صغار الكتبة والشعراء في اوربا ينسبون مؤلفاتهم واشعارهم الى مشاهير الرجال ترويجاً لها وانفاقاً لبضاعتهم في سوق العلم والأدب . فان المؤرخ الشهير الفرنساوي ميشله المستند في مؤلفاته على القصص التاريخية التي ألفها والترسكوت الانكليزي نسب لنفسه في التاريخ الطبيعي الكتب الاربعة التي عنوانها الطير ، الحشرة ، البحر ، الجبل ، مع ان المحرر الحقيقي والمصنف لهذه الكتب النفيسة على ما يقال هي زوجته المادام ميشله وكانت من الفاضلات . ووجد المحققون في تاريخ الكيمياء ان بعض كتبها القديمة حررها اصحابها في القرون الوسطى وعزوها الى جابر وهرمس تقوية لسندها واقناعاً بصحتها . فانتحال الشعر أو الكتاب المصنف شائع بين الكتاب والشعراء وتارة يكون برضى المؤلف الحقيقي وتارة يكون بغير رضاه وهو السرقة . وقد يكون السارق المنتحل أشعر وأقدر من صاحب الشعر والتصنيف ولكن وقته لم يسمح له بالاتيان بمثل ذاك المؤلف . ولذا اتهمت الاكاديمية فيكتور هوكو بسرقة القصيدة التي عرضها على لجنة التحكيم والمسابقة وسماها (فوائد المطالعة) ولم يعطوه الجائزة التي استحقها .

وكان يحدث أمثال ذلك في أيام العرب وفي حضارة الاسلام كما اتهم الحريري في مقاماته . وكان قد عمل مقامة واحدة على مقامات البديع الهمذاني وعرضها على أنوشروان بن خالد بن محمد وزير السلطان محمود السلجوقي وكان الحريري خصيصاً به . فأمره الوزير بانشاء المقامات واتمامها فصنف اربعين مقامة واتى بها من البصرة محل دار تحصيله العلم الى بغداد ونزل في الحريم وهي سرة العاصمة والمحلة المشتملة على دار الخلافة وقصور الامراء والاعيان وكان ذلك في خلافة المقتدي بالله سابع وعشرين الخلفاء العباسيين . فاستحسن الادباء طرز المقامات وحسدوه عليها واتهموه بسرقتها .

ولما امتحن سد عليه ولم تجد قريحته بشيء وهو في الحريم وسط تلك العاصمة الكثيرة الزحام والجلبة فنفي إلى المشان قرية بقرب البصرة مشتملة على نخل وزرع ولكن هواءها فاسد بسبب المستنقعات وكان إذا غضب على شخص نفي اليها . فألف الحريري في المشان عشر مقامات أخرى وكملت مصنفاته خمسين مقامة فقال فيه ابن جكينا يهجوه :

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عثنونه من الهوس
انطقه الله بالمشان وقد ألجمه في الحريم بالخرس

وكان الحريري ينتسب إلى ربيعة الفرس وهي قبيلة من قبائل العرب على حدود فارس وكان أولع بنتف لحيته والعبث بها . ووعده أحد الأمراء يوماً بولاية على شرط ان يترك نتف لحيته فامتثل برهة ولم يستطع الصبر فقال « أحب إلي ان تعاد لي الولاية على لحيتي من كل ولاية » . ونشأ الحريري في مجمع العلماء والادباء واليهم نسبت الاقوال الكثيرة في النحو فقيل مذهب البصريين ومذهب الكوفيين وكانت ولادته في البصرة وقيل لابل ولد بالمشان المجاورة لها (٤٤٦-٥١٥هـ) وكانت السلطة والنفوذ في ذلك العصر للدولة السلجوقية التي ظهرت في العراق العجمي واتخذت مدينة الري عاصمة لها ويقال للمنسوب لها الرازي وقد صار علماً على كثير من العلماء والفلاسفة ولم تزل خرابات الري مشاهدة بظاهر طهران عاصمة الدولة الايرانية . ويقال لها عبد العظم نسبة لأحد الأولياء المدفون فيها وهناك كان مقتل الشاه السابق . وسميت ملوك هذه الدولة السلجوقية بسلاجقة إيران تمييزاً لهم عن سلاجقة الروم الذين اتخذوقونية عاصمة لهم وعن سلاجقة كرمان الذين حكموا في الجنوب الشرقي من بلاد العجم . وظهر في سلاجقة إيران ١٤ ملكاً في ظرف ١٦١ سنة وأعظمهم ثالثهم ملكشاه (٤٤٧-٤٨٥هـ) ابن الب ارسلان ويسمى ابا الفتح جلال الدين واليه ينسب التاريخ الجلالي الذي وضعه عمر الخيام الاديب الفلكي الشهير وكان وزيره نظام الملك صاحب المدرسة النظامية في بغداد . فيفهم من ذلك ان ملوك هذه السلالة ووزراءها كلهم حريصون على تعزيز جانب العلم والأدب ولاغرو أن اتى الأدباء في زمانهم بمثل المقامات الحريرية . وألف كمال بك إمام الأدب في اللسان العثماني رواية بليغة سماها « جلال » لها مقدمة يعدها الادباء من أبلغ ما حرر في اللسان العثماني على الاسلوب الجديد .

فيتضح مما سبق ان مؤلفات فيكتور هوكو على نوعين منظوم ومنثور . وكل واحد منهما يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام . فالمنظوم منه ما هو شعر ويشتمل على فنون كثيرة مثل الاود والبلاد والايليجي الخ . ولكل منها عروض مخصوص ومنه ما هو روايات تمثيلية تتلى على المراسح كما يتلى النثر المرسل بغير التفات الى أوزان النظم ولا قوافيه أي بلا ترنم ولا تطريب ولا تغريد ولا ترخيم في الصوت ولا وقوف على القافية . ونظمت هذه الروايات التمثيلية التي يقال لها درام على عروض البحر الاسكندري في الغالب وهو المبني على اثني عشر هجاء .

فاذا جرى التوقيع بالروايات الدراماتيقية على آلات الطرب ولحن فيها على طريقة الصناعة الموسيقية سميت « أوبرة » ولاجلها بنيت المراسح الكبيرة التي يقال لها اوبرة كالاوبرة الخديوية في القاهرة والمرسح الذي بني في الاستانة ثم احترق ولم يجدد بناؤه . ويقال لاوبرة باريس اكاديمية الموسيقى لانها شعبة من شعب اكاديمية الصنائع النفيسة التي هي في عداد الاكاديميات الخمس الشهيرة في باريس . ومثال ذلك اوبرة فوست التي صنف قصتها الدراماتيقية الاديب الالماني كوته ثم جاء الملحن الفرنساوي كونو ووفق ترجمة كلامها على صناعة الالحان . وكذا رواية عائدة (آيدة) التي وضعها على صناعة الالحان الملحن الشهير الطلياني فردي ثم نظمها بالفرنساوية أديبان من ادباء الفرنساويين . وأول ما مثلت هذه الرواية الاخيرة في الاوبرة الخديوية بالقاهرة سنة ١٨٧١ ثم مثلت في باريس على المرسح الطلياني سنة ١٨٧٦ وتمثل اليوم على جميع المراسح الفرنساوية في العاصمة والايالات وفي أكثر المدن الاوروبية ولعل هذه الرواية هي التي ترجمت للعربية باسم (عائدة) .

فالاوبرة هي تأليف دراماتيقي اجتمع فيه الشعر والموسيقى . ولذا فهي تشتمل على اوزان العروض وأنغام المزامير واقاويل الشعر أي ما فيه من التشبيه والتخييل فان دخل في الأوبرة مع الكلام المنظوم كلام منثور أيضاً سميت أوبرة ـ كوميك كرواية كرمن . وان لم يكن موضوع الرواية دارما أي فاجعة بل كان كوميديا مضحكة سميت (بوف) و(بوفون) و(أوبيريت) تصغير أوبرة . واجتهد بعض الادباء الترك في التأليف بين الشعر والموسيقى في اللسان العثماني فترجموا رواية كرمن نظماً للتركية وشخصوها مع الانغام الموسيقية على المراسح المتخذة من الاخشاب في محلة اقسراي وفي منتزهات ضواحي الاستانة . ومع ان مشروعهم ابتدائي فالتمثيل كان لابأس به رغماً

من حداثة نشأته . فلو حصلت عناية في تنشيط هذا المشروع بقوة المال وهمة الرجال لنجح ولا شك باللغة التركية وباللغة العربية أيضاً فان دوائر البلدية في مدن اوربا الثانوية فضلاً عن العواصم تنفق النفقات الباهظة في كل سنة لاعانة المراسح . لان ما يجمع من اجرة الدخولية لا يكفي لتحسين المراسح الى الدرجة التي بلغتها مراسح اوربا . وكان لعلماء العرب وفلاسفتهم المتقدمين اهتمام بعلم الموسيقى وللفارابي فيه اليد الطولى ومما ألفه كتاب الموسيقى الكبير . ونقل صاحب الارز في ما نشره من الازجال والموشحات عبارة عن ابن رشد وردت له في تلخيصه كتاب ارسطوطاليس في الشعر الذي طبعه المستشرق فوستولازينو في مدينة فلورانسه سنة ١٨٧٣ قال ابن رشد :

« المحاكاة في الاقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء . من قبل النغم المتفقة ومن قبل الوزن ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كل واحد منها مفرداً عند صاحبه مثل وجود النغم في المزامير والوزن في الرقص والمحاكاة في اللفظ اعني الاقاويل المخيلة غير الموزونة . وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والازجال وهي الاشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة أي الاندلس » . أهـ . ولا شبهة في أن أعاريض الموشحات والازجال من انسب العروض لنظم روايات الاوبرة لسهولة التوقيع بها على آلات الطرب بخلاف البحور الستة عشر في العربية أو البحور الثمانية عشر بالفارسية والتركية . ولا نطيل الكلام في هذا البحث فان أهله اولى بالبحث فيه والتفتيش عن دقائقه وخوافيه ونعود للصدد الذي كنا فيه .

وأما النثر الذي ألفه فيكتور هوكو فكله من قبيل المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام اطلاقاً ولا يقطع اجزاء بل يرسل ارسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها . وليس عند الافرنج سجع وهذا المنثور على اقسام وفنون شتى منها القصص التي يقال لها « رومان » وهي ما صور فيها مؤلفها غرائب الواقعات وعجائب الاتفاقات واستلفت نظر القارىء أو السامع بمفترياته وتخيلاته البديعة . وسميت هذه القصص رومان أو رومانس باسم اللغة القديمة التي كتب فيها رومان رولان وأمثالها من القصص والحكايات المنظومة والمنثورة . والرومانات على اقسام كثيرة منها الرومان التاريخي والغرامي أو الاحساسي والروحاني والفني والسياسي الخ ومن منثور فيكتور هوكو أيضاً التاريخ والسياحة والفلسفة والاقوال والاعمال والرسائل والخطب والسياسات وغير ذلك .

٢٩ - نظم فيكتور هوكو

قرض فيكتور هوكو الشعر في أعاريض مختلفة . منه ما هو على وزن البحر الاسكندري المنسوب لاحد الشعراء اليونانيين أو المدينة الاسكندرية التي زهت فيها العلوم والمعارف والآداب اليونانية على عهد البطالسة . ويتألف عروض البحر الاسكندري من اثني عشر هجاء اذا كانت القافية مذكرة ومن ثلاثة عشر إذا كانت مؤنثة . ويقسم كل بيت إلى شطرين بوقفة Césure تأتي بعد الهجاء السادس لمساواة الشطرين . والنظم في هذا البحر صعب يحتاج إلى نفس عال وتلطف كثير ومهارة زائدة وبه تظهر قوة الشاعر واقتداره على التصرف في الكلام ولذا اختص بالمواضيع الجدّية العالية لقصائد الحماسة وروايات الفاجعة . واختاره فيكتور هوكو لنظم روايات الدرام التمثيلية المذكورة في الكتب الخمسة المتقدم بيانها ولنظم غيرها من الاشعار الحماسية والتاريخية ولكنه غير فيه كثيراً ولم يراع الوقوف على الهجاء السادس بل قسم البيت إلى شطرين غير متساويين وجوز تكميل معنى البيت الاول بالفاظ من البيت الثاني . مع أن العرب يشترطون ان يكون كل بيت من ابيات الشعر تاماً في بابه مستقلاً في معناه . ويمكن تشبيه البحر الاسكندري بالبحور العربية الستة عشر أو البحور الفارسية الثمانية عشر .

ومن شعر فيكتور هوكو ما هو على أوزان متخالفة تتألف من ستة أو ثمانية أو عشرة هجاءات نظمت أسماطاً وأغصاناً اغصانا وجعل لها ادواراً ولازمات على نسق ما استحدثه الاندلسيون وبقية شعراء العرب المتأخرين من الموشحات والازجال . وهي اسهل طريقة واقرب تناولاً من البحر الاسكندري كما ان الموشحات والازجال العربية اسهل من بقية البحور . ولها عند الافرنج اسماء بحسب اجناسها مثل اود وبلاد وروندو وايلجي الخ . ولها ادوار تسمى قوبله وستروف ولها أيضاً لازمات refrain الخ واقتبس الفرنساويون هذه الاعاريض من شعراء التروبادور . وهؤلاء تلقوها عن عرب الاندلس كما اخذوا عنهم علم القوافي . فان شعراء الافرنج على الاطلاق لم يكن لهم معرفة بالقوافي وانما كانوا يعتاضون عنها في اشعارهم بما يسمونه (أسونانس) وهو شبه القرادي والعتابي كما مر ذكره . ومثلنا فيما سبق للقافية بكلمتي

(ساج) و(باج) ولما يسمونه اسونانس بكلمتي (ساج) و(آرم) والافرنج لا يلتزمون في القصيدة او المنظومة قافية واحدة أوروبياً واحداً كما يفعل العرب . ففيكتور هوكو لم يلتفت كثيراً لاوزان العروض التي نظم فيه من تقدم عليه من الشعراء بل تساهل جدًّا في جانب الالفاظ واستحدث من عند نفسه انواعاً جديدة ووضع هذه القاعدة وهي :

« ان الشعر ليس في قوالب المعاني وانما هو في المعاني نفسها . فالشعر هو الامر الباطني لكل شيء في الوجود » .

فهذه القاعدة ليست مجهولة بالتمام عند أدباء العرب . ولعل ابن رشد اشار اليها في العبارة السابقة بقوله عن المحاكاة في اللفظ « أعني الاقاويل المخيلة غير الموزونة » . وحكي عن حسان بن ثابت حينما اتاه ابنه عبد الرحمن وهو صبي يبكي ويقول لسعني طائر .

فقال حسان : ـ صفه يا بني

فقال : ـ كانه ملتف في بردي حبره ـ وكان لسعه زنبور

فقال حسان : ـ قال ابني الشعر ورب الكعبة

فمقصود الصبي ان الطائر الذي لسعه يشبه في اجنحته وشكله المنقش العجيب الشخص الملتف برداء موشى ومصبغ . وقول حسان حجة على ان الشعر لا ينحصر في الكلام المقفى الموزون وانما حقيقة الشعر في المعاني والتخيل وفي ما يحدثه على النفس من التأثير . ولكن درج تعريف الشعر على الالسنة بانه كلام مقفى موزون . وسبق لنا ذكر تعريف ابن خلدون للشعر بانه « الكلام البليغ ، المبنى على الاستعارة او الاوصاف ، المفصل اجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على اساليب العرب المخصوصة » . وعلى هذا التعريف يكون كلام المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء . وقال ابو الفداء عن المعري « وطبق الأرض ذكره . . واكثر مصنفاته ركيكة فهجرت لذلك » .

والصحيح ان كلاً منهما امام مجدد في الأدب خرجا بالكلام عن تلك القيود المدرسية واطلقا للقريحة عنان الحرية وكان النوع المعروف بين الادباء هو نوع القصيد وله اساليب معروفة عندهم تختص بمطلع القصيد وبيت التخلص والختام وذكر الاطلال والرسوم والراحلة والسفر . فالمعري والمتنبي خرجا عن هذه الاساليب ولكنهما

أفـرطـا في ايـراد التشـابيه الغامضة والالفاظ اللغوية واحتاج شعرهما الى شرح طويل وتفسـير ثم صار هو أيضـاً شعـراً مدرسيًـا بسبب نسج المتأخرين على منواله وتهافتهم على التشابيه الغامضة . وقال فيكتور هوكو في كتابه المسمى أدب وفلسفة :

« لايكفي أن يكون للشعر قالب حسن للألفاظ بل يلزم ان يحتوي على معنى أو تشبيـه أو احسـاس ليكـون له رائحة ولون وطعم . تسعى النحلة في بناء الواجهات الست لبيـوتهـا من الشمـع . ثم تملأهـا بالعسل . فهذه البيوت أو الخلايا هي ابيات الشعر . والعسل هو الشعر » . اهـ .

فشبه الشعر بالشهد وهو العسل في شمعه . وبالخمر أيضاً ولها أوصاف ثلاثة : رائحة تفوح منها كما يفوح المسك . وتسمى باصطلاحهم (بوكه) . ولون كانه ياقوتة سيالة أو صفراء فاقع لونها . وطعم يعرفه أهل الذوق كما تعرف طعوم المآكل ويميزون فيه بين الحسن والاحسن الضار والنافع والانفع . ورأيت في اهل الذوق من رسخت لهم ملكة حتى أصبحوا يعرفون الخمر من أي كرم وقرية ومن محصول أي سنة بمجرد معـاينـة أوصافها الثلاثة بالحواس حاسة البصر وحاسة الشم وحاسة الذوق . وتشبيه الشعـر بالخمـر والعسـل معروف عند العرب ويقولون فلان من أهل الذوق في الكلام وتقـول العـامـة « كلام بلا طعم » ومما يؤيد ان الشعر في المعاني قول ابي محمد الخازن من ادباء اصفهان وكان ينتسب للصاحب بن عباد ويراسل ابا بكر الخوارزمي قال :

لايحسـن الشعـر ما لم يسـترق له ... حر الكـلام وتسـتخـدم له الفكـر
انظـر تجد صورة الاشعـار واحـدة ... وانـما لمعـانٍ تعشـق الصـور

ثم ان تقسيم الشعـر عن الافرنج الى اود وبـالاد وايليجي . . الـخ هو تقسيم باعتبـار الشكـل الخارجي أي باعتبار قوالب الالفاظ وبحور العروض والادوار . . . . الـخ . . وامـا باعتبـار المعنى فيقسم إلى ثلاثة أقسام غرامي وحماسي ودرامي . فالغرامي - ويسمى الموسيقي أيضاً لان الاصل فيه الانشاد على نغمات الاوتار(١) ـ هو كل شعـر اعـرب عن الحـواس الشخصيـة . فمؤلفـه يبين في احساسه وعواطفه وحبه وبغضـه وشقـاءه وسعـادتـه . فاذا جرى التـوقيع به على آلات الطرب كان أشد وقعاً

(١) قد يتغنى المرء بالشعـر الحماسي أيضـاً . لأن الغنـاء إنما هو تلحين الشعر موسيقياً كان أو حماسياً . ولكن الغالب في الغناء إظهار مافي نفس الانسان من الحس والشعور ولذا خصصناه هنا بالشعر الموسيقي الممتاز عن الشعـر الحماسي بخـاصته الشخصية . وكتاب (الأغاني) ألفه أبو الفرج الأصفهاني مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد . ولكنه جامع لكل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء فهو ديوان العرب .

وتأثيرا على النفوس . والشعر الحماسي هو ما وصف به شجاعة الشجعان وذبهم عن الحريم والاوطان وفيه احاديث المروءة والغيرة والحمية فهو بهذه الصفة تاريخي . والدرام هو ما صور فيه الحياة الانسانية وتقدم تفصيل الكلام عليه .

فالاود والبلاد والايليجي . . الخ يقابلها في العربية المدح والغزل والرثاء . . . الخ غير أن هذه الاقسام في العربية من الأقسام المعنوية وأما عند الفرنساويين فهي من الأقسام اللفظية التي لكل منها عروض مخصوص وشكل معروف . ومن هذه الاقسام اللفظية أيضاً الشعر الفاجع وهو ما صور فيه الشاعر حادثة مهمة من شأنها تهييج العواطف وتحريك الغضب واستجلاب الشفقة والرحمة وتنتهي الرواية الفاجعة في الغالب بمصيبة . فروايات المتقدمين التي على هذا الطرز تسمى تراجيديا . وروايات اصحاب الطريقة الرومانية التي على أسلوبها تسمى درام . وأما الكوميديا فهي مصورة لأخلاق الهيئة الإجتماعية ومساويهم ومعايبهم بصورة هزلية مضحكة كروايات مولير ومنها رواية تارتوف وهي مترجمة للتركية ومنشورة في مطبعة ابو الضياء . وأشعار الهجاء عند الافرنج تشتمل على الهجو والذم والانتقاد والتعريض والاستهزاء وخلط الجد بالهزل ونحو ذلك . ومن أنواع الشعر عندهم أيضاً الشعر البدوي المصور لأخلاق البدو والرعاة وهم في البادية والجبال . وقد أحسن لبيد بن ربيعة العامري في تصوير أخلاق البادية والمعيشة البدوية قبل الاسلام وديوانه مطبوع في فينا عاصمة النمسا . ومن الشعر ما تقص فيه الحكايات وتضرب الامثال على ألسنة الحيوانات كحكايات لافونتين . ومنه ايضاً الشعر الذي على نهج الرسائل المكاتيب . . . [illegible] أمثال عند العرب ومن شعراء دمشق المتأخرين من نظم حجة شرعية بجميع ما يلزمها من القيود والشروط .

وجل مهارة فيكتور هوكو في الشعر الغرامي أو الموسيقي المعرب عن الاحساس الشخصي ولشعره نغمة مطربة وقوافٍ عامرة . وألحان تحنُّ لها القلوب وترتاح لسماعها النفوس . وهو الذي أوجد عند الفرنساويين الهجو الموسيقي في المنظومات التي هجا بها نابوليون الثالث . ولم تزل هذه الانغام والقوافي والألحان هي الباعثة على رواج أشعاره وإقبال الجمهور عليها .

وكما ان فيكتور هوكو غير أفاعيل الشعر وتفاعيله وأصلح عروضه على المثال المشار اليه آنفاً . فقد أصلح كذلك ألفاظ الشعر ومعانيه . وأبطل جميع اصطلاحات

الأدبــاء أي الأسـاليب والتعبـيرات المصطلح عليهـا بينهم والتي لا يفهمهـا إلا أهـل الغـوص على المعـاني وهم خواص النـاس . وقـال بأن جميع الالفاظ سواء . لا فرق فيهـا بين اللفـظ الـذي وقـع اختيـار الأدبـاء عليه وبين اللفظ الذي رفضوه وقالوا عنه سوقي مبتـذل . وجـوز للكتبـة والشعراء الاخذ بكل واحد من نوعي الالفاظ المختارة والسـوقيـة واستعـمالهـا بلا فرق في النظم والنثر (١) على شرط موافقتهما لقواعد النحو والصرف وابطل ايضاً ماكان يستعمله الادباء في كلامهم من المقدمات والدوارات التي من شأنها تغطية المعنى والتثقيل عليه وكذا التعبيرات العمومية والاجمالية التي يتلاشى بها المعنى ويستبهم كما يفعل ادباء العرب في خطبة الكتاب المصنف وفي مقدمته . ولم يرض من جميـع ذلـك الا بالتعبـير الاصـلي والمعنى الحقيقي الـدال على خصوصية الموضوع لان الغرض من تأليف الكلمات وتصنيف الكلام انما هو تشخيص الموضوع وبيـان مزيتـه وغـرابتـه . فلا حاجـة للاستعـارة ولا للمعنى المجازي . ويقوم مقام الاستعارة التشبيه أو التخيل الذي هو نوع من الاحساس لا التشبيه والتخيل المستفاد من طرز الكتابة . فالـواجب على الكـاتب ان لا يشغـل نفسه بالاستعارات وانواع البديع وان لا يتصنع ولا يتعمل في الكلام . بل ينبغي له ان يهتم ببيان الموضوع الذي هو فيه وايضاحه ووصفه بالاوصاف السديدة المظهرة له ظهور الشمس في رابعة النهار ويـوضـح انفعـالاته النفسية في ذاك الموضوع ليكون أشد تأثيراً على السامع . فتأثير الكلام يكون من جهة الانفعال النفسي والتصوير الطبيعي لا من جهة الاستعارات .

غير ان فيكتـور هوكـو واهل طريقته لم يمنعوا انفسهم من استعمال الاستعارات المـدرسيـة والتعبـيرات المصنعـة لرسوخ ملكتهم فيها . ومن الاستعارات التي وردت لفيكتـور هوكـو على الطـرز القـديم قولـه « نجوم المركبة » يريد المصابيح التي تنار بها المركبات ليلاً وتظهر عن بعد كالنجوم .

فادباء الغرب قالوا بان جل محاسن الكلام ان لم تكن كلها متفرعة عن التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية وجعلوها اقطاباً تدور عليها المعاني . ولذا تجد غزلهم مثلاً يدور دائـماً حول التفنن في تشبيه القـدود بالاغصـان والنهـود بالـرمان والخدود بالورد

(١) ذكر الجرجاني في اسرار البلاغة المطبوع أخيراً في مصر في الكلام على الالفاظ المستحسنة أن تكون اللفظة مما يتعـارفـه النـاس في استعـمالهم . ويتـداولونه في زمانهم . ولايكون وحشياً غريباً . أو عامياً سخيفاً وسخفه بازالته عن موضوع اللغة واخراجه عما فرضته من الحكم والصفة كقول العامة (انشغلت) و(انفسد) .

والجلنار والعيون ونحو ذلك . على حد قول الشاعر :

قلبي على قدك المشوق بالهيف طير على الغصن أم همز على الألف

وهل سويداءه خال بخدك أم خويدم أسود في الروضة الانف

وهي قصيدة غراء من كتاب ريحانة الالباء المطبوع في بولاق . والمراد تشبيه قد المشوق بالغصن أو بالألف . وقلب العاشق بالطير او بالهمزة . وفي البيت الثاني تشبيه سويداء القلب وهي الحبة السوداء التي فيه بالخال الذي على خد المحبوب وتشبيه الخال بالخادم الصغير الاسود وهو في الروضة . لان جسد الحبيب في اصطلاحهم بستان فيه جميع الازهار والفواكه والاشجار والانهار والتلال والوهاد والاغوار والانجاد . فكأن جميع المخلوقات الطبيعية تتشخص في هذا الجسد . فجميع أشعارهم في الغزل وجميع تفنناتهم فيه يدور ويرجع لاصل واحد واحسن مثال له القصيدة الآتية :

نالت على يدها مالم تنله يدي نقشاً على معصم اوهت به جلدي

كأنه طرق نمل في انامـلها أو روضة رصعتها السحب بالبرد

خافت على يدها من نبل مقلتها فالبست زندها درعاً من الزرد

مدت مواشطها في كفها شركاً تصيد قلبي به من داخل الجسد

وقوس حاجبها من كل ناحية ونبل مقلتها ترمي به كبدي

وعقرب الصدع قد بانت زبائنه وناعس الطرف يقظان على الرصد

ان كان في جلنار الخد من عجب فالصدر يطرح رماناً لمن يرد

وخصرها ناحل يمشي على كفل مرجرج قد حكى الاحزان في الخلد

انسية لو رأتها الشمس ما طلعت من بعد رؤيتها يوماً على احد

سألتها الوصل قالت انت تعرفنا من رام منا وصالاً مات بالكمد

وكم لنا عاشق في الحب مات جوى من الغرام ولم يبدي ولم يعد

فقلت استغفر الرحمن من زلل ان المحب قتيل الصبر والجلد

وخلفتني طريحاً وهي قائلة ما تنظرون فعال الظبي بالأسد

قالت لطيف خيال زارني ومضى بالله صفه لا تنقص ولا تزد

فقال خلفته لو مات من ظمإ وقلت قف عن ورود الماء لم يرد

قالت صدقت الوفا في الحب شيمته يا برد ذاك الذي قالت على كبدي

واســترجــعــت سألـت عني فقيـل لها | ما فيـه من رمـق دقـت يداً بيـد
وامطــرت لؤلؤاً من نرجس وســقــت | ورداً وعضــدت على العنـاب بالـبرد
وانــشــدت بلســان الحــال قائـلة | من غير كره ولا مطـل ولا رمـد
والــله ما حزنــت اخــت لفــقــد أخ | حزني عليـه ولا أم على ولـد
فاســرعــت واتــت تجري على عجــل | فعـنـد رؤيـتـهــا لم استطـع جلدي
واغــمــرتـني بفـضــل من عواطـفهــا | فعــادت الــروح بعـد الموت للجسـد
هم يحســدوني على موتـي فوا أسـفـي | حتى على المـوت لا أخلومن الحسـد

فهـذه القصيـدة اشتملت على كثـير من التشـابيه وعلى شيء قليل من المعاني وعلى شيء أقل من الاحساس . فشبه النقش الذي تنقشه الماشطة على يد العروس بطـرق النمـل وهم ذاهبون لمساكنهم قطاراً بجانب قطار . وبالبرد النازل على روضة البقـل وبـدرع الـزرد وبشـرك الصيد أي شبكته . وشبه الحاجب بالقوس والأهداب بالنبـل والكبـد بالهـدف . وشبـه الشعـر الأسود على الصدغ بالعقرب وطرفه الملوي بالـزبـانة . وزبانتا العقرب قرناها . وشبه الخـد بالجلنار وهوزهر الرمان وبالورد أيضاً والثدي بالرمان وشبه نفسه بالأسد وشبهها هي بالشمس والظبي وشبه دموعها باللؤلؤ وعينيهـا بالـنرجس وانـاملهـا المصبـوغة بالحنا الأحمر بالعناب واسنانها بالبرد . وردفها بالحزن وهو ما غلظ وارتفع من الأرض ويسمى الرابية والكثيب أيضاً .

وأمـا المعـاني التي في هذه القصيـدة فهي سؤ الـه الـوصـل وجوابها بالرد وصبره وجلده على البعد ووفاه في الحب حتى لم يبق فيه رمق . فشفقت عليه وبكت وحزنت حزن الاخت لفقد اخيها والأم على ولدها واتت اليه تجري على عجل وتعطفت عليه وانعشته فحسده العوازل .

فادبـاء العـرب يستعـذبـون هذا الكلام المصنع المرصع كما يستحسنون النقش على اليـد والصبـغ الأحمـر على البنـان . والفرق بين اليد البيضاء الطبيعية والانامل المنظفـة بالمـبرد والمقص وبقيـة آلات التنظيف وبـين اليـد المنقوش عليها نقشاً وحشياً والأنــامــل المخضبــة بالحنـاء لا يخفى على أهـل النظـر والـذوق والأمم المتـوحشـة لايستحلون العـرائس الا اذا كثـر على اجسـادهن النقش والوشم وشرحت خدودهن وكسـرت اسنانهن ليحصـل فيهـا الفلج وثقبت انوفهن وشفاههن واذانهن ليعلق فيها الاقـراط والحلقـات فهم يبدلون خلقة الله بما يرونه حسناً بحسب اذواقهم . وكذلك

الادبـاء يعـدلـون بالكـلام عن السوق الطبيعي إلى تلك التشابيه والاستعارات وإذا نظرت إلى مدحهم رأيته أيضاً يدور حول طول النجاد وكثرة الرماد كقوله :

طويـل الـنـجـاد رفـيـع العـماد   كثـير الـرمـاد إذا ما شتـى

فهذا البيت يليق مدحاً حقيقيًّا بشيخ قبيلة بدوية أو بملك أمة متوحشة من امم اواسـط افـريقيـا لا في كل ممدوح . وإذا مدح به ملك امـة لها حظ من الحضارة ينقلب المـدح ذمًّـا . وهكـذا يقـال في بقيـة فنـون الكـلام وضـروبـه مثـل الهجـاء والـرثـاء والاستـماحـة ، والشفاعة ، والشكر ، والاستعطاف ، والافتخار ، وبث الشكوى ، والمواعظ ، والحجج . ولاسيما الوصف وهو اعمها واكثرها ضروباً فان كل فن من هذه الفنـون يدور حول تشـابيـه معلومة وأساليب مدرسية يندر فيها الاحساس الشخصي والانفعال النفسي وانما هي تقاليد يتبع فيها الخلف السلف .

ففيكتـور هوكـو وأهـل طريقتـه لا يرون شيئاً من الحسن في هذه التشـابيـه والاستعارات المدرسية ولا يستعذبون معنى من تلك المعاني التي ليست بطبيعية . بل يجدونهـا من المعـاني السخيفـة غير المعقولة . خرج بها اصحابها عن الذوق السليم وعن دائـرة الطبيعـة وشـوهوا وجه الكلام بتلك الاستعارات كما سخموا وجه العروس وبـدنهـا بالنقش والوشم والصبغ ثم جاءوا يقولون (نالت على يدها ما لم تنله يدي) . ورأينا في معرض بارنوم الذي يطوف به صاحبه مدن العالم القديم والجديد شخصاً من المتوحشين وشم جميع بدنه فكان يتجلى امام الناظرين كانه لابس ثوباً مبرقشاً والوشم هو ان يغرز الجسد بابرة ثم يذر عليها النؤور وهو النيلج (نبات النيلة) . وفي الحديث لعن الله الواشمة والمستوشمة . واليك وصف مؤلفاته .

١ ـ المدائح والمطربات

هو أول ديوان نشره فيكتور هوكو في الشعر وافتتحه بمقدمات نثرية بليغة ترجمنا احداهما لمناسبتها المقام ومنها يعلم أن تعبيرنا عن الأود والبالاد بالمدائح والمطربات فيه تسـاهـل لان قصـائـد هذا الـديـوان لا تقتصر على المدح والغزل بل فيها أيضاً الرثاء والهجاء ممزوجة بعضها ببعض .

قال فيكتور هوكو :

هذا ديوان في الشعر الموسيقي (الغرامي) . فيه نوعان من افانين الشعر احدهما (اود) ويدخل تحته جميع المنظومات المشتملة على إلهامات دينية أو مطالعات قديمة أو

المترجمة عن واقعة عصرية أو عن تأثر شخصي . والثاني (بالاد) وهو نوع مخالف للفرع المتقدم . ومنظوماته انما هي مسودات فن هوائي . وهي عبارة عن ألواح مصورة وخيالات وأحلام ومناظر بديعة وحكايات دارجة وأحاديث خرافة وأساطير ووسوسة . والقصد من نظمها إعطاء فكر عن ماهية الاشعار والقصائد التي نظمها في القرون الوسطى شعرآء التروبادور المتقدمون الذين هم رواة الشعر في عالم النصرانية . وكانوا لايملكون من الدنيا الا السيف والرباب ويطوفون على الامراء في قلاعهم وقصورهم ويتضيفون على موائدهم وينشدونهم الاشعار استجداء لاحسانهم ولولم يكن في التعبير فخفخة لقال المؤلف بأنه وضع روحه في «الاود» وتخيله في البالاد على انه لا يعبأ بتقسيم الشعر إلى أنواع وأفانين ولا بتصنيفه أصنافاً متباينة . لأن حقيقة الشعر واحد مهما اختلفت عروضه وأدواره . ولذا فهو لا يبالي باعتراض من يزعم ان ما ورد في هذا الكتاب ليس هو في شيء من الاود ولا من البالاد . (كما قيل عن شعر المتنبي والمعري ، لانهما لم ينسجا على منوال شعر الجاهلية ولاحافظا على الاساليب القديمة) . فدعهم يقولون ما يشاؤ ن ويسمونها بما يشتهون من الاسماء فان العبرة بالمسمى لا بالاسم . ونسمعهم يتشدقون كل يوم بصلاحية الفن الفلاني من فنون الشعر . واوفقية الفن الآخر . ويقولون بمحدودية هذا وبوسعة ذاك . ويمنعون في فن التراجيديا ما يجيزونه في فن الرومان . ويسمحون في نوع الغناء بما يحظرونه في نوع الأود . . الخ . فمن سوء حظ هذا انه لا يفهم شيئاً مما يقولونه ويفتش في كلامهم عن المعاني ولا يرى فيه الا التشدق بالالفاظ فالذي يظهر له ان ما هو في الحقيقة ونفس الأمر جميل صحيح يكون جميلاً وصحيحاً في كل مكان . وما كان دراماتيقيًّا أي فاجعاً في قصة من القصص يكون دراماتيقيا أيضاً في رواية ممثلة على المرسح . وما كان موسيقيًّا أي غراميًّا في دور (قوبله) من أدوار الشعر يكون موسيقياً أيضاً في سمط (ستروف) من اسماط الشعر المنظوم أسماطاً أسماطاً واغصاناً اغصاناً . والحاصل التمييز الوحيد الحقيقي في محصولات الفكر انما هو التمييز بين الحسن والقبيح . والفكر أرض مخصبة لم تفتلح تبغي محصولاتها النمآء فيها بحرية . أعني حسب التصادف بدون ان تصنف صنفاً صنفاً او تجعل صفاً صفا في احواض مصنّعة كما تجعل الازهار في البستان الصناعي . أوكما جمعت نوابغ الكلم في رسائل البيان وقيدت المنتخبات في سفائن الاشعار .

ومع ذلك فلا ينبغي لك ان تظن هذه الحرية مستلزمة للتشويش . كلا بل هي بالعكس باعثة على حسن الانتظام . وايضاحاً لذلك نقول : تأمل في الحديقة الملوكية التي في قصر فيرسايل بالقرب من باريس تجدها في غاية من التسوية والتعشيب والتقضيب والتنظيف والجرف والكري والترميل مشتملة على كثير من الشلالات الصغيرة ، والبحيرات الصغيرة ، والروضات الصغيرة ، وفيها من التصاوير النحاسية ما هي على هيئة آلهة البحر ، نصفها سمكة والنصف الآخر انسان . وهي سابحة على الماء ومتجمعة فوق بحار صناعية جلبت من نهر السين بصرف النفقات الباهظة وفيها من تماثيل المرمر والرخام ما هو على صورة آلهة اليونان والرومان ، وهم يغازلون حور الجنان ، ويعزفون بالمزامير والعيدان ، وقد احدقت بهم اشجار السرو العالية على هيئة رمزية . وترى شجر اللبان في شكل اسطواني ، وشجر الليمون في شكل كروي ، وشجر الآس في شكل منحرف ، واشجاراً كثيرة لم تكن في اصل خلقتها الطبيعة على أشكال منتظمة ولكنها اقتضبت بمقص البستاني وهندمت بآلاته الزراعية . ثم قايس بفكرك بين هذه الحديقة المصنعة وبين غابة عذراء من غاب العالم الجديد تجد فيها اشجاراً ونباتات على سائر الاشكال من غياض ، وآجام وأيك ، ودوح ، وكلاء (١) وحشيش ، وعشب طويل ، ونبات متعرش بلبالب وشوك واوراق مختلفة . وفيها مروج نضرة كأنها بين تلك الاشجار الصلبة الشامخة شوارع أو طرق واسعة لا يسقط فيها نور الشمس ولا يمتد ظل الشجر الا على بساط من الخضرة . ويطير في تلك الغابة ألف نوع من الطير بالف لون من الريش وتجري فيها انهار كبيرة تقتلع الاشجار وتسحب جزراً مكللة بالازهار . وتدفق المياه الجارية من مكان أعلى إلى مكان أسفل فتحدث الشلالات ، ويتخلل الضياء بين تلك المياه الساقطة فينقلب إلى قوس قزح . ويتألف من هذا الهدير والخرير والتغريد والزئير الحان وحشية لا مثيل لها . فنحن لا نقول : أين العظمة ؟ اين العزة والجبروت ؟ اين

(١) واشهرها غاب اميركا وغاب افريقيا ومنها غابة الكونغو . والغاب جمع غابة . والغياض جمع غيضة وهي مغيض ماء يجتمع فينبت فيها الشجر وتجمع أيضاً على أغياض . والآجام والاجمات جمع اجمة وهي من القصب والايك جمع ايكة وهي الشجر الكثير الملتف . والدوح جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة من أي نوع . والكلاء هو العشب رطباً كان او يابساً . والحشيش هو الكلاء اليابس . أهـ مختار الصحاح .

الجمال الحقيقي ؟ بل نسأل فقط : اين الانتظام واين عدم الانتظام ؟ فهناك مياه حبست وحوّلت عن مجراها الطبيعي لتتدفق من ينابيع صناعية وتركد في حياض محتفرة ثم تنتن فيها . وهناك أيضاً آلهة تحجرت ، واشجار قلعة من الارض التي انبتت فيها ، ونقلت من الاقليم الذي ربيت فيه ، وحرمت من شكلها الطبيعي ، ومن ثمارها الطيبة ، واكرهت على تحمل منجل البستاني يفعل فيها حسب اهوائه ومشيئته ، ويديرها كيف دار حبل استقامته ، فالانتظام الطبيعي مضاد ، معكوس ، مقلوب ، مخروب .

وأما هنا فبالعكس كل شيء خاضع لناموس لا يتغير . وفي كل شيء آية على وجود اله حي (١) . وقطرات الماء تنحدر في مصبها وتجري انهاراً تجتمع وتصير بحاراً . وبذر النبات يختار الأرض الصالحة له ويصير احراجاً . وكل نجم (٢) وكل شجرة صغيرة او كبيرة تنبت في فصلها وتنمو في ارضها وتثمر ثمرتها فتنضج في أوانها . فكل ما في هذه الغابة جميل حتى الشوك . فنسأل أيضاً اين الانتظام ؟

فاختر إذاً بين أحسن ما اتت به الصناعة البستانية وبين مصنوعات الطبيعة ، بين ما هو جميل بحسب الاصطلاح وبين ما هو جميل بغير القواعد الاصطلاحية بين أدب مصنع مرصع وبين شعر مبتكر لم ينسج على منواله أحد .

ربما قال معترض بان الغابة العذراء البعيدة عن الناس قد يربض فيها ألف حيوان مفترس واما حياض الحديقة الصناعية التي استنقعت المياه فيها فلا تحتوي في الغالب الا على قليل من الضفادع المستقذرة . فهذا الاعتراض وارد مع الا، ف ولكن إذا خيرنا فنحن نفضل التمساح المفترس على الضفدع القذر . كما نفضل بربرية الشاعر الانكليزي شكسبير على سخافة عقل الشاعر الفرنساوي قاميستر ون (ولد في طولوز ١٦٥٦ - ١٧٢٣م) .

ومن المسائل المهمة المقتضى بيانها هو ان الانتظام يمتزج بالحرية في الأدب كما يمتزج بها في السياسة . لا بل الانتظام نتيجة للحرية فيهما جميعاً . ولكن ينبغي التفريق بين الانتظام وبين رعاية القواعد . فرعاية القواعد أمر لا يتعلق الا بالشكل

(١) وفي كل شيء له اية   تدل على انه واحد   (ابو العتاهية) .

(٢) النجم من النبات ما لم يكن على ساق .

الخارجي . وأما الانتظام فينتج من باطن الاشياء أي من ترتيب العناصر الاصلية التي في الموضوع المبحوث عنه ترتيباً يستحسنه الذوق . فرعاية القواعد هو تأليف مادي ووضع انساني . واما الانتظام فهو أشبه بالامر الالهي . فهاتان الخاصتان المتخالفتان في ذاتها كثيراً ما توجد احداهما بدون الأخرى . فالكنيسة المبنية على القالب القوطي يظهر لنا فيها انتظام بديع رغماً عن سذاجتها وعدم رعاية قواعد البناء فيها . وأما الابنية الفرنساوية الحديثة التي بنيت على قوالب ابنية اليونان والرومان وقلد البناؤن في بنائها تقليداً أعمى بغير ذوق ولا مهارة فتظهر لنا غير منظمة رغم ما في بنائها من رعاية القواعد المعمارية . فالمؤلف العادي لا يتعذر عليه تصنيف تأليف على حسب القواعد . وأما وضع الانتظام في التأليف فلا يتيسر الا لذوي العقول الكبيرة من المؤلفين . لان الخلاّق (١) الذي ينظر من الأعلى ، ينظم . والمقلد الذي ينظر من القرب ، يطبق على القواعد . فالأول يعمل بمقتضى ناموس طبيعته . والثاني يتبع قواعد طريقته . فالصناعة إلهام للأول . وعلم للثاني . والحاصل رعاية القواعد هي ذوق المتوسط (٢) . والانتظام هو ذوق القريحة . ومن هنا يفهم الفرق بين أدب الطريقة الرومانية وبين أدب الطريقة المدرسية .

واعلم ان الحرية في هذا المقام لا ينبغي ان تصل إلى الفوضوية . وان الخروج عن الاسلوب لا يقتضي ان يكون وسيلة لتجويز اللحن والغلط . فبقدر ما يتهور المؤلف في الخروج عن الاسلوب يلزم ان لا يكون في تأليفه لومة للائم . لانه اذا أراد التفوق في حق واحد على غيره يجب ان يكون معه عشرة حقوق زائدة عليه وبقدر ما يهمل علم البيان والمعاني يجب عليه ان يراعي علم النحو والصرف ولا يجوز له خلع ارسطوطاليس البياني (٣) الا إذا جلس مكانه فوجيلا النحوي (٤) . وتنبغي محبة (صناعة الشعر) التي ألفها بوالو لاجل انشائها على الاقل ان لم يكن لاجل ما فيها من

(١) أي مختلق المعاني .

(٢) أي المتوسط في الأدب الذي لم يبلغ شأو المتضلع فيه .

(٣) وقد لخص ابن رشد كتاب « ارسطوطاليس في الشعر » وطبعه المستشرق فوستو لازينو في فلورانسه سنة ١٨٧٣ .

(٤) نحوي فرنساوي ألف كتاب « الملاحظات على اللغة الفرنساوي » (١٥٨٥ ـ ١٦٥٠) وهذا ما قاله الجرجاني في « اسرار البلاغة » المطبوع في مصر « أن تكون الألفاظ مما يتعارفه الناس في استعمالهم ويتداولونه في زمانهم ولا يكون وحشياً غريباً . او عامياً سخيفاً وسخفه بازالته عن موضوع اللغة واخراجه عما فرضته من الحكم والصفة . كقول العامة (انشغلت) و(انفسد) .

القواعد . فالكاتب الذي له أقل اهتمام بما يكتبه يجتهد دائماً بان يصفي منطقه بدون ان يمحو الصفة الخصوصية التي يفصح بها تعبيره عن شخصية فكره . فادخال التعبيرات الجديدة في الكلام ما هو الا دليل على عدم المقدرة . واللحن في الاعراب لا يأتي بمعنى جديد (١) . فالانشاء مثل الزجاج كلما صفا تلألأ .

ربما اوضح مؤلف هذا الكتاب في غير هذا المحل كلّ ماأشار إليه هنا. ولكنه قبل ان يختم كلامه يستميح القراء في بيان ان رأي التقليد (أي رعاية الاسلوب) الذي وصى المتقدمون باتباعه حفظاً للطرق الأدبية ، ظهر له دائماً بانه بلاء على صناعة الأدب . فهو لا يجوّز للكتبة التقليد لاساليب الطريقة الرومانية فضلاً عن الطريقة المدرسية . لان الذي ينسج على منوال شاعر من شعراء الطريقة الرومانية يصير بالضرورة مدرسيًّا ما دام انه يقلد . فسواء عليك كنت صدى الشاعر الفرنساوي راسين أم كنت انعكاساً لنور الشاعر الانكليزي شكسبير فما انت الا صدى وما انت الا انعكاس . ولو تيسر لك النسج بالتمام على صورة شاعر من ذوي القريحة تفوتك دائماً غرابته (٢) أي قريحته . فلنعجب باكابر الشعراء ولا نقلدهم . ولنعمل بطريقة أخرى . فان نجحنا فنعم ، وان سقطنا فما الأهمية ؟

يوجد سوائل للتصبير إذا غطست فيها زهرة أو ثمرة أو عصفورة وتركتها مدة تكسوها قشرة سميكة حجرية وتحفظ في الحقيقة اشكالها الأصلية . ولكن رائحة العطر ، ولذة الطعم ، وحركة الحياة فقدت . فالتعاليم المتشدق بها ، والقياسات المنطقية الاسكولاستيقيه ، وسريان دآء المادة ، وجنون التقليد ينتجن عين هذه النتيجة ، فاذا دفنت فيها قواك الغريزية وتخيلك وفكرك فلا تخرج منهن أبداً . وما تستخرجه منهن ربما تجده محافظاً على شيء من ظاهر العقل والقريحة والذكاء ولكنه يكون متحجراً كتلك الاشياء المصبرة .

فاصحاب الطريقة المدرسية يقولون « يحيد عن طريق الحقيقة والجهال كل من لم يتبع الأثر الذي طبعه باقدامهم السالكون قبله في هذا الطريق » فهذا خطأ وأصحاب

(١) لا كما يقولون ليس على المطرب أن يعرب .

(٢) يقول ادباء العرب هذا البيت من الغريب المبتكر . وراسين كما لا يخفى هو أمام الطريقة المدرسية وشكسبير أمام الطريقة الرومانية .

الطريقة المدرسية يخلطون بين العادة والدأب وبين صناعة الأدب . ويمشون على أثر العجلات توهما بانها الطريق .

فالشاعر لا ينبغي أن يكون له إلا أنموذج واحد وهو الطبيعة ودليل واحد وهو الحقيقة . ولا ينبغي له أن يكتب مع ما كتب بل مع نفسه وقلبه . ومن جميع الكتب المتداولة بايدي الناس ينبغي له درس كتابين فقط . أوميروس والتوراة . فهذان الكتابان المحترمان ـ اللذان هما أول الكتب تاريخاً وقيمة وكادا يكونان قديمين كالدنيا ـ هما في حد ذاتهما عالمان للمعاني . ويجد فيهما الكاتب بنوع ما الخليقة باجمعها مصورة بشكل مضاعف . ففي أوميروس مصورة بقريحة الانسان وفي التوراة بالهام الله .

انتهى في اكتوبر سنة ١٨٢٦ .

وبعد المقدمات النثرية البليغة ورد في هذا الديوان المنظومات وهي تزيد على خمسين منظومة بديعة اظهر فيها من رقة الالفاظ وجودة المعاني وقوة التخيل والتصور ما حمل ادباء العصر وشعراءه على الاقرار والاعتراف له بالفضل والشاعرية وبالقبض على زمام الصناعة الأدبية . وأحسن هذه المنظومات المنظومة التي عنوانها « فانده » وهو اسم ايالة على شاطىء البحر المحيط في شمال بوردو اشتهرت ايام الانقلاب الكبير بالحرب الأهلية التي حدثت فيها بين حزب الجمهورية وبين المنتصرين للملوك من الاعيان والرهبان . وكذا المنظومة التي عنوانها (عذارى فيردون) وفيردون مدينة على الحدود الالمانية ومشهورة في التاريخ قديماً وحديثاً . وأبدع فيكتور هوكو في رثاء الذين قتلوا ونكبوا في تلك الحروب الأهلية وكان إذ ذاك على مذهب الكاثوليكيين . ومن قصائده هذا الديوان ومنظوماته البديعة (لويس السابع عشر) و(اعادة تمثال هانري الرابع) و(موت دوق برّى) و(ولادة دوق بوردو) و(تعميد دوق بوردو) و(جنازة لويس الثامن عشر) و(تتويج شارل العاشر) و(الى عمود ميدان فاندوم) و(الى والدي) و(حرب اسبانيا) . . . . الخ .

٢ ـ الشرقيات

افتتح الشاعر هذا الديوان بمقدمتين وختمه بشروح مفيدة واورد فيه احدى واربعين منظومة وقال بان الباعث على نظمها اتجاه انظار الادباء نحو الشرق بعد ان كانوا منذ عهد لويس الرابع عشر لا يبحثون الا في آداب اليونان والرومان ومعارفهم . ففي القرن التاسع عشر اقبلوا على درس لغات الشرق وآدابه وتاريخه وعلومه فوجدوا فيه الافكار والتخيلات عبرانية ، تركية ، يونانية ، فارسية ، عربية ، اسبانية ، لان اسبانيا جزء من افريقيا وافريقيا جزء من آسيا لوجود مشابهة وعلاقة بينهما . وشبه ما في هذا الديوان من المعاني والتخيل بمدن اسبانيا القديمة المشيدة على نمط المدن الشرقية . ووصفها بان فيها منتزهات لطيفة تظللها اشجار الليمون وتجري من تحتها الانهار . ويسطع نور الشمس على ميادينها الواسعة المعدة للاحتفال بالمواسم والاعياد وازقتها ضيقة بعضها مظلم وبعضها غير نافذ ولا مستقيم . وابنية دورها من جميع الازمان وعلى كل الاشكال منها العالي والمنخفض والمسود والمبيض والمصبوغ والمنحوت والمنقوش . واتصلت العمارات بعضها ببعض من دور وقصور وفنادق واديرة وثكنات للعساكر . وكل منها يختلف عن الآخر في طرز البناء والاسلوب المعماري ويدل على نوع غريب قائم بذاته . واسواقها غاصة بالانام يعلو فيها الصياح والخصام . وإذا دخل الاحياء مقابرها وقفوا سكوتاً كانهم اموات وفيها المراسح والكنائس والمشانق التي بقي أثرها من الازمان الغابرة وفي وسط كل مدينة كنيستها الجامعة مبنية على القالب القوطي المعروف . وهناك أيضاً الجوامع قائمة بين اشجار النخيل والجميز وقببها مغشاة بالنحاس والقصدير وأبوابها مصبغة وحيطانها مجلاة منقشة ونوافذها عالية وعلى كل باب كتبت آية قرآنية . ورصفت الأرض ورصعت الجدران بالفسيفساء . فاصبح كل جامع من هذه الجوامع كانه زهرة كبيرة تفتحت في نور الشمس وفاح طيبها في الجو .

وكان تأليف هذا الديوان في اثناء حرب المورة واستقلال اليونان لأن الثورة ظهرت سنة ١٨٢١ في المورة وسرت إلى بقية الولايات والجزر اليونانية واستولى الثائرون على اثينا واسسوا فيها حكومتهم وعينوا ماورو قورداتو رئيساً عليهم . وكان

من جملة زعماء الثورة ربان سفينة يونانية يدعى فناري هجم ليلة ١٨و١٩ حزيران سنة ١٨٢٢ على الاسطول العثماني الراسي على جزيرة ساقر واحرق بعض مراكبه .
فساقت الدولة العلية على اليونان رشيد باشا من الروم ايلي وابراهيم باشا من مصر .
وكانت العساكر المصرية مدربة على النظام الجديد خرجت بالمراكب الى شبه جزيرة المورة واخمدت ثورتها واسترد رشيد باشا اثينا وكادت الفتنة تنام لولم توقظها اوربا باحراق المراكب العثمانية . وذلك ان الافرنج لما رأوا انخماد ثورة اليونان قامت الجرائد والشعراء تهيج الافكار العمومية في اوربا على العثمانيين وتنتصر لارباب الفساد والعصيان من اليونانيين فتداخلت في المسألة انكلترا وروسيا وفرنسا وبعثوا اساطيلهم فأحرقت الاسطول العثماني واغرقته بدون اعلان حرب على الدولة العلية ولا مراعاة للحقوق المتعارفة بين الملل والامم وجرت هذه الحادثة المؤلمة بتاريخ ٢٠ تشرين أول سنة ١٨٢٧ امام فرضة نافرين في جنوب المورة واشتهرت في التاريخ بواقعة نافرين .
ثم انتشبت الحرب بين الدولة العلية وروسيا واخلت العساكر العثمانية بلاد اليونان وعاد ابراهيم باشا لمصر وصارت اليونان ايالة ممتازة تحت سيادة الباب العالي ثم اعلن استقلالها تماماً .

فشعراء الافرنج لم يقتصروا كشعراء العرب على مدح الامراء والتغزل والرثاء بل هم يبحثون في السياسة الداخلية والخارجية ويروجون الرأي الذي يرونه . ولذا اتبع فيكتور هوكو في السياسة خطة استاذه شاتوبريان وخطة اللورد بايرن . وهذا الشاعر الانكليزي بعد ان خدم السياسة اليونانية بقلمه اراد ان يجرب فيها سيفه ويثبت اقتداره في ميدان الحرب كما اثبته في ميدان الادب . فنزل من قصور لوندرا الى اكواخ ميسولونكي من بلاد اليونان ومات فيها بالحمى . وتهور في فعله وخاطر بنفسه كما خاطر المتنبي حينما خرج قاصداً الكوفة سنة ٣٥٤هـ فلقيه اعراب من عشيرة فاتك بن الجهل الاسدي وأخذوا ما معه وانصرفوا . فقال له مفلح وكان من اتباعه ألست القائل :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال بلى وأظهر الشجاعة حيث ينبغي اظهار الحزم والرأي وكر على الاعراب كرة الفوارس فقتلوه وقتلوا ابنه معه . واسس الانكليز جمعية دعوها جمعية بايرن (بايرن سوسيتي) وغايتها حماية المسيحيين في الممالك العثمانية كما كانت مقاصد هذا الشاعر

وأمانيه ولهذه الجمعية شعبة في الاستانة واخرى في اتينا وغيرها ولها علاقة بالمسألة المكدونية كما كان لها علاقة بالمسألة الكريدية .

وتوهم شعراء الافرنج في انتصارهم لليونان ان الموجودين في هذه العصور هم من نسل اولئك الابطال والفلاسفة الذين انقرضوا في القرون الغابرة واورثوا المسلمين علومهم وفلسفتهم . فهذا هو السبب الذي حمل فكتور هوكو على التعصب لليونان على العثمانيين وعلى تحريضه امم النصارى على قتال المسلمين ومناداته بالحرب الصليبية . وكان لم يزل في سن الشباب وعلى سياسة المذهب الكاثوليكي والحزب الملوكي . ولم يك بعد قد اهتدى للتوحيد الفلسفي ومحبة الانسانية ولا لاتباع الانصاف الذي ذكره المعري بقوله :

والدين انصافك الاقوام كلهم وأي دين لآبي الحق ان وجبا

وفعل الافرنج ما فعلوه من الانتصار لليونان بلا مشوق ولا مستصرخ فظن الارمن والبلغار بانهم يتمكنون من استمالة اوربا اليهم بالاستصراخ والتصويت والاناشيد الحماسية فعقدوا في اوربا المجتمعات وخطبوا فيها الخطب المهيجة على غير فائدة . وبعد انقضاء المعرض الاخير بباريس بعث المقدونيون شاعرهم المفلق ميخايلوفسكي مع وفد من ادبائهم لامهات مدن اوروبا فكان يكثر من انشاد القصائد الشرقيات لفيكتور هوكو ومن انشاد اشعار بايرون الانكليزي ومن تنظير هذه القصائد والنظم على منوالها باللسان البلغاري ثم ترجمتها للفرنساوية وتلاوتها على الحاضرين في المجالس بكل شوق وحماسة وطنية وهيجان عظيم . ومع ذلك لم تنفعل اوربا ولا تأثرت الافكار العمومية فيها كما تأثرت ايام استقلال اليونان لاسباب كثيرة منها ان الجمال لايتكرر. والامم اصبحت تنظر لمنافعها الاقتصادية والتجارية اكثر من التفاتها للحماسة الجاهلية . وتوهم شبان مصر ما توهمه هؤلاء أيضاً ايام بعثوا صاحب جريدة اللواء الى باريس يحمل صورة عظيمة تمثل مصر وهي في الأسر وتحتها ابيات عربية تستغيث فيها بمجلس النواب الفرنساوي كما هو معلوم ومطلع الابيات : يا فرنسا من نصرت البرايا . . انصري مصر ان مصر بسوء . . . الخ .

أما عنوان المنظومات التي في هذا الديوان فهي «الصاعقة » و«قناري» سمى هذه المنظومة باسم احد زعماء الثورة المتقدم ذكره ووصف بها المحاربات البحرية وصور فيها اعلام الدول وهي تخفق على المراكب الحربية . وقصيدة « رؤوس

السراي » نظمها سنة ١٨٢٦ على اثر الاشاعة الكاذبة التي اشاعتها الجرائد عن موت قناري بقنبلة اصابته في محاربة ميسولونكي وعن ارسال رأسه مع رؤوس رفقائه إلى الاستانة . ووصف في هذه المنظومة السراي وما فيها من السراري والطواشية والبذخ والقصف ورثى قناري ورفيقين له افجع رثاء وحرض امم النصارى على قتال المسلمين . و(نافارين) صور فيها محاربة نافارين العدوانية واظهر الشماتة باحراق المراكب العثمانية ومن ابياته قوله « مضت ست سنوات ونحن نرى افريقيا تركض لمساعدة آسيا على امة تعلمت كيف تموت . وابراهيم الذي لا يسكنه شيء طار من البرزخ الى السطح كانه صقر بلا وكر ، كانه ذئب تحكم في حظيرة الغنم . فهو يجري إلى حيث تستدعيه الغنيمة فاذا عاد إلى خيمته رمى بيده الرؤوس إلى السراي » .

ومن منظومات هذا الديوان أيضاً (حض المفتي على الجهاد) و (كدر الباشا) صور فيها جلوس الباشا في دائرة الحرم حزيناً وارتباك رجال المعية والخدام والخصيان وتساؤلهم عن سبب حزنه وعما ينقصه من النعم التي هو غريق فيها بين رقص الجواري وغناء الغانيات في قصور عاليات مفروشة بالديباح تعبق فيها روائح المسك والعنبر ودهن الورد . فوجدوا كدره لا على خراب البلاد ونهب العباد وكثرة الظلم والاستبداد وانما هو على موت خصيه الحبشي . ومن هذه المنظومات أيضاً (اغاني قرصان البحر) صور فيها كيف كانت المراكب تجري في البحر المتوسط وتغير على ما في سواحله من بلاد الافرنج وتأسر البنات والغلمان وتبيعهم في السرايات للباشوات . ومنها (الاسيرة) و(ضياء القمر) و(النقاب) صور في هذه المنظومة غيرة الاخوة على اختهم وقتلها لانكشاف الحجاب عنها بسبب الهواء وهي مارة في الطريق امام باب الجامع وبعد قتلها كفنوها وقالوا لها هذا حجاب لا يكشف ستره ونحو ذلك من القصائد .

ولم يدع مدينة من مدن الشرق المشهورة إلا ذكرها في هذا الديوان .وأكثر من ذكر مدن ايطاليا واسبانيا ادخالا لهما في الشرق . وكان لهذا الديوان رواج عظيم حينما نشر لعلاقته اذ ذاك بالمسائل السياسية الجارية . أما اليوم فقد ذهبت طلاوته وزال رونقه وقلت الرغبة فيه . لان فيكتور هوكو فضلاً عما كان عليه إذ ذاك من التغرض والتعصب الأعمى لم ير الشرق بعينيه ولا عرفه إلّا بدرس الكتب ومطالعة ما نظمه الشعراء مثل شاتوبريان وبايرون وكونيه ناظم (ديوان اورينتال) وامثالهم وطالع أيضاً ما ترجم من كلام الحافظ الشيرازي والشيخ سعدي صاحب الكلستان . ومن شروط

اهـل الطـريقـة الـرومـانية الكتابة والنظم عن رؤ ية وانفعال نفسي ولذا يجدون شعور فيكتـور هوكـو في الشـرقيـات مبهما وكلامه مصنعاً لا طبيعياً . بخلاف القسم المتعلق بالاندلس واسبانيا من هذا الديوان فلم يزل له رونق واعتبار عند ادباء الافرنج . لان الشاعر زار اسبانيا في صباه وقرأ مع اولادها في المدرسة فساعدته ذاكرته على وصف ما فيهـا باحسن صورة وأبـدع أسلوب . ومنظـومـاتـه التي عنوانها (غرناطة) هي السحر الحـلال كأنهـا كتـاب في الجغـرافيـة أفرغ في قالب شعري ومنها يتضح تبحر الشاعر في الجغـرافيـا والتـاريخ والآثار القديمة والفلسفة وقد ترجمنا هذه القصيدة لتعلم اساليب الشعر الافرنجي ومناحيه وهي :

٢ ـ غرناطة

لا توجد مدينة لا بعيدة ولا قريبة ، لا عربية ولا اسبانية تنازع غرناطة الجميلة في تفاحة الحسن (١) . ولا تظهر أكثر منها ابهة شرقية ولا رشاقة تحت السماء ألطف من سمائها . قادس فيها النخل . مرسية اشجار البرتقان . جيان فيها القصر القوطي ذو القلل الغريبة . أغريدة فيها الدير الذي بناه القديس ادمون سيغونة فيها الهيكل الذي تقبـل اعتابه وفيهـا قنـاة قائمـة على ثلاثـة صفوف من القناطر تجر اليها المياه من قمة الجبـل . لير فيهـا الابراج . برشلونه فيها عمود على رأسه منارة مطلة على البحر . تودلــه (تطيله) راعيـة لصـداقتهـا ملوك اراغـون وهم في قبـورهم العتيقـة وحـافظـة لصولجانهم الحديد . طلوشه فيها سوق الحدادين المظلم كأن دكاكينه في الدجا منافذ على جهنم .

السمكـة التي شفت في غابـر الازمـان عين طوبيـا من العمـاء تلعب في جوف الخليـج الـذي رقت فيـه (فونتارابي) (٢) . اليقانت تمتزج فيها المآذن بالجرسيات قومبو

(١) اشارة إلى تفاحة الحسن التي تخاصمت عليها آلهات اليونان كما فصل خبرها في الاساطير اليونانية .

(٢) طوبيا من أتقياء بني أسرائيل ذهب حينما اسرهم شلمنصر الى نينوى وعمي بصره فخرج ابنه يفتش له عن دواء واجتمع بالملك اسرافيل عليه السلام فوصف له سمكة يأخذ مخها ويكحل به والده ففعل وعاد اليه بصره وعاش اربعين سنة أخرى وكتبت سيرته في رسالة الحقت بالتوراة . وأما فونتارابي فقيل معناها عين العرب وقبل غير ذلك وهي على الحدود الفرنساوية من جهة البحر المحيط .

ستله فيها قديسها . قرطبة فيها الدور العتيقة وفيها الجامع الذي تحار العين في عجائبه . مادريد فيها نهر مانزانارس . يلياوّ تغطيها امواج البحر ويكسي المرج الاخضر سورها المسودّ من الهرم . مدينة ذات الشجاعة العظيمة تخفي فقرها من كبرها تحت رداء دوقاتها وليس لها شيء سوى شجر الجميز لان قناطرها الجميلة من بقايا العرب وقنواتها من بقايا الرومان . بلنسية فيها جرسيات كنائسها الثلاثمائة . القنطرة ذات التقى اسلمت لهبوب النسيم رايات الترك المعلقة على عواميدها (١) . سلمنكه تجلس وهي ضاحكة على ثلاث تلال وتنام على نغمات الأوتار وتستفيق مذعورة من جلبة أولاد المكاتب الصغار . طرطوشة غالية على القديس بطرس . بوسير ده الغنية فيها المرمر مثل الأحجار . تويه تفتخر بقلعتها المثمنة الشكل . طرّا كونة تفتخر باسوارها التي بناها احد الملوك . سمورة يجري من تحتها نهر دور وطليطلة فيها القصر العربي . اشبيلية فيها جير الدة . برغة وضعت ثروتها على قمتها . بينافلور مركيزة . جيرونة دوقة . بيغارة كلها زهدت في الحلي الفخيمة . بامبلونه المظلمة متهيئة دائماً للحروب وقبل ان تنام على ضوء القمر تقفل الابراج المحيطة بها كالمنطقة .

فهذه المدن الاسبانية اما منتثرة في السهول أو مرتفعة على الجبال . وفي جميعها قلاع لم تضرب يد الاعداء فيها بالنواقيس . وفي جميعها كنائس جامعة لها جرسيات حلزونية الشكل (٢) . ولكن غرناطة فيها الحمراء .

الحمراء وما أدراك ما الحمراء قصر زوقته الجن وملأته بالمحاسن كأنما هو في الحلم . بل وقلعة ذات شرف مخرمة مقلبة . إذا جن الليل سمعت منها أصواتاً سحرية وإذا طلع القمر من وراء اقواسها العربية الكثيرة وانعكس نوره على الجدران احدث عليها نقوشاً بيضاء عجيبة . غرناطة فيها من العجائب اكثر ما في الرمانة من الحب الذي لونه كلون العقيق وينبت الرمان في وديانها بكثرة . غرناطة اسم على مسمى . غرناطة إذا اشتعلت نار الحرب فقعت في وجوه اعدائها اشد من فقع القنبلة الحمراء بمائة مرة .

(١) لعل مراد الشاعر الرايات التي يحملها النصارى من الأراضي المقدسة التابعة للترك ويعلقونهاعلى عواميدالكنائس تعبداً .

(٢)لانها كانت ماذن .

إذا أجابت (فيفانوبن) (فيقاقونلد) بدفهـا المزين بالاجراس اوتتوجت (جنة العريف) بالنور وامست كانها خليفة ورفعت في ظلام الليل قمتها المضيئة فلا شيء أجمل من ذلك ولا شيء أعظم من ذلك . وتعزف الأبواق من (ابراج العقيق) كانها جمهور نحل تسوقه الرياح . وفي القوافة نواقيس مهيئة دائماً لاعلان الافراح وتطنطن في ابراجها الافريقية لتوقظ من في البيضاء . غرناطة لا تجاريها الرقباء ولا في شيء . غرناطة تغني الاغاني الرقيقة بارق مما هي . وتصبغ دورها بابهى الالوان . ويقال بان النسيم يحبس انفاسه اذا نثرت غرناطة في ليلة من ليالي الصيف نساءها وازهارها في سهولها .

جزيرة العرب جدتها . والعرب الرّحل المقتحمون انها قطعوا اسيا وافريقيا من اجلها فقط . ولكن غرناطة كاثوليكية . غرناطة ضحكت منهم . غرناطة تلك المدينة الظريفة لو امكنها ان تكون اثنتين لكانت اشبيلية أخرى . انتهى .

فان كان هذا وصف غرناطة عند فيكتور هوكو فكيف يكون وصف اشبيلية ولا يخفى ما في تعداد هذه المدن الاسبانية من الأهمية في تاريخ آداب العرب لانتساب الكثير من العلماء والادباء اليها كالشريشي شارح المقامات والشاعر الاشبيلي والشاطبي ناظم الشاطبية وكثير من أمثالهم . وأما قوله تحبس انفاسها فهو من تشابيه أصحاب الطريقة المدرسية على حد قول العرب إذا برزت الحسناء احتجبت الشمس خجلاً ونحو ذلك .

أما غرناطة فهي في أسفل جبال نفاذه (سيبرانفاده) وعلى مجتمع نهري دارُّو وجنيل المنصب في الوادي الكبير وهي مبنية على ثلاث تلال تحتها سهل واسع من أجمل السهول يسمى لافيكه . وغالب ابنيتها من القرميد الاحمر رصفت بعضها فوق بعض فاشبهت الرمانة المفلوقة . ولذا سميت غرناطة ومعناها الرمانة وأشهر ابنيتها «الحمراء» وهي على تلة يجري من تحتها نهر دارو وفيها برج عظيم على رأسه شرف ولونه عقيقي ولذا قيل له (تورفيرمبل) وتجاه الحمراء (البايسين) أي البيضاء وهي حارة من حارات غرناطة تشتمل على دور لطيفة للسكن . وبقرب الحمراء جنة العريف (جنراليف) وهي قصر للصيف من أبدع القصور مرتفع على قمة عالية وسميت الحمراء لانها مبنية بالقرميد الأحمر ومنظرها الخارجي ليس بعجيب فاذا دخل الزائر من بابها بهره ما يراه داخلها من التزيين والنقش العربي (ارابسك) والتزويق والترصيع بالفسيفساء

والتصفيح بانواع المرمر والقيشاني وكتبت عليه آيات قرآنية وعبارة (لاغالب الا الله) . وفي كل زينة من زيناتها اوتزويقة من تزويقاتها دليل على سلامة الذوق والمهارة التامة في الصنعة وحسن الانتخاب . ومشتملات الحمراء دوائر كثيرة وساحات ومخادع واروقة وجنات تجري من تحتها الانهار . وفيها جامع وحمامات . واشهر مشتملاتها حوش السباع وهي ساحة سماوية مبلطة بالرخام الابيض يقرب طولها من ٣٠ متراً وعرضها ١٦ متراً وعلى جوانبها اروقة قائمة على عمد من الرخام وأقواس بديعة . وفي وسط الساحة قصعة بيضاء قائمة على اثني عشر سبعاً من المرمر الأسود ينصبُّ الماء من أفواهها ويجري في قنوات مكشوفة إلى البيوت والمخادع . ولكن الماء منقطع اليوم عنها . ومن مشتملاتها الظريفة قاعة السفراء وقاعة الاختين وغير ذلك . وقد مثلت الحمراء في كثير من المدن الاوروبية ومثلت في معرض باريس الاخير احسن تمثيل .

وتغزل شعراء العرب في غرناطة باشعار كثيرة ونظم رئيس كتابها عبد الله بن زمرك موشحات لطيفة منها :

لازمة

نسيم غرناطة عليل لكنه يبري العليل ... وروضها زهرة بلبل ورشفه ينقع الغليل

دور

عقيلة تاجها السبيكة ... تطل بالمرقب المنيف
كانها فوق مليكه ... كرسيها جنة العريف
تطبع من عسجد سبيكه ... شموسها كلها تطيف

وقال أيضاً ووجهه بها من فاس إلى غرناطه :

لازمه

ابلغ لغرناطة سلامي وصف لها عهدي السليم ... فلورعى طيفها زمامي ما بتُّ في ليله السليم

دور

اعندكم انني بفاس ... اكابد الشوق والحنين
اذكر اهلي بها وناسي ... والليل في الطول كالسنين
الله حسبي فكم اقاسي ... من وحشة الصحب والبنين

لازمه

مطارحاً ساجع الحمام شوقاً إلى الالف والحميم والـدمع قد لج في انسجام منثراً عقده النظيم

دور

ياساكـن جنـة العـريـف أسـكـنـتـمُ جنـة الخـلود
كم ثمَّ من منظـر شريـف قد حلف باليمـين والسـعـود
ورب طودٍ به منـيـف أدواحـه الخضـر كالـبنـود
النهر قد سلَّ كالحسام لراحة الشرب مستديم
والـزهـر قد راق بابتسـام مقبلاً راحة النديم

ولـد هذا الأديب في غرنـاطـة واتصل بواسطة لسان الدين بن الخطيب الشهير إلى اميـرهـا واحـرز منـه رئاسة الكتاب وترجمه لسان الدين في كتابه «الاحاطة» وأثنى عليـه وقيـل بأن ولـده كتب هامشـاً على ترجمـة عبد الله بن زمرك وطعن فيه وقال بأنه تقـرب للأمـير بالافسـاد والـوشاية على والده لسان الدين وتوفي ابن زمرك مقتولاً سنة ٧٥٥هـ قتلته زوجته مع ولدين له . ومما قاله أيضاً في غرناطة :

عروسـة تاجهـا السبيـك وزهـرهـا الحـلي والحللْ
لم ترض من عزهـا شريـك بحسنهـا يضـرب المثـل
ايـدهـا الـله من مليـك يمـلك المـجـد للدول
بدولـة المرتجى المهيب الملك الطـاهـر الاغـر تختـال من بردهـا القشيب في حلة النور والـزهـر
كرسـيـهـا جنـة الـعـريـف مرآتها صفـحـة الـغـديـرْ
وجـوهـر الطـلي عن شنـوف تحكـمـه صنـعـة الـقـديـر
والانس فيـه على صنـوف فمـن هديـل ومـن هديـر
كم خرق الـزهـر من جيوب وكلل القضب بالدرر
فالغصن كالكـاعب اللعـوب والطير تشدو بلا وترْ

وهي طويلة اقتصـرنـا منهـا على ما ينـاسب المقـام . فجنـة العـريف التي اكثر الشعراء من ذكرها هي اشبه بقولنا اليوم قصر يلديز . ونظم في بارية أيضاً موشحات ووصف قصرها العجيب فقال :

عليـك باريـة السـلام ولا عدا ربعـك المطـر
مذحـل في قصـرك الامـام فقربك السؤل والوطرْ
عروسـة انـت يا عقـيـله تجلى على مظهـر الكـمال

مدّت لك الـفَ مسـتـقيله تمسـح اعطـافـك الشـمال
والبحـر مرآتــك الصقيله يشـف من ذلــك الجـمال
إلى آخره :
وقال أيضاً في هذا القصر من موشح آخر :
يا حبذا مبناك فخر القصور بروجـه طالت بروج السما
ما مثله في سالفات العصور ولا الذي شاد ابن ماء السما
كم فيه من مردى بهيج وقور في مرتقى الجوّ به قدسما .
إلى آخره :
ومما ورد على منوال منظومة فيكتور هوكو القصيدة الشهيرة التي مطلعها (لكل شيء إذا ما تم نقصان) حيث ورد فيها :
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبـة ام أين جيـان
واين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان
واين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العزب فيضان وملآن
قواعـد كنَّ اركان البلاد فما عسى البقاء إذ لم تبق اركان
تبكي الحنيفيـة البيضـاء من اسف كما بكـى لفـراق الالـف هيـمان
على ديــار من الاســلام خاليـة قد اقفـرت ولهـا بالكفـر عمـران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيـهـن الا نواقيس وصلبــان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنـابـر ترثي وهي عيـدان
ياغــافـلاً ولـه في الـدهـر موعظـة ان كنت في سنـة فالـدهـر يقظـان
ومــاشيــاً مرحــاً يلهيـه موطنـه أبعـدَ حمص تغـرُّ المـرء أوطـان
وحمص هي اشبيلية وهي على الضفة اليسرى للنهر أي الوادي الكبير المنصب في المحيط عند خليج قادس وارتفع وراء المدينة جبل ولذا قال فيها أحد واصفيها :
ذكـرتك يا حمص ذكر هوى امــات الحسـود وتعنيتـه
كانـك والشمس عند الغرو ب عروس من الحسن منحـوته
غدا النهـر عقـدك والطود تا جك والشمس اعلاه ياقوته
وهـذا اشبـه بقـول الشـريف العقيـلي المنتسب لعقيـل بن ابي طالب في مدينة الفسطاط قاعدة الديار المصرية في اوائل الاسلام :

تبدت عروساً والمقطم تاجها ومن نيلهـا عقد كما انتظم الدر

ونظمـوا في اشبيليـة كثيـراً من الاشعـار لأنها كانت دار انسهم وسرورهم ومركز عزهم وحضـارتهم وكـان أهلها يزيدون على أربعمائة ألف نفس . وأما اليوم فلا يبلغ سكانها المائة وخمسين ألفاً .

وفيهـا القصـر الشهير المعروف عند الافرنج باسم (القازار) وفيها منارة جير الده وارتفـاعهـا (٩٤) متراً وكـان يرصد فيها الافلاك . ومما قيل في بلنسية المعروفة بمدينة فالانس وهي على شاطىء البحر المتوسط عند مصب (غواد الافيار)واليها ينسب كثير من الأدباء :

بلنـسيـة جنـة عاليـة ظلال القطـوف بها دانيـة

عيون الرحيق مع السلسبيل وعـين الحيـاة بها جاريـة

قاله ابو العباس احمد بن الزقاق ومدحها باشعار كثيرة . ومما قيل في قرطبة أيضاً :

بأربـع فاقت الاقطار قرطبة وهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتـان ثنتـان والزهراء ثالثة والعلم أفضـل شيء وهـو رابعهـا

وقرطبة كما تقدم على نهر الوادي الكبير والزهراء حارة من حاراتها .

٣ - اوراق الخريف

افتتح الشاعر هذا الديوان بمقالة ادبية تاريخية سياسية نظر فيها نظرة عامة إلى الاحـوال الجـاريـة في سنـة ١٨٣١ والى المسـائل الخارجية وشبه القرن السادس عشر للميـلاد بصـراط مرت عليـه الامم الاوربيـة من الجامعة الدينية والسياسية الى حرية الضمـير وحـريـة المدنية أي استقلالها بادارة بلديتها . ومن الفلسفة المنطقية الرهبانية الـى الـفلسفـة الحسيـة التحليليـة المؤسسـة على البحث والتفتيش ومن الـدين الكـاثـوليكي الى الـدين الـبر وتستـانتي . ومن افـانـين الصنـاعة القوطية الى افانين الصنـاعـة المـدرسية وهي المستفـادة من آثار الرومان واليونان . قال ولم يكن حينئذٍ في اوربـا الا حروب دينيـة وحـروب اهليـة وحـروب على الاعتقـاد بالسر المقدس وعدم

الاعتقـاد به ولم يكن يسمـع فيها الا صليل السيوف ولغط العلماء المتعصبين فظهر لوثر مؤسس الدين البر وتستانتي وظهر ميكل آنج مصور (اليوم الآخر) وهو شيخ المصورين وامـامهم وحـدث انقلاب وتبدل في اوربا ولكن القلب الانساني مثله كمثل الأرض . يتيسـر لك حرثهـا وزرعهـا وبنـاء ما تريـده بناءه عليها ومع ذلك لا تنفك عن انبات العشب المغـروس في طبيعتهـا وبـزوره في داخـل جوفهـا . ولا يتمكن المحـراث من الـوصـول الى اعماقها ولا قلب سافلها لعاليها . وكذا القلب الانساني لم يزل مغروسا فيه شيء من الافكار العتيقة . ولا تزول هذه الافكار تماماً الا بهدم القلب الانساني . إذ لا يكفي ان يقلب عاليه سافله فقط . فالذي يهدم القلب الانساني هو الشعر .

وتـرنم الشـاعـر في هذا الـديـوان بمحبـة الوالدة وبذكر المعاهد البيتية واحوال الطفـوليـة وعـبر عما يجده في نفسـه ويحس به في قلبه ولذا كان تأثيره على نفوس القراء اشد من تأثير ديوان الشرقيات . غير ان الشرقيات أكثر سناء وضياء من اوراق الخريف .

أمـا المنظـومـة الاولى فمطلعها « كان لهذا العصر سنتان » يعنى حينما ولد سنة ١٨٠٢ فشخص كيفيـة ولادتـه وحضـانة امه وحنوها ورأفتها عليه . وذكر في القصيدة الثـانيـة بيت ابيـه وكيفيـة الـذهـاب اليـه وما في طريقه من المدن وما حوله من الرسوم والاطلال وما ابقاه في ذهنه من التصور والخيال . وقال في منظومة اخرى « حينما يولد الطفـل تهتف العـائلة باصـوات الفرح وتقر عيونهم جميعاً برؤية لحظه اللطيف اللامع وتتهلل وجـوههم بالبشـر مهما كانت حزينة او عبوسة . . » واطنب في وصف ما يتعلق بالمولود ومحبة امه له وخفقان قلبها عليه وكيفية نومه وقعوده وبكائه وأكله . وصور جميع ذلك باسلوب بديع يخيل منه للقارىء انه في دار الولادة يسمع ويرى ما يحدث فيها من الاحتفـال بالمـولـود . وعلى منـوالهـا منظـومـة اخـرى مطلعهـا « ما اجمل الطفل وهو يبتسم » . وكـان تزوج وولـدت زوجتـه فاختبر لذة العائلة وعرف محبة الاولاد . ولذا خالف في هذا الموضوع المعري القائل :

على الـولـد يجني والـد ولـو انهم	ولاةٌ على امصـارهـم خطبـاء
وزادك بعـداً عن بنيـك وزادهم	عليـك حقـوداً انهـم نجبـاء
يرون أبـاً يلقـاهـم في مؤرب	من العقـد ضلت حله الاربـاء

وله أيضاً :

ابوك جنى شرًّا عليك وانما هو الضب إذ يسدي العقوق إلى الحسل

وهو ولد الضب ولذا كني أبا جِسلْ . ويقال في المثل هو أعق من الضب وهو القائل في اللزوميات أيضاً من قصيدة غراء مطلعها :

ترنم في نهارك مستعيناً بذكر الله في المترنمات

ومنها :

ولا ترجع بايماء سلاماً على بيض اشرن مسلمات

إلى ان قال :

خمور الريق لسن بكل حالٍ على طلابهن محرماتِ
ولكن الاوانس باعثات ركابك في مهالك مقتمات
صحبنك فاستفدت بهن ولداً اصابك من أذاتك بالمسات
ومن رزق البنين فغير ناء بذلك عن نوائب مقسمات
فمن ثكل يهاب ومن عقوق وارزاء يجئن مصممات
وان تعط الإناث فاي بؤس تبين في وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حلياً ويلين الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم حرب ولا في غارة متغشمات (١)
ودفنٌ والحوادث فاجعات لاحداهن احدى المكرمات
وقد يفقدن ازواجاً كراماً فيا للنسوة المتأيمات
يلدن اعادياً ويكنَّ عاراً إذا أمسين في المنهضمات
يرعنك ان خدمن بغير فن إذا رحن العشي مخدمات (١)

ومنها :

وما الجارات الا جاريات بعيبك ان وجدن مهيمات
فلا تسأل أهند أم لميس ثوت في النسوة المتخيمات
ولا ترمق بعينك رايحات إلى حمامهن مكممات

---

(١) تغشم إذا دخل الامر بشدة .

(١) بغير فن أي بضروب كثيرة ومخدمات ذوات خدم وهي الخلاخل .

إلى ان قال :

وســـاوِ لديــك اتــراب النصــارى ... وعــيــنــاً من يهود ومســـلمات
ومــن جاورت من حنــف وســـرب ... صوابــي (١) فليجــنَّ مكــرمــات
فان الــنــاس كلهــم سواء ... وان ذكت الحــروب مضــرمــات

ومنها :

وواحــدة كفــتــك فلا تجاوز ... إلــى اخــرى تجيء بمــولــات

الى آخره .

وفي هذا المعنى ابيات من قصيدة لعلقمة بن عبدة من شعراء الجاهلية مدح بها الحرث الغساني وأولها :

طحــا بك قلب في الحسان طروب ... بعيــد الشبــاب عصــر حان مشيب
تكــلفــني ليلى وقــد شط أهلهــا ... وعـــادت عواد بيــنــنـــا وخطـــوب

ومنها :

فان تسألــوني بالــنــســـاء فانني ... بصــير بأدواء الــنـســـاء طبيب
اذا شاب رأس المــرء أو قل مالــه ... فليس له في ودهــن نصــيــب
يردن ثراء المـــال حيث وجــدنــه ... وشــرخ الشبــاب عندهن عجيب

فكـــان فيكتــور هوكــو عارض المعــري وصــور في هذا الـــديــوان سرور العـــائلة بالاولاد . وكـــان لما نظمــه في زهــو الشبـــاب . فالشـــاعران في هذا المبحث على طرفي نقيض . ولكنهما يتفقان (في تمجيد الله الذي شرف عن التمجيد ووضع المنن في كل جيد) وفي الحيرة مذهب الدين قالوا رب زدني فيك تحيراً كما قال ابن الفارض :

زدني بفرط الحب فيك تحيراً ... وارحم حشـــا بلظى هواك تسعــراً

فاظهــر فيكتــور هوكــو حيرته في منظومة عنوانها « ما يسمع على الجبل » . قال فيهــا : بانــه صعــد إلى جبــل مشــرف على المحيط الغربي ووقف صامتاً ساكتاً يرى الســماء فوقــه والمــاء تحته ويسمع تلاطم الامواج وتضارب الرياح وامتزاج اصوات البر باصــوات البحــر وصعــودهما الى الملأ الأعلى . فالصــوت الذي يصعد من البحــر فيه جلالة وسرور وهو من تلاطم الامواج والهذير . والصوت الذي يأتي من البرفيه كآبة

(١) الحنيف المسلم على ملة ابراهيم عليه السلام . والصابئون جنس من أهل الكتاب .

وحزن وهو من تضارب الرياح وتأفف الانسان من مصائب الحياة . فالبحر يرتل آيات الفرح والسلام كترتيل المزامير في صهيون ويحمد الخالق على ما ابدعه من جمال المخلوقات فيصعد كلامه الطيب الى اللّه . وكلما فرغت موجة من تسبيحها قامت وراءها موجة اخرى تسبح الله . وأما البر فينادي باصوات الويل والحرَب ويصرخ ويشتم ويلطم . فهذا الصراخ والعويل هو بكاء الارض وصراخ الانسان . وهذان الصوتان احدهما يقول « الطبيعة » والثاني يقول « الانسانية » . قال الشاعر « وتأملت طويلاً في هذا المنظر الباهر وفكرت في لج البحر الذي تعلوه الامواج فانفتح في قلبي لجة عميقة لا قعر لها وقلت في نفسي لِمَ نحن هنا ؟ ماهو الغرض من كل هذا ؟ ما تصنع النفس ؟ أيهما احسن البقاء أم الفناء ؟ والله يقرأ وحده في لوحه المحفوظ لأي سبب يمزج على الدوام غناء الطبيعة ببكاء الجنس البشري :

قال المعري :

اری الخلق في امرين ماض ومقبل وظرفين ظرفي مدة ومكان
اذا ما سألنا عن مراد الهنا كنى عن بيان في الاجابة كان

ونظم فيكتور هوكو في هذا المعنى قصيدة اخرى عنوانها « الشموس الغاربات » صور فيها غروب الشمس وظهور الشغف وتكاثف الغيوم على الافق واستدل بنظره في المخلوقات على وجود الخالق . «ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار » . فأولو الالباب من الشعراء لاسيما الذين نهجوا نهج الطريقة الرومانية لا يفترون عن التفكير في هذا الأمر . ومما هو في منظومة الشموس الغاربات من لطائف الابيات قوله : « هذه السحب الملونة بالوان الرصاص والذهب والنحاس والحديد تستكن فيها الزوبعة والاعصار والصاعقة والجحيم وتدمدم دمدمة خفية . فهو اللّه الذي يعلقها جميعاً في السموات العميقة كما يعلق الفارس على أوتاد البيت اسلحته المتصلصلة » . (١) .

---

(١) سورة النبأ : «ألم نجعل الأرض مهاداً . والجبال أوتاداً . وخلقناكم ازواجا وجعلنا نومكم سباتاً . وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً . وبنينا فوقكم سبعاً شداداً . وجعلنا سراجا وهاجا . وانزلنا من المعصرات ←

ومما ورد لفيكتور هوكو في هذا الديوان من القصائد البديعة ، التي سماها « الدعاء للجميع » قال :

يا بنتي قومي للصلاة . - انظري قد عسعس الليل ، ونزل الضباب على الأفق ، وطلع النجم من وراء السحاب كانه دينار . انصتي لم يبق الا مركبة تكر في الظلام على بعد . والكل دخل ليستريح . والشجرة التي على الطريق نفضت غبار النهار بريح المساء (وهي الدبور) .

زحزح الشفق عن النجوم ستار الليل وفجر كل نجم كالشرارة الحامية . ورقق المغرب حاشيته الحمراء . وفضض الليل في الدجا وجه الماء . وامتزجت اقلام المحراث بالمسالك وبها حولها من الشوك . واختفى الجميع عن العيان . والتبست الطريق على ابن السبيل .

النهار للأذى والتعب والبغض . فلنشرع في الصلاة حيث دخل الليل . ما أصفى الليل وما أوقره ! الراعي يعود والماشية تجأر ، والريح تعزف في نوافذ البرج ، والمياه تركد في المستنقعات . والجميع يتألم ويشكو . لان الطبيعة من شدة تعبها امست في احتياج للنوم والصلاة والحب .

هذه الساعة هي التي يتكلم فيها الاولاد مع الملائكة .واما نحن فهرع فيها لملاهينا الغريبة . فجميع الاولاد الصغار يدعون في آن واحد بدعاء واحد . وهم راكعون على الأرض واعينهم شاخصة الى السماء وايديهم مضمومة وارجلهم حافية . ويطلبون لنا الرحمة من الله تعالى .

ثم ينامون - وحينئذ تتناثر احلامهم الذهبية في حندس الليل بعد ان تتولد من هوشات آخر النهار . فاذا رأت عن بعد انفاسهم متصاعدة وشفاههم محمرَّة طارت إلى ناموسياتهم كما يطير النحل إلى الازهار ورفرفت حولها .

فيا عجباً لنوم السرير ! ويا عجباً لدعاء الصغار ! فهو صوت حنو ورأفة لا عدوان فيه . وما أحلى هذا الدين الذي يقر العين ويضحك السن ! هذا مطلع النشيد في ليلة السعود . فينيم الولد عقله الصغير في الدعاء كما يضع الطير رأسه تحت جناحه .

ماء ثجاجا لنخرج به حبًا ونباتاً . وجنات الفاقاً » .

والسبات الراحة . والمعصرات السحائب تقتصر . والاعصار ريح تثير سحاباً ذات رعد وبرق .

٢

يا بنتي قومي للصـــلاة ـ وادعي اولا وخـــاصـــة للتي هزت الليـالي الطـوال في سريـرك . للتي التقطـك من عالم الـذر وانت نفس لطيفة ووضعتك في الدنيا وصارت لك أمـاً شفـوقـة وقسمت لأجلك نصيبهـا من هذه الحيـاة المـرة إلى قسمـين فشربت الحنظل واستقتك العسل .

ثم ادعي لي . فاني احـــوج منهـا لدعـائـك لانهـا مثلك صالحـة ، بسيطـة ، صادقـــة ، قلبهـا صاف ، ووجهـا راض . شفقت على كثـير ين ولم تحسـد أحـداً . عاقلة ، حليمة ، صابرة على غصص الحياة ، متحملة للشر بدون ان تعرف فاعله .

طالما قطفت الزهور ويدها الطاهرة لم تمس قشر الشجرة المنهي عنها (١) . ولم تقع بالفخ مع ضحكة سنها . وتنسى دائماً كل ما سلف ومضى . ولا تعرف الافكار الخبيثة التي تمر في الذهن كما يمر الظل على الماء .

تجهـــل ـ واجهـلي مثلهـا دائـماً ـ ما في هذا العـالم من الشقـاء الملوث للنفس ، والحظـوظ الكـاذبـة ، والاباطيل الفانية ، وكل ما عاقبته الندامة وتبكيت الضمير ، والشهـوات التي ترغي على القلب كالـرغـوة ، وخـواطـر الخجل والمرارة الباعثة على احمرار الوجه .

أنا اخبر بالحياة ويمكنني ان اقول لك متى كبرت واقتضى تعليمك بان الجري وراء السلطة والسعادة والتفنن هوجنون ودناءة . وبان كاس (٢) الانتخابات تدور علينا وتسقينا الخزي بدلا عن الفخار . وبان الانسان يخسر نفسه في لعب هذا القمار .

كلما عاشت النفس تعطشت . والامـور وان شفت بدايتهـا عن نهايتها وظهرت اسبابها في عاقبتها فالانسان مع ذلك يشيب على الرذيلة وعلي الضلال المنفور منه .

(١) قيل ان الاديب الماهر في الانتقاد الادبي سنت ريف كان يغازل زوجة فيكتور هوكو ولذا حصل بينهما تقاطع وعداوة .

(٢) وهي كأس تجمع فيه الاصوات لانتخاب رئيس المجلس أو غيره .

من كثـرة المشي يتيـه الانسـان ويـداخـل عقله الشك . والكل يترك شيئاً على شوك الطريق التي سلكها فالغنم تترك صوفها والرجل يترك فضيلته .

قومي إذاً وادعي لي وقولي في مقام كل دعاء : « يالله يا الله يا ربنا انت ابونا فارحمنـا انـك انت الـرحيم . فارحمنـا انـك انت العظيم » . ودعي قولك يذهب الى حيث ترسله نفسك . ولا تقلقي فلكل شيء طريق . فلا تقلقي على الطريق التي يذهب فيها .

لا شيء في هذه الـدنيـا الا ولـه مجرى . فالنهـر يجري ملتوياً بين السهول حتى يصب في البحـر والنحلة تعـرف الـزهـرة التي فيها العسل . وكل طائر يطير ويقع دائماً على غرضه فالنسر يطير ويرتفع نحو الشمس . والعقاب يهبط على المقبرة والخطاف (السنونو) يطير في الربيع . والدعاء يصعد إلى السماء .

فـاذاارتفـع صوتك الى الله بالدعاء لي أكون كالعبد الذي جلس في الوادي بعـد ان حط حمله على حافـة الطـريق واشعـر بخفـة نفسي لان دعاءك يأخذ معه وهو صاعد جميع ما يثقل على عاتقي من الآلام والاوزار والخطايا .

قومي ادعي لابيـك . ـ لاصيـر اهـلاً لرؤيـة طيف ملك يمـر في المنـام كطـير الحـمام . ولتشتعـل نفسي مع اشتعال البخور . امحي خطاياي بنفسك الطاهر ليصير قلبي معصوماً نقيًّا كانه صحن الهيكل الذي يغسل في كل مساء .

٣

ادعي أيضـاً لجميـع من يمـر على هذه الأرض من الاحيـاء ولجميـع الـذين انـدثـرت مآثـرهم بهبوب الرياح وتلاطم الامواج عليها .وللأحمق الذي يفرح بلمعان الحـريـر وبسرعة عدو الخيل . ولكل من يتألم ويشتغل سواء كان غادياً أو بادياً . سواء عمل خيراً أو شرًّا .

ادعي للمنهمـك في اللذات والعـاكف عن القبـلات إلى الصباح . ولمن يتخذ وقت الصـلاة ليلهـو بالـرقص أو الجلوس على المائدة . ويشتغل بالفحشاء في الساعة التي تتلو النفس الزكية فيها دعاء المساء وإذا فرغت من دعائها رجعت خائفة من الله يسمع رجاءها .

ياولدي ادعي للعذارى المستورات . وللمحبوس في القلعة . وللعواهر اللواتي يبعن اسم الحب الغالي . وللعاقل الذي يستغرق في مطالعاته ويفكر في الخلق . وللكافر الملعون الذي يطعن في الشريعة المقدسة . ـ لان الدعاء لانهاية له . لانك تؤمنين عن الذين يجحدون والطفولية تقوم مقام الايمان .

ادعي أيضاً للذين هم راقدون تحت حجر القبر . يا لها من حفرة سوداء تفتح امامنا في كل آن . جميع هذه النفوس الهالكة مفتقرة لمن يزيل عنها صداء الجسم (١) هل سكوتها دليل على انها لا تتألم ؟ يا أولادي لننظر تحت الأرض لان الشفقة على الأموات .

٤

اركعي اركعي على الأرض حيث وضع أبوك اباه . وحيث وضعت أمك أمها . حيث يرقد كل من عاش عليها رقدة عميقة في حفرة يمتزج فيها الغبار بالغبار . ويجد الانسان تحت ابيه آباءه . كاللج تحت اللج في بحر لا قعر له .

يا ولدي حينما تنامين تتبسمين . فيأتي الطيف وهو فرحٌ في الظلام الذي غطست فيه . فيجفل من نفختك ثم يعود إليك أيضاً . وفي النهاية تفتحين عينيك الالهيتين اللتين احبهما . في الوقت الذي يفتح فيه الفجر على الأفق جفنه وله أهداب ذهبية فان الفجر عين الهية أيضاً .

ولكن الاموات لو تعلمين أي نوم ينامون ! فرشهم باردة وثقيلة على عظامهم ولذا شنعتهم . والملائكة لا يسبحون وهم مجتمعون حولهم وطيف الخيال يثقل عليهم بجميع ما جنته أيديهم . ليلهم ليس له فجر والندامة تنقلب دوداً في البر وتفتت قلوبهم .

يمكنك بكلمة يمكنك بقول ان تجعلي ندامتهم تتخذ لها جناحاً وتطير . وان تبعثي بحرارة لطيفة تلذذ عظامهم . وان تجعلي الشعاع يصيب أيضاً أجفانهم الغامضة وان توصلي لهم خبراً من النور والحياة وشيئاً من الرياح والاحراج والمياه .

(١) معري :

تجاور هذا الجسم والروح برهة فما برحت تأذن بذاك وتصدأ

قولي لي حينما تذهبين وانت طفلة مفكرة تدورين على شاطىء البحر المتلاطم اوتحت الشجر الـذي يملأ القلب مهـابة بظله وبتضارب الرياح عليه ، الا تسمعين صوتاً يقول لك يا بنيّ حينما لا تدعين لي ؟

هذه شكـوى الأمـوات ؟ فالأمـوات الـذين يدعى لهم ينبت على قبرهم نبات أشـد اخضـراراً وأكثر ازهاراً . ولكنهم منسيون واحسرتاه ! حتى الشيطان لا يضحك لهم ولا ضحكـة استهـزاء . ليلهم بارد مظلم . وبعض الشجـر الهـائـل الذي يظلل قبورهم يغرس دائماً عروقه في قلوبهم بلا شفقة عليهم .

ادعى ! حتى ان الاب والعم والاجداد الذين لا يطلبون منا الا الدعاء فقط ، يهتزون في قبـورهم عند سماع ذكرهم . ويعلمون ان على وجه الأرض من يتذكرهم بعد ، ويشعرون بحصول دمعة في عينيهم الفارغة كما يشعر ثلم المحراث بتفتح الزهرة .

٥

يا حمامتي لا ينبغي لي أنـا أن أدعي لجميـع الهـالكين . ولا للأحياء المارقين من الدين . ولا لجميع الذين ضمهم القبر . والقبر أصل المعابد .

لا ينبغي لي أنـا الـذي نفسـه فانية ، مملوءة بالخطايا ، وفارغة من الايمان ، ان ادعي للجنس البشري . لان صوتي يكاد لا يكفي ليستغفر الله عن ذنوبي .

كلا بل لوأمكن أحـد أن يدعي اليوم لهذه الأرض الفـاسدة لكان أنت . انت الذي صوتك يسبح . ودعاءك الطاهر يا ولدي يمكنه ان يتكلف بالآخرين .

اسئـلي هذا الاب العظيم الـذي يبسم في افقـك لماذا الشجـرة الكبـيرة تخنق الشجرة الصغيرة ؟ ومن الذي يميل بالعقل البشري عن الحق إلى الباطل .

اسأليـه هل الحكمـة لا تختص الا بالأزليـة ؟ لماذا نفختـه تحطنـا ؟ لماذا تحشر الانسانية في القبر بلا انقطاع ؟

الأولاد يسهـرون في المكـان المقـدس على الـذين افنـاهم الاثم . فهم ازهـار يعطرونهم وهم بخور يفوح عليهم . وهم اصوات ترتفع إلى الله .

فلنترك هذه الأصوات العالية تفعل . ولنترك الأطفال جاثين على الركب . أيها المذنبون كلنا ولنا ذنوب . كلنا على شفا جرف هاو . فينبغي للطفولية ان تدعو لنا .

٦

الخ . . الخ . .

وقصيدة الدعاء للجميع طويلة ومشتملة على قواعد الانسانية والفلسفة الاجتماعية التي شرعها واوضحها في كتاب البؤساء لان النثر اوسع مجالاً من الشعر الذي يضيق عنه الكلام ولا يتيسر فيه الا الرمز للمسائل والاشارة اليها واللبيب تكفيه الاشارة . وانما أوردنا منها ما ذكر لتعلم الاساليب الشعرية التي جرى عليها المؤلف في النظم على نهج الطريقة الرومانية ولتظهر افكاره في الموجدات . وكان نظمه لهذه القصيدة وهو في سن الشيخوخة أي في سنة ١٨٨٠ وهي معتبره من أبلغ كلامه .

ولعله اتبع في هذا الدعاء الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي عليه السلام .

قيل ـ يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة ؟

قال ـ امك ثم امك ثم أباك ثم أدناك ثم ادناك .

ومما ورد في القرآن قوله تعالى « واخفض لهما جناح الذُّل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » .

وقال المعري في اللزوميات :

واعط اباك النصف حيًّا وميتاً … وفضل عليه من كرامتها آلاما
أقللك خفًّا إذا أقلتك مثقلاً … وأرضعت الحولين واحتملت تمًّا
والفتك عن جهد والقاك لذة … وضمت وشمت مثل ما ضم أو شمَّا

والنصف هو النصفة والانصاف . وأقل بمعنى حمل . واحتملت تماً أي أتمت أيام حملها وولدت لتمامٍ . ولو تتبعنا كلام المعري أو ما ورد على شاكلته من الشعر العربي لوجدنا فيه أكثر المعاني الواردة في قصيدة الدعاء للجميع .

٤ ـ اغاني الشفق

ويشتمل هذا الديوان على نحو خمسين قصيدة بديعة أبلغها المنظومة التي عنوانها (الى العمود) وهو المركون في ميدان فاندوم بباريس . وكان قد نصب على عهد الامبراطورية الاولى تذكاراً لانتصارات نابوليون الأول على النمساويين والروسيين واغتنامه منهم الغنائم الكثيرة وفي جملتها ١,٢٠٠ مدفع فبني العمود بالاحجار وصفح بنحاس المدافع المغتنمة بعد ان نقش عليه صور المحاربات على الاسلوب المعروف عن الرومان وبقية الأمة الفاتحة القديمة التي نصبت المسلات والاعمدة والاهرام وصوَّرت الصور على جدران المعابد والقبور . وعدد الشاعر في هذه المنظومة مظفريات نابوليون ومآثره ومفاخره وقال بان يد قدرته شيدت هذا العمود بالمجد والنحاس . والقصيدة من أبلغ اشعار الحماسة وقد صدرت من أفصح شاعر في حق أعظم فاتح .

ومن قصائد هذا الديوان المنظومة التي عنوانها (نابوليون الثاني) ومطلعها :

« ألف وثمانمائة واحدى عشرة » وهي السنة التي ولد فيها الممدوح . وهذا المطلع من أساليب الطريقة الرومانية وليس فيها تعمل ولا تصنع كما في مطلع القصائد المنظومة على نهج الطريقة المدرسية ونابوليون الثاني هو ابن نابوليون الاول وحفيد امبراطور النمسا ويسمى دوق ريشتاد وكانت نشأته في فينا عند امه . وألف فيه شاعر العصر . أدمون روستان رواية بديعة سماها النسير (ليكلون) تصغير نسر وتمثل في يومنا على المراسح .

وفي هذا الديوان أيضاً منظومتان عنوانها (قنارى) وهوبطل اليونان المتقدم ذكره في ديوان الشرقيات . وكانت ولادته سنة ١٧٩٢ في جزيرة إبصاره المجاورة لجزيرة ساقز ووفاته سنة ١٨٧٧ . وكان رئيساً على مركب صغير وبعد استقلال اليونان صار رئيساً للاسطول وناظراً للبحرية ثم رئيساً للوزارة .

وفيه أيضاً قطعة عنوانها (الرجاء بالله) ومنها يعلم حسن اعتقاد الرجل وان كان من أهل الحيرة . وهي : ضع يا ولد أملك في الغد ، ثم في الغد أيضاً ، ثم في الغد دائماً . ولنعتقد في المستقبل . ضع املك وكلما طلع الفجر لنكن هناك حاضرين

لنستغفـر كما ان الله حاضـر ليغفـر . خطـايانا يا حبيبي وملكي هي المسببة لآلامنا فلعلنـا إذا اطلنـا القعـود على الـركب يغفـر الله لنـا بعـد فراغـه من الغفـران لجميع المعصومين ولجميع التائبين .

٥ ـ الاصوات الداخلية

نقل المؤلف في مقدمة هذا الديوان عن شكسبير انه قال في بعض مؤلفاته بان كل انسان في داخله موسيقى فتبًّا لمن لا يسمعها . وأورد في هذا الديوان اثنتين وثلاثين قصيـدة غراء ومن أبلغهـا قصيـدة البقـرة صور فيهـا قريـة بها حولهـا من الـدجـاج والكـلاب . ينبـح هؤلاء والنـاس نيـام وتصـرخ أولئك عند طلوع الفجر . فالديوك حراس النهـار والكـلاب حراس الليـل . وفي تلك القـريـة بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين وقفت بكل هيبة ووقار لا تعبأ بالذين حولها . وجاء صبية بشعور مغبرة واطمار بالية واسنان حادة وصحة تامة وهم في صراخ وجلبة يزاحم بعضهم بعضاً وينادي كل فريق منهم رفـاقـه . واغتنمـوا فرصة غياب اللبان وانقضوا على البقرة يعصرون ثديها باصابعهم ويلتهمون حلماتها الكثيرة بافواههم ويمتصون حليبها وهم متكأكئون حول احشائها وهي غير مكترثة بما يفعلون وشاخصة ببصرها تنظر إلى بعض النقط التي حولها .

فمثل هذه البقرة كمثل الدنيا أم المخلوقات وملجأهم الوحيد يلتقطون العشب واللبن من تحت احشـائهـا الابدية . قال المؤلف فنحن معشر العلماء والشعراء تعلقنا بثديك المتين ايتها الطبيعة وارتوينا مما ادرَّه علينا فكان لبنك دماً وروحاً لنا . واستفدنا من نورك وحـرارتـك وأوراق شجـرك ومن جميـع ما عليـك من الجبال الراسية والانهار الجارية والمروج الخضراء والسماء الزرقاء وانت تفكرين بربك تنزعجين منا .

فبقرة فيكتور هوكو اشبه بام دفر المعري حيث قال :

دنـيـــاك تكـنـى بام دفـــر　　　لم يكنهـــا النـــاس أم طيب

والدفر هو النتن والتعفن ولا تخفى مناسبته في تكوين الحيوان والنبات . ولكن بقرة فيكتور هوكو تدرُّ على ابنائها بلبن سائغ للشاربين . والمعري :

يحلف ما جادت الـلـيـــالي　　　الا بســمٍ لنـــا قطـيـــب
والقطيب المزوج

٦ ـ الاشعة والظلال

افتتح هذا الديوان بمقالة أدبية نثرية قال فيها :

كتب شاعر عن جنة عدن الضائعة وكتب شاعر آخر عن النار . فالدنيا بين الجنة والنار . والحياة بين البداية والنهاية . والانسان بين أول انسان وآخر انسان . فالانسان موجود باعتبارين احدهما بالنظر للجمعية والثاني بالنظر للطبيعة . ووضع الله الشهوة في الانسان . ووضعت الجمعية فيه العمل . ووضعت الطبيعة فيه الخيال فمن الشهوة الممزوجة بالعمل أي من الحياة في الحاضر ومن التاريخ في الماضي تولد « الدرام » (١) ومن الشهوة الممزوجة بالخيال تولد الشعر بمعناه الأصلي . فاذا نزل توصيف الماضي إلى التفصيلات العلمية ، وإذا نزل توصيف الحياة إلى التشريحات الدقيقة صار الدرام روماناً . فالرومان ماهو الادرام مفصل تارة بالفكر وتارة بالقلب تفصيلاً لا يليق بالتمثيل على المراسح . وعدا هذا فالشعر فيه درام . والدرام فيه شعر . فالدرام والشعر ينفذ كل منهما في الآخر كما تنفذ الحواس في الانسان أو كما ينفذ النور في الاجسام . والعمل فيه أحياناً خيال . مثال ذلك ما قاله السيد في الرواية التي ألفها قورنيل : « هذا النور المظلم الذي يهبط من النجوم » .

لا أحد في هذا الكون يتخلص من السماء الزرقاء والشجر الأخضر والليل المظلم والرياح العاصفة والطيور المغردة . وليس من مخلوق يقدر على التجرد من الخليقة . على حد قول المعري : أأخرج من تحت هذي السماء فكيف الاباق واين المفر . ـ ومن جهة اخرى الخيال فيه احياناً عمل . . لان الواحد يتمم الآخر والشيء يكمل بعضه بعضاً . فالجمعية تقوم في الطبيعة والطبيعة تظرف الجمعية .

فالشاعر تنظر احدى عينيه للانسانية والاخرى للطبيعة . والعين الأولى تسمى الملاحظة والاخرى تسمى التصور . فمن هاتين العينين الشاخصتين في موضوعهما يتولد في مخ الشاعر إلهام يقال له القريحة . . . . الخ .

---

(١) مؤلف « الجنة الضائعة » هو الشاعر الانكليزي ميلتون ، ومؤلف « النار » أي « الكوميديا المقدسة » هو الطلياني دانتي ، انظر مقدمة « روى بلاش » في تعريف الدرام .

ثم افتتح المؤلف هذا الديوان بقصيدة عنوانها « وظيفة الشاعر » . وكان تكلم على هذه الوظيفة في مقدمة الديوان الأول وقال ينبغي للشاعر ان يكون للأمة نوراً يسعى بين يديها . ويريها طريق الصواب . ويقودها إلى المبادىء الحسنة . وهي الانتظام والشرف ومكارم الاخلاق . ولتكون سلطة الشاعر هينة على الامة يلزم ان يهتز بين اصابعه جميع الياف القلب الانساني كما تهتز اوتار العود . ويلزم ان لا يكون كلام الشاعر صدى لكلام احد سوى كلام الله تعالى . وينبغي للشاعر ان يذكر الأمة بان لها ديناً ووطناً وهذا ما أغفل ذكره المتقدمون وان ينشر دائماً باشعاره ما يكون لبلاده من الاقبال والادبار وما في دينه من الزهد والاستغراق في الحب حتى ينال المتقدمون عليه والمعاصرون له شيئاً من قريحته ومن روحه وحتى لا يقول عنه من يأتي بعده في المستقبل بانه كان ينشد اشعاره بين قوم جاهلين .

وبيَّن فيكتور هوكو في القصيدة التي عنوانها وظيفة الشاعر افكاره وشرحها احسن شرح وشبه الطبيعة بعود كبير وشبه الشاعر بريشة الهية يضرب بها على اوتار هذا العود . فالشاعر يلهم الشعر وهو يسيح بين غياض الاشجار وعلى سواحل البحار ويسمع هدير الماء وتلاعب النسيم بالاوراق . وقال في آخر القصيدة الرابعة : انشر ايها الشاعر نشيدك الديني بين العائلات وبين الصبيان والبنات وبين الشيوخ وأرد باصبعك الساحل للذين سارت بهم السفن في لج البحر والارياح متغيرة (١) . وأرد للعذارى العصمة وهي كوكب السعد والشرف . وأرد للجمهور المحراب الذي غطاه الكفر . وارد للشبان المستقبل وللشيوخ الخلود وصب دليلك في عقول الرجال والنساء . وارد لكل منهم الصحيح من الجهة المقنعة حتى يجد عندك كل مفكر ما يفتش عليه . أغرس محبة الله في القلوب والقِ في كل نفس كلمة الهية من جنس ما تشعر به . . الخ .

وهذا ما أشار اليه المعري في مقدمة لزومياته حيث قال : انشأت ابنية اوراق توخيت فيها صدق الكلمة ونزهتها عن الكذب فمنها ما هو تمجيد الله وبعضها تذكير

(١) (المعري)

يموج بحرك والاهواء غالبة لراكبيه فهل للسفن ارساء

للناسين وتنبيه للرقدة الغافلين وتحذير من الدنيا الكبرى التي عبثت بالأول واستجيبت فيها دعوة جرول إذ قال لأمه :

جزاك الله شرًّا من عجــوز ولقـاك العقـوق من البنينـا

فهي لا تسمح لهم بالحقوق وهم يباكرونها بالعقوق . . الخ .

فهـذه صفـة الشـاعر الذي ينبغي الاقتداء به والنسج على منواله . لا الشعراء الــذين يتبعهم الغـــاوون وفي كل وادٍ يهيمـــون ويقولون مالا يفعلون حتى صار لهم الكذب خلقاً والتملق للامراء سجية استجداء لمعروفهم وطلباً لاحسانهم .

وأرق ما في هذا الديوان المنظومة التي عنوانها حزن اوليمبيوكنى بهذا الاسم عن نفسه وقايس فيها بين جلال الطبيعة وجمالها وبين قلة حظ الانسان وقصر ايام سعادته وليـالي انسـه وانقضـاء شهواته وفناء لذاته . اذ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجـلال والاكـرام . قال فيكتـور هوكـو في آخـر هذه القصيـدة : يقـرضنا الله المروج النضـرة والعيـون الجـاريـة والاشجـار الملتفـة والصخـور الـوعـرة والسموات الزرق والبحـيرات والغـدران والسهـول لنضـع فيهـا قلوبنا وامانينا واشواقنا . وهذا القرض لأجل مسمى . ثم يسترد جميع ذلك منا ويطفىء سراجنا ويغمس في الليل المغارة التي كنـا مستنيرين ونحن فيها . ويقول للوادي الذي انطبعت عليه روحنا ان يمحي اثرنا وينسى ذكـرنـا . فلا حيلة . انسينـا ايتهـا الـدار والبستان والظل والخضرة . وابلى يا عتابنا . واخف يا شوك اثر اقدامنا وغردي يا طيور واجري يا انهار وانمي يا اوراق فان الـذين نسيتمـوهم لا ينسوكم أبداً . . . الخ . وهي طويلة محزنة . وفي هذا المعنى أو ما يقاربه قصيدة المعري التي يقول فيها :

للمـليـك المـذكـرات عبيـد وكـذاك المؤنـثـات امـاء
فالهـلال المنيف والبـدر والفـر قد والـصبـح والثـرى والمـاء
والثـريا والشمس والنـار والنثر ة (١) والأرض والضحى والسـماء
هذه كلهـا لربـك ما عا بك في قول ذلـك الحـكـماء
خلني يا اخـي اسـتـغـفـر الـله فلم يبـق فيَّ إلا الـذمـاء

(١) النثرة نجمتان صغيرتان يقال لهما أنف الأسد

ويقال الكرام قولاً وما في العصـ ـرالا الشخوص والاسماء
واحاديث خبرتها غواة وافترتها للمكسب القدماء

وهي طويلة مدرجة في اللزوميات وكلها حكم . ونفس المعري ونفس فيكتور هوكو يتقاربان ولكن الأول أعمى والثاني بصير يرى بهجة الطبيعة وزينتها فيظهر وصفها في شعره . ويزيد فيكتور هوكو على المعري بانه من أهل عصر جديد بزغت في افقه شمس الحرية والمدنية واتسع فيه نطاق العلوم وافانين الصناعات فارتفعت مدارك الشاعر .

ويشبهون القصيدة (حزن اوليمبيو)(١) بقصيدة البحيرة التي نظمها الشاعر الشهير لا مارتين وترجمها للسان العثماني سعد الله باشا سفير الدولة العلية في فيينا وباريس سابقاً . ورأيت في كتاب فرنساوي نشر حديثاً بان أحمد بك شوقي شاعر الحضرة الخديوية ترجم قصيدة لا مارتين المذكورة للعربية . ومؤلف هذا الكتاب الفرنساوي فردينانـد دي مرتينو وعبد الخالق بك ثروت وعنوانه منتخبات من غزل العرب ترجما فيه من كلام الجاهلية واهل الطبقة الاسلامية ومن أقوال المعاصرين أيضاً مثل حسن حسني ومحمود باشا سامي البارودي واسماعيل باشا صبري وحفني بك ناصيف .

★★★

هذا ما نظمه فيكتور هوكو من الشعر الموسيقي في الدور الأول من حياته . وأما ما نظمه في الدور الثاني أي في منفاه فهو أعلى طبقة وأحسن ديباجة وأشد تأثيراً واهاجة وأثر توقداً وتوهجاً لان قريحته نضجت في شمس الغربة وهو معتزل عن الناس بتلك الجزيرة . واستبحر فكره بمجاورته المحيط الغربي لان للجوار حقاً . فنظم احسن مؤلفاته وهي ديوان القصاص وديوان التأملات وديوان سير الدهور . وأبلغ هجاء لفيكتور هوكو ما هجا به نابوليون الثالث في ديوان القصاص وأفجع رثاء له ما رثى بنته في ديوان التأملات . وأحسن شعر حماسي له ما ورد في ديوان سير الدهور كما قرره العارفون بكلامه .

(١) اوليمبيو اسم لامعنى له ولا هو من الاسماء التاريخية وانما كنى به الشاعر عن نفسه .

٧ ـ القصاص

ألف فيكتور هوكو ديوان القصاص بعد انقلاب الجمهورية الثانية إلى الحكومة الامبراطورية وذلك ان البرنس لويس نابوليون بونابرت بن لويس بونابارت الذي كان ملكاً على هولاندا واخ نابوليون الأول انتخب رئيساً للجمهورية لاربع سنوات ختامها سنة ١٨٥٢ فحلف امام مجلس نواب الامة وبحضور فيكتور هوكو الذي كان عضوا فيه على ان لا يبدل القوانين الموضوعة ولا يخالف احكام القانون الاساسي ولا يخون عهد الجمهورية . ثم صارت الاكثرية في المجلس لحزب الا ورليانيين وارادوا تولية كونت باريس وهو شاب من العائلة الملوكية في فرنسا . وكان يعارضهم حزب الوارثين الذي يقولون بان حق الوراثة في الملك انما هي لكونت شامبور فهو الذي ينبغي توليته على سرير الملك الفرنساوي . فاغتنم رئيس الجمهورية هذه الفرصة وكان حق الوراثة في الامبراطورية التي أسسها نابوليون الأول منتقلاً اليه لوفاة نابوليون الثاني عند اهل امه في فيينا وهو الملقب ليكلون اي النسير ودوق ريشتاد . وكان لنابوليون الأول شهرة عظيمة واعتبار زائد في نظر افراد الامة فاخذ رجال المعية وحاشية القصر يشوقون ابن أخيه على الاستبداد بالامر كما يفعل المقربون من أولي الامر في كل جيل وفي كل أمة وكما فعلت بطانة هارون الرشيد ودسوا للمغنين الشعر المهيج واحتالوا على سماعه للخليفة تحريضاً له على البرامكة ومن هذا الشعر قولهم :

ليت هنداً انجزتنا ما تعد   وشفت انفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة   انما العاجز من لا يستبد

فلما سمعها الرشيد قال أي والله اني عاجز حتى بعثوا الي بامثال هذا . وهكذا كانت بطانة البرنس بونابارت رئيس الجمهورية يغرونه على الاستبداد ونكث العهد وقلب الحكومة . ففي ٢ دسمبر سنة ١٨٥١ أي قبل حلول الاجل المضروب لانتهاء رئاسته نكث الايمان التي حلفها وغير القانون الاساسي الذي تعهد برعاية احكامه وعدم تغيير مضمونه وبدله بقانون اساسي آخر يخوله حق البقاء في رئاسة الجمهورية عشر سنين . ثم أبدله أيضاً بقانون اساسي ثالث أعلن به الحكومة الامبراطورية بدل الحكومة الجمهورية . وصدقت الامة على هذين القانونين وكان عدد الاصوات

المصدقين يزيد على ٧ ملايين صوت . فاعلن لويس نابوليون امبراطوراً على فرنسا وتلقب بنابوليون الثالث . وشرع في اضطهاد المخالفين لسياسته وتعذيبهم . ففر فيكتور هوكو من بطشه وبعث يقول له ما معناه :

وحلفت انك لا تميل مع الهوى　　اين اليمين وأين ما عاهدتني

فاجاب لسان الحال عن نابوليون الثالث :

والظلم من شيم النفوس فان تجد　　ذا عفة فلعلةٍ لا يظلم

وخرج مشير القصر الامبراطوري يجول بالعساكر في شوارع باريس ويقول ما معناه :

ان المعالي عروس غير وامقة　　مالم تخلق ردائيها برشح دم

وكان أول هذا الملك من رجل　　سعى إلى ان دعوه سيد الأمم

فهذا الرجل هو نابوليون الأول الذي لا يختلف في شجاعته ومهارته اثنان ولكن عساكر الامبراطورية الثانية لم تظهر البسالة على قول فيكتور هوكو الا في طرق باريس وميادينها بقتل أحرار الرجال والنساء والاطفال ونفيهم من الأرض وتغريبهم على الجواري المنشآت في البحر . ولما انتشبت الحرب بينهم وبين جيرانهم ولوا مدبرين ولذا يقول لهم الشاعر متهكماً « أسد علي وفي الحروب نعامة » . على انا نحن معشر العثمانيين لا ننكر بسالة عساكر الامبراطورية ولا شجاعة ما قمهون حينما صعد على قلعة مالا كوف في مدينة سباستابول من شبه جزيرة القرم فقيل له بان الروس وضعت تحت البرج بارودا لتطيره فاجاب «انا هنا وهنا أقعد» فذهبت مثلاً وكان ذلك في الحرب التي حدثت بين الدولة العلية والروسيا سنة ١٨٥٥ وكانت فرنسا وانكلترا متفقتين مع العثمانيين .

يشتمل ديوان القصاص على نحو مائة منظومة تفجرت منها سهام السخط والغضب وتساقطت كأرجوم والشهب على نابوليون الثالث وعلى أشياعه وأحزابه . ولم يدع منهم أحداً إلا وعرض به ورماه بنبال هجوه فندد باعضاء مجلس المبعوثان (١) ومجلس الاعيان لتصديقهم على لائحة القانون الأساسي للحكومة الامبراطورية . وبالذين نفذوا هذا القانون من الوزراء وامراء العسكرية وسائر رجال الدولة والمعية .

(١) مجلس المبعوثان هو مجلس نواب الأمة والألف والنون ليست للتثنية وانما هي اداة جمع بالفارسية .

وبـالـذين تملقـوا لرجال القصر الامبراطوري وقبلوا اعتباهم جرًا لمغنم أودفعاً لمغرم . وبـالحكـام الذين راعوا خواطرهم في الاحكام وحكموا على احرار الرجال بل والنساء بالحبس والنفي والاعـدام . وبـالأقسـة والـرهبـان الـذين دعوا في كنائسهم بتأييد عز الدولة الامبراطورية . وسلق الجميع بألسنة حداد . وكلما ذكر سيئة أورذيلة لنابوليون الثـالث قارنهـا بحسنة أو فضيلة من حسنات نابوليون الأول وفضائله ولذا لقب الأول بالكبـير والثـالث بالصغـير . فورد في أشعـاره كثـير مما يسميـه ادباؤ نا في فن البديع بالطبـاق وهـو الجمـع بين متضادين لاسيما في الهجوية التي عنوانها الاستغفار اوتكفير السيئـات فانـه جعلهـما فيـه على طرفي نقيض . فاهـاجي ديـوان القصاص تتخللها أشعـار المـدح والحـماسـة . وفي هذا الـديوان أيضاً رثاء الذين قتلوا فيحادثة ٤ دسمبر وتحانين الذين اخرجوا من ديارهم ونفوا بعيدين عنها واناشيد الذين سفروا على البحر ووصف حالة اولئك المصابين والمحكومين والمنفيين وحنينهم إلى اوطانهم وشوقهم لمن تركوه فيها من الأرامل والايتام ومن الاخوات والبنات والاباء والامهات اللواتي يبكين بكاء الخنساء على أخيها مما تتفطر له القلوب وتتفتت الاكباد لا سيما من قرأ شعره وهو يتألم بلدغة الاستبداد .

فمـما ورد في هذا الـديـوان من بدائـع المعاني القصيدة الثالثة من الفصل الثاني وعنـــوانهـــا « تذكــار ليلة٤ » وهي الليلة الثــانيـــة من جلوس نابـوليـون على تخت الامبراطورية . نظمها الشاعر ليلة عيد الجلوس سنة ١٨٥٢ وصور فيها ما شاهده في تلك الليلة وجسم الحادثة بكيفية بديعة ومضمونها ان صبيًا يتيماً حسن الصورة حسن الاخـلاق كان يلعب مع الصبيـان امـام دارهم فاصـابتـه رصاصتان من بنادق عسكر الامـبراطـوريـة وهم يتجولون في شوارع باريس لارهاب الناس وتسكينهم . ولم يكن لهذا الصبي المقتول الا جد وجدة طاعنان في السن ليس لهما وارث سواه فادخلته جدته الـدار والـدم يسيل من جراحه ومات بين يديها فاخذت تنوح وتلطم وتقول واسوأتاه ! واحسـرتـاه ! كيف اعيش بعـدك يا ولـدي ومهجة كبدي . لم تخلف لي أملك سواك . افهمـوني انتم يا حاضـرون لماذا قتلوه ؟ أريـد ان تعرفوني السبب . الصبي لم يصرخ لتحي الجمهورية .

قال الشاعر اما نحن فكنا واقفين صامتين دهشة وفرائصنا ترتعد امام هذا المأتم الذي لا عزاء له . . . . . إلى أن قال لها مخاطباً .

أيتها الجدة انك لا تفهمين السياسة أبداً . الموسيو نابوليون ـ وهذا اسمه الصحيح ـ فقير بل وامير أيضاً (برنس) يحب القصور ويقتضي ان يكون له خيل وخدم ونقودٌ للعب القمار ولسفرة الطعام والخزائن الملبوسات وللخروج للصيد . وبهذه الوسيلة يخلص العائلة والكنيسة والجمعية . ويريد ان يكون قصر سن كلو مملوءا بالورد طول الصيف لتأتي اليه ولاة البلاد وأعيانه ويسجدوا له . فهذا هو السبب الذي أوجب الجدات العجائز أن يخطن باصابعهن المرتجفة من الهرم أكفان صبيان لم يتجاوزوا من العمر سبع سنين .

والقصيدة السادسة من الفصل الثالث عنوانها « الشرقية » قال فيها :

لما رأى عبد القادر وهو في سنجنه قد دخل عليه ذلك الرجل ذي العينين الضيقتين الذي يسميه التاريخ نابوليون الثالث قال مزدرياً من يكون هذا الرجل ؟ رأى وهو في نافذته رجل قصر الايليزة الأحول يمشي وخلفه قطيع كالغنم في خدمته . أما هو فكان اسد الصحراء والسلطان الذي ولد تحت اشجار النخيل وصاحب السباع الكاسرة . فهو الحاج النافر وعيناه هاديتان . والأمير المفكر الشديد الرحيم . وهو رجل عابس متشائم شبح اصفر في برنُس ابيض . وثب وهو خمران بمداومة الحرب ثم وقع في الظل على الركب . وهو الذي يصلي على قارعة الطريق ويجلس في الخباء المرفوع الاطناب وترى النجوم يديه المصبوغتين بدم الانسان وهو ساكن الجأش . وهو الذي يسقي السيوف ويجلس على الرؤوس المقطوعة مفكراً في بديع خلق السموات . فلما رأى لحظ هذا الرجل الخائن المحتال وجبهته المظلمة من الخجل احجم عنه وهو العسكري الجميل والشيخ المهيب الجليل ونفر من شاربي ذاك الشنيع (١) .

فقيل له انظر ايها الامير بلطات العساكر وهي مارة فهذا الرجل هو قيصر الحرامي اسمع هذه الشكايات المرة وهذا الصراخ المتعالي . فهذا الرجل الذي لعنته الامهات ولعنته الزوجات . لانه رملهن وكسر قلوبهن . واخذ فرانسا وقتلها وهو الآن يلغ في دمها . فحينئذ سلم عليه الحاج عبدُ القادر . ولكنه في الباطن احتقر هذا الدني الدموي فهذا النمر الأشم الانف شم ذاك الذئب وهو مستخف به أهـ .

---

(١) وكان نابوليون الثالث ذا شاربين افقيين عكس امبراطور المانيا الحالي غيليوم الثاني .

نظم فيكتـور هوكـو هذه الهجـويـة وهو في جزيرة جرسي في نوفمبر سنة ١٨٥٢ وكـان الامـبراطـور نابـوليون بعد جلوسه يذهب للاصطياف في مدينة بو التي هي من اجمل المدن الفرنساوية على حدود جبال البيرينه وفي مدينة بياريس التي على ساحل المحيـط الغـربي بالقرب من الحدود الاسبانية فزار في احدى سفراته الامير عبد القادر الجزائري ولطفه واطلق سراحه .

فان هذا الامـير الخطـير بعـد ان ثبت أمـام الفـرنسـاويـين ١٥ سنة واظهر من البسـالـة والـدرايـة في الحـرب ما لا مزيد عليه اضطر سنة ١٢٦٤ هـ على تسليم نفسه فسيره الدوق دومال والي الجزائر في ذلك الحين الى فرانسا . فانزل في قصر لامانغ من مدينـة طولـون . ثم نقـل منـه إلى قصر مدينة بوويسمى قصر هنري الرابع وهو من أحسن القصـور بنـاء وزينـة ولم يزل السـائح يشاهد فيه الدائرة التي سكنها الامير عبد القادر سنة ١٨٤٨ م ثم نقل منه إلى قصر امبواز وهو بالقرب من مدينة تور التي انتهت اليهـا فتـوحـات العـرب في اوائـل القـرن الثاني من الهجرة . وفي سنة ١٢٦٩ هـ حضر الامـير عبـد القـادر للاستـانة ونال التفات السلطان عبد المجيد وذهب ليقيم في مدينة بروسـه . ولـما حصلت فيهـا الـزلازل ارتحل عنها إلى دمشق سنة ١٢٧٢ هـ وتوفي سنة ١٣٠٠ هـ في قصره الذي بقرية دامر فنقل نعشه إلى الصالحية ودفن بتربة محي الدين بن العـربي رحمهم الله جميعـاً . والامـير عبد القادر هو رب السيف والقلم وله تآليف معتـبرة مطبـوعة وترجم احدها للفرنساوية المسيو دوغا . وكان الامير عضواً فخريًا في الجمعية العلمية الفرنساوية .

ومما في هذا الـديـوان من الاهاجي والمناجاة البليغة المنظومة الثالثة من الفصل السـادس وعنـوانهـا « دعـاء المغـربين » وفيها توسلات إلهية ومخاطبات لحمام الوادي ونسيم الصبا كانها مترجمة عن العربية قال فيها :

يا الله يا كبـير اليـك ترتفـع اكفنا ونحوك تشخص ابصارنا . اللهم ان هؤلاء لمكبلين بالحديد وعبراتهم تسيل على الخدود لهم أشد الممتحنين بلاء مع انهم اصلح النـاس حالاً . ايتهـا الطيـور المـارة ان هنـاك منـازلنا . أيتها الرياح الجارية ان هناك اخواتنا وامهاتنا يبكين ليلاً ونهاراً . بلغهم يا طير بؤسنا . واحمل اليهم يا نسيم الصبا اشواقنا . وانت يا الله نرسل اليك فكرنا . ونسألك ان تنسى هؤلاء المحكوم عليهم بالقتل ظلماً ولكن أن تجعل مجدهم لفرانسا المهانة وان تتركنا نحن المظلومين نموت في

هذا العذاب الاليم . . . . الخ . وهذا يذكرنا بقول ابن المعتز حينما أخذ ليقتل :

يا نفس صبراً لعل الخير عقباك خانتك من بعد طول الامن دنياك
مرت بنا سحراً طير فقلت لها طوباك يا ليتني اياك طوباك
أن كان قصدك شوقاً بالسلام على شاطي الفرات ابلغي ان كان مثواك
من موثق بالمنايا لافكاك له يبكي الدماء على ألف له باكي

ولا أدري أن كان لها بقية أم لا ولكن الغالب في الشعر العربي ان يعلو به النفس ثم ينقطع قبل أن يشفي غليل النفس بذكر الوسط الذي يقوم فيه الشاعر وشرحه وتوصيفه بجميع ما فيه كما يفعل شعراء الافرنج . نعم أن شعراء الجاهلية ومن نسج على منوالهم شرحوا أوصاف الفرس أو الناقة مثلا واطنبوا في ذلك ولم يتركوا عضواً ولا حركة ولا هيئة الاذكروها وتخيلوا فيها ولكنهم مع ذلك حصروا نظرهم في نقطة واحدة ولم يلتفتوا يميناً ولا شمالا إلى ما حولهم من مناظر الطبيعة وبدائع المخلوقات .

وابن المعتز اشعر بني هاشم وهو ابن الخليفة العباسي المعتزبالله بن المتوكل ويسمى خليفة يوم لانه ولي الخلافة يوماً واحداً ثم خانته الايام وغدرت به السياسة فسلم لمؤنس الخادم فقتله . وتشبيهات ابن المعتز واشعاره مشهورة ومن مؤلفاته كتاب الزهرة والرياض ، كتاب البديع ، كتاب مكاتبات الاخوان بالشعر ، كتاب الجوارح والعين ، كتاب السرقات ، كتاب اشعار الملوك ، كتاب الأداب كتاب حلي الاخبار ، طبقات الشعراء كتاب الجامع في الغناء ، أرجوزة ذم الصبوح .

ومن قوله :

سقى الحظيرة ذات الظل والشجر ودير عبدون هطال من المطر
فطالما نبهتني للصبوح بها في غرة الفجر والعصفور لم يطر

ومن كلامه البديع قوله : أنفاس الحي خطاه إلى أجله . وكان مستجمعاً للكمالات الانسانية وقيل في رثاه :

ما فيه لولا ولا ليت فتنقصه وإنما أدركته حرفة الأدب

قرأ على المبرد وثعلب وتاريخ ولادته (٢٤٧ ـ ٢٩٦هـ)

والفصل السابع من هذا الديوان هجوية عنوانها « هاتينَ قدوركنّ يا ساحرات شكسبير » اشارة الى رواية ماقبت التي ألفها شكسبير وما فيها من خبر الساحرات

اللواتي يطبخن السحر في القدور ويفتحن للنساء الفال فقال فيكتور هوكو هاتين قدوركن يا ساحرات شكسبير . وخذن عني يا ساحرات ماقبت كل الامبراطورية من قديمة وحديثة . وضعن في كانون واحد برجه السمين والكونت فروشو وفلان وفلان . . . وعدداً كبيراً من رجال نابوليون إلى أن قال واحنين رؤ وسكن وانفشن شعوركن وحملقن عيونكن واكشفن نحوركن وانفخن بملء رئاتكن على النار التي تحت القرعة وانظرن فان الصغير يخرج من الكبير وصيرن باروش وطاليران بخاراً وكذا ابن الأخ الذي يهبط بينما ان العم يعلو . فما الذي بقي في قعر الانبيق ؟ العار .

فكان فيكتور هوكو وهو في جزيرة جرسي كلما سمع بنفي المتهمين بالسياسة لبلاد الجزائر أو لاميركا يفور غضبه ويشتد غيظه ويهدر كهدير البحر . وشبه السفن التي تحمل المنفيين بالبوم التي تنادي على خراب البلاد بابعاد نخبة الشبان الاحرار منها . ولكنه مع ذلك لم ينقطع رجاه ولا خابت أمانيه بل كلما نظر في المستقبل لاح له قبس الفلاح ولمع في عينيه نور الصباح وراقت اشعاره وصفا كلامه ولذا شبهوه بالبحر الذي يهيج تارة ويسكن اخرى . وله في البحر تشابيه واستعارات لم يسبق إليها . وقال في خاتمة هذا الديوان انه سوف ينبلج صبح العدل ويزهق ليل الباطل ان الباطل كان زهوقاً . وأنذر باستيقاظ الامة من رقدة الغفلة ومجازاتها الظالمين المستبدين المجرمين . ان المجرمين في ضلال وسعير . ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً . ولو أطلع السيد عبد الله نديم على ديوان القصاص لما حرر كتاب المسامير .

٨ ـ ديوان التأملات

وعرف هذا الديوان بتسميته أيضاً سانحات الفكر ولخص فيه أعمال ربع قرن من حياته وما شعر به من فرح وترح وقال في مقدمته بأنه تاريخ حظ من الحظوظ البشرية في شقائه وسعادته أو هو ديوان الحياة الانسانية منذ خرجت من معمى المهد إلى ان نزلت في معمى اللحد . وأبواب هذا الكتاب هي : الفجر النفس الزاهرة التنازع والاماني ، في المسير ، على ساحل اللامتناهي . ومنها يفهم فكر الشاعر في ترتيب المنازل التي يقطعها المسافر في طريق الحياة . واجاد في وصف المناظر الطبيعية

وتصوير وجوه الأرض على حد قول أبي تمام :

يا صاحبيَّ تقصيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصورُ
تريا نهاراً مشمساً قد زانه زهر الربا فكأنما هو مقمر

ومن ذلك أيضاً قول القاضي عياض وقد تولى قضاء سبته وغرناطة :

انظر إلى الزرع وخاماته تحكي وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

وأبدع ما في هذا الديوان الرثاء الذي رثى بنته حينما انشبت فيها المنية اظفارها وهي في ريعان الشباب واشهر العرس وأتى بالبدائع والعجائب في وصف قلب الوالد على ولده وما يكابده بسبب موته من آلام الحياة وعذابها . ولعله تابع في النظم شعوره وإحساسه فجعل أول المراثي تفجعاً وبكاء . ثم أرتفع صوته بالنحيب والعويل . ثم زاد ألم الرزيئة عليه وكبرت المصيبة في عينيه فصار يهدر كما يهدر المجنون ولا يعي ما يقول فطوراً يقاتل القضاء وتارة يلعن القدر وانقطع من الدنيا وزال رجاؤ ه بالآخرة ويئس من هذه الحياة الفانية .

ثم برد قلبه شيئاً فشيئاً وهدأ باله رويداً رويداً فصار يندب ميته ويعدد محاسنها ويتذكر زمن طفوليتها وشبابها وعرسها وكل ذاكرة منه تسيل من عينيه عبرة وتودع في قلبه حسرة . ولم ير له ملجأ الا في تسليم الأمر لله والرضاء بما قدره وقضاه فصبر على البلاء ورجع بانكسار وتزلل الى الله وانكب على اعتاب مراحمه كانه عمل بنصيحة الشيخ محمد عليش حيث قال :

الزم باب ربك وأترك كل دون واسأله السلامة من دار الفتون
لايضيق صدرك فالحادث يهون الله المقدر والعالم شؤون

لا تكثر همك ما قدر يكون

نحن والخلائق كلنا عبيد والاله فينا يفعل ما يريد
همك واغتمامك ويحك لا يفيد القضاء يحكم فالزمْ السكون

لا تكثر همك ما قدر يكون

ومنها أيضاً :

مولاك المهيمن انه يراك فوض له أمورك وأحسن في الظنون

ومنها :

الرضا فريضة والسخط حرام   والقنوع راحة والطمع جنون

وأفجع رثاء واحسن توسل فيكتور هوكو ما جاء في المرثية التي عنوانها « الى فيلكيه » وهي المدينة التي غرقت بقربها ليوبولدين وهي تتنزه مع زوجها في زورق على نهر السين وقد أتينا على ترجمتها بالحرف بياناً لاسلوبه في التفجع والرثاء . قال فيكتور هوكو وكان قد خرج من باريس وذهب إلى جبال البيرينة وسواحل المحيط الغربي :

إلى فيلكيه

الان باريس وطرقها وجدرانها وضبابها وسطوحها بعيدة عن عينيَّ . الآن أنا تحت غصون الايك وأستطيع التفكير في حسن السموات . الآن خرجت مصفرًا من المأتم الذي أظلمتْ منه روحي وشعرت بان سلام الطبيعة الكبرى دخل قلبي .

الآن استطعت ان أجلس على شاطىء البحر متأثـراً من هذا الأفق اللطيف الهادي وان افحص في ضميري عن الحقائق الغامضة وان انظر إلى الازهار وهي في الحدائق .

الان ياربي ، حصلت لي سكينة محزنة استطيع بسببها أن أرى بعيني رأسي الحجر الذي أعرف أنها نامت في الظل تحته نومة أبدية .

الآن قد رقت عواطفي بهذه المناظر الالهية ما بين سهول وغابات وصخور وأودية ونهر كالفضة .

ولما رأيت عجزي ورأيت معجزاتك رجع لي عقلي أمام جلالك فجئت إليك يا الله يا من يجب علينا الايمان به . وأحضرت لك قطع هذا القلب الذي كسرته وهو مملوء بحمدك .

جئت إليك يا الله ، معترف بانك رؤوف رحيم حليم وبأنك اله حي . وأقر بانك وحدك تعلم ما تصنعه وبان الانسان ما هو الا ريشة في مهب الريح .

أقول بان القبر الذي يغلق على الأموات يفتح الفلك الأعلى . وان ما نحسبه في هذه الدنيا نهاية هو البداية .

أقـرُّ أيها الاله العظيم وأنا راكع بانك وحدك مالك لما هو حقيقي ، مطلق ، لا

نهاية له . أقربان انجراح قلبي هو خير وهو عدل . لأن الله أراد ذلك .

لا أعترض أصلاً على جميع ما اصابني بارادتك . فالنفس تتدحرج في الابدية من مأتم لمأتم والانسان يتدحرج من ساحلٍ لساحل .

لانرى من الاشياء الا طرفاً واحداً والطرف الآخر غاطس في سرّ ليلٍ مرعب فالانسان يتحمل الأذى بدون ان يطلع على الأسباب . وجميع ما يراه قصير ، زائل ، لا فائدة فيه .

أنت تلقي الانسان دائماً في طريق الشك ولم ترد ان يكون له على هذه الأرض يقين ولا سرور .

ولا يملك الانسان خيراً الا ويسترده القدر منه فهو لم يعط شيئاً في أيامه السريعة الزوال ليتمكن من ان يتخذ له مسكناً ويقول : هنا بيتي وارضي وأحبابي . جميع ما تراه عيناه ينبغي ان يراه في مدة قليلة . ثم يهرم وتخور قواه . فما دامت هذه الأشياء واقعة فأنا أقربانها حدثت كما يلزم ان تحدث (١) . يا الله ! العالم مظالم وألحانه التي لا تتغير مؤلفة من البكاء ومن الغناء أيضاً . والانسان ما هو الا ذرة في هذا الظلام الغير المتناهي . فهذا ليل يصعد فيه الابرار ويهبط الاشرار . أعرف بان لك يا الله أشياء اخرى كثيرة تشتغل بها عوضاً عن ان تشفق علينا جميعاً وبان الولد الذي يموت ويخلف الحزن لأمه لا يضرك منه شيء .

أعرف بان النمر يسقط من الريح الذي يهزه وبان الطير يفقد ريشه والزهر يفقد رائحته وبأن الخليقة دولاب كبير لا يمكنه ان يدور بدون ان يسحق احداً ، الشهور ، والأيام ، وأمواج البحر ، والعيون الذارفة بالبكاء تمر جميعها تحت السماء . الأزرق أعرف يا ربي انه يلزم للعشب ان ينبتْ وللأولاد ان يموتوا . لعلك في سمواتك ما وراء طبقة الغيم وفي أعماق الزرقة النائمة التي لا تتحرك تصنع أشياء مجهولة يدخل فيها ألم الانسان كأنه عنصر من عناصرها .

لعل هلاك الأشخاص الملاح بتيار المصائب فيه فائدة لمقاصدك التي لا تحصى . طوالع نحوسنا تسير تحت نواميس واسعة لا يغيرها شيء ولا يرقق عواطفها شيء . وليس في الامكان أن تأتي المراحم الالهية فجأة وتغير ناموس العالم .

(١) ليس في الامكان ابدع مما كان . لو اطلعتم لقلتم الخيرة في الواقع .

أتوسل اليك يا الله بان تنظر لنفسي وتعتبر باني اتيت لعبادتك خاضعاً خضوع الصبي وليناً لين المرأة .

وأعتبر أيضاً بأني منذ طلوع الفجر اشتغلت وقاتلت وفكرت وسعيت وجادلت وأنا أفسر الطبيعة للناس الذين يجهلونها وانير كل شيء بنورك . وإني عملت الواجب علي في هذه الدنيا وأنا اقتحم المهالك والمخاطر ولا يمكني ان أنتظر هذا الجزاء ولا أقدر أن أتأمل بانك انت أيضاً تنزل يد بطشك على رأس المنحني وبأنك أنت الذي ترى قلة حظي تأخذ أيضاً ولدي على عجل . واعتبر بان النفس التي أصيبت بمثل هذه المصيبة هي مدفوعة على الشكوى . وبأني اجترأت على سبك وعلى رفع صوتي عليك كالولد الذي يرمي البحر بحجر . إعتبر يا ربي ان المرء قد يشك في الله حينما يشتد عليه الالم . وان العين التي تبكي كثيراً تعمى في النهاية . وان الشخص الذي يلقيه مأتمه في أظلم هاوية لا يمكنه ان يضرع اليك وهو لا يراك .

اليوم وأنا ضعيف القلب كالوالدة انحني على اعتابك تحت سمواتك المنكشفة وأشعر في مرارة المي باني استنرت بنظرة وقعت مني على العالم .

يا ربي ، أنا اعترف بان الانسان اذا جسر على الشكوى منك فهو في حالة الجنون . فها انا تركت الشكوى وتركت السبَّ . فدعني ابكي . واحسرتاه ! دع الدموع تجري في جفوني لانك خلقت البشر لذلك . دعني انحني على هذا الحجر البارد وأقول لولدي : اتشعرين باني هنا ؟

دعني اكلمها في المساء حينما يسكن كل شيء وانا منحنٍ على ما بقي من جسدها وهي كأنها ملك ينصت لي وكأنها تفتح في الليلٍ عينيها السماويتين .

واحسرتاه ! لم يبق في الدنيا شيء يسليني . فالتفتُ نحو الماضي بعين الاشتياق ونظرت إلى تلك اللحظة من حياتي فرأيتها تفتح جناحيها وتطير . وسأرى تلك اللحظة حتى مماتي . تلك اللحظة التي فاضت فيها دموعي وصرخت قائلاً : ماذا إذاً ؟ الولد الذي كان لي الآن فقدته بالكلية !

لا تغضب عليَّ يا ربي ان قلت هذا . لان جرحي سال دمه زماناً طويلاً والضيق في نفسي لم يزل شديداً . وقلبي وان خضع لكنه لم يسلم ولم يرض .

لاتغضب يا ربي ! حيث يصعب علينا أن نخرج نفسنا من هذه الاكدار العظيمة . انت يا ربي اعلم بان أولادنا لازمون لنا . إذا رأى الانسان ذات يوم في

حياته وهو بين اكداره واتعابه وفقره والبلاء الذي رمته به اقداره قد ولد له ولد جميل ضاحك بشوش يخال أنه رأى باب السموات فتح له . فإذا رأى مدة سبع عشرة سنة ولدَه الذي هو قطعة من جسده يكبر وينمو ويعقل وإذا عرف أن هذا الولد الذي يحبه هو نورٌ في قلوبنا وضياء، في بيوتنا وانه هو السرور الوحيد الذي لنا من جميع ما نتمناه في هذه الدنيا . فلا يخفى عليك يا ربي انه إذا فقد منا يكون حزننا عليه عظيماً .أهـ - فيلكيه في ٤ سبتمبر سنة ١٨٤٧ .

وبعد ان طال رثاء فيكتور هوكو وندبه حصلت له إلفة بالموت واعتاد عليه . فانحنى على القبر كانه يريد انتزاع السر المكنون فيه ونظم قصائده التي عنوانها « كلام على الكثيب » و« وقفة في المسير » و« ما هو الموت » . ولكن لم يتيسر له رفع الستر عن القبر ولا إزالة الحجاب عن هذا الباب . وأكثر في كلامه من توحيد الله وذكر الآخرة وخلود النفس .

ومن القصائد المشهورة في رثاء الاولاد القصيدة العينية التي نظمها ابو ذؤيب الهذلي المتوفى سنة ٢٧ للهجرة وكان مات له في سنة واحدة خمسة أولاد في الطاعون الذي حدث بمصر ومطلع قصيدته :

امن المنون وريبه تتوجع   والدهر ليس بمعتب من يجزع

ومنها :

أودى بنيّ فاعقبوني حسرة   عند الرقاد وعبرة لا تقلع
فالعين بعدهم كأن حداقها   كحلت بشوك فهي عور تدمع

وفي اشعار فيكتور هوكو ما يحاكي كلام أم حكيم زوجة عبيد الله بن عباس والي اليمن من قبل علي رضي الله عنه حينما اتاهما بشر بن ارطاة قائد عساكر معاوية وذبح لها ابنين صبيين فلم تملك امهما نفسها ولا قدرت ان تقر في مكانها بل كانت تحوم حوم الطير حول وكر صغارها وقد ذهب عقلها وفرغ صبرها فقالت تبكيهما وتولول :

ها من أحس بابني اللذين هما   كالدرتين تشظى عنهما الصدف
ها من أحس بابنيَّ اللذين هما   قلبي وسمعي فقلبي اليوم مختطف
ها من أحس بابني اللذين هما   مخ العظام فمخي اليوم مردهف
من ذل والهة حيرى مدلهة   على حبيبين ذلا اذ غدا السلف
خبرت بشراً وما صدقت ما زعموا   من أفكهم ومن القول الذي اقترفوا

انحى على ودجى ابني مرهفه   مشحوذة وكذاك الأثم يقترف

ومثل ذلك مراثي شواعر العرب وجمع كلامهن احد افاضل العلماء ونشره في بيروت وسيدة شواعر العرب الخنساء القائلة :

اعيني جودا ولا تجمدا   الا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجريء الجميل   الا تبكيان الفتى السيدا

ومن شواعر العرب برة بنت عبد المطلب جد النبي عليه السلام قالت في وفاة أبيها :

اعيني جودا بدمع درر   على طيب الخيم والمعتصر
على ماجد الجد واري الزناد   جميل المحيًا عظيم الخطر

والبكاء على الأموات وندبهم من عادة نساء العرب ولذا نبغت فيه الشواعر منهن سيما وان قلب المرأة أرق وأحن ولذا قال فيكتور هوكو بأنه صار ضعيف القلب كالوالدة .

ومما ورد للعرب في هذا المعنى قول أبي بكر بن زهر الاندلسي :

ولي ولد مثل فرخ القطا   صغير تخلف قلبي لديه
وافردت عنه فيا وحشتا   لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوقني وتشوقته   فيبكي عليَّ وأبكي عليه

وهذا الشاعر الرقيق اشتهر بفن الطب وعلم الأدب وسارت الركبان بموشحاته وهو حفيد ابي العلاء بن زهر الطبيب المشهور . وكان صاحب هذه الابيات بعث به إلى مراكش وسمم فيها فمات سنة٥٩٦هـ وله بنت واخت ماهرتان في الطب والقيلة نفيتا أيضاً إلى مراكش وقتلتا مثل أخيهما بالسم . وأبقى ولده في الاندلس فقال الابيات المذكورة متشوقاً .

٩ ـ سير الدهور

ديوان جليل ملأه الشاعر بالحكمة والفلسفة فاحوج مطالعه إلى الدقة والتبصر فيه ومراجعة كتب التاريخ والفلسفة لفهم دقائق معانيه كما يحتاج لذلك قارىء اللزوميات ورسالة الغفران واشباههما من كتب الأدب والفلسفة التي خفيت وقائعها

على كثيرين فنسبوا لها الركاكة . ومن هذه الكتب أيضاً ما ألفه الصفدي شرحاً على الطغرائي صاحب لامية العجم والقصائد المعروفة في الكيمياء . ومنها أيضاً ما الفه ابو بكر بن وحشية صاحب الفلاحة النبطية سنة ٩٠٤ م ومنها نسخة في مكتبة أيا صوفيا . وزعم المستشرق الروسي شولسن بان لابن الوحشية معرفة بعلوم الاراميين والبابليين وفنون ادبهم ومن منظوماته « الشوق المستهام » تكلم فيه عن خطوط المتقدمين وكتاباتهم . وله أيضاً « سدرة المنتهى » بحث فيها عن مواضيع دينية فلسفية . ومثل ذلك أيضاً « أزهار الافكار في المعادن والاحجار » لشهاب الدين ابي العباس النقاشي المتوفى سنة ١٢٥٣ م تكلم فيه عن المعادن والاحجار الثمينة وطبعه المستشرق رافيوس في اوتراخت من هولاندا سنة ١٧٨٤ م ثم طبعه كليمان موله سنة ١٨٦٨م . ومن ذلك أيضاً ديوان شذور الذهب لبرهان الدين بن أرفع رأسه من مدينة جيان في اسبانيا المتوفى سنة ١١٩٧ م في فاس ، وغير ذلك .

وجمع فيكتور هوكو في هذا الديوان سيراً حماسية انتخبها من تاريخ البشر في القرون الأولى والوسطى والاخرى وصورها في الواح معظمة وسبكها في قوالب مكبرة وقصها قصصاً مفجعة شرح فيها سير الانسان في مراقي العمران وخروجه من الظلمات إلى النور ومن قيد العبودية إلى سراح الحرية . وجعل الحق للأمم والقوة للملوك الجبابرة المستبدين بالرعية . وبين كيفية تغلب الحق على القوة كلما خطا الانسان خطوة في التاريخ وارتقى درجة في سلم الحضارة . وأظهر بذلك قاعدة الحكم «لمن غلب» من بين الأمم شيئاً فشيئاً ويعلو الحق وينتصر رويداً رويداً لان الحق يعلو ولا يعلى عليه .

فنظم فيكتور هوكو في تصوير القرون الأولى قصيدة « تيتان » سلك فيها طريقة الشاعر اليوناني ايشيل مؤلف رواية « برومته » المقيد بالسلاسل وبين فيها ظلم الجبارين ومحاربتهم للآلهة ثم سقوطهم في مهاوي الخزلان . اما تيتان فورد ذكرهم في اساطير اليونان بانهم من أولاد السماء والأرض وقيل بانهم عصوا على الآلهة وأرادوا ان يبنوا لهم صرحاً ليبلغوا به اسباب السموات أي نواحيها . فعمدوا إلى الجبال ووضعوا جبلاً فوق جبل حتى كادوا يبلغون السماء الدنيا لولا ان كبير الآلهة جوبتير صعقهم بصاعقة دكت الجبال دكاً .

ونظم فيكتور هوكو أيضاً « ضمير قاين » ويعرف عندنا بقابيل الذي قتل أخاه

هابيل ثم ندم على ما فعل (١) . فصور الشاعر ندامته وعين الله ناظرة اليه بالغضب وعظم هذه القصة وجسمها تجسيماً لائقاً برجال ذلك العصر الذين منهم عوج ابن عناق . ولشعراء الترك والفرس مبالغات عجيبة في تصوير مثل هذا الموضوع . كالشاعر نفعي الذي وصف شدة الحر وقال بأن زفرة من زفرات الثمل كافية لتنشيف البحور السبع وجعلها سراباً ووصف شاعر آخر رستم عنترة الفرس وقال بان النبل الذي رمى به من قوسه اخترق السموات السبع ودخل في اللامكان . واستخرج فيكتور هوكو من التوراة والاسرائيليات غير هذا الموضوع وصوره كذلك في هذا الديوان .

ونظم في تاريخ القرون الوسطى عدة منظومات مثل لاديسلاس وسيجسموند وغيرهما من الظلمة وقطاع الطرق الذين توصلوا بالقتل والنهب والحيل والدسائس الى لبس تاج الملك والجلوس على كرسي الامبراطورية . وقارنهما بالسيد ورولان وغيرهما من الفوارس الشجعان الذين جاهدوا بأنفسهم في سبيل النصرانية وتفانوا في الغيرة والحمية الدينية . ورولان هو ابن اخ شارلمان وقائد جيوشه وشارلمان هو الامبراطور المعاصر لهارون الرشيد . وتقدم ذكرهم وذكر السيد أيضاً وهو عنترة الاسبانيين كما ان رولان عنترة الفرنساويين وكلاهما اشتهرا في الحروب مع مسلمي الاندلس . وصور فيكتور هوكو القرون الوسطى بما فيها من المظالم والجرائم الفظيعة واراقة الدماء والاستبداد والنخوة الجاهلية والتعصب الديني وأطنب غاية الاطناب في توصيف ذلك وتعظيمه وتجسيمه .

ونظم في القرون الأخرى مقبرة ايلو وهو مكان في المانيا انتصر فيه نابوليون على عساكر الروس وبروسيا . ونظم فصلاً سماه جماعة الظلام وافتتحه بقصيدة عنوانها

(١) سورة المائدة : « واتلُ عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتُقبّل من احدهما ولم يُتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما انا بباسط يدي اليك لاقتلك إني أخاف الله رب العالمين اني اريد ان تبوء باثمي واثمك فتكون من اصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوّعت له نفسه قتل اخيه فقتله فاصبح من الخاسرين . فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة اخيه قال يا ويلتي اعجزت ان أكون مثل هذا الغراب فاواري سوأة أخي فاصبح من النادمين . من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما احيا الناس جميعاً » . . . . . الخ .

الحـريـة قال فيهـا : بأي حق تضـع الطيـور في الاقفاص ؟ بأي حق تغتصب هؤلاء المغردين وتحرم منهم الغابات والانهار والفجر والرياح ؟ بأي حق تسلب هؤلاء الاحياء حيـاتهم ؟ أتظن أيهـا الانسـان بان الله خلق الجناح لتعلقه على مسمار في بيتك ؟ ألا يمكنـك ان تعيش سعيـداً مسـروراً بدون ذلـك ؟ ما الـذي فعله هؤلاء المعصـومون ليـوضعـوا في الحبس ؟ من يعلم كيف يمتـزج حظهم مع حظنـا ؟ من يعلم إذا كان العصفـور الـذي ينهب من الاغصـان ، ومن يعلم إذا كان الأذى الـذي تؤذى به الحيـوانـات ، وإذا كان لاستعبـاد الـذي يجري على البهائم بلا فائدة لا ينقلب على رؤوسنا ظلماً كظلم نيرون ؟ من يعلم إذا كان زنجير الحبس لم يخرج من ارسان الحيوانات ؟ . . . . .

خذ حذرك من العدالة الالهية لان الله ينظر إلى المكان الذي يبكي الاسير فيه ويصرخ . ألا تفهم أيهـا الانسـان بانـك ظالم ؟ اطلق سراح المحبوسين ودع البلابل تطـير في الحـدائق . فميـزان العـدالـة وان أختفى عن الاعـين فله كفتـان تزن الاعمال . . . . الخ . . الخ .

ونظم قصيدة اخرى عنوانها « الحرامي والملك » وبين المشابهة بينهما وما يرجح به كل واحـد منهـما على صاحبه . ونظم قصيدة اخرى عنوانها « للملوك » خاطبهم فيها بكـلام ترتعـد منه الفرائص وتقشعر الجلود فقال لهم : أتظنون أنتم باننا نحن نحبكم نحن الـذين نشتغـل في هذه الأرض ونستخـرج ثروتهـا ونكد ونجد في حرارة الشمس وبرد الشتاء ولا ننال من اتعابنا غير الجوع والعطش . وانتم على سرر مرفوعة من العز والنعيم . وعلى جانب من التبذير والاسراف والفحش . نحن الخدم وانتم الملوك . نحن الغنم وانتم الـذئـاب . نحن الفـريسـة وانتم المفـترسـون . تبنـون القصـور والسـرايـات من أمـوالنـا واتعابنا وترتعون فيها وتلعبون ونحن نقاسي نزاع الموت على لقمـة . لا شغـل لكم الا الأكل والنوم والسكر والفحش والقتل والظلم فانتم لا فرق بينكم وبين الأسود الكاسرة والوحوش الضارية . . الخ . الخ .

واطنب فيكتـور هوكـو في بيـان الحـريـة وتعـريفها باساليب كثيرة وصور مختلفة وأشكال متنوعة . ومن كلامه ما ورد على حد قول المعري في اللزوميات :

يكـفـيـك حزنـاً ذهـاب الصـالحـين معـاً ... ونـحـن بعـدهـم في الأرض قُطّـان
ان العـراق وان الـشـام مذ زمـن ... صفـران ما بهما للمـلك سلطـان

ساس الانام شياطين مسلطة ... في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم ... ان بات يشرب خمراً وهو مبطان
تشابه النجرُ فالرومي منطقة ... كمنطق العرب والطائي مرطان
أما كلاب فاغنى من ثعالبهم ... كان أرماحهم في الحرب اشطان
متى يقوم امام يستقيد لنا ... فتعرف العدل اجبال وغيطان
صلوا بحيث اردتم فالبلاد أذى ... كأنما كلها للابل اعطان

وقال أيضاً

مل المقام فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها امراؤ ها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... فعدوا مصالحها وهم اجراؤ ها

وقال أيضاً

يا ملوك البلاد فزتم بنسء العمر ... شأنكم في . النساء
ما لكم لا ترون طرق المعالي ... قد يزور الهيجاء زير النساء
يرتجي الناس أن يقوم إمام ... ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل ... مشيراً في صبحه والمساء (١)
فاذا ما اطعته جلب الرحمة ... عند المسير والارساء
انما هذه المذاهب اسباب ... لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقُون ... لدمع الشماء (٢) والخنساء
كالذي قام يجمع الزنج بالبصرة ... والقرمطي بالاحساء

---

(١) قطان أي سكان . صفران أي خاليان من الحكومة العادلة . الخمص الجوع تقول خمصه الجوع خمصا ومخمصة المبطان الذي لا يزال ضخم البطن من كثرة الاكل . النجر الاصل . مرطان مفعال من الرطانة وهي كل كلام لا يفهم . وما أصدق هذا البيت على أهل زماننا فان اكثر المشتغلين بادب العرب وكتبهم هم من غير العرب بل ومن غير المسلمين . يستقيد من القود وهو القصاص الذي فيه الحياة والعدل والوصول إلى الحقوق . الاعطان مبارك الابل ومرابض الغنم . الشطن بفتحتين الحبل وجمعه اشطان . عدوا مصالحها أي تعدوا على مصالحها وجاروا فيها . نسء العمران تأخيره . والنساء جباية الأموال . زير النساء كثير الزيارة للنساء . الكتيبة الجيش . والخرساء الذين لا يسمع لهم صوت لقلة كلامهم .

(٢) الشماء التي استوت قصبت انفها وارتفعت ارنبته والخنساء التي تأخر انفها وقصر واشار بهما هنا إلى الشريفة والوضيعة . الذي قام بجميع الزنج علي بن محمد ويتمي لعلي بن أبي طالب . والقرمطي ابو القاسم بن زكرويه ويتمي أيضاً إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وخرج في أيام المكتفي سنة ٢٨٧هـ. الصليم الداهية . وقوله تسامت قريش أي تغالبهم ومقاتلة بعضهم بعضاً فكان هذا سبباً لغلبة الترك والديلم عليهم . والغانية الغيلم أي الحنساء يقال للص الذي لا يرى شيئاً إلا اتى عليه شص من الشصوص .

فانفرد ما استطعت فالقائل الصادق يضحى ثقيلاً على الجلساء ومما يحاكي بعض أبيات قصيدة الحرية المتقدم ذكرها قول المعري :

اعاذل ان ظلمتنا الملوك ... فنحن على ضعفنا اظلم
توسط بنا سائرات الرِّفاق ... لعل ركائبنا قلم

إلى أن قال :

فلا تغبطن ذوي نعمة ... فحلفهم وقعة صيلم
تسامت قريش إلى ما علمت ... وأستأثر الترك والديلم
وهل ينكر العقل ان يستبد ... بالملك غانية غيلم
وما ظفر الملك في جيشه ... سوى ظفر بالردى يقلم

وقوله

واقصاني من الرؤساء كوني ... وكونهم لخالقنا عبيدا

وقوله

قد عمنا الغش وازرى بنا ... في زمن اعوز فيه الخصوص
ان نصح السلطان في امره ... رأى ذوي النصح بعين الشصوص
وكل من فوق الثرى خائن ... حتى عدول المصر مثل اللصوص

وقوله

لقد ساس أهل الأرض قوم تفتقت ... امور فما الفت لهم يد رائق
هم هتكوا بالراح أستار عاذل ... ولم يحفظوا بالنسك حرمة ناتق
إذا جرحوا دناً فلم يرج عندهم ... قصاصاً أجادوا قتل عذراء عاتق
وصاغوا بما تجنى الولاة مراكناً ... وزادوا على اسيافهم والمناتق
ولو كان للدنيا لدى الله قيمة ... لما نظروا في آهلات الرساتق (١)

وقال أيضاً

صاحب الشرطة ان انصفني ... فهو خير لي من عدل ظلم
من أراد الخير فليعمل له ... فعليه لذوي اللب علم

---

(١) رتق الفتق أي أصلح الفاسد . عاذل هو العرق الذي يخرج منه دم المستحاضة . الناتق كثيرة الاولاد . المركن يستعمل للماء . الدن خابية الشراب . والعذراء العاتق القديمة وهي التي لم يفض ختامها أحد ، وقتلها مزجها .

حكـم الـنـاس غواة مثـلما　　حكـمـت قبـل حصـاة وزلم
لاتهـاون بصـغـير من عدىً　　فقـديـماً كسـر الـرمـح القلم

ويعجبني ما قالـه في هذا البـاب شاعـر العصـر احمـد شوقي بك من القصيـدة التاريخية التي تلاها في مؤتمر المستشرقين في جنوه (جنيف) سنة ١٨٩٤ م قال :

ان ملكت النفوس فابغ رضاها　　فلهـا ثورة وفـيـهـا مضـاء
يسكن الـوحش للوثوب من الاسـ　　ـر فكيـف الخـلائـق الـعـقـلاء
يحسب الظـالمـون ان سيسـودو　　ن وإن لن يؤيـد الـضـعـفـاء
والـلـيـالي جوائـر مثـل ما جا　　روا ولـلدهـر مثـلهـم أهـواء

١٠ ـ اغاني الشوارع والاحراج

وهـو ديـوان كالـذي سبق ولا حاجـة إلى ايراد مثال منه . وأما ما نظمه فيكتور هوكو في شيخوخته فهو :

١١ ـ السنة المهولة

هجا في بعض هذا الديوان نابوليون الثالث وعد سقوط حكومته الامبراطورية كفارة لما اقترفه من السيئآت على زعمه في حادثة ٢ ديسمبر . وبين في بعضه الآخر ما جاء به الفـرنسـاويـون من الغـيرة والشجـاعـة في الـدفاع عن الاوطان في اثناء حرب السبعين الالمانية وما قاموا به من الثبات في حصار باريس . واعتبر الحرب الفرنساوية الالمـانيـة كانـهـا حلقـة لسلسلة الحـروب التي أثارتها دول القرون الوسطى المعبر عنهم بالقيـو دالينـه وهم أشبـه بما كان في بلادنا من أصول التيمار والزعامة وبحكومة الامراء الـذين قيـل لهم (دره بك) . وعـد انقطـاع تلك السلسلة وزوال هاتيـك الافكـار العسكـريـة بظهـور الفكر الجديد والتقدم العصري . وتكلم في القسم الثاني من هذا الديوان على ويلات الحرب الاهلية وما اقترفه الرعاع (كومين) في باريس من الفظائع الدموية واظهر حمقهم وجهالتهم في احراق الديار وذبح الرجال وختمه بطلب العفو عن المجرمين المغلوبين .

١٢ - صناعة كون المرء جدًّا

تكلم في هذا الديوان على الاطفال والأولاد وشبههم بالملائكة واعتبر وجودهم على الارض دليلاً على رحمة الله وتأييداً لما يرجوه الناس من الحياة الآخرة . وكان فيكتور هوكو يطرب لبابأة الاطفال ومناغاتهم وللعب الصغار وهوشاتهم ويفرح لابتسامهم وضحكهم وتبريق عيونهم وتهلل وجوههم ويحصل له من جميع ذلك تجل واستغراق ظهر أثره في نظمه . وبعد ما اصيب في اولاده عكف على حب حفيده جورج وحفيدته حنه (جان) وشغف بهما شغفاً زائداً والتزم تربيتهما بنفسه فكان يشاهد نشوءهما وتفتح الروح وانفتاق الذهن فيهما وينظم مطالعاته وما يلهم به من الشعر . فنظم جميع ما يتعلق بالاطفال والاولاد من تهليل وترقيص وتلهية وتلعيب وصور جميع حركاتهم وسكناتهم ونومهم وقيامهم وجريهم ونظهم ولعبهم . مثال ذلك القصيدة التي عنوانها « أغاني لترقيص الاولاد الصغار في الحلقة » وكذا المنظومة التي عنوانها أيضاً « حنه كانت في الغرفة المظلمة على الخبز الحاف » وذلك أن مربيتها جازتها بهذا الجزاء تأديباً لها . فجا ها جدها من وراء الباب المقفل واطعمها الحلواء خفية فقالت له تبت وما عدت ادخل اصبعي في انفي ولا أدع الهرة تخمشني فذهب يتشفع لها عند مربيتها. فاعترض عليه أهل الدار وقالوا له اطعمتها كثيرا وأفسدت تربيتها . وكيف ينتظم امر البيت ان لم يكن فيه وازع ورادع وقانون يتبع . فاقر بخطئه واعترف بان كثرة المرحمة مضرة بمصلحة العائلة كضررها بمصلحة الامة وتبعث على انحطاطها وهلاكها . وقال لهم انا المخطيء ضعوني مكانها في الغرفة المظلمة على الخبز الحاف . فقالوا له انت مستحق لذلك لان القانون ينبغي أن ينفذ على الكبير والصغير . فنظرت إليه حنه بعين الشفقة والمرحمة وقالت له بصوت منخفض « وأنا أجيب لك الحلواء » . فنظم الشاعر هذه القصة بصورة بديعة والفاظ عذبة وهي مثال لمواضيع قصائده . فكان كالصغير مع الصغار ولذا انتقد عليه بعض الأدباء وقالوا بان في اشعاره ما هو اشبه ببابأة الاطفال لا لذة فيه ولا طعم له .

ثم نظم أربعة دواوين صغيرة لخص فيها مسلكه الفلسفي وجميع معارفه العلمية وافكاره الدينية والهاماته الربانية وسماها « الاديان والدين » . « البابا » . « الحمار » « الرحمة العالية » ونظم فيها شيئاً كثيراً مما نقرأه في لزوميات المعري على حد قوله :

دين وكفر وانباء تقصّ وفر ... قان ينصّ وتوراة وانجيل
في كل جيل اباطيل يدان بها ... فهل تفرد يوماً بالهدى جيل

وقوله :

جاء القرآن وامر الله ارسله ... وكان ستر على الاديان فانخرقا
ما ابرم الملك الا عاد منتقضاً ... ولا تألف الا شتّ وافترقا
مذاهب جعلوها من معايشهم ... من يعمل الفكر فيها تعطه الأرقا

ولكن كلام فيكتور هوكو أوضح وأظهر واجمع وأكثر تفصيلاً وترتيباً وان كان الشاعران يتفقان كثيراً في اصل الفكرة وتتوارد خواطرهما على المعاني الواحدة .

ويظهر في كلامهما أثر الحيرة والدهشة من النظر في الكون ولكن فيكتور هوكو لم يستول عليه اليأس ولا القنوط الذي استولى على أفكار المعري واحرمه من نعيم الدنيا ولذائذ الحياة مع ما كان له من سعة الرزق وكثرة المال . ومما انشده في ذلك :

واتهامي بالمال كلف ان ... يطلب مني ما يقتضي التمويل
ويقول الغواة خولك الله ... كذبتم لغيري التخويل
عيشة ضاهت الهواذير ... مافيها مُفيد وكلها تطويل
ان حباك القدير كالنيل تبراً ... فليفضه العطاء والتنويل

إلى أن قال :

وإذا هولت علي المنايا ... راقني من وعيدها التهويل
حوليني عن ظاهر الأرض ... فالقلب يسلي همومه التحويل

الخ . .

ووردت ترجمته في بعض الكتب الفارسية وقيل فيها بانه كان من أهل الثروة واليسار مع زهد وتقشف .

١٣ ـ الاديان والدين

ديوان مشحون بالحكم ولكن ضيق الوقت منعنا عن تدقيقه ومقابلته بما ورد على مثاله من شعر العرب . وهو على خمسة ابواب: باب الجدل ، باب الفسلفة ، باب لا شيء ، باب الاصوات ، باب النتيجة ، ونظم في باب المجادلات تسع منظومات : (١) يوم الأحد (٢) اول التفكير (٣) التيولوجي ونسميه المتكلم أو المتكلمون وهم الباحثون في علم الكلام والتوحيد . (٤) للتيولوجي أي خطاباً لهم ومطلعها :

أيها الرهبان ، أيها اللابسون الحرام والطيلسان ، سواء عليكم تعممتم بعمائم البزّ أو تتوجتم بالتيجان المرصعة بالجواهر واللآليء فحيث جعل لكم في هذه الدنيا حق بالحماقة فانتم تتجاوزون فيها الحد بشدة لا مثيل لها . لان العلي الأعلى يغض بصره ويصمم اذنه عنكم . . . الخ . (٥) الاختراع . (٦) الايدي المرفوعة نحو السماء . (٧) احسن الصنع وبين فيها ما يقوله المتكلمون من النصارى في حق الله (٨) بقية . (٩) مسائل .

ثم ذكر في الباب الثاني آراء الفلاسفة وفي الباب الثالث آراء الملحدين الجاحدين الذي يقولون بعدم وجود شيء . ان هي الا ارحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا الا الدهر . وانما مثلنا كمثل الزجاجة إذا انكسرت لا يعاد لها سبك . وأما الخاتمة فهي منظومة طويلة نظر بها في حسن السماء ونجومها التي هي زينتها وفي الشمس والقمر ونورهما وفي الكون باجمعه وقال في ختامها : هو موجود : انظري ايتها النفس . فله اوج وهو الضمير . وله محور وهو العدالة . وله نقطة اعتدال وهي المساواة . وله فجر واسع وهو الحرية . وشعاعه ينير فينا ما تتصوره النفس فهو موجود : موجود ! موجود ! بلا نهاية ، بلا بداية ، بلا كسوف ، بلا ليل ، بلا فراغ من العمل ، بلا نوم .

فارجعي يا دودة الأرض عن خلق الشمس . اه وهذا على حد قولنا لا تتفكر في ذات الله وحقيقته بل تفكر في خلقه ومصنوعاته .

١٤ ـ الحمار

اراد المؤلف بنظم هذا الديوان بيان افضلية الطبيعة والسوق الطبيعي على العلم لا سيما على العلم الكاذب والاباطيل . وقايس فيه بين صبر الحمار وبين خشونة الرجل وعبث الصبي . لان الحمار وان كان في عرفنا كناية عن البلادة والغباوة ومن اوصاف الذم لكنه في عرف المتقدمين رمز عن الصبر ولذا سمي مروان الحمار وكان ذا شجاعة وحزم . وسمى اليونان بعض رجالهم واظنه أشيل الحمار أيضاً . ففيكتور هوكو سمى حماره الصبر وقايس بينه وبين الفيلسوف كانت وجعل بينهما مخاطبات فلسفية بديعة وقال لِكانت « ما الذي وجدته بعد خوض بحار العلوم وما الذي استنتجته من سبر غورها وإلى أين أوصلتك هذه الكتب والدفاتر فهي لم تدون ولا وضعت في الكتيبات الا لترعى في حواشيها الأرضة وتتخزن فيها الرطوبة فالعلم الحقيقي هو في وجه الطبيعة والطفولية وفي الابتسام والصلاح والبشاشة . . الخ » .

١٥ ـ الرحمة العالية

صور في هذا الديوان الظلم والاستبداد وبكاء المظلومين ولعنهم الظالمين وشخص القوة المستبدة أحسن تشخيص وبين الحامل للمستبد في أمرهم على الشكوى . ولكن المفكر في باطن الأمر ونفس الحقيقة يرى اولئك الظالمين الملعونين في حاجة وافتقار للشفقة عليهم أيضاً . لان حمل الحكومة والدولة من أثقل الاحمال لاسيما وان أولي الامر واصحاب الاستبداد محاطون دائماً بالمداهنين والمتملقين . فالظالم شنيع ولكن المغري له والمتبصبص اشنع فالمتملقون يفسدون اخلاق الملوك منذ حداثة سنهم وهم يكررون عليهم في كل صباح ومساء « كل هذه الامة هي لك » . فحب المُلك خصلة كبقية الخصال الانسانية والملوك يستوون في الخصال مع بقية الناس ولكنهم يفرقون عنهم بان الحقيقة تخفى عليهم بالكلية ولا يطلعون على جلي الخبر فهم أحق وأولى بالرحمة العالية .

الدرام

استعملنا هذا الاسم لبينما يضع ادباء العرب اسماً مقابلاً له أويعرفونه كما عرب المتقدمون كلمة موسيقى او ارتماطيقي ونحوهما من الكلمات اليونانية . والمقتضى لهم ايجاد كلمة تكون على وزن من أوزان الاسماء العربية ويسهل النطق بها على اللسان لأنا في عصر يحتاج فيه لإ دخال كلمات جديدة في لغة العرب كما ادخل السلف فيها الكلمات اليونانية والفارسية وغيرهما على عهد الخلفاء العباسيين .

١ ـ كرومويل

اول درام الفه فيكتور هوكو هو درام كرومويل وتقدم ذكر مقدمة هذه الرواية في تعريف الطريقة الرومانية . أما كرومويل فهو من أشهر رجال الانكليز في القرن السابع عشر للميلاد اشتغل بالسياسة حتى صار رئيساً للحزب الجمهوري وأحدث (الثورة) الانقلاب الذي قتل فيه شارل الأول ملك الانكليز سنة ١٦٤٩ كما قتل لويس السادس عشر ملك فرانسا سنة ١٧٩٣ م واستبد اوليفيه كرومويل بالجمهورية وصار صاحب الأمر والنهي كانه ملك ولم يقنع بما استحوذ عليه من السلطة والنفوذ بل وسوس له الخناس الذي يوسوس في صدور الناس بان يتملك على الانكليز . فاخذ في تهيئة الاسباب واعداد المعدات كما فعل نابوليون الثالث حينما تتوج بتاج الامبراطورية . واستعدت بلدية لوندرا لتقديم الصوجان له وتهيأ البرلمان لالباسه التاج وكاد الاحتفال برسم التتويج يتم في كنيسة وستمنستر حسب الاصول والتقاليد القديمة ولم يبق بينه وبين الفوز بأمانيه الا قاب قوسين أو أدنى . فحينئذ اكتشف على عصبة سرية من أصحاب الجمهورية يأتمرون على قتله ولا يؤ خرهم عن الفتك به الا انتظار رسم التتويج ليغمدوا سيفهم المسلول في قلب ملك لا في قلب رئيس للجمهورية . فخاف ورجع عما تشتهيه نفسه واظهر ميله للمحافظة على قوانين

الجمهورية وكراهته في لبس التاج والتملك واخفى شوقه لعروس المملكة وحرصه الزائد على نيل وصالها لان الظلم من شيم النفوس . . .

وكان أوليفيه كرومويل ذا اخلاق غريبة وطينة عجيبة وطبيعة متقلبة اجتمع في خصاله الضدان من شهامة ودناءة وجبن وشجاعة وشدة ورحمة ولين جانب وقساوة وحرية أفكار ونفاق ومجاملة ولذا اتخذه فيكتور هوكو بطلاً لروايته وصور اخلاقه تصويراً بديعاً وجعل مجرى الرواية في ويت هال سنة ١٦٥٧ وافتتح الرواية بقوله : « غداً الخامس والعشرون من حزيران سنة ألف وستماية وسبع وخمسين » وختمها بقول كرومويل « إذاً متى اصير ملكاً ؟ » اشارة إلى شدة حرصه على الملك . فالادباء الناهجون منهج الطريقة الرومانية يعتبرون هذا المطلع وهذه الخاتمة من أبدع المطالع والخواتم وأبلغها مع بساطتها وخلوها عن التشابيه والاستعارات المدرسية . ويقولون بان انشاء الرواية من أعلى طبقات الانشاء ولكن تمثيلها على المراسح متعسر لطولها وكثرة اشخاصها فهي اشبه بكتاب تاريخي مدقق منها بالرواية التمثيلية . وعدا هذا فمؤلفها لم يحسن توصيف اخلاق الرجال ولم يستطع اعطاء كل رجل صفته الحقيقية بدون افراط ولا تفريط بل اتبع في الوصف تصوراته وخيالاته . والمطلوب في الرواية التمثيلية تصوير الرجل بذاته وافكاره بلا غلو ولا اطراء ولا مبالغة ولكل رجل تاريخي احوال مخصوصة تكتنف به ينبغي مراعاتها في تأليف الرواية فنابوليون مثلاً له تعبيرات وأفكار واطوار لو خرج عنها مؤلف الرواية لافسد تأليفه وكذا الملك صلاح الدين الايوبي مثلاً . ولكنا لم نزل نجهل حقيقة تاريخنا فضلاً عن معرفة اخلاق رجل واطواره . أما الافرنج فلكثرة معلوماتهم وسعة اطلاعهم لو حضر أحدهم تمثيل رواية وكان من أصحاب الذوق في الكلام لا يكتفي بالتبصر في محاسن الالفاظ وتنسيق الكلام ورونق الأشعار وعلو الانشاء بل ينظر مع ذلك إلى الأهم وهو حسن الموضوع وتصوير اخلاق الرجال واستنتاج النتائج الادبية الفلسفية الاخلاقية . بخلاف من يتلو منا مقامات الحريري والهمذاني أو يستمع تلحين الاشعار وأنشادها على العود والقانون فان طربه في الغالب انما هو لحلاوة التعبير ويلهو بها عما يحتويه من الفكرة والمعاني فحلاوة التعبير هي كالديباج والحلي للأفكار والمعاني . وربما يلهو المرء بحلي الغانية وزينتها عن جمالها الحقيقي كما نشاهد ذلك على المراسح في المشخصات المتوسطات في الحسن إذا برزن بزينة الاميرات وباثواب الملكات .

٢ ـ ايرناني

وسماها المؤلف أيضاً الشرف القشتالي وقشتالة إيالة في وسط اسبانيا . وصور فيها الدولة الاسبانية وهي في ذرى مجدها وأوج عزها .

وذلك ان العرب بعد فتحهم اسبانيا وتأسيسهم الدولة الأموية (١) فيها فرَّ بقية امراء القوط إلى جبال استوريا في الشمال الغربي من اسبانيا وأسسوا فيها دولاً صغيرة . فلم يعبأ بهم المسلمون وحسبوهم من المتشردين فلم يستأصلوا جرثومتهم ولا أجلوهم إلى ما وراء جبال البيرينه كما كانت تقتضيه الحكمة السياسية من تحكيم الثغور في هذه الجبال واتخاذها سدًّا مانعاً لهجوم الأعداء على المملكة الاسلامية . ثم ظهرت ملوك الطوائف (٢) من المرابطين والموحدين وبني زيان وبني هود وآخرهم بنو الاحمر ومؤسس هذه الدولة عبد الله محمد بن احمر سنة ٦٣٣هـ وعدة ملوكها عشرون واستمر ملكهم ٢٦٥ سنة وكان آخرهم أبا عبد الله الصغير وكانت عاصمتهم غرناطة .

فلما ضعف امر المسلمين وكثر النزاع والجدال بين امرائهم قويت شوكة المسيحيين في شمال اسبانيا . وكان يوان الثاني حاكماً على اراغون وهي ايالة في شمال اسبانيا على ساحل البحر المتوسط وعلى صقلية فزوج ابنه فرديناند بابنة حاكم قشتالة وهي ايزابلا . وتلقب فرديناند بالكاثوليكي وخلف اباه في الملك واستولى على قشتالة

(١) الخلافة الأموية في الاندلس من سة ١٣٩ ـ ٤٢٣ = ٢٨٤ سنة هجرية .

(٢) الخلافة الأموية :

ملوك الطوائف من سنة ٤٢٣ ـ ٤٧٩ = ٥٦ سنة هجرية

دولة المرابطين (يوسف بن تاشفين) من سنة ٤٧٩ ـ ٥٤٠ = ٦١ سنة هجرية

دولة الموحدين من سنة ٥٤١ ـ ٦٦٨ = ١٢٧ سنة هجرية .

ملوك الطوائف : من سنة ٦٦٨ ـ ٨٩٨ = ٢٣٠ سنة هجرية .

فرديناند وايزابلا ١٤٧٩ ميلادية

آل اوستريا (شارلكين) ١٥١٩ ميلادية

آل بوربون ١٧٠٠ ميلادية .

بالوصاية عن زوجته وحارب المسلمين وأخذ منهم غرناطة ،وأخرجهم من اسبانيا وأخذ من الفرنساويين مملكة نابولي في ايطاليا وفي ايامه اكتشفت اميركا وحمل ما فيها من الذهب إلى أوربا . وبعد وفاة ايزابلا انتقل ملك قشتالة بالارث إلى بنتها حنه المجنونة وكانت متزوجة بفيليب الجميل ارشيدوق ارستريا وخلفت منه ولداً اسمه الدون كارلو فانتقل اليه بالارث ملك جده فرديناند وجدته ايزابلا واجتمعت له المملكة الاسبانية بما فيها من الثروة الاميركية . ثم ورث من جده الثاني امبراطورية المانيا وصار انتخابه لها وتلقب بشارلكين وحاز على جميع الممالك المذكورة في الجدول الآتي :

جدول في بيان ما ورثه شارلكين أي شارل الخامس من الممالك

(١) آل اسبانيا	(٢) اوستريا
فرديناند الكاثوليكي تزوج ايزبلادي قشتالة	مكسمليان تزوج ماري دي بورغونيا

ملك أراغون ونابولي	ملكه اسبانيا والمستعمرات الاسبانية في اميركا	امبراطور المانيا وارشيدوق اوستريا	الوارثة من شارل الجسور (هولانده وارتوا وفرانش كونته) .

حنة المجنونة	تزوجت	فيليب الجميل

الدون قارلو وهو شارل دوتريش الذي لقب فيما بعد شارلكين .

أما أوستريا فكانت احدى الامارات التي تتألف منها امبراطورية المانيا .

أما امبراطورية المانيا فكانت مجموع امارات ومدائن حرة وكانت الامبراطورية فيها بالانتخاب لا بالوراثة وذلك انه عند موت الامبراطور يجتمع امراء الامارات السبعة وهم اكبر الامراء الذين تتألف منهم الامبراطورية ولذا لقبوهم (المنتخبين السبعة) وانتخبوا امبراطوراً من اوستريا في الغالب أي من العائلة التي تملك على امارة اوستريا . فلما مات مكسمليان امبراطور المانيا سنة ١٥١٩ م انتخب حفيده

شارلكين . وكان فرانسوا الأول ملك فرانسا صاحب عظمة وثروة ونفوذ وعسكر فكان يسعى مع المنتخبين في انتخاب نفسه ورشاهم بكثير من الأموال والهدايا فاخذوا ماله وانتخبوا عدوه شارلكين فاشتدت الرقابة بينهما . وكاد شارلكن يتفرد بالملك في اوربا ولم يبق له رقيب فيها سوى فرانسوا الأول ملك فرانسا فحاربه واسره واحضره إلى مدريد عاصمة ملكه وعقد معه معاهدة موافقة لسياسته ثم اطلق سراحه فلما وصل أرض فرانسا نقض العهد واستعد السلطان سليمان القانوني وكان أقوى ملوك الأرض قاطبة . وجرت محاربة بحرية في مياه تونس بين اسطول شارلكين واسطول خير الدين باشا المشهور باسم باربروس أي ذي اللحية الشقراء وانتصر فيها العثمانيون وانتصرت العساكر الانكشارية أيضاً على العساكر الالمانية في محاربة اخرى برية وقعت على حدود النامسا والمانيا . وكان شارلكين شديد الحرص على التفرد بالملك والسؤدد فلما لم يستطع ادخال جميع اوربا في حكمه وتحت نفوذه استولى عليه اليأس وانقطعت آماله فتنازل عن ملك اسبانيا لابنه فيليب الثاني وتفرغ عن امبراطورية المانيا لاخيه فرديناند واعتكف هو في دير من الأديرة إلى ان مات حزناً وكمداً .

أما موضوع رواية (ايرناني) فهو ان الدون قارلو قبل ان يصير أمبراطوراً على المانيا ويتسمى شارلكين كان يهوى في ماريد غانية اسمها الدونة سوله وكان يهواها أيضاً عمه الدوق روى غوميز . أما هي فكانت تعشق شاباً من الاشقياء وقطاع الطريق اسمه ايرناني وكان ثلاثتهم يترددون عليها بدون أن يشعر احدهم بالآخر . فصادف الدون قارلو عند معشوقته هذا الشاب مرتين ففي المرة الأولى مكنه من الخروج ولم يتعرض له وفي المرة الثانية ضيق عليه بالحرس وحصره بالعسكر واباح لهم دمه وجعل جائزة لمن يأتيه برأسه ففر ايرناني بكل مشقة من بيت حبيبته واختفى عن الابصار . فلما انقطع أمل هذه الغانية من الملك ومن حبيبها الشاب القت نفسها بين ايدي عاشقها الثالث وكان شيخاً هرماً ففرح بها وحملها إلى قصره وأراد الدخول بها . ثم اهتدى ايرناني إلى حبيبته وجاء اليها وبينما هو يغازلها ويعانقها وإذ دخل صاحب البيت وهو الدوق روى غوميز ووجدهما متعانقين ثم جاءهم الملك بغتة وأراد القبض على ايرناني فامتنع الدوق من تسليمه وعدّ اخذه من بيته اهانة لشرفه وأشار إلى صور ابائه واجداده المعلقة على جدران الغرفة وهم حماة الملهوفين ومغيثو المستجيرين . فترك الملك ايرناني واخذ الغانية عوضاً عنه وخرج بها من القصر فلما نجا ايرناني من

الهلاك طلب من الدوق ان يطلق سراحه ليتعقب أثر محبوبته ويخلصها من أيدي الملك وعاهده على ان يعود إليه متى طلبه واعطاه بوقاً لينفخ فيه متى اراد ان يستدعيه فاذا سمع صوت البوق حضر اليه بالحال .

ثم ينتقل مجلس التشخيص إلى اكس لاشابل في المانيا وكانت عاصمة الامبراطور شارلمان وفيها قبره ثم جرت العادة بتتويج الامبراطور في هذه المدينة . فاذا ارادوا تولية امبراطور اجتمع المنتخبون وهم الملوك أو الامراء السبعة الذين لهم حق الانتخاب واختاروا أحدهم وألبسوه التاج وأطاعوه . وكان الدون قارلو مرشحاً لهذا الامر . فائتمرت عصبة على قتله وفيهم عمه الدوق روى غوميز واختلفوا في المحل الذي فيه قبر شارلمان واخذوا معهم ايرناني ليطعنه بخنجره . فعلم بهم الدون قارلوس ودخل المقبرة ونزل لقبر شارلمان وفاه بكلام هو من ملوك الكلام ومن أبلغ ما نظم فيكتور هوكو . ثم اطلقت المدافع ودقت الاجراس اعلاناً بانتخابه امبراطوراً على المانيا وخليفة لشارلمان وألقى القبض على المتآمرين واراد قتل ايرناني لانه ليس من ذوي الرتب والشرف ولكنه بين نسبه وظهر بان اسمه الحقيقي هو جان دراغون دوق سيغورب وقاردونيا فعفى عنه وزوجه بمعشوقته الدونة سوله فلما اخذها وأراد الخلوة بها في قصره سمع صوت البوق فتذكر عهده وفضل الموت على عدم الوفاء بالوعد فشرب السم وشربت حبيبته . ثم قتل الدوق روى غوميز نفسه أيضاً من شدة حبه لتلك الغانية . فهذه الرواية ليس لها حقيقة تاريخية وانما هي من مختلقات الشاعر وتخيلاته ولكنها في أعلى طبقة من البلاغة والانسجام وحسن الذوق .

٣ - روى بلاس

صور المؤلف في هذه الرواية التاريخية انحطاط دولة اسبانيا في أواخر القرن السابع عشر للميلاد وذلك انه بعد فيليب الثاني ابن شارلكين المتقدم ذكره جلس على كرسي المملكة الاسبانية ابنه فيليب الرابع ثم شارل الثاني آخر ملوك هذه السلالة النامساوية . ولما جلس سنة ١٦٦٥ م كان عمره أربع سنوات وهو لا يستطيع المشي ولا الكلام فكانت الوصاية لامه ثم لاخيه وامرأته ووزراء دولته . وبعد ان كبر أيضاً لم يلتفت لمصالح الملك وأهمل ادارة مملكته وبيته وزوجته وكان يقضي ايامه في الصيد

والتجـول في الـبراري والغـابـات وامـرأتـه في هم وكـدر من وحدتها وتكلفها بمراسم التشـريفـات وبالتقاليد المرعية في قصر الملك ولم يكن لشارل الثاني ولد فاوصى بالملك لحفيـد لويس الـرابـع عشـر ملك فرانسـا وانتقلت دولة اسبانيا من آل اوستر يا إلى آل بوربـون سنة ١٧٠٠ وزال نفـوذهـا واعتبـارهـا من بين الـدول الاوروبيـة ولم تزل في انـحطـاط لم تـتخلص منـه للآن وتـرى بعـين الحسـد تهافت الـدول الاوروبـيـة على استعـمار افـريقيـا ومدهم فيها السكك الحديدية وجرهم المنافع التجارية وهي شاخصة ببصرها كالمقعـد الـذي يروم النهـوض ولا يستطيعـه . واضـاعت بالامس آخر مستعمراتها في اميركا وهي جزيرة كوبه ثم جز ائر فيلبين ولم تكسب اليوم من تقسيم البلاد المراكشية الا جزءاً موهـومـاً على ساحـل المحيـط الغـربي يسمى (ريـودور) أي نهر الذهـب . ويشاهد رسمه على الخريطة المرسومة بعد عقد المعاهدة بينها وبين فرنسا ولا يرى أثر لحقيقة مسماه وجل ما يعلم عنه ان ليس هناك لا نهر ولا ذهب .

فصـور الشـاعـر في هذه الـروايـة انحطـاط المملكـة الاسبـانية وشرح اسباب انقـراض دولتهـا فاذا رفـع الستـار عن المـرسـح ظهـرت غرفة من غرف قصر الملك في مادريد وفيها وزير المملكة وقد غضبت عليه الملكة وطردته من القصر لانه لم يقبل بان يتزوج بنتاً من حاشيتها بعد ان راودها وحظي بها وقبل ان يخرج من القصر ليلتزم بيته صمم على الانتقـام من الملكـة فاستدعى ابن عم له يسمى قيصر وكان لفقرة معاشراً للهمـل وقطـاع الطـريق مع ما له من الحسب والنسب وأراد ان يتخذه آلة لدسائسه . فاستنكف من ذلـك ورد ما عرضـه عليـه من المـال والجـاه فامر بنفيه للهند فنفي إليها والبس خادمه روى بلاس لباس الاشراف ودعاه بابن عمه قيصر وقدمه لرجال الدولة واعيانها بعد ان استكتبه أوراقاً يعترف فيها باصله وخدمته له وكان روى بلاس يعشق الملكـة فتقـرب منهـا وحظي لديها بالقبول وصار من أعظم وزرائها واكبر مستشاريها . وبينما هو حائز على رضاء الملكة وعلى أعظم مسند في المملكة ظهر له سيده وأخذ يهدد الملكة ويوبخها على هيامها في خادمه وعلى تفريطها بنفسها وطلب منها امضاء ورقة ليتخـذهـا حجـة عليهـا ولا يبوح بسرها ما دامت مسلمة له زمام الملك فكادت الملكة تقبل بذلك خوف الفضيحة والعار ولكن روى بلاس اشتد غضبه حرصا على شرف الملكة محبوبته وقتل سيده ثم شرب سمًّا ومات والملكة تندب عليه وتبكي . فهذا محصل الرواية .

وقال فيكتور هوكو في مقدمتها :

ان المتفرجين في المراسح على ثلاثة اصناف : احدهما النساء . والثاني الخواص . والثالث العوام . فالذي يتطلبه العوام من التآليف الدراماتيقي بدون استثناء تقريباً هو العمل (١) والذي تتطلبه النساء قبل كل شيء هو الشهوة والذي يتطلبه الخواص على الخصوص هو الأخلاق . فاذا امعنا النظر في هذه الاصناف الثلاثة من المتفرجين نجد العوام هائمين بالعمل لدرجة يتساءلون فيها عند اللزوم بالاخلاق وبالشهوات . وتجد النساء مكترثات بالعمل أيضاً ولكنهن مستغرقات بتفاصيل الشهوة حتى يقل اشتغالهن جدًّا بتصوير الاخلاق . ونجد الخواص يتلذذون بمشاهدة الاخلاق أي بمشاهدة الرجال احياء على المراسح ويتلقون الشهوة كأنها عارض طبيعي في التأليف الدراماتيقي ويحصل لهم انزعاج من العمل . والسبب في ذلك ان العوام انما يتطلبون في حضورهم المراسح الهيجان . والنساء يتطلبن الخلجان . والخواص يتطلبون التفكير . والجميع يبغي لذة ولكن اولئك يبغون لذة النظر . وهؤلاء يردن لذة القلب . والآخرون يبغون لذة العقل . ومن ثم حصل في رواياتنا ـ أي روايات فيكتور هوكو ـ ثلاثة أنواع مختلفة من التأليف . احدهما عامي سافل . والآخران رفيعان عاليان . ولكن في ثلاثتهم الكفاية لسد الاحتياج . فالعوام لهم الميلودرام أي ما كان فيه انتقام وقتل وأزلال وفضيحة والنساء لهن التراجيديا التي تشرح الشهوة . والخواص لهم الكوميديا التي تصور الاخلاق الانسانية .

وربما يتداخل بعض هذه الثلاثة في الآخر لان العوام ربما كان فيهم من له شوق طبيعي لتطلب الجمال كما يكون له ذوق في الاشياء التافهة . ومن له هيام في التصورات والتخيلات البديعة قد يكون له اقبال على الاشياء العادية المزدرى بها . وكل واحد من خواص الادباء البالغين في الأدب رتبة الكمال ينبغي ان يتصف بصفة المرأة من جهة الاحساس القلبي كما ان المرأة تتصف احياناً بصفة خواص الادباء المفكرين .

فاذا أمعنا النظر في أصناف المتفرجين الثلاثة نراهم جميعاً محقين . فان النساء لهنَّ حق في ابتغائهن خلجان القلب . والخواص لهم الحق في ابتغائهم التعلم

---

(١) أي الفعل الذي يجري على المراسح من ضرب وقتل وقيام وقعود وحركة وسكون .

والاستفادة . والعوام لا لوم عليهم في طلبهم التسلي . فمن هذا الشرح ينتج قانون الدرام .

فالقصد من الدرام والغاية منه هو تصوير الاخلاق . أي اختلاق رجال وتمثيلهم على المراسح بمقتضى الشروط المؤلفة من صناعة الأدب ومن الطبيعة . والقاء الشهوات في هؤلاء الرجال لبيان أخلاقهم وأيضاحها . ثم استخراج الحياة الانسانية من تصادم هذه الاخلاق والشهوات بالنواميس الكبرى الالهية . أي استخراج وقائع كبيرة ، صغيرة ، مؤلمة ، مضحكة ، هائلة تشتمل على لذة للقلب يسميها الناس المنفعة وعلى عبرة للعقل يسميها الناس محاسن الاخلاق . فيتضح من ذلك ان الدرام يخرج من التراجيديا بتصوير الشهوات ومن الكوميديا بتصوير الاخلاق والصفات . فالدرام هو الشكل الثالث الكبير من اشكال الصناعة الادبية ويشتمل على الاثنين الاولين ويجمعهما ويفصلهما . فلو لم يوجد شكسبير بين قورنيل وموليير ولم يعط يده اليسرى لقورنيل ويده اليمنى لموليير لبقي كل منهما بعيداً عن الآخر . ولكن بوجوده التقت الكوميديا بالتراجيديا التقاء القطب المثبت بالقطب المنفي من الكهربائية . فحصل من التقائهما شرارة هي الدرام . أهـ .

ثم انتقل فيكتور هوكو لبيان حقيقة الدرام بالنظر لفلسفة التاريخ فقال :

إذا اقتربت مملكة من السقوط تمكن الناظر فيها من ملاحظة علائم كثيرة . ففي بادىء الامر يميل الاشراف للانحلال . وبانحلالها تنقسم على الوجه الآتي :

تضطرب المملكة وتنطفي السلالة المالكة . وتزول احكام القانون . وتتجاذب الدسائس الوحدة السياسية فتمزقها شذر مذر. وتخمد كبار العائلات وتنقرض. ويشعر الجميع في الداخل والخارج بضعف مميت . وتسقط عظائم الأمور التي تقوم عليها الدولة ولا تبقى واقفة الا على صغائر الامور وحدها ويصبح منظرها العمومي محزناً . ولا يبقى فيها لا ضابطة ولا عسكر ولا مالية . وكل واحد يحسب الساعة آتية لا ريب فيها . فمن ذلك يحدث في الاذهان كدرٌ من البارح وخوفٌ من الغد واحتراسٌ من كل انسان ويأس من كل شيء ونفرة زائدة . وحيث ان مرض الدولة في رأسها فاعيان المملكة الذين هم أقرب إلى الرأس يكونون أول المصابين بهذا المرض . فماذا يحدث حينئذ ؟ لا يبقى في قصر الملك من الاعيان المقربين الا الذين هم أقل حياء وأسوأ أخلاقاً وجميعهم على وشك الانقراض ويضيق الزمان وتنبغي العجلة ويلزم لهم

الاستهلاك في جمع المال والارتقاء لأعلى المراتب والاستفادة من الحال الحاضرة . ولا يفتكر الواحد منهم إلا بنفسه . ويجمع بلا شفقة على الوطن ثروة قليلة خاصة به في قرنة صغيرة من الفقر العام الكبير . ويصير ندياً ويصير وزيراً ويتهالك في الوصول للسعادة ونفوذ الكلمة ويتفتق ذهنه باستحضار الأجوبة الظريفة وينافق ويداهن ويلاطف فينجح . وكلهم يستحوذون على مقامات الدولة ومناصبها وعلى وساماتها ورتبها وألقابها وأموالها . ويأخذون الجميع . ويتطلبون الجميع . وينهبون الجميع . ولا يعيش الواحد منهم إلا بالحرص والطمع . ويخفون قلاقل المملكة وفسادها وسوء ادارتها الداخلية تحت مهابة ظاهرية . وتشره نفوسهم للعجب وتتطاول اعناقهم للعظمة والكبرياء . ولما كان الشرط الأول في حياة هؤلاء المقربين هو نسيان جميع الحواس الطبيعية فيصبح الواحد منهم كانه وحش مفترس ، ومتى جاء يوم سقوطه وابعاده عن مناصب الدولة صار مدهشاً عجيباً وانقلب ابليساً .

فاذا يئست الدولة من حالتها ابعدت عن مراكزها النصف الثاني من اعيان المملكة الذين هم أكرم نسباً واحسن جرثومة . فيلازمون بيوتهم ويدخلون قصورهم ويذهبون لبلادهم ومعاقلهم ومصائفهم وينفرون من مصالح الدولة ولا يستطيعون تدبير أمرهم ولا حيلة بيدهم لأن المملكة قد حان موتها ولم يبق في الأيام الا ذماء . (الذماء بقية الروح في المذبوح) كيف العمل وماذا يجدي التحسر وما ينفع البكاء ؟ فينبغي التغافل واغماض العين وتسلية النفس بالملاهي واللعب والأكل والشرب والتلذذ والتنعم . من يعلم ؟ هل بقي للواحد منهم سنة أوسنتان أمامه ؟ فاذا تفوه سادة المملكة وكبراؤها بذلك أو شعروا به واحسوا بشيء منه فقط اقبلوا على التهور في مصالحهم والافراط في امورهم . فزادوا في مشترياتهم وفي حلي نسائهم وفي ضيافاتهم واتقان مطابخهم وموائدهم واسرفوا وبذروا واهدوا وفرقوا وباعوا واشتروا ورهنوا واستدانوا وسلموا انفسهم لأكلي الربا واتلفوا مداخيلهم واضرموا النار في الجوانب الأربعة من أملاكهم . فيصبح الواحد منهم يوماً وقد حلت به المصيبة ونزل عليه البلاء وخرب هو قبل خراب المملكة رغماً من سرعة سيرها نحو الانقراض . فينفد ماله ويحترق كله ولا يبقى من تلك الحياة الزاهرة والطهي والبهرجة ولا الدخان لانه طار أيضاً . ولم يبق إلا الرماد ولا أكثر من ذلك . فيتركه جميع الناس وينسونه الا اصحاب الديوان . فتصير حالة هذا الشريف المسكين إلى ما يمكن أن تصير اليه .

فيصبح بائساً سفيلاً من الرعاع ويدور مع الهمل ويختلط بجمهور العامة ويغيب بين افواجهم المزدحمة . ولم يكن خالط العوام قبل ذلك ولا رآهم الا على ابوابه واعتابه فيغطس الآن بينهم ويلتجىء إليهم . ولم يبق معه نضار وانما بقيت له (الشمس) أي نضارة الحياة وهي ثروة من لا ثروة له وبعد أن أقام في أعلى طبقات الجمعية فهو الآن يقيم في أسفل طبقاتها . ويدرب نفسه على الذل بعد العز . ويهزأ بالذين اشتد بهم الحرص والطمع حتى نافقوا وتقربوا من أولي الامر وصاروا من الاغنياء النافذي الكلمة . وأما هو فيصير فيلسوفاً لا يبالي بالاقبال والادبار ويشبه من حوله من رعاع الناس وأوباشهم بحاشية القصر ورجال المعية ويتخذ منهم جماعة واخذانا ويترأس عليهم ويراعي النخوة والشهامة في جانبهم . وعدا هذا فهو طيب العنصر جسور القلب مفطور على النجابة والفطنة جمع في اخلاقه وخصاله بين ذوق الاديب الشاعر ودناءة الصعلوك الفقير وشهامة الرئيس الأمير . لا يبالي بشيء ويسخر من كل شيء ويشوق رفاقه واصحابه للسرقة كما كان يبعث برجاله واتباعه للنهب والغارة ولكنه لا يتنزل لان يسرق أو يستعطي بنفسه . تراه رث الظاهر سليم الباطن ذا كرم وسخاء كالامير وتهور كتهور اليائس الفقير . لم يبق له من الاصالة إلا شرف النسب الذي يحافظ عليه والاسم الذي يخفيه والسيف الذي يشهره .

فهاتان الصورتان اللتان رسمناهما ووصفنا بهما قسم المقربين وقسم المبعدين من اشراف المملكة يوجدان في وقت من الاوقات في تاريخ جميع الممالك . ولكنهما في أواخر القرن السابع عشر للميلاد وجدتا في اسبانيا بصورة تستلفت النظر ولذا شخصنا في هذه الرواية التمثيلية القسم الأول من كبراء اسبانيا في الدون سالوست المقرب في قصر الملك والمنعم عليه والقسم الثاني في الدون قيصر (سيزار) الذي يرعى مع الهمل مع ان كلاً منهما ابن عم الآخر . وعدا هذين الشخصين اللذين يتمثل فيهما كبراء المملكة الاسبانية المقربين والمبعدين يوجد تحتهما شيء كبير مظلم مجهول يتموج في جنح الظلام . فهذا الشيء هو الشعب الذي له المستقبل وليس له الحاضر . فالشعب يتيم فقير ولكنه ذو قوة واستعداد وقابلية يتطلب العلى وهو في الدرك الأسفل . وعلى ظهره علامة الخدمة والاستعباد وفي قلبه شوق للمعالي . الشعب خادم للسادة الكبراء ، وعاشق وهو في الذل والشقاء للصورة الوحيدة التي تتلألأ له

وسط هذه الجمعية المنقرضة كأنها نور إلهي ويتمثل له فيها الحاكمية والشفقة والنمو . فالشعب هو روى بلاس خادم الدون سالوست .

فاذا تصورنا هؤلاء الاشخاص الثلاثة على الوجه المشروح بقي علينا احياؤهم وتمشيتهم أمام المتفرجين وأن ندير عليه أعمالاً ثلاثة تتلخص فيها جميع أحوال المملكة الاسبانية في القرن السابع عشر . ويوجد فوق هؤلاء الرجال الثلاثة مخلوقة صافية نيرة . فهذه المخلوقة هي امرأة وملكة وهي في شقاء من حيث انها امرأة لأنها لم يكن لها زوج . وهي في شقاء من حيث انها ملكة إذ ليس لها ملك . ومتعطفة على من تحتها بعاطفة ملكة وقلب امرأة وناظرة للدرك الأسفل . بينما أن روى بلاس الذي تتشخص فيه الامة ناظر للمقام الأعلى . فهذه الرؤوس الاربعة المجتمعة على هذا الوجه (بقطع النظر عن الأشخاص الثانوية) هي في نظر المؤرخ الفيلسوف النكات الأصلية لمملكة اسبانيا منذ ١٤٠ سنة . ويمكن لنا أن نضيف رأساً خامساً لهذه الرؤوس الاربعة وهو رأس الملك شارل الثاني . ولكن شارل الثاني ملك اسبانيا لم يكن شخصاً بل هو في نظر التاريخ ظلٌ ولذا بقي في الدرام ظلاً لم يبن شخصه .

فما ذكرناه للآن انما هو بيان حقيقة هذه الرواية وهي روى بلاس بالنظر لفلسفة التاريخ . ويمكننا النظر إليها باعتبار آخر . لان الأشياء في هذا العالم تختلف أشكالها باختلاف النظر إليها . ومثل ذلك كمثل الجبل الأبيض . ان نظرت اليه من المحل المعروف باسم (فروادوفليشر) تراه بهيئة غير الهيئة التي تراه فيها لو نظرت اليه من المحل المعروف باسم (سالانش) . ومع ذلك فهو دائماً الجبل الأبيض . وكذا الحال في هذا الدرام فانه يختلف شكله باختلاف النظر اليه . فلو نظرنا اليه باعتبار الانسانية المحضة لرأينا الدون سالوست يتشخص فيه حب الذات والاهتمام واشتغال الفكر والتغرض . والدون سيزار بعكسه يتشخص فيه عدم المبالاة وعدم الاهتمام وراحة البال وعدم التغرض . وروى بلاس يتشخص فيه الذكاء والعشق واقتحام الاخطار والمهالك . والملكة يتشخص فيها الفضيلة الماثلة للانتهاك بسبب الملل وضيق الخلق .

وأما باعتبار صناعة الأدب فيجتمع في هذا التأليف الانواع الثلاثة من الروايات التمثيلية . الدون سالوست هو الدرام . والدون سيزار هو الكوميديا وروى بلاس هو التراجيديا . فالدرام يعقد العمل والكوميديا تشوشه والتراجيديا تحسمه .

فالموضوع الفلسفي لهذه الرواية هو تطلع الأمة وتطلبها للمقامات العالية . والموضوع الانساني هو رجل يحب امرأة . والموضوع الدراماتيقي أي الفاجع أو الهائل هو محبة خادم لملكة . فجمهور العوام لا يرون الا الموضوع الاخير أي الدراماتيقي الذي هو الخادم . والحق معهم . وهكذا يقال في كل تأليف من هذا القبيل . فترتوف يضحك منه واحد ويرهب منه آخر . فان ترتوف حية تسعى في البيت . فهو المرائي بعينه . فيكون تارة انساناً وتارة معنى . وأوتلو هو في نظر البعض اسود يحب بيضاء . وفي نظر البعض الآخر وضيعٌ تزوج بشريفة وفي نظر الآخرين غيور أو هو الغيرة على النساء .

ثم ان هذه الرواية لها تعلق من جهة المعنى التاريخي برواية ايرناني . فان حالة الكبراء في الروايتين تظهر بجانب حالة المملكة . ففي ايرناني لم تكن اسبانيا اكتسبت شكل الحكومة المطلقة ولذا كان الكبراء ينازعون الملك في الامر ويقوون عليه تارة بالنفوذ وتارة بالسيوف ويخرجون عليه مرة ويطيعونه أخرى ـ كما كان الحال في المملكة العثمانية على عهد الجزار صاحب عكا وباشوات مصر وبكوات تونس ودايات الجزائر وبقية الامراء الذين يقال لهم دره بك ـ ففي سنة ١٥١٩ م كان الكبراء في اسبانيا يبتعدون عن قصر الملك ويقيمون في الجبال وفي المعاقل والحصون . ويكونون تارة من قطاع الطريق مثل ايرناني وتارة من الامراء المستقلين في ادارتهم الداخلية مثل روى غومز كما فصلت احوالهم في تلك الرواية . ثم بعد مئتي سنة من ذاك التاريخ انقلبت القضية فصار الكبير الذي كان اشبه بالمستقل في ادارته رجلاً من رجال المعية ينافق لينفق والبعض الآخر من الكبراء سقطوا في الفقر والمذلة فهم يخفون اسماءهم لا للتملص من سطوة الملك بل للتملص من أصحاب الديون والحاحهم فالواحد منهم لا يصير قاطع طريق بل يضير نَوَريًّا أي من الرعاع . فيرى من ذلك ان الحكومة المطلقة مرت على هؤلاء الكبراء اعواماً كثيرة فأحنت رأس هذا وقطعت رأس ذاك .

ثم ان بين رواية إيرناني ورواية روى بلاس مضى على اسبانيا قرنان من الدهر حكم خلفاء شارلكين في غضونهما اللذينا . وكان من الحكمة الالهية عدم زيادة ساعة ولا نقص ساعة في هذين القرنين . لان شارلكين ولد سنة ١٥٠٠ م وشارل الثاني مات سنة ١٧٠٠ م ورث لويس الرابع عشر شارلكين كما ورث نابوليون سنة ١٨٠٠ م لويس الرابع عشر . فالمؤلف عطف انظاره نحو التاريخ ونحو ظهور هذه الدول

المعظمة فيه وملأ رواية ايرناني بضياء الفجر ورواية روى بلاس بظلام الشفق . ففي ايرناني اشرقت شمس آل أوستريا . وفي روى بلاس غربت شمس باريس في ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٣٨ م . انتهى .

فيتضح من هذه المقدمة مع ما فيها من ركاكة الترجمة لعدم تنقيحها بسبب ضيق الوقت حقيقة الروايات التمثيلية وكيفية تشخيصها للأخلاق الانسانية وتصويرها الوقائع التاريخية كما يظهر الفرق بين انواع الروايات من درام وكوميديا وتراجيديا فان تأليف الروايات له شروط وقواعد وأساليب كما ان له غاية ومقصداً . ويتضح من ذلك أيضاً وجه اعتراض الافرنج على المقامات الحريرية التي هي أشبه بالكوميديا . ولعل ادباءنا ينهجون هذا المنهج الجديد في التآليف الأدبية ولا يقفون عند حد القصيد والرجز أو الرسائل والمقامات والخطب فان القرن العشرين مفتقر إلى تصوير الأخلاق الشرقية باسلوب الروايات التمثيلية ومحتاج إلى درس تاريخ الأمم الشرقية درساً مدققاً ومعرفة خصال كل رجل من مشاهير رجاله كصلاح الدين وموسى بن نصير وامثالهما . ونظم الكونت دوليسل وهو خليفة فيكتور هوكو والمنتخب عوضاً له في الاكاديمية قصيدة غراء سماها موسى الكبير وصور فيها محاكمة موسى بن نصير ووقوفه بين يدي الخليفة الأموي ومدافعته عما اتهم به كما أن عبد الحق حامد بك ألف باللسان العثماني رواية طارق بن زياد وهي نثرية تمثيلية وفيها أشعار بديعة .

٤ ـ الملك يتسلى

صور فيها المؤلف فرانسوا الأول ملك فرنسا ومجنونه تريبوله . لان الملوك كان لهم مجانين ومهرجون ومضحكون وأقزام قصار القامة ومساخر . ولم يزل يشاهد اثرهم وبقيتهم في بلاد الشرق . ولعهد قريب كان للولاة في بلادنا مساخر ومضحكون يسمونهم المهرج والسوطري ولم يزل منهم من هو حيٌّ ليومنا . واما في أوربا فاعتاضوا عن جميع ذلك بالمراسح وتفننوا في تنويعها . فجعل المؤلف فرانسوا الملك المتكبر الجبار وتريبوله المجنون المضحك الهزئة على طرفي نقيض في مرسح اللعب . ولكن تريبوله مع ما هو عليه من دناءة النفس والتلصص كان أباً حنوناً شفوقاً على أولاده .

فكانت له خصلة حسنة من جهة الأبوة وقد قام بحقها احسن قيام واظهر احساسه الابوي على بنته حينما أراد الملك ان يقع بها للتسلية .

٥ - لوكريس بورجيا

بورجيا عائلة اسبانية الاصل انتخب منها باباوات اشهرهم اسكندر السادس وصار لهذه العائلة نفوذ عظيم في رومية وايطاليا وجميع العالم الكاثوليكي . وكان للبابا اسكندر السادس أولاد منهم قيصر بورجيا المشهور بارتكاب الأفعال الدنيئة والجنايات الفظيعة وكان اسقفاً وله اخت تسمى لوكريس بورجيا .

فموضوع الرواية ان خمسة شبان من أولاد الكبراء اجتمعوا في البندقية (فينيسيا) في مرقص تنكر فيه الراقصون والراقصات بالبراقع ثم جلس هؤلاء الاصحاب يتسامرون وأفضى بهم الحديث إلى ذكر الفظائع وتعداد الجنايات التي ارتكبتها عائلة بورجيا . وكان أحدهم القبطان جينارو نام على حديثهم ثم استفاق على قبلة قبلته اياها في جبهته امرأة مستترة بالبرقع لم يعرفها . فهذه المرأة هي امه لوكريس بورجيا وسمعت قذف أولئك الشبان في حقها وحق عائلتها . ولم يكتف الشبان بالكلام بل مروا بباب دار زوجها الدوق دوفيرار ومعهم جينارو فتطاول على تاج الدوقية المرسوم على بابه وطعن في لوكريس بورجيا وفي أخيها وأبيها . فأمر الدوق بإلقاء القبض عليه وحبسه وطلبت زوجته قتله ثم لما علمت بانه ولدها طلبت العفو عنه . فاغتش الدوق دوفيرار من ذلك وظنه واحداً من عشاقها واجبرها على سقيه السم . وبعد خروج زوجها من البيت سقت ولدها المسموم ترياقاً نافعاً ضد السم فشفي وفتحت له الباب وهربته وهو لا يدري بانها امه ثم ارادت الانتقام من رفاقه الخمسة الذين طعنوا فيها في مرقص البندقية . فاحتالت في دعوتهم عند الاميرة تغروني وفي سقيهم السم القاتل وبينما هم منهمكون في اللذات على المائدة ومتنعمون بنعيم الضيافة سمع النواح ودخل الرهبان بأثواب المأتم وخلفهم خمسة توابيت لحمل الموتى . وظهرت لوكريس بورجيا على المرسح شامتة في اعدائها الخمسة الذين قذفوا في عرضها والسم يدور في بدنهم ولا يمهلهم الا برهة قليلة . ولكن جينارو لحق برفاقة

وأراد الموت معهم وشرب من كأسهم ورفض من امه التر ياق الذي ناولته اياه لتنقذه من السم وطعنها بخنجره وهو لا يدري انها امه فقالت له حينئذ لوكريس بورجيا (انا امك) وختمت الرواية بموتهم جميعاً . ومراد المؤلف من هذه الرواية بيان ان اشقى النفوس وأظلمها وأطغاها قد تتجمل باحساس كالاحساس الناشيء من محبة الوالدة لولدها .

٦ - توركماده

وهي من الروايات التمثيلية التاريخية . أما توماس توركماده فهو رئيس محاكم التفتيش الديني في اسبانيا . وقد اشتهرت هذه المحاكم بالظلم والعدوان والتعذيب بأنواع آلات العذاب كالضرب الشديد وشد المعذبين بالمشدات حتى تتخلل عظامهم ونتف شعورهم وإلباسهم الطاسات المحمية ووضعهم في صناديق مسمرة حتى إذا تحرك الموضوع فيها دخل المسمار في بدنه ومزق جلده ولحمه وغير ذلك من أنواع العذاب والاحراق بالنار أو التغريق في الانهار والبحار . وعرفت هذه المحاكم باسم (انكيزيسيون) وكان أول تأسيسها في قشتالة واراغون من اسبانيا لمحاكمة المسلمين واليهود والمشكوك في ايمانهم من النصارى الذين يتساهلون بفرائض الدين الكاثوليكي وتوفي توركماده سنة ١٤٩٨ م أي عقب اخراج المسلمين من اسبانيا .

٧ - بورغراف

وهي من الروايات التمثيلية أيضاً . وهذا الاسم يطلق على ذوي الآراء السخيفة لاسيما في المسائل السياسية . والبورغراف هم امراء البلاد ومحافظوا القلاع كما كان الجزار في عكا وأبو نبوت في يافه ولم يزل له في يافه سبيل ينسب اليه . ويروى عن هؤلاء الولاة والأمراء الروايات الغربية والاقاصيص العجيبة . فصور فيكتور هوكو في رواية بورغراف أخلاق أمراء الالمان وغرائب احوالهم .

٨ - ماري تيد - وهي ملكة الانكليز (١٥١٦ - ١٥٥٣م) بنت هانري الثامن .

وكانت مخالفة للاصلاحات والنظامات الجديدة شأن المستبدين من الملوك . فألف الشاعر فيها هذه الرواية .

٩ ـ انجلو ـ اسم ملك ظالم من ملوك بادو في ايطاليا اتخذه الشاعر موضوعاً لروايته .

١٠ ـ ماريون دولورم ـ غانية من غواني باريس كانت على عهد لويس الثالث عشر والكردينال ريشيليو الوزير الشهير فصورها الشاعر في روايته .

١١ ـ اسمرالده ـ اسم نورية في باريس ولعلها من الأشخاص الموهومة واتخذها المؤلف عروساً لهذه الرواية التمثيلية ولقصة « نوتردام دوبارى » .

١٢ ـ امى روبسار .

فهذا ما ألفه فيكتور هوكو من الروايات التمثيلية وسماه درام . واكثر هذه الروايات منظوم ومنها ما هو نثر .

نثر فيكتور هوكو

المنثور من كلام فيكتور هوكو على فنون كثيرة منها فن القصص المعبر عنها بالرومان ومنها الأدب والفلسفة والانتقاد الأدبي والتاريخ والرحلة والمراسلات والأقوال والاعمال والمشهودات ونحو ذلك :

١ ـ فأشهر القصص التي ألفها هي قصة البؤساء وذكرنا فيما سبق ان العلامة الفاضل شمس الدين سامي بك الفراشري ـ وفراشر قرية في ولاية يانيه من بلاد الارناؤد ـ ترجم جزءاً كبيراً من هذه القصة للسان العثماني وسماه السفلاء ونشره بمطبعة مهران في الاستانة . ولسامي بك تآليف كبيرة مفيدة مثل قاموس الاعلام في ستة مجلدات ضخمة وقواميس صغيرة وكبيرة من التركية للفرنساوية ومن الفرنساوية للتركية وغير ذلك من المؤلفات النافعة العصرية .

أما الباعث على تأليف هذا الكتاب فهو ما ذكره المؤلف في مقدمته حيث قال :

طالما وجد عذاب اجتماعي بفعل القوانين والعادات ، طالما لم تحلّ الثلاث المسائل العصرية وهي الحط من كرامة الانسان بكثرة البؤساء وسقوط المرأة في العهر

بسبب الجـوع وفقـر دم الأولاد باشتـداد برد الليـل ، وطالما وجد في الناس جهالة وفقرٌ فالكتب التي هي من جنس هذا الكتاب لا تخلو من الفائدة . . . . :

ومـوضـوع الكتـاب ان رجـلاً فقيراً يدعى جان فلجان كسر قفل الخباز وسرق رغيفـاً ليطعمـه لاولاد اختـه الجيـاع فحكمت عليـه المحكمة وفقاً للقوانين بالاشغال الشاقة وألقى في الحبس الذي هو جهنم الهيئة الاجتماعية ولاقى من الآلام والمحن ما لاقاه على زعم النصارى المسيح بن مريم عليهما السلام تخليصاً للبشر من الخطايا . فكـان جان فلجـان فداء للأخـلاق الانسـانيـة . وبعد تحمله الآلام والمشاق الكثيرة صعـد إلى النـور . وكـان الاسقف ميريـل وهـو من أشخاص هذه القصة وعظ هذا الجاني بالصبر على المصيبة ووضع في نفسه المظلمة شعاعاً طفيفاً فاستنارت ثم توقدت وتـوهجت فصـور الشـاعر ما اختلج في صدر هذا المحكوم عليه من الهيجان وعبر عن ذلـك بحـدوث زوبعـة عاصفـة في قرعة الرأس . ومن اشخاص هذه القصة وأبطالها البنت فوزيت والبوليس جافر وبين حالة العملة والشغال الذين يلجئهم الفقر والجوع الى ارتكـاب القبـائـح والجـرائم وحالة البنات الشغالات اللواتي صيرتهن المتربة من العواهر الفاجرات وصور الفقر المدقع والجوع القتال احسن تصوير . وفي هذه القصة أيضـاً أخبـار كافـروش وهو من رعاع باريس وما جرى له مع البوليس جافر وقد اشتهر خبرهما حتى ضرب بهما المثل . ومما ذكره المؤلف بطريق العرض في هذه القصة محاربة واترلو التي غنمها نابوليون الأول ووصفها بكلام نثري اشبه بالشعر الحماسي .

وذكـر أيضـاً الفتنة التي حدثت في باريس سنة ١٨٣٢ أما البوليس جافر فجعله مثالاً للطاعة والقيام بأعباء الوظيفة ..

٢ ـ نوتـردام دوباري . وهي كنيسـة باريس الجـامعـة سمى بها قصتـه لجريان حوادثهـا في هذه الكنيسـة وفي اطـرافهـا . وهي بنيـان ضخم غليظ وفي وسط باريس بقـرب نظـارة الضبطيـة ونظـارة العـدليـة أو الحقانية . وموضوع القصة عشق ضابط فرنسـاوي يدعى فوبـوس لرقـاصة نورية تدعى اسميرالده ورقابة راهب الكنيسة لهما وخطف احد الاشقياء المدعو كازيمودو للبنت . فالموضوع بسيط عادي ومهارة المؤلف تظهر في تصوير الحالة التي كانت عليها باريس في القرون الوسطى ووصف ما فيها من الأزقـة الملمـة والطـرق غير المستقيمـة ووصف أهلها ما بين بائع وتاجر وصانع وتلميذ وجنـدي وشـريف ووضيع وهم يمرون أمام الكنيسة أفواجاً أفواجاً ويروحون ويغدون

في فنائها ويستظلون بظلها وصور جميع ذلك بصورة خيالية وهمية لطيفة تعجب القارئين وهي مؤلفة على اسلوب اللغة الرومانية .

٢ ـ هان الاسلاندي ، هي قصة مصورة للجمال الذي قد يكون في الشنيع كما صور محبة الوالدة لولدها وتهافتها على انقاذه من مخالب الموت في رواية لوكريس بورجيا رغماً عن قساوة أخلاقها وسوء افعالها . وكما صور هذا المؤلف ايضاً في رواية الملك يتسلى اشفاق الوالد على بنته وغيرته على ناموسها وسعيه في تخليصها من أيدي الملك مع ان هذا الوالد لا يغار على ناموس نفسه ولا على شرفها ولا يبالي في ارتكاب انواع الدناءة والمجون . ومن بديع الحكم التي في قصة هان الاسلاندي ما ذكره في مقدمتها عن (نضج القريحة) قال :

في كل مصنف فكري مثل الدرام والشعر والرومان ثلاثة أشياء : ما شعر به المؤلف ، وما نظر فيه المؤلف ، وما تنبأ به المؤلف ، فليكون الرومان (القصة) حسناً ينبغي ان يكون فيه كثيرٌ مما شعر به وكثيرٌ مما نظر فيه . وأما الشيء المتنبأ به فيلزم ان يظهر من تمام الشيء الذي شعر به والشيء الذي نظر فيه بغير احتياج للحل وانما بالطبع والبداهة .

فاذا انقضى الفصل الأول من العمر وانحنت الجبهة على الكتاب والكتابة وشعر المرء باحتياجه لعمل شيء آخر خلاف الحكايات الغريبة التي يخوف بها النساء العجائز والاولاد الصغار واحتك بالحياة احتكاكاً اخلق ديباج شبابه ، يعلم حينئذ ان كل ايجاد وكل اختلاق وكل تنبؤ في هذه الصناعة ينبغي ان يكون اساسه مبنياً على الدرس والنظر والتفكير والعلم والقياس والمقابلة والتعقل الصحيح وكمال الدقة في تصوير الاشياء بحسب الطبيعة ونقدها نقداً خالياً من الغرض والهوى . فالالهام الحاصل من مراعاة هذه الشروط الجديدة لا يضيع شيئاً من هذه الصناعة الأدبية وانما يكسب صاحبها نفساً عالياً وجناحاً قويًّا ويعرف الشاعر بالطريق التي يسلكها حينئذ . وجميع التخيلات الهوائية التي تخيلها في سني حياته الأولى تجمد على هيئة مخصوصة كما يجمد الجليد ويتشكل منها فكرة ورأي . فهذا الدور الثاني من حياة المصنف المتفنن هو الزمن الذي يؤلف فيه أحسن مصنفاته ويكون فيه شابًّا نضيج الرأي . فهذه هي الصحيفة الثمينة والنقطة العليا التي هي الأوج والساعة التي يشتد فيها الحر والضياء من وسط النهار واللحظة التي يقل فيها الظل إلى أقل ما يمكن ويكثر

فيها النور إلى أكثر ما يمكن . . . . أهـ .

٤ ـ بوغ جارغـال . حرر فيكتـور هوكـو هذه القصة وهو في السادسة عشرة من عمـره وطبعهـا ثم صححهـا واعاد طبعها . وموضوعها انه في سنة ١٧٩١ أي في اثناء الانقلاب الكبير الفرنساوي كان في جزيرة سن دومينيك من جزر الانتيل الاميركانية عبد اسود يسمى بييرو يخدم عند أوربي من اغنياء المستعمرين فاحب ابنته مارية حبًّا شديداً وكانت بديعة الحسن والجمال ولها خطيب فاخفى العبد حبها ولم يبح لها بشيء ولكنها كانت تلاحظ حنوه واشفاقه عليها وخطيبها كان يرى ذلك ويعجب من جرأته على محبـة خطيبتـه . ثم حصلت ثورة العبيـد السودان على المستعمرين من البيضان وفي اثناء معامع الثورة خطف احد السودانين مارية وذهب بها إلى مكان بعيد فخرج خطيبهـا يفتش عنهـا فقبض عليـه الثائرون وأرادواقتله وأحضروه بين يدي بييرو وكان انتخب بوغ جارغـال أي رئيسـاً للثائـرين فحـماه من شرهم وجمع بينه وبين خطيبته ماريـة . ثم أن بوغ جارغـال ضحى نفسـه لسـلامـة معشوقته وخطيبها وتخلصهما من أيدي العبيد الثائرين وسلم نفسه لاعدائه البيضان ليقتلوه وأداه حبه إلى فداء روحه في سبيل محبوبته . ومن هذه القصة يظهر اقتدار المؤلف في تصوير الوقائع مع حداثة سنة .

٥ ـ آخر ايام المحكوم عليه بالقتل . ألف فيكتور هوكو هذه القصة سنة ١٨٢٩ وحرر فيها المحكوم عليه بالاعدام وهو في سجنه ينتظر حلول الساعة التي ينقضي فيها اجله وتـزهق روحـه . وعبر باسلوب بديـع عن بكائه واضطرابه وانزعاجه وبين جميع ذلـك باسـاليب شعرية لا وصفية فقط . فكان المؤلف كانه يشاهد جميع حركات هذا المسكين وارتجافه واختلاج عضلاته اختلاجاً طبيعياً لكسر سلاسل الحديد التي برجليه والحبـل المـربـوط بيـديـه وكأنـه يفهم ما يقوم في ذهنه ويخطر في باله من الافكار المرعبة والتصورات الهائلة المدهشة فحرر جميع ذلك بكيفية مؤثرة محزنة يكاد القارىء يجن من تلاوتها . ففيكتور هوكو اجهد نفسه كثيراً في ابطال الجزاء بقتل النفس وسعى في الغاء هذا الجـزاء بقلمـه ولسـانـه وخطب في هذا الموضوع خطباً كثيرة في مجلس النواب وفي النوادي والمجتمعات ولكنه لم يوفق لرفع جزاء القتل من القانون الفرنساوي .

٦ ـ المشتغلون بالبحر . ومقدمتها تبحث عن ارخبيل بحر المانش الفاصل بين فرنسـا وانكلترا . فصـور المؤلف في هذه القصـة ما يكـابـده المـلاحـون والنـوتية من

العذاب الأليم وما يقاسونه من الأهوال والشدائد عند تخالف الهواء وحصول الانواء وتلاطم الامواج وانكسار السفن واشراف من فيها على الهلاك ووقوعهم فريسة لحيوانات البحر ومنها الحيتان الكبيرة ومنها ما يلتف على الانسان كما يلتف الحبل ويشد وثاقه شدًّا محكماً حتى لا يستطيع حراكاً ثم يعض بدنه كالعلقة ويمتص دمه ويسمى هذا الحيوان البحري (Pieuvre) هبراو (ربيله) ومن البلاء الذي يقع فيه الفلاحون وصيادو السمك أيضاً رمال المستنقعات التي على سواحل البحار يحسبها الواحد منهم أرضاً يابسة فاذا وطئها غاصت رجلاه في الرمال وكلما تحرك حركة للتخلص منها زاد غطساً فيها إلى رأسه ويستمر في هذا العذاب الاليم وهو يشاهد الموت بعينه ولا سبيل للنجاة حتى يغرق ويموت خنقاً . فوصف الشاعر مجاهدة المشتغلين بالبحر من أفراد الانسان والمعترك الذي يحصل بينهم وبين الطبيعة أتم وصف مما يذكرنا بقصة السندباد البحري وما لاقاه في أسفاره .

٧ ـ الانسان الضاحك . الف فيكتور هوكو هذه القصة سنة ١٨٦٩ وجعل حوادثها تجري في انكلترا على عهد ملكتها حنة (آن) المعاصرة للويس الرابع عشر في أوائل القرن الثامن عشر للميلاد . وموضوع القصة ان احد مرقصي الدبب كان يتجول في جنوب انكلترا ومعه دب سماه هومو ومركبة يسكن فيها ويجر اثقاله عليها كما يفعل مرقصو الدبب ليومنا هذا في أوربا ولم يزل منهم في جنوب فرانسا وأكثرهم عثمانيون من أهل البوسنه والهرسك يحملون الباسابورط ويحتمون بقناصل الدولة العلية . فكان هذا الرجل يرقص دبه أمام الجمهور ويضحكهم ويسليهم ويعتاش من احساناتهم وعطاياهم وكان صافي النية حسن الطوية مع كونه هزأة ومسخرة للناس . فالتقى ذات يوم بصبي مشوه الخلقة يحسبه الناظر اليه ضاحكاً على الدوام وكان هذا الصبي اختطفه سارقو الاولاد فشوهوا خلقته وتركوه وحده في البراري فالتقى ببنت حسنة الوجه ولكنها عمياء كانت خرجت مع امها فنزل الثلج عليهم وماتت أمها من شدة البرد فاصطحب الصبي بالبنت وأحبها . ثم ان ذاك الرجل التقى بهما وتبناهما وحملهما معه في مركبته وطاف بهما البلاد وهو يسترزق من حرفته ويطعمهما . ولم يزل على ذلك إلى أن كبرا وبلغا أشدهما . فذهب بهما الرجل يوماً إلى لوندرا فتعرف أناس إلى الشاب واخبروه بانه ابن البارون فلانشاري من أعيان انكلترا ولورداتها فاستلم هذا الانسان الضاحك ثروة ابيه وملكه وصار عضواً في مجلس اللوردات بعد

تلك السفالة التي قضاها في سني صبوته وصار لا يتكلم في المجلس الا بالمحاماة عن البؤساء والتقريع على الاعيان والكبراء الذين لا ينظرون إلى الضعفاء والمساكين وكان ذا لهجة شديدة ولكنها غير منتظمة فكان إذا أتم خطبته استولى الضحك على جميع الاعضاء ولم يقرروا اجراء شيء من طلباته .

واورد المصنف في هذه القصة كثيراً من الحكم والفلسفة . من ذلك ما قاله عن الطبيعة والحياة : . . . بعد كل شيء فالانسان لا يعيش كثيراً والحياة قصيرة تمضي بسرعة . كلّا ! بل هي طويلة !! لأن الطبيعة اظهرت - ولو بشيء قليل - عنايتها بالانسان لكيلا تفتر همتنا في غضون ذلك ولكي لا يكون على بصرنا غشاوة فنرضى بالبقاء ولا نغتنم الفرص المناسبة لشنق انفسنا بما أعدته لنا من الحبال والمسامير ولذا أنبتت لنا القمح وانضجت العنب وانطقت البلابل وهي مرائية بانشادها اغاني السرور واخفائها الكمد . وارتنا في بعض الاحيان شعاعاً من الفجر فهذا ما يسمونه بالسعادة . وما هي إلا طرف رقيق من الخير يحيط بكفن عريض من الشر . فهذا حظنا من الدنيا نسج الشيطان منه السداة واللحمة ولم يطرز الرحمن فيه الا اطرافه وحواشيه . أهـ .

قال المعري مخاطباً الدنيا :

يموج بحرك والاهواء غالبة	لراكبيه فهل للسفن ارساء
إذا تعطفتِ يوماً كنت قاسية	وان نظرت بعين فهي شوساء
★ ★ ★ ★ ★	★ ★ ★ ★ ★
فلا تغرنك شم من جبالهم	وعزة في زمان الملك تعساء
نالوا قليلاً من اللذات وارتحلوا	برغمهم فاذا النعماء بأساء

٨ - ثلاث وتسعون . سماه بذلك لانه بحث فيه عن وقائع سنة ١٨٩٣ وقصّ فيه قصصاً حكمية فلسفية موضحة لحقيقة الانقلاب الكبير الفرنساوي وللسبب الحامل لاصحابه على الثورة ومقاومة بعض الاهالي للثائرين لعدم فهمهم المراد من الانقلاب ومن الاصلاحات الجديدة ولاعتقادهم ان الملك قوة الهية مفوضة للملك يفعل بمقتضاها ما يشاء برعيته فهم عبيده يتصرف بهم تصرف المالك في ملكه فبين المؤلف ذلك باساليب بديعة يفهمها العوام والفلاحون وعرفهم بان القوة الحاكمة ينبغي ان تكون في الأمة وأن سيد القوم يجب ان يكون خادمهم .

وأما ما ألفه في التاريخ فهو :

١ ـ نابوليون الصغير : كتبه المصنف بعد لبس نابوليون الثالث تاج الامبراطورية وكان هو يستشيط من ذلك غضباً فتهور في الطعن فيه والحط عليه ولما طبع الكتاب جاء احد المتبصصين بنسخة منه للامبراطور وكان في قصر سن كلو وهو في ضواحي باريس على نهر السين فنظر فيه طويلاً ثم التفت لمن حوله من الوزراء وامراء العسكرية وقال لهم باستهزاء وسخرية انظروا يا سادة هذا نابوليون الصغير ألفه فيكتور هوكو الكبير . فلما بلغ الخبر مسامع فيكتور هوكو هجاه بقصيدة بليغة لم أرَ مثيلاً في شعر أهل العصر الا قصيدة كمال بك كبير الشعراء عند الاتراك .

٢ ـ تاريخ جرم : وهو تاريخ حادثة نابوليون الثالث سنة ١٨٥١ ألفه المصنف في خمسة أشهر ولم ينشر الا بعد ٢٥ سنة حينما سقط نابوليون الثالث ويقسم هذا التاريخ إلى أربعة ايام : يوم المكيدة والكمين . يوم الحرب والنزال . يوم الذبح وقتل الاطفال . يوم الفوز بالنصر . ثم اتبعه بفصل خامس عنوانه يوم السقوط . فاوضح المؤرخ في هذا التاريخ صورة الجرم ثم بين القصاص واستنتج من ذلك وظيفة الفرنساويين وهي العدل والحق .

« الرين » وهو عنوان كتاب صنفه فيكتور هوكو في الرحلة والسياحة وحرر فيه ما وجده في نفسه من التأثر والاحساس الباطني والانفعال بمشاهدة ضفاف الرين وهو نهر في اوربا ينبع من جبال الالب ويمر من بحيرة قونستانس وبمدينة بال ومايانس وقوبلينتس وقولونيا واوترخت وليدن ويصب في بحر الشمال ومما قاله في هذا التأليف عن الضمير والكائنات :

. . . لا شيء فيَّ يعارض كون الشجرة عالمة بثمرتها . ولكن من المحقق ان الانسان لا علم له بالمقدرة عليه . حياة الانسان وعقله هما على خاطر وهوى لا أدري أي ماكنة مظلمة يسميها البعض عناية الهية والبعض الآخر يسميها صدفه . فهذه الماكنة أو الآلة تخلط وتمزج وتحلل كل شيء في الوجود . وهي تخفي دواليبها في الظلمات وتعرض نتائج محصولاتها في رابعة النهار . يحسب المرء نفسه يفعل شيئاً آخر . فالتاريخ مملوء بذلك . . .

ولكن بين هذا الاختباط يوجد قوانين . فالاختباط ما هو الا في الظاهر والانتظام في الباطن . فبعد انقضاء مدة طويلة ترجع الحوادث المدهشة التي فتحت

عيون اجدادنا كما ترجع النجوم ذوات الاذناب من اعماق التاريخ المظلمة . فالفخاخ هي دائماً تلك الفخاخ بعينها والسقوط دائماً عين ذاك السقوط . والغدر دائماً عين ذاك الغدر . والمهالك هي دائماً تلك المهالك بعينها . فالاسماء تتغير والاشياء ثابتة .

أما ما حرره فيكتور هوكو في الفلسفة فهو :

١ ـ أدب وفلسفة ممزوج بعضها ببعض : وقد ذكرنا فيما سبق من هذا الكتاب تعريف الشعر وبأنه لا يكفي وجود الاسلوب الحسن والشكل الظريف في البيت بل ينبغي أن يحتوي على فكر أو صورة أو احساس وشبه بيت الشعر ببيت النحل الذي يتخذه من الشمع والشعر فيه كالعسل .

وقال أيضاً في تعريف الانشاء :

الانشاء هو الذي يخلد ذكر الشاعر ويبقى تأليفه . لان حلاوة التعبير تزين الفكر كالميناء على السن .

وقال في تعريف الواجب :

مادام الممكن لم يفعل فالواجب لم يؤدّ . فهذا فكر من افكاره

ومنها أيضاً في الزواج :

الزواج هو تطعيم فيه امساك جيد أو رديء .

وقال في التغير والتقلب :

إذا قلنا عن رجل « رأيه السياسي لم يتغير منذ أربعين سنة » نكون مدحناه مدحاً مذموماً . لان قولنا هذا يؤدي إلى انه لم يحصل له تجربة في المسائل اليومية ولا حصل لفكره انعكاس ولا اشعاع على الحوادث . فهذا من قبيل مدحنا الماء بكونه راكداً والشجرة بكونها ميتة . وتفضيلنا ما في الصدف من سمك البحر على النسر الطائر . فبالعكس كل شيء متغير في الرأي . وفي الاشياء السياسية لا شيء مطلق على اطلاقه الا الاخلاق الباطنية لتلك الاشياء . فهذه الاخلاق هي من خصائص الوجدان وليست من خصائص الرأي ومتعلقاته . فرأي الرجل يمكن حينئذ ان يتغير تغيراً لا يمس بشرفه بشرط ان لا يتغير وجدانه . فالحركة سواءُ كانت تقدّمية أو تأخرية هي في حد ذاتها حيوية ، انسانية ، اجتماعية . » أهـ .

وهكذا يقال في صاحب الجريدة كما يقال في رجل السياسة . وقد رأينا في ما تقدم ان رقباء فيكتور هوكو عابوا عليه تقلبه في احزاب السياسة وتغير رأيه من الملكية

إلى الامبراطورية إلى الجمهورية .

٢ ـ وليم شكسبير : ومما ورد في هذا التأليف من الحكم ما ذكره عن التقدم والترقي قال :

فظاظة التقدم تدعى انقلابات . فاذا تمت الانقلابات اعترف الانسان بما يأتي وهو : ان النوع الانساني تألم وترضرض ولكنه مشى . .

فالتخريب هو الشغل والتعمير هو العمل (أي البناء كما في بناء الدار فان فيها تعميراً مثل رفع الجدران الجديدة وتخريب مثل هدم الجدران القديمة وحفر الأسس) فالتقدم يهدم باليد اليسرى . أما باليد اليمنى فهو يعمر . فاليد اليسرى تسمى القوة واليد اليمنى تسمى العقل . أهـ .

ففيما ذكر من مؤلفات فيكتور هوكو كفاية لمعرفة ماهيتها ولا حاجة لذكر بقيتها .

الخاتمة

لا ريب في ان فيكتـور هوكـو من أكـابـر الشعـراء الذين نبغوا في العالم الانساني كله في قديم الـزمـان وحديثه . وهو عند الفرنساويين شيخ الطريقة الرومانية والشعر الغرامي المعروف باسم « ليريك » . كما انه من فحول القصاصين ومؤلفي الروايات التمثيلية المشهـورة باسم « درام » . غير ان الطـريقـة الـرومـانيـة التي كان لها المقـام الأول في صنـاعـة الأدب سقطت بظهـور الطـريقـة الحقيقية التي أمامها اميل زولا . وروايات فيكتور هوكو التمثيلية لم تبلغ درجة الاعجاز لا بالنظر إلى المؤلفات السابقة عليها ولا إلى المؤلفـات الـلاحقـة لها من هذا النـوع . لعدم كشف فيكتور هوكو اسرار القلب الانسـاني واظهـار ما فيـه من الاحسـاس الحقيقي . ومـع ذلك فهو لم يزل إمام الشعر الغـرامي ومجـدد اسـاليب النظم والنثر ولذا لقبوه بابي الشعر العصري واقتفى الشعراء أثـره وسلكـوا مسلكـه . وكان الباعث على شهـرتـه في العـالم المتمدن كله من اوربي واميركي وما يلحق بهما ثلاثة امور : احدها سياسي وثانيها ديني وثالثها علمي .

نبـغ فيكتـور هوكـو في عصـر الانقلاب والتجدد وطال عمره وكثر عمله . وكان لقـومـه الحـظ الأوفـر من التقلبـات السياسية والتبدلات الاجتماعية واستوقفوا نحوهم انظـار العـالم المتمـدن باسـره . فكـان هذا الشـاعـر لسان حال الامة وترجمانها في كل انقـلاب حدث فيهـا وتبـدل طرأ عليهـا وغير حكومتها من ملكية مطلقة إلى جمهورية مفرطة ، الى امبراطورية ديمقراطية ، إلى ملكية مقيدة بقليل أو بكثير من القيود ، الى جمهـوريـة ثانية ، إلى امبراطورية ثانية ، ثم الى جمهورية ثالثة . فهذه التقلبات هيجت الافكـار العمـومية وكثرت الاحزاب السياسية ودعت إلى استماع قول الشاعر الحكيم والتمثل باشعاره في نوادي السمر الأدبية والسياسية على اختلاف الآراء وتبدل المشـارب . ومتى تحدث أهـل العـاصمـة بامر سارت الركبان بحديثهم الى الولايات واطراف المملكة ثم فشى في الممالك المجاورة وجسمه البعد في المخيلات فاصبح صداه في الخـارج اشـد من صوتـه في الداخل . وبعد ان استبد نابوليون الثالث بالحكم مال لابهـة الملك وعظمة السلطنة وتفاخر بالصيت والشهرة واشتد حرصه على السمعة في البـلاد الاجنبيـة . وانتشـرت اللغـة الفـرنسـاويـة على عهده في اكثر الممالك المتمدنة

وصـــارت اللســـان الـرسمي المتـداول بين الـدول في المناسبـات الـديبلومـاتيـة وفي الاجتـاعـات السيـاسيـة والأدبيـة وفي قصـور الملوك والامراء وفي حفلاتهم وسهراتهم ومـراقصهم وعلى موائـد ضيـافـاتهم وفي تحريـر المراسلات والمعاهدات كما اصبحت اللسان الرسمي في نظارة الخارجية العثمانية وفي كثير من دوائر الدولة العلية ومعاملاتها ولم تزل إلى يومنا هذا .

فلما اقـتر ن اسم فيكتـور هوكـو باسم نابـوليـون بسبب مدحـه نابـوليون الأول وهجـوه نابـوليـون الثـالث زاد شوق النـاس للاطـلاع على اشعاره وقصصه في داخل فرنسا وخارجها وراجت بضاعته في الأدب فلم يدع باباً من أبواب الشعر الا طرقه ولا مسألـه الا بحث فيهـا . ثم ساعـدتـه الظـروف بالانتصـار على نابوليون الثالث بعد حرب السبعين الالمانية وتشكل الجمهورية الثالثة فزاد ذلك في اهمية الشاعر وفي انتشار شعـره وبـالـغ رجـال الجمهـورية في الاحتفاء به والاحتفال له كاحتفال الامبراطورية بشخص الامبراطور .

أمـا السبب الثـاني لشهـرتـه فهـو سهـولة اشعاره ووضوحها وتصويرها المسائل العظيمـة والافكـار الـدقيقـة . فاظهـر بشعـره فرحـه وسـروره بنعمة الحياة وابتهاجه بالمخلوقـات . ورأى في امنـا الـدنيـا بقرة حلوباً تدرُّ على ابنائها بلبن سائغ للشاربين وتكلم على افراح العائلة وزينة البيوت بالاولاد ولذة اجتماع الأهل على المائدة ومحبة الـوالـدين وحنـوهما . وحضَّ على الاحسـان للفقراء والمساكين والشفقة عليهم وبين اعتقـاده بالله الغفـور الـرحيم ورجاءه بتقدم نوع الانسان في الحضارة وبتحسن الحياة البشـريـة والمعيشـة الانسانية بسبب انتشار الافكار الجديدة وتغلب الحق رويداً رويداً على القـوة والنـور على الظلمة حتى تتساوى الناس في الحقوق ويرتفع عنهم الضغط والاستبداد ويزول من بينهم الظلم والاستعباد وينشر العدل ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً . . . . . فجميع ذلك مما يرغب الجمهور في تلاوة اشعاره وتعليمها للأولاد ونشـرهـا في البيـوت بين النساء والبنات . بخلاف اشعار المعري التي لا يذكر فيها إلا بخل أم دفر على بنيها بالحقوق ومبادرتهم لها بالعقوق .

ولا يرى بقرة فيكتور هوكو تجود الا بسم قطيب أي ممزوج بحلاوة . ومع غنى المعـري وثـروتـه لم يلتـذ بالمـال والبنـين ولا بشيء من زينـة الحياة الدنيا وزهد في اكل اللحـوم وشـرب المكيفات وعمي بصره عن مشاهدة المناظر الطبيعية والرياض النضرة

وحيث كان لفيكتور هوكو اعتقاد ثابت في الله ورجاء كبير في حسن المستقبل وارتقاء الانسان إلى دار السعادة عرف وظيفة الشاعر وبين ما يترتب عليه وعلى كل عاقل مفكر في الأمر من نشر الحقائق بين قومه وابناء لسانه وزعم ان الشاعر ينبغي ان يكون رسولاً للأمة ونوراً يسعى بين يديها ليهديها الصراط المستقيم فكاني بالمعري يقول له :

واخوان الفطانه في اختيال كأنهم لقوم انبياء

ولم يكن فيكتور هوكو يهودياً ولا نصرانياً وتبرأ من أصحاب هذين الدينين وقال بأنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وأوصى بعدم دفنه على سنن واحد منها وبعدم حضور احد من رهبان النصارى ولا من احبار اليهود في جنازاته . كما انه لم يكن يعرف حقيقة الدين الاسلامي ولا امعن نظره في آيات القرآن لما قدمنا ذكره من الاسباب وهو عدم توسع دائرة المعارف الاسلامية في عصره . والذي ذكره في شعره من القرآن هو امثال قليلة نقلها عن غيره بدون ان يبحث فيها بفكره ومع ذلك ففيكتور هوكو موحد اعترف في كثير من أشعاره باعتقاده بالله وحسن رجائه باليوم الآخر واهتدى للتوحيد بنظره في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار كما اهتدى ابراهيم جد الانبياء عليه وعليهم السلام : « وإذا قال ابراهيم لابيه آزَرَ أتتخذ أصناماً آلهة إني أرَاكَ وَقَوْمكَ في ضلَالٍ مبين . وكذلك نري ابراهيم ملكوتَ السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفلَ قالَ لا أحبُّ الآفلين . فلما رأى القمرَ بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لاكوننّ من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربي ، هذا اكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بريءٌ مما تشركون . إني وجهت وجهيَ للذي فطر السموات والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين » .

وهكذا قال فيكتور هوكو لقومه اني بريء مما تعبدون . فلم يكن مشركاً بالله ولا كان منكراً جاحداً انكار الشاعر فولتير وجحوده بل ربما كان حنيفاً . والحنيف هو الذي يؤمن بالله ولا يتخذ شكلاً مخصوصاً للعبادة وكان منهم اناس في جزيرة العرب قبل الاسلام مثل ورقة بن نوفل وغيره . فاذا أمعنا النظر في كلام فيكتور هوكو نراه من الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض . ونراه أيضاً كثير البغض في الجبابرة المستبدين ويدعو الناس إلى عدم اتخاذ أرباب من دون الله وقد ورد في القرآن الكريم في سورة آل عمران وهي السورة الثالثة والآية ٦٠ .

« قل يا أهـل الكتـاب تعـالوْا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبدَ الا الله ولا نشـرك به شيئـاً ولا يتخـذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوْا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم ؟ وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعـده أفـلا تعقلون . ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ والله يعلم وانتم لا تعلمون . ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبيُّ والـذين آمنـوا والله وليُّ المؤمنين » . انظر إلى بلاغة هذا الكلام وتأمل قوله ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله تجد جميع الادباء من قديم وحديث ومن عربي أو اعجمي عالـة عليه في هذه البلاغة التي وصلت أعلى الدرجات وهي المعبر عنها في صنـاعـة الأدب بالاعجـاز . ولقـد ورد لفيكتـور هوكـو كلام متشابه يدل على حيرته والحيرة مقام من مقـامـات العلم بالله ولكنـه لم يفـتر عن القـول بأنـه موجود موجود موجود . ولما ماتت بنته وأشتد حزنه سب الله عدواً بغير علم ثم رجع وأستغفر لذنبه وشبـه نفسـه بالصبي الـذي غضب ورمى البحـر بحصاة . فهولم يضر البحر في شيء ولكن فعله دليل على سفاهته وحمقه . فمثل الله كمثل البحر ولله المثل الأعلى : قال الحكيم الفيلسـوف ارنيست رينـان عن فيكتـور هوكو وعن فولتر بأنهما سارا من قطبين متخالفين ولم يتلاقيا إلا على محبة العدل والانسانية .

والبـاعـث الثـالث على شهـرة فيكتور هوكو هو كثرة عمله وغزارة معارفه . عدا معـرفتـه بدقـائق اللغـة الفرنساوية وبعلم القوافي والعروض والموسيقى وما يلزم للشعر وكان حكيماً فيلسوفاً يضع كل شيء في موضعه وكل معنى في قالبه ولم يغب عن علمه شيءٌ من التـاريـخ والجغـرافيا واسماء البلدان وله اطلاع على العلوم الرياضية وجميع المسـائـل الاجتـماعيـة وكليـات القـوانـين البشـرية والسياسية . وله اقتدار عجيب في التخيـلات والتصـورات والاختـلاقـات . وإذا نظـر في شيء تمكن من رؤيته بعين لم يتيسر لغيره من الشعراء الرؤية بها . فوقف على كنه الاشياء وحقيقتها وعلى جميع ما يعـرض لها من الصـور والاشكال والألوان وبقية الخواص الظاهرة والباطنة . وإذا ذكر اسبانيا مثلاً لم يترك فيها مدينة إلا وصفها بالوصف اللائق بها سواء كان وصفاً جغرافيّاً أو طبيعياً أو تاريخياً بالنظر لمن اشتهر فيها أو لما ينبت في أرضها أو لمرآها الطبيعي ومنظرها الخارجي وذكر كذلك كثيراً من مدن فرنسا وإيطاليا وقال في جبل نارها فيزوف .

نابولي مرساها معطر بالازهار يقف فيه فصل الربيع ولا يمرّ
وجبل فيزوف المتلهب بالنار يغطيه بتاج متوقد
كأنه فارس من فرسان الحرب كثير الغيرة والحسد شهد عرساً
فحسد اهله على أفراحهم ورمى بقلنسوته الحمراء وسط ازهارهم .

ولا يخفى ان ضباط العساكر الفرنساوية يزينون قلنسواتهم بالريش الحمراء وهي على هيئة جبل النار في حالة اشتعاله وتصاعد الدخان واللهيب من جوفه . ومن عادة الاسبانيين إذا طربوا برؤية وجه حسن اوسماع نغم أوحضور مناطحة الثيران والبقر رموا بقبعاتهم إلى الأرض ونخروا نخرة أوتأوهوا . وقد شاهدت هذه العادة في شباب بعض المدن الشرقية والسورية ولعلهم اخذوها عن الاسبانيين بواسطة اليهود الذين لم يزالوا في بلاد الشرق يتكلمون اللغة الاسبانية رغماً من كل ما اجراه الاسبانيون فيهم من النفي والاجلاء والتعذيب في محاكم الانكيزيسيون . فهذه الابيات على حد قول الشاعر العربي في حمص الاندلس وهي اشبيلية :

غدا النهر عقدك والطود تا جك والشمس اعلاه ياقوته

وتقدم ذكر الابيات فيما سبق .

فهذا مثال لاساليب فيكتور هوكو وتشبيهاته وكان له ولع بالأمور العظيمة والمقامات العالية والمناظر الواسعة والمعاني الدقيقة فعرف لج البحر الذي لا يرى ساحله وبعد الفضاء الذي لا تدرك نهايته وقلد أصوات الاشياء ووصف الجمادات وصفاً يخال منه للقارىء انها حية تنطق . ولذا قالوا بأن فيكتور هوكو انطق الجماد ونفخ فيه بأساليبه الشعرية روح الحياة . وله ابتكارات بديعة وتشابيه ظريفة وتعبيرات لطيفة . ونجد لما ورد في كلامه من التشبيه والتخيل والبديع امثالاً كثيرة في الشعر العربي والاندلسي تكلم عليها الباقلاني في اعجاز القرآن والجرجاني في اسرار البلاغة المطبوع في جريدة المنار ومن سلك مسلكهما من علماء اللغة والبلاغة . ولكن فيكتور هوكو يفوق بسعة الاطلاع والاحاطة بالمسائل . واكثر شعراء العرب انحصرت اقوالهم في الدائرة الذين هم فيها فلم يخرجوا منها ولا تعدوا الاساليب التي وضعها شعراء الجاهلية . والذين خرجوا عن تلك الاساليب واتسعت مداركهم قليلون مثل المتنبي والمعري الذي تكلم على كثير من المسائل الاجتماعية والسياسية ونادى بالحرية والمساواة بين افراد البشر وبين ماهية الحق والعدل وشرح كثيراً من المسائل الفلسفية

واظهر شعوره واحساسه بالوسط الذي القينا فيه فكان سجناً لنا لا خلاص منه إلا بالموت . فهو متحير في هذه العقدة التي أضلت الادباء في حلها .

ثم ان اهل النقد الادبي من بلغاء الافرنج يقولون نعم ان فيكتور هوكو انطق الجماد وتوصل باساليبه الشعرية إلى وصف المناظر الطبيعية وتصوير العصور الخالية والهيئة الاجتماعية باحسن تصوير وأبدع وصف . فهذا لا ينكر ولكنهُ لم يتوصل إلى معرفة باطن القلب الانساني ولا لايجاد أوصاف تامة ولا حياة طبيعية للأشخاص الذين اختلقهم على مرسح التمثيل . ولذا لم يكن أوحد الادباء في تأليف روايات الدرام . فهو وان انطق الجماد لكنه اخرس البليغ ، مثال ذلك ان ابدع ما في رواية ايرناني التمثيلية هو الفصل المنظوم على لسان الدون قارلو الذي انتخب امبراطوراً لالمانيا وتلقب بشارلكين . فهذا الفصل هو بيت القصيد من هذه الرواية كما ان فصل القبلة أو النافذة هو بيت القصيد من رواية (سيرانو دو برجيراق) التي اشتهر بتأليفها شاعر العصر ادمون روستان وقد انتخب بالأمس عضواً في الاكاديمية الفرنساوية . وموضوع هذا الفصل ان المعشوقة وقفت في النافذة (البالكون) وعاشقها واقف تحت النافذة يغازلها ويطلب منها قبلة وهو يتلعثم في كلامه ولم يدر كيف يكلمها بلسان الادب . فالشاعر سيرانو دو برجيراق خاطبها عنه وافصح في تعبيره عن حقيقة اللثم والتقبيل حتى لانت بكلامه وانجذبت اليه . وهناك تظهر قوة البيان وان من البيان لسحرا . فكلام شارلكين في رواية ايرناني هو من كلام الملوك فينبغي ان يكون من ملوك الكلام . فلما حان زمن انتخاب الامبراطور وترشح الدون قارلو لهذا المسند العظيم وحصلت المؤامرة على قتله بدسائس فرانسوا الأول ملك فرانسا المتطلب أيضاً لهذا المسند واتفق المؤتمرون على الاجتماع في الغار الذي فيه قبر شارلمان بمدينة اكس لا شابل من المانيا . اكتشف الدون قارلو أي شارلكين على مؤامرتهم وسبقهم إلى ذلك الغار وكان الهيام بمحبوبته قد اخذ كل مأخذ واستولى على جميع حواسه فكان يتلهب شوقاً وغراماً إليها وقد قربت ساعة الوصال . ومعشوقة الملوك كما لا يخفى هي المملكة ولا يحبون أحداً سواها ويضحون كل عزيز عليهم في سبيلها اذ لا أعز منها عليهم لا دين ولا ولد ولا زوجة ولا أب . فكم قتل الوالد ابنه والأبن اباه للتوصل للملك كما ان معشوقة الراهب العابد هي الكنسية وزوج الراهبة العابدة وحبيب قلبها هو السيد المسيح عليه السلام . وكذا مقال في الهائمين بحب الله والمفتونين بجمال نبيه

المصطفى عليه السلام . ونظموا في ذلك القصائد والدواوين البديعة . ففيكتور هوكو شخص في رواية ايرناني جميع ذلك وعندما يرتفع الستار عن هذا الفصل من الرواية يرى الحاضرون الغار الذي فيه قبر شارلمان وينزل اليه تحت الأرض بدرج متصل إلى بهو كبير عليه قبة وفيه مخدع جعل فيه قبر شارلمان ويظهر على المرسح شارلكين بلباسه الملوكي متمنطقا بسيفه تلوح على وجهه علائم الاهتمام فيزور القبر ويتكلم وحده بما يدور في خلده ويخطر في باله وينظر إلى التاريخ نظرة عامة وإلى الذي ناله شارلمان بلبسه تاج قياصرة الرومان فتتوق نفسه وترتفع حواسه ويرغى ويزبد كالبحر العجاج المتلاطم بالامواج . فالحاضرون تشخيص الرواية لا يرون فيها عيباً ولا نقصاناً وأما أهل النقد الأدبي وهم أرباب الذوق في الكلام الذين اعتادوا التفريق فيه بين الغث والسمين ـ كما اعتاد ارباب الذوق في الخمور التفريق بين خمر وأخرى لكثرة ذوقهم وطوافهم على معاصر الخمر وعلى الاقبية المخزون فيها أيضاً بوظيفتهم وصنعتهم التجارية ـ يقولون نعم أن شارلكين في هذه الرواية هو بيت القصيد وهو من ملوك الكلام ولا ننكر فصاحته وبلاغته وانما عيبه عندنا هو عدم وجود الروح فيه . فهذه النفس الناطقة التي أرانا اياها الشاعر على مرسح اللعب والتشخيص هي نفس المؤلف أي نفس فيكتور هوكو وليست نفس المشبه به وهو شارلكين فالحماسة التي أظهرها المؤلف في شعره ليست بطبيعية ولا هي حقيقية بل هي عندية أي من عند الشاعر ولم تبنَ على الحجج والبراهين الادبية التي اشترطها اصحاب الطريقة الحقيقية وسنها إميل زولا (دوكيمان) . فاصحاب هذه الطريقة الجديدة يلومون فيكتور هوكو على تعظيمه الأمور ويشبهون قريحته بمرآة مكبرة تكبر الشيء المعكوس فيها وتجسمه تجسيماً خارجاً عن الحقيقة وعن العرف والعادة . ومن عادة فيكتور هوكو ارخاؤه العنان للقوة الواهمة والخيالية ولذا نجد في مؤلفاته مثل كازيمودو ومثل الرجل الضاحك من الاشخاص الموهومة التي لا توجد الا في كتاب ألف ليلة وليلة وما كان على نسقه .

ومما انتقد فيه على فيكتور هوكو من جهة الاخلاق تبدل رأيه السياسي وتقلبه فيه ذات اليمين إلى ذات الشمال ومن حزب الملكية إلى حزب الجمهورية . ورأينا فيما نقدم جوابه على هذا الاعتراض بقوله ان مدحنا الرجل بالثبات على رأي واحد في السياسة مدة طويلة ليس بمدح مستحسن وانما هو كمدحنا الماء الراكد وتفضيلنا اياه

على المـاء الجـاري . والجـواب الصحيـح على هذا الاعـتراض أن فيكتور هوكو مع ظهـور معجـزاتـه في المعاني ما هو الا بشر غير معصوم تميل نفسه إلى شهواتها التي منها التقـرب من الملوك وأولي الأمـر ـ ولكننـا نجده محافظاً على الاعتدال في امر الشهوات النفسية صبوراً متجلداً عند الحاجة وبينما نرى امثاله واقرانه من أدباء باريس لا يقنع أحـدهم بعشـر نسـوة نجده اقتصر هو على اثنتين أم اولاده والممثلة البارعة جوليت . ومن غريب أمـر هذا الشـاعـر انـه خالف القاعدة المطردة في عظماء الرجال . فكان في شبـابـه من حزب الملكيـين المحافظين على بقاء الحال على ما كانت عليه فانقلب من ذلـك رويـداً رويـداً حتى صار في شيخوخته من حزب المفرطين في محبة الحرية المائلين للانقـلاب والارتقـاء شديـد العداوة للاستبداد وللمستبدين . وهذا خلاف المطرد في اخلاق، الرجال فانهم كلما تقدموا في السن عدلوا عن حب التجدد والانقلاب والحرية ومالوا للبقاء على حالتهم الراهنة . ومن الاخلاق التي نهى عنها في شعره واتى بمثلها في عمله تربية الاطفال فانه حرر كتباً ونظم اشعاراً كثيرة في حقهم ولكنه لم يحسن ذلك بعمله وفعله . ومع علمه بان عصا التأديب من الجنة لم يستعملها في تربية اولاده ولا احفـاده واطلق العنـان لشهـواتهم فاحـدى بنتيـه عرّضت نفسهـا للخطـر فماتت هي وزوجهـا غرقـاً . والثـانيـة تزوجت على غير رضـاه وسـافرت للهند فنكبت واصيبت بعقلهـا . وحفيـدتـه لم تطق معـاشـرة زوجها ولا قدرت ان تصبر على حكمه ففارقته وحكم بينهما بالطلاق . وابنه افرط في اللذات فمات فجأة عند صاحبة له في بوردو ولم يزل النـاس يشيـرون بالبنان إلى البيت الذي مات فيه . ومما يشابه ذلك ما انتقد فيه على امام الادب عند العثمانيين وهو نامق كمال بك وكان كثيراً ما يلهج بالاصلاحات والحـريـة فلما عين متصـرفـاً لجزيـرة رودس انتقـد عليـه رقبـاؤ ه بأنـه لم يجر فيهـا من الاصـلاحـات سوى رفـع الكلاب من ازقتها وشوارعها . ومثل ذلك ما ينقل من ضيا باشـا وهـو من مشـاهـير الادباء العثمانيين وكان رئيس الكتاب في المابين الهمايوني على عهـد ساكن الجنـان السلطـان عبـد العـزيـز ثم نال رتبـة الـوزارة وعـين والياً لاحدى الولايات وله نظم كثير ودواوين شعر من ذلك نظمه قصة المولد الشريف و(ترجيع بند) في التصـوف ومحـاسن الاخـلاق وكـان لاشعـاره رواج في الزوايا والتكايا وفي المدارس والجوامع . واتفق ان احد طلبة العلم الصلحاء في مدينة بروسة كان كثير الانشاد لها والترنم بها فعاهد نفسه إذا ذهب إلى الاستانة ليزورن هذا الشاعر الفاضل لا لطلب

مأمورية أو احسان منه وانما لمجرد التبرك بلثم يده والاسترشاد بنصائحه والاقتباس من فضائله . فلما جاء الاستانة زار الشاعر الوزير في بيته حتى إذا قارب غروب الشمس ودخل وقت الكراهة فرأى ما لا يحب رؤيته العلماء المتعففون عن لذات الدنيا ونعيمها فندم على سعيه وخرج وهو يقول : الشعراء يقولون ما لا يفعلون .

أما الثروة التي تركها فيكتور هوكو فقدرت باكثر من ثلاثة ملايين فرنك ورث بعضها ولدا ابنه وهما حنه وجورج . والبعض الآخر ورثته بنته اديل (عادله) التي تزوجت على غير رضاه وأصيبت بخلل في عقلها . وفوض أمر تنفيذ وصيته إلى اوغوست فاكيري الشاعر وهو أخ لزوج ابنته الثانية التي غرقت مع زوجها وإلى الأديب بول موريس واوصاهما بنشر ما لم يطبع في حياته من مؤلفاته .

« انتهى الكتاب »

حررت هذا الكتاب في بوردو سنة ١٩٠٢ م وقدمته لأمي أيضاً ببعض ما لها عليَّ من الحقوق ورجائي بأن لا تحسب اغترابي عنها من العقوق .

فهرست

ترجمة حياة فيكتور هوكو في أدوارها الثلاثة
صفحة ٩

فيكتور هوكو وعلم الأدب

نظرة عامة في الأدب ـ تبعية اللفظ للمعنى . النظر في أدب الأمم المتمدنة . عدم اختصاص الشعر بلسان العرب .
صحفة ٣١

أدب العرب ـ لغة حمير ومضر واللغة السامية والمحذور في تدوينها ـ طبقة الجاهليين من ادباء العرب ـ افصح الكلام وابلغه الكلام المرسل لأن اللفظ يتبع فيه المعنى .
صفحة ٣٨

ظهور الاسلام بالقرآن العظيم ـ بلاغة القرآن ووقوع اللفظ فيه تابعاً للمعنى لم يغادر القرآن الكريم صغيرة ولا كبيرة الا احصاها . الباقلاني وفن الانتقاد الأدبي .
صفحة ٤٩

أهل الطبقة الاسلامية ويجمع كلامهم كتاب الاغاني . وكلامهم اعلى طبقة من كلام الجاهلية .
صفحة ٥٣

ترجمة كتب العلم عن خمس لغات . كتاب كليلة ودمنة . أشعر أهل الطبقة الاسلامية البحتري . الكتب المعول عليها في تاريخ الأدب : تأليف ابن قتيبة والمبرد . كتاب الباهر لابن المنجم . يتيمة الدهر للثعالبي . دمية القصر للباخرزي . وشاح الدمية للبيهقي . خريدة القصر لابن العماد . زينة الدهر للوراق . الخ
صفحة ٥٤

طبقة المتنبي والمعري وهي طبقة فلاسفة الشعراء . تعريف الشعر والأسلوب . استبداد الرؤساء ووضعهم السيف في موضوع القلم . تعريفهم الأدب بالسكوت والهمس .

صفحة ٦١

اتساع دائرة الأدب في الاندلس واستحداث الفنون والاعاريض الجديدة فيه بيان الهدف الذي يرمي نحوه أدباء العرب . انتقاد الافرنج عليهم . تأثير لغات الاعاجم على لسان العرب . تأثير ادب العرب على ادب الافرنج .

صفحة ٦٧

منشأ أدب الافرنج : تأسيس الدولة الافرنجية الاولى وهي دولة آل مير وفه (مير وفينجيان) . ظهور لغة رومان . انقسام لغة رومان إلى لسان أوق ولسان أويل .

صفحة ٧٥

دخول العرب بلاد الافرنج : فتح اسبانيا والبرتغال . ارجاع موسى بن نصير عن عزمه ونكبته . نار غريجوار ورفع الحصار عن القسطنطينية . جبال البيرينة وفتح بربون قرقسون ، نيم . ولاية عبد الرحمن وفتح افينيون . مرور عبد الرحمن من روتسفو وفتح بايون ، نوردو ، بواتيه ، نور ، منتهى حدود الفتح الاسلامي في فرنسا .

صفحة ٧٩

شارل مارتيل والمعركة بقرب بواتيه ورجوع العرب إلى نربون . اخذ المسلمين بثار عبد الرحمن واسترداد ايالات فرنسا الجنوبية وضبطهم ايالة بروفانس . اتفاق شارل مارتيل مع ملك لومبارديه وارجاعها المسلمين إلى سفح جبال البيرينه .

صفحة ٩٤

ظهور الدولة الافرنجية الثانية وهي دولة آل قارلو أي آل شارلمان وتسمى قارلو فينجيان . أخذ بيبن القيصر مدينة بربون من المسلمين . عبد الرحمن الداخل والدولة الاموية في الاندلس . شارلمان وحربه مع الامويين واتفاقه مع العباسيين . فتح المسلمين جزر البحر الشامي ومستعمرتهم فراقسينه بين نيس وطولون وغزوهم بلاد السويس .

صفحة ٩٥

الحروب الصليبية الثمانية

صفحة ١٠٠

اختلاط العرب بالافرنجية وتبادل الافكار . البابا سيلفستر الثاني . انشاد فقراء الافرنج النشائد والمدائح العربية . أخذ التروبادور علم القوافي عن العرب . انتقال هذا العلم إلى شعراء الشمال وهم التروفير .

صفحة ١٠٢

تأسيس الدولة الافرنجية الثالثة وهي دولة آل قابت (قابتيان) وظهور المملكة الفرنساوية واللغة الفرنساوية سنة ٩٧٧ معاهدة فيردن سنة ٨٤٣ ويمين ستراسبوغ اغاني رولان . حج شارلمان مدرسة مون بيليه واطباء العرب ترجمة الكتب إلى الفرنساوية ، عصر لويس الرابع عشر . دار الماركيزة رامبويه . الاكاديمي الفرنساوية الادباء قورنيل ، راسين الخ .

صفحة ١٠٥

الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية

في آداب الافرنج

نسج أدباء الافرنج على منوال شعر اليونان والرومان ، ظهور الطريقة المدرسية الانقلاب الكبير ، ظهور فيكتور هوكو وتدوينه الطريقة الرومانية في مقدمة رواية كروميل . مؤسس الطريقة الرومانية وشيخها الاكبر وليم شكسبير . ظهور الطريقة الحقيقية والطبيعية .

صفحة ١١١

مؤلفات فيكتور هوكو

المطبوع منها في ستين مجلداً . ما نشره في حياة المؤلف وما نشر بعد وفاته . شركاء المؤلف في أعماله .

صفحة ١٧٥

نظم فيكتور هوكو : تعريفه الشعر . افانين الشعر واقسامه . دواوين الشعر الذي نظمه في الدور الأول من حياته . ديوان الشرقيات في نظر الأدباء . القصيدة الاندلسية . ديوان أوراق الخريف ووافق فيه المعري في شيء وخالفه في آخر . ديوان الاصوات الداخلية وقصيدة البقرة ومخالفته فيها للمعري . ديوان الأشعة والظلال وبيان وظيفة الشاعر . ديوان القصاص وهجاء نابوليون الثالث . ديوان التأملات ورثاء ابنته . ديوان سير الدهور وموافقته في كثير منه لما نظمه المعري . ما نظمه الشاعر في شيخوخته وهي القصائد الفلسفية .
صفحة ١٨٢

الدرام وهي الروايات التشخيصية المنظومة . تعريف فيكتور هوكو الدرام . رواياته الاثنتا عشرة .
صفحة ٢٥٠

نثر فيكتور هوكو : القصص وهي الرومان . قصة البؤساء . قصة نوتردام دوباري . قصة هان الاسلاندي وتعريفه في مقدمتها (نضج القريحة) . قصة الانسان الضاحك وما ورد فيها عن الطبيعة والحياة . التاريخ . الرحلة . ما ذكره في رحلة نهر الرين عن الضمير والكائنات . الادب والفلسفة . تعريف الانشاء . تعريف الواجب . تعريف الزواج . تبديل المسلك السياسي . تعريف الانقلاب .
صفحة ٢٦٨

الخاتمة

سبب شهرة فيكتور هوكو . المنتقد فيه على فيكتور هوكو . معتقد فيكتور هوكو . ثروة فيكتور هوكو .
صفحة ٢٢٧

مؤلفات جرجي زيدان

صاحب الهلال

البريد	الثمن	١ ـ مؤلفاته التاريخية
٤	٤٠	تاريخ مصر الحديث مزين بالرسوم جزآن (طبعة ثانية)
٢	٢٠	تاريخ الماسونية العام
٢٠	٣	تاريخ اليونان والرومان (مختصر)
١	٤	تاريخ انكلترا مزين بالرسوم
٥	٧٥	تاريخ التمدن الاسلامي ٥ أجزاء مزين بالرسوم
٢	٢٠	تاريخ العرب قبل الاسلام جزء أول
١٢٠	٨	التاريخ العام الجزء الأول
٥	٤٠	تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر مزين بالرسوم جزآن مجلدان (طبعة ثانية)

		٢ ـ مؤلفاته العلمية واللغوية وغيرها
	٨٠	الهلال ـ مجلة علمية تاريخية أدبية تصدر مرة في الشهر مزينة بالرسوم قيمة اشتراكها بالسنة للقطر المصري والسودان
	١٠٠	وقيمة اشتراكها بالسنة للخارج
٥	٦٠	سنو الهلال من السنة الأولى إلى الخامسة عشرة ثمن السنة
٥	٨٠	ومن السنة السادسة عشرة إلى الأخيرة ثمن السنة
١	١٠	الفلسفة اللغوية (طبعة ثانية)
٢٠	٥	تاريخ اللغة العربية
	٢٠	« آداب اللغة العربية الجزء الاول والثاني . ثمن الجزء .
٢٠	٤	انساب العرب القدماء .

البريد	الثمن	
٢	١٥	علم الفراسة الحديث مزين بالرسوم

٣ ـ سلسلة روايات تاريخ الاسلام

٣	٢٠	(١) فتاة غسان جزآن طبعة ثالثة
٢	١٠	(٢) ارمانوسة المصرية
٢	١٠	(٣) عذراء قريش طبعة ثالثة
٢	١٠	(٤) ١٧ رمضان طبعة ثانية
١٢٠	١٠	(٥) غادة كربلاء طبعة ثانية
١٢٠	١٠	(٦) الحجاج بن يوسف طبعة ثانية
١٢٠	١٠	(٧) فتح الاندلس طبعة ثانية
١٢٠	١٠	(٨) شارل وعبد الرحمن طبعة ثانية
١٢٠	١٠	(٩) ابومسلم الخراساني طبعة ثانية
١٢٠	١٠	(١٠) العباسة اخت الرشيد طبعة ثانية
١٢٠	١٠	(١١) الامين والمأمون
١٢٠	١٠	(١٢) عروس فرغانة
١٢٠	١٠	(١٣) احمد بن طولون
١٢٠	١٠	(١٤) عبد الرحمن الناصر
١٢٠	١٠	(١٥) الانقلاب العثماني

٤ ـ رواياته الاخرى التاريخية

٢	١٠	اسير المتمهدي	طبعة ثالثة
١٢٠	٨	استبداد المماليك	طبعة ثالثة
١٢٠	٨	المملوك الشارد	طبعة ثالثة
١٢٠	٦	جهاد المحبين أدبية غرامية	طبعة ثانية

V1

1nc/2

الأمانة العامة
للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

السعر ٤٠ ل.س